جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
نظرات على
انتصارات
العسكرية الوطنية المصرية

جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

نظرات على

انتصارات العسكرية الوطنية المصرية



الرئيس محمد حسني مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة ...

ليس هذا الكتاب عملا اكاديميا يتناول بالتمحيص العلمى الدقيق بدء تشكيل القوات المسلحة المصرية والتطورات العديدة التى لحقت بها والأدوار المتعلقة التى لعبتهــا او مئات المعارك التى خاضتها وفنون القتال المختلفة التى استخدمتها ، منذ أن استقرت على هذا الوادى أولى المجتمعات البشرية المنظمة التى وجب ، بالضرورة ، حمايتها بقوة السلاح ..

وهو ليس بالمؤلف التاريخى الذى يتناول بالسرد والتحليل المجموعة الكاملة للمعارك التى شاركت فيها الجيوش المصرية عبر التاريخ الطويل لهذه الأمة ، وساهمت فى صنع ذلك التاريخ وتغيير مســاره فى اتجــاه أو آخــر ..

وعلى ذلك فان هذا الكتاب لا يتوجه الى جمهور من المتخصصين ليقدم اضافة جديدة الى العلوم العسكرية او الى فنونها ، او الى علم التــاريخ بشكل عــام ..

هذا الموقف ، هو بالدرجة الأولى ، عملا اعلامى يستهدف ، بالتحديد، استعراض اللحظــات الكبرى لانتصارات العسكرية المصرية ، وابراز الدور الرائد لجيش مصر فى قلب وعلى راس حركتها الوطنية والقومية الرامية الى اقامة الوجود السياسى والفكرى والحضارى المصرى ، تحت حماية سلاحه الوطنى ، فى مواجهة الكيانات الأجنبية النازعة الى الهيمنة على ذلك الوجود وعلى دوائره الحيوية ..

هذا الكتاب هو احد أوجه اللقاء الضرورى بين رجال الفكر والسلاح، فى اطار تلك « العروة الوثقى » بين فصائل الحركة الوطنية المتطلعة الى بنــاء النهضة المصرية الجديدة ..

انه أحد الردود العلمية ــ التاريخية على تلك الحملة الشرسة التى ساقتها وقادتها دائما قوى الهيمنة الأجنبية ، وشاركت فى تنفيذها ، عمــدا او جهــالة ــ ويا للخزى ! ــ بعض الأقلام والأدوات المصرية او العربية ، ضد القوات المسلحة الوطنية ، فى محاولة للتقليل من شانها أو الانتقاص من دورها او الحد من التفاف الشعب من حولها او النيل من روحهــا المعنوية والقتالية ... فى محاولة أدهى وأخبث لكسر مصر ونهضتها ، ولواد دورها ورســالتها ...

سوف نلتقى معا « نظرات على انتصارات العسكرية الوطنية المصرية » منذ عصور الفراعنة العظام وحتى اليوم ، ليس من أجــل ازكاء أى روح « عدوانية شوفينية » لا مكان لها ، حقا ، فى وجدان او ثقافة الانســان المصرى المسالم والمتحضر .. ولكن من اجل ان نستمد من ذلك التاريخ القديم والمعاصر ، عبرة للحاضر والمستقبل : ان الحياة والحرية والتقدم والسلام، تظل جميعها وهما ساذجا ، سرابا خادعــا ، دون ذلك الدرع الواقى : الجيش الوطنى القوى ..

ولن يغيب عن مخيلتنا ، ونحن نطالع هذا الكتاب ، ان جيش مصر قد اتســم بمجموعة من الخصائص المتعددة التى اســبغت عليه شخصــية متميزة ، قد يختلف بهــا ، كثيرا أو قليلا ، عن سائر الجيوش الأخــرى فى المنطقة الواسعة التى نعيش فيهــا ..

فهو ، قبل كل شيء ، لم يكن خلال تاريخه الألفى الطويل ، قوة عدوان او احتلال دائم .. كان قوة تأمين وردع ودفاع .. وحتى فى عصور الامبراطورية ، القديمة او الحديثة ، حينما امتدت ذراع القوات المسلحة المصرية طويلا فيما وراء الحدود ، كان خروجها مستهدفا تأمين الوجود المصرى من اخطار عدوان قائم او وشيك ، ثم كانت عودتها سريعة الى الوادى ، حيث شاء المصرى دائما — ربما امتدادا لمعتقده الأولى — ان يعيش ، وفى ثراه يموت ..

ثم ان ذلك الجيش نابع من اعماق الشعب .. من جذوره الاكثر امتدادا فى الارض .. انه اساسا جيش الفلاحين .. وحتى لو جاءت قياداته، فى بعض المراحل التاريخية،من الأجانب او المتمصرين، من المماليك او الشركس او من غيرهم ، فان قوامه الأساسى ، قوته الحقيقية الضاربة ، كانت دائما وما تزال ، من فلاحى الارض .. وهو بهذه الصفة التكوينية لا يمكن ان يكون سوطا ضد الجماهير الواسعة .. وهو لم يكن كذلك بالفعل .. ظاهرة فريدة اذن تلك الحقيقة المتمثلة فى ان جيش مصر لم يرفع السلاح ابدا ضد شعب مصر .. على مر الزمان الطويل لحياة هذه الأمة .. !

ثم انه ذلك الجيش الذى انحاز فى العصر الحديث الى قضية الحرية ، قضية الديمقراطية السياسية .. اليس من الفريد والنادر ان تقف قيادة جيش من جيوش العالم الثالث ، جيش الفلاحين المصرى بقيادة احمد عرابى، فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، ضد الاستبداد الخديوى العميل لقوى الهيمنة الاجنبية ، وتعبر بقوة السلاح عن مطالب الأمة العادلة وعلى راسها اسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس لنواب الشعب ؟! واليس من الطبيعى عندئذ ان يكون اول مرسوم يصدره الخديوى الخائن ، فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ — اى بعد اربعة ايام فقط من سقوط العاصمة فى ايدى قوات الاحتلال البريطانى هو ، بالتحديد ، « الغاء » الجيش المصرى(*) .. ؟!

لقد انقسمت القوى السياسية المصرية منذ تلك الأحداث (الثورة العرابية ثم الاحتلال البريطانى) ورغم كل المسميات ، انقساما حادا الى حزبين حقيقيين متناقضين : حزب الداخل فى مواجهة حزب الخارج .. حزب مصر ضد حزب عملاء وحلفاء قوى السيطرة الأجنبية .. حزب الوطنية والديمقراطية فى مواجهة حزب الهيمنة الخارجية والاستبداد .. وفى قلب الحزب الأول وعلى رأس فصائله وقف دائما .. جيش مصر ..

تلك مجرد لمحات عاجلة ، اوردناها فى تلك المقدمة السريعة ، لتلقى بعض الأضواء او لتشكل بعض الخلفيات لتلك القراءة التى نقترحها لتاريخ المعارك الوطنية والدور القومى الرائد للعسكرية المصرية ..

ومرة اخرى نؤكد ... هذا الكتاب لا يستهدف جمهورا محددا من المتخصصين .. انه موجه الى ذلك القطاع الأوسع والأشمل من المثقفين الوطنيين وابناء القوات المسلحة والشباب وكل الرجال والنساء الذين يحملون فى قلوبهم مشروع رفعة مصر وتشييد صرح تقدمها .. والذين يعملون من اجل تأمين وجودها ونفوذها من خلال ذلك التوحيد والانصهار الواجب.. بين الفكر والعمل والسلاح ..

اكتوبر ١٩٨٤

الدكتور / ممدوح البلتاجى

رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

(*) انظر عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى — الطبعة الثانية — القاهرة — ١٩٤٨ — ص ٤٦٢ .

إِذَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكم بمصر
فَاتَّخِذُوا بِهَا جُنْداً كثيفاً
فَإِنَّ هَذا الجُند خَيْرُ
أَجْنَاد الأَرْضِ .

«حديث شريف»

مدخل

مصر .. التاريخ والحضارة ..

مصر ... التاريخ والحضارة (*)

العوامل الطبيعية التى تقوم عليها الحضارة :

هناك عوامل طبيعية تؤثر على أهمية الدولة ومكانتها بين بلاد العالم وتساعدها على خلق مظاهر الحضارة وتنميتها، ولكن يجب ألا يغيب عنا أن العوامل البشرية وفى مقدمتها كفاح الإنسان وقدرته على استغلال العوامل الطبيعية وتطويعها لصالحه والتغلب على أضرارها هى الأساس فى نشأة الحضارات وازدهارها .

والبلد العربى هو الذى يفرض نفسه حينا بعد حين ، وجيلا بعد جيل، ويعمل على مسايرة ركب الزمان والتقدم والاستفادة بكل ما لديه من مقومات الحضارة وتحريرها بما يتناسب مع ظروف ومتطلبات العالم حتى لو غشيته فترات من الاضمحلال فسرعان ما ينفض عن نفسه ظلمات التخلف ويعود أقوى مما كان ويخلق على العالم الجديد من مظاهر الحضارة والمدنية .

أهم العوامل الطبيعية التى ساعدت على قيام الحضارة فى مصر :

اعتدال المناخ :

تقع مصر بكامل مساحتها فى المنطقة المعتدلة الشمالية من سطح الكرة الأرضية مما جعلها تتمتع بمناخ معتدل على مدار السنة وقدر محدود من الأمطار فى فصل الشتاء وشمس مشرقة طول العام ورياح خفيفة تهب أحياناً من اتجاهات مختلفة فى كل فصل من فصول السنة . وهكذا كان اعتدال المناخ من أهم الأسباب التى ساعدت على استيطان الإنسان لهذه المنطقة منذ الأزل ومكنته من خلق مظاهر الحضارة . . وتطويرها على مر الزمن .

نهر النيل :

« مصر هبة النيل » ذلك لأن هذا النهر أمد مصر بقدر وافر من المياه العذبة التى تقوم عليها حياة الإنسان والحيوان والنبات كما جلب لها كميات كبيرة من الطمى فزاد من خصوبة أرضها وحقق لمصر أول مظاهر الحياة والحضارة وجمع أهلها على ضفافه ووحدهم وعلمهم التعاون للاستفادة بخير أرضهم وزراعتها وقادهم إلى الكثير من العلوم حيث ارتبطت الزراعة والرى بعلوم الحساب والمساحة والهندسة وقامت بفضله حرف جديدة مثل البناء وصناعة السفن والآلات والأدوات وغيرها .

الموقع الجغرافى :

مصر قلب العالم القديم والحديث . . فهى تتوسط قاراته الثلاث القديمة : افريقيا واوروبا وآسيا ، وتتحكم فى أهم البحار . . البحر المتوسط والبحر الأحمر فهى حلقة الاتصال بين الأقطار فى العالم الذى لا غنى له عن المرور

(*) وزارة الدفاع — هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكرى » — المستوى الأول .

بها وقـد أدى ذلك إلى انتفاعها اقتصادياً ، وحضارياً ، لكثرة احتكاك شعبها بشعوب عديدة ومخالطة لحضارات مختلفة مما ساعده على تنمية مظاهر الحضارة فنقل العالم كله عن مصر حضارتها على مر الزمن .

وكان لموقع مصر الجغرافى ووفرة خيراتها أثر ضار بها أيضاً حيث طمع فيها الطامعون فتعرضت لكثير من الهجرات والغزوات ولو أن هذا الضرر كان عاملا هاماً من عوامل تقدم جيشها وساعدها على تنمية أهم مظاهر الحضارة ، وهو التفوق الحربى . كما أن طبيعة موقع مصر من الناحية الطبوغرافية ساهم كثيراً فى حمايتها من وجهة النظر العسكرية فالبحار تحيط بها من جهة الشمال والشرق كما أن المرتفعات تحقق لها حماية طبيعية من الجانب الشرقى ، والصحراء الشاسعة تعتبر مانعاً له فاعليته من جهة الغرب والجنوب على السواء .

الثروة المعدنية والموارد المحلية :

حفلت تربة مصر بكثير من المعادن والأحجار الكريمة والصخور النادرة وقديماً عرف الإنسان المصرى كيف يستعين بالصخور والأحجار فى تنمية مظاهر الحضارة من تقدم فى البناء وفنون النحت وصناعة الأوانى هذا بالإضافة لما حققه من حضارة فى مجال الزراعة ، ثم قام باستغلال خيرات الأرض من معادن أخرى على مر الزمان وعرف النحاس والذهب والحديد وقام بتشكيل تلك المعادن وخلق صناعات جديدة .

وهكذا كانت تلك الموارد المحلية عاملا هاماً من عوامل قيام الحضارة فى مصر .

وكان من أثر هذه العوامل أن قامت على أرض مصر منذ الأزل أول حضارة عرفها التاريخ ، وتمكن المصريون مع مرور الزمن من خلق العديد من مظاهر الحضارة وحققوا أكبر فائدة ممكنة من العوامل الطبيعية التى وهبها الله لمصر ، ونقلوا حضارات أخرى من بلاد مجاورة وأفادوا مما وصلهم من معتقدات وقاموا بتطويرها وتنميتها لخير العالم أجمع .

مظاهر الحضارة :

حتى يتبين لنا كيف كانت مصر أصل الحضارة ، وكيف استطاع المصريون أن يستفيدوا من العوامل الطبيعية لقيام الحضارة يلزم الإلمام بعناصر الحضارة عموماً قديماً وحديثاً .

فالحضارة هى التى تميز الإنسان بعقله الراقى عن غيره من سائر المخلوقات ولقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] ومن البديهى أن يرشده عقله إلى الاستفادة بماديات الطبيعة وتحريرها لما يصلح له ويساعده على الحياة الكريمة الهانئة .

ومن الصعب أن نحدد عناصر الحضارة والمدنية وإنما يمكن أن نسوق أهم مظاهرها ومظاهر تطورها .

الوحـدة :

لا شك أن الإنسان بعقله يدرك أنه وحده لا يستطيع تدبير كل احتياجاته ومن هنا يلزمه الاستعانة بغيره سواء

---

(١) الآية ٧٠ سورة الإسراء .

فى ذلك الأفراد أو الجماعات أو الدول ولذلك نرى العالم – بعد أن وصل إلى تلك الدرجة المرموقة من الحضارة والمدنية – يجد الاتحاد والتكتلات ضرورة ملحة فيسعى إلى تحقيقها بالسلم تارة وبالحرب تارة أخرى .

الزراعة :

تعتبر الزراعة من أهم مظاهر الحضارة وهى فى نفس الوقت ضرورة من ضرورات الحياة ،وقديماً سخر الإنسان الطبيعة ليمكنه الحصول على ما يعتمد عليه فى معيشته ، وحديثاً يستعين الإنسان بالعلم مع موارد الطبيعة فيطور الزراعة بما يحقق له إنتاجاً أفضل وأوفر فوصل العلم إلى الآلات الحديثة ،وذلك لاستصلاح الأرض بالأساليب المستحدثة لزيادة الإنتاج مثل التوسع الرأسى فى الزراعة .

العمارة والبناء :

كان على الإنسان أن يجد مكاناً يأويه غير الكهوف والمغارات فأرشده عقله إلى تعميم الأكواخ والبيوت وتطور فكره حتى بنيت العمائر والقصور واستعان بالفن فأمكنه تشييد أعظم البنايات وأروعها . وما كان اهتمام المصريين القدماء ليوجه إلى الأهرامات والمعابد بصفة أساسية إلا لأنهم كانوا يدركون أن الحياة الأخرى هى الأكثر دواما فاتجهوا إلى تلك القبور ظناً منهم أنهم سيعيشون فيها حياتهم الأخرى .

التجارة :

التجارة مظهر من مظاهر الحضارة وهو تطور طبيعى للتعاون والوحدة ، يتم به للانسان تحقيق متطلبات الحياة حتى لا يمكنه القيام بها بمفرده ويؤثر الموقع الجغرافى فى التجارة تأثيراً كبيراً فهو يساعدعلى انتعاشها ، كما أنها عامل هام من عوامل تقدم باقى مظاهر الحضارة .

الصناعة :

كانت الأحجار هى المادة الأولية التى استعان بها الإنسان على صنع ما يلزمه من أدوات أو أسلحة ثم عرف الفخار من الطين ، ووصل بعد ذلك إلى المعادن بأنواعها وارتفعت الصناعة ، ومع مزيد من العلم اخترعت الآلات والالكترونيات ووصل العالم فى عهدنا هذا إلى تحقيق ما نحن فيه من رفاهية نتيجة لتقدم الصناعة .

العلوم والفنون :

هو تطور الفكر الإنسانى لاستغلال الموارد وهو بلا شك من أهم مظاهر الحضارة وبالعلم أمكن تحقيق الكثير من مظاهر الحضارة وبصورة أكثر فاعلية مما دفع بالعالم إلى مزيد من الرفاهية وارتباط العلم بالعقل هوالذى وجه الإنسان دون غيره من المخلوقات لاستغلال الطبيعة وتسخيرها مع بقية المخلوقات لصالحه وحقق بذلك السيادة على وجه الأرض ، وبالعلم تمكن الإنسان من الإحاطة بكل ما سخره الله من موارد وأصبح هناك الكثيرمن العلوم كل يبحث فى جانب من جوانب الحياة فعرف الإنسان ، الفلك ، والحساب ، والهندسة ، والطب ، والاقتصاد وغير ذلك من العلوم .

وبالفن أمكن تطوير كثير من مظاهر الحضارة مثل العمارة والبناء ، والصناعة فكانت الزخرفة ، النحت، الكتابة ، الرسم ، المصنوعات . والمصنوعات من شتى المعادن .

ولذلك تعتبر العلوم والفنون من أهم العوامل البشرية لقيام الحضارة وأهم مظاهر تقدمها على الإطلاق .

الآداب والحياة الاجتماعية :

إن من أهم ما يميز الإنسان على غيره من الكائنات الأخرى هو قدرته على التعايش وتنظيم العلاقة بين بنى جنسه بصورة راقية ، تلك هى الآداب والحياة الاجتماعية ، ولذلك كانت عاملا هاماً من عوامل قيام الحضارة وهى التى دفعت الإنسان إلى تطوير المظاهر الحضارية وساعدت على تنظيم معتقداته الدينية .

تنظيم الإدارة والحكم :

هو مظهر من مظاهر الحضارة أملته ضرورة الوحدة فمن الطبيعى أن يكون هناك نظام لتحديد التعامل بين مجموعة من الأفراد أو الجماعات أو الأقاليم بما يصلح معه أمر حياتهم ويحافظ على مظاهر الحضارة الأخرى ويعمل على تطورها وارتقائها ويحقق للجماعة الاستفادة بمواردها وإمكانياتها ويمنحها الأمن والسلام فى داخلها أو من خارجها . ولذا فاننا نجد الدول المتحضرة تحرص على جعل نظم الإدارة فيها على درجة كبيرة من الدقة حتى يمكن توفير متطلبات الحياة وإقرار الأمن الداخلى وتنظيم اقتصادها وحماية حدودها .

الاقتصاد :

هو مظهر حديث من مظاهر الحضارة . أمكن به تنظيم الاستفادة من باقى العناصر الأخرى مثل الزراعة ، والصناعة ، والتجارة وغيرها وتحقيق متطلبات الحياة للدولة والعمل على تنمية مواردها ، وتطوير إمكانياتها وحمايتها وتحقيق الاستقرار بها فى الداخل والخارج ، ويعتبر تنظيم الاقتصاد فى زمننا هذا من أهم مقاييس حضارة الدول .

الجيش وفنون القتال :

بالرغم من أن القتال فى حد ذاته ليس مظهراً حضارياً ، فالإنسان منذ بدء الخليقة قتل أخاه الانسان كما أن كل الحيوانات تقتتل ، إلا أن وجود الجيش وتقدم وسائل القتال وفنونه يعتبر ضرورة حتمية لازدهار الحضارة وحماية تقدمها ومن الطبيعى أن يسعى الإنسان بكل الطرق لحصول على الخير وعلى رأس هذه الطرق طريق القوة . فكان لزاماً على الدول المتحضرة أن تعمل على حماية مواردها ومظاهر الحضارة فيها بتقوية جيشها ورفع قدراته ، وأن يكون التطور فى الجيش وفنون القتال متمشياً مع التطور فى باقى مظاهر الحضارة ، ولهذا يعتبر وجود الجيش والتقدم الحربى مظهراً هاماً من مظاهر المدنية والحضارة .

المعتقدات الدينية :

ما من شك فى أن أصل العقائد الدينية لدى الإنسان بوحى من الله سبحانه وتعالى ،فآدم أبو البشر لا يغيب عنه الخالق ووحدانيته ، كما أرسل الله رسلا وأنبياء إلى أمم وأجيال لا حصر لها ، ولكن كثيراً من الناس أدخلوا الجديد

فى هذه الرسالات واعتقدوا فى معتقدات أخرى من نسج خيالهم وأفكارهم ، وتطورت هذه العقائد واختلفت مظاهر الاهتمام بها وكان ذلك فى حد ذاته مظهراً من مظاهر الحضارة أوضح كيف قام الإنسان بالاستجابة للعقيدة الدينية والانتفاع بها فى تطوير العناصر الأخرى وخاصة فى تنظيم الحياة الاجتماعية وآداب السلوك ويعتبر ارتقاء العقيدة الدينية والاستجابة لها مظهراً هاماً من مظاهر الحضارة وسبباً قوياً من أسباب تقدمها ولا يغيب عنا أن كثيراً من الدول فى عصرنا هذا يرجع الفضل فى تقدمها حضارياً إلى تمسكها بالقيم والأخلاقيات التى تحض عليها الأديان وأن أى تهاون فى أى منها يعتبر نقيصة حقيقية وعلامة بارزة من علامات التخلف تدمغها بالتأخر أو الحيوانية . وعلى العكس فان معظم الدول المتخلفة حضارياً نجدها بعيدة عن جوهر الدين والحفاظ على أساسياته وإن بدا لها أنها متمسكة بعقيدتها شكلا لا فعلا .

وبعد أن عرفنا مظاهر الحضارة فإنه يمكننا أن نتتبع تاريخ مصر القديم والحديث لنقف على الأهمية التاريخية لمصر قديماً وحديثاً .

الباب الأول

الجيش المصرى الفرعـونى

الفصل الأول

تطور الجيش المصرى الفرعونى (*)

كان لطبيعة وادى النيل الجغرافية ، المحفوفة بالصحراء الشاسعة على الجانبين أثر كبير فى أن تكون نشأة الحضارة نشأة مصرية خالصة ، قامت على سواعد أبناء وادى النيل وحدهم . وكنتيجة طبيعية لتلك الطبيعة التى جعلت مصر شبه منعزلة عن جيرانها ، حدث نمو وتطور المدنية المصرية دون أن تتعرض لأى نكسات خارجية نتيجة لإغارة جيرانها . وقد أدى هذا كله إلى أن أصبحت سيناء والصحراء الغربية وبلاد النوبة ، فى عصور ما قبل الأسرات المصرية الأولى ، سداً منيعاً لكل غارة . كما أن سواحلها الشمالية – فى هذا الزمان – كانت آمنة ، حيث لم يكن لها أعداء لديهم أساطيل فى ذاك الوقت . . كل هذا أدى إلى شعور بالأمن والاطمئنان لدى المصرى القديم ، ساكن وادى النيل ، وبالتالى لم يبرز الاهتمام بتواجد جيش كبير فى تلك الفترة .

الحاجة إلى الجيش :

وما أن دخلت مصر معارك الوحدة الوطنية لتوحيد المقاطعات المصرية المختلفة منذ حوالى ثمانية آلاف سنة ظهرت الحاجة إلى توجيه الاهتمام بايجاد تنظيم عسكرى لكل مقاطعة ، تطور بعد ذلك إلى إيجاد جيش لكل مملكة عند توحيد المقاطعات المصرية فى مملكة الوجه البحرى ومملكة الوجه القبلى ، وقد استمر الحال على ذلك حتى بعد توحيد مصر نهائياً على يد الملك « مينا » حوالى عام ٣٤٢٥ قبل الميلاد مكوناً الأسرة الفرعونية الأولى . وكانت مدينة « منف » (ميت رهينة مركز البدرشين الحالية) مقراً لجيش الدلتا . أما مدينة « طيبة » (الأقصر الحالية) فكانت مقراً لجيش الصعيد . وكل جيش كان يتكون من الداخل من فرق تمثل كل فرقة مقاطعة (محافظة) من المقاطعات .

أول جيش فى التاريخ :

عندما تعرضت مصر ، لأول مرة ، لإغارات من قبل البدو على حدودها فى بداية الأسرة الثالثة فى حوالى عام ٢٦٨٦ ق . م سارع فرعون مصر فى هذا الوقت « زوسر » بوضع اللبنات الأولى فى بناء جيش مصرى ثابت ، ويمكن أن نعتبره أول جيش ثابت فى تاريخ العالم . وكان الفرعون نفسه يتولى قيادة هذا الجيش .

وفى العصر الفرعونى ، كان الجيش مقسما إلى عدد من الفيالق ، فى كل فيلق عدد من الفرق ، ويسمى قائد الفيلق « أمرا مشع » وكانت الفرقة تسمى « عبرو » وتنقسم إلى عدد من السرايا ، وقائد الفرقة يسمى « خرب » .

وتضم السرية حوالى ٢٠٠ فرد ، وتنقسم إلى عدد من الفصائل كل فصيلة تضم ٥٠ فرداً ويطلق على قائد السرية « تاى سريت » ويسمى الجندى « نفر » أى الشاب المتباهى .

(*) وزارة الدفاع – هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكرى » – المستوى الأول .

كما كان لمصر القديمة أسطول يتكون من عدد كبير من السفن يصل طول بعضها إلى حوالى خمسين متراً وتسمى : « دبت عات » أى السفينة العظيمة ، وقد بلغ عدد سفن البعثات التى أرسلها الفرعون « زوسر » إلى لبنان لإحضار خشب الأرز حوالى أربعين سفينة فى البعثة الواحدة وكان المشرف على الأسطول يسمى « مدب دنت » أى بانى السفن وكان جميع أفراد الأسطول مستديمين وليسوا مجندين .

وكان من الضرورى لإدارة الجيش إنشاء مصلحة خاصة تسمى « بيت الأسلحة » ويتبعها أقسام التموين والتسليح وبناء سفن الأسطول والمكاتبات العسكرية .

ولكى يتم توفير الأمن للبلاد كان لزاماً أن يكون هناك دفاع عن الحدود المصرية ضد إغارات البدو ولهذا الغرض تم تقسيم حدود مصر إلى مناطق أطلق عليها إسم « أبواب المملكة » يحكم كل منطقة منها موظف ويحميها حصن به حامية ثابتة .

تطور الجيش الفرعونى (٢١٨١ — ٢٠٤٠ ق . م) « الدولة القديمة » :

أدت القلاقل الداخلية والصراعات بين حكام كل اقليم إلى اعتماد كل حاكم على جيشه الخاص لحماية إقليمه أو لفرض سيطرته على إقليم آخر ، وقد استعان بعض الحكام ببعض الجنود المرتزقة من النوبيين الساميين والليبيين وذلك لأول مرة فى تاريخ مصر .

تطور الجيش الفرعونى (٢٠٤٠ — ١٧٨٦ ق . م) « الدولة الوسطى » :

ظل لكل حاكم إقليم جيشه أو فرقته الخاصة التى تعمل تحت قيادته مباشرة أو تحت قيادة أكبر أبنائه ، وكان هؤلاء الحكام ينضمون بجيوشهم الخاصة إلى الفرعون فى غزواته . أما الفرعون نفسه فكانت له فرقته الخاصة التى أطلق على جنودها « أتباع الحاكم » ، وكانت تتألف من مجموعة من الضباط الأكفاء .

ثم تطور الجيش فى هذا العصر من ناحية التدريب والتسليح فأصبح تحت إشراف ضباط متخصصين متفرغين كما أصبح للجيش مظهر واحد فى الزى والتسليح وظهر الاهتمام الواضح بالتدريب العسكرى ، كما أعطى اهتمام خاص باللياقة البدنية .

مكونات الجيش :

اشتمل الجيش على حملة الرماح الذين كانوا يسيرون فى أقسام ، فى كل قسم عشرة صفوف ، فى كل صف خمسة جنود ، وكان لهم زى خاص ، مسلحين برمح وخنجر ودرع .

ثم الرماة الذين كانوا يرتدون زياً أبسط من زى حملة الرماح ، مسلحين بقوس مع مجموعة من السهام فى جراب من جلد .

مهام الجيش :

كانت للجيش مهام سلمية وأخرى حربية ، تمثلت المهام السلمية فى مصاحبة البعوث التى يرسلها الفرعون إلى شبه جزيرة سيناء لاستحضار المعادن أو الحجارة المطلوبة للمعابد ، ثم مصاحبة البعوث البحرية التجارية إلى شواطىء

البحر الأحمر وفلسطين ولبنان لغرض التجارة . كما كان للجيش مهام حربية تمثلت فى حملات الغزو والفتح وخاصة فى منطقة النوبة «جنوب مصر» .

تطور الجيش فى (١٥٥٢ – ١٠٨٥ ق . م) «الدولة الحديثة» :

ويعتبر هذا العصر عصر تطور شامل فى طبيعة الجيش المصرى ومكوناته ونظرياته العسكرية ، فقد اعتبر بحق عصر الإمبراطوريات المصرية العظيمة ، وعصر البطولات والأمجاد العسكرية . . وكان لهذا التطور أسباب كثيرة أهمها : ضياع الشعور بالأمن والأمان الذى تمتع به المصريون خلال عصورهم السابقة نتيجة لاحتلال الهكسوس لمصر ، وهو أول احتلال أجنبى فى التاريخ المصرى . مما جعل المصريين يعتنقون مبادىء جديدة تحتم عليهم فرض السلام بالقوة فى المنطقة هذا بالإضافة إلى تولد روح عسكرية جديدة فى نفوس المصريين نتيجة للصراع الطويل بين المصريين والغزاة «الهكسوس» تلك الروح التى نشأ عنها جيش مصرى من أعرق وأعظم الجيوش فى تاريخ العالم القديم .

تطور تنظيم الجيش المصرى :

اختلف تنظيم الجيش المصرى فى هذا العصر عن العصور السابقة ، حيث أصبح يتكون من المشاة والعجلات الحربية .

وهذا الجيش كان جيشاً نظامياً مستديماً يتكون من جنود محترفين مدربين ومؤهلين لخوض المعارك الكبرى ، وظل معظم الفترة التاريخية للأسرة ، ثم دخل فى تكوينه قوات مرتزقة من الساميين والآسيويين وعناصر ليبية ، وعناصر أخرى من بعض شعوب البحر الأبيض المتوسط (مثل أهالى جزيرة كريت) وذلك خلال حكم الأسرة ١٩ ، ٢٠ .

وكان أهم تطور حدث فى الجيش هو استخدام العجلات الحربية التى يجرها الحصان . وكان سلاحاً هجومياً ، يتميز بسرعته فى مفاجأة العدو ، وإلقاء الرعب والاضطراب بين صفوفه . وقد أخذ المصريون هذا السلاح عن الهكسوس ، واهتم المصريون بتربية الخيول التى لم تكن منتشرة فى مصر ، ثم قاموا بتصميم طرز مختلفة من العجلات الحربية . وبالإضافة إلى سلاح العجلات الحربية الهجومية نجحوا فى إدخال عدد كبير من العربات لنقل الإمدادات التى كانت تجرها الثيران والحمير .

وفى ذلك الوقت ، كانت العجلة الحربية التقليدية تتكون من الجسم المحمول على عجلتين وعمود ، ويجرها زوج من الخيول التى كانت تلبس دروعاً محشوة لحمايتها فى بعض الأحيان ، ولتحقيق السرعة المطلوبة ، والقوة لكى تتحمل عنف المعارك وضراوتها ، كانت العجلة تصنع من أنواع الأخشاب المتينة الجافة وتكسى بالجلد ، كما كان يدخل فى صنعها أنواع مختلفة من المعادن . وكان لكل عجلة رجلان : سائق ماهر يتحكم فى قيادة الخيل ، ومقاتل كفء مسلح بالحربة والقوس والسهام .

كما زاد تسليح حملة الرماح ، والرماة ؛ فاستخدموا أسلحة جديدة مثل الهراوات والسيوف القصيرة والأقواس المركبة بعيدة المدى . . كما تم تزويدهم (بقميص الحرب) ، وهو قميص من الجلد أو مغطى بقشور البرونز لحماية الجندى من السهام والرماح .

إدارة الجيش :

ولتنظيم شئون الجيش تم تشكيل عدد من الإدارات أهمها « إدارة الحدود » وهى مسئولة عن الحدود المصرية ، وكانت تضم ثلاثة أقسام : قسم الحدود الشرقية ، وكان مركزه حصن « سيلة » وهى تل « أبو حيفة » الحالية » ، ويتحكم فى خطوط الاقتراب المؤدية إلى فلسطين ويسيطر على التحركات فى منطقة الحدود المصرية . . وقسم الحدود الغربية ، ومدير هذا القسم كان يلقب باسم « حارس باب الغرب » ولم يكن يتبعه حصون بل كان يقوم بالحراسة « شرطة الصحراء » ، وقسم الحدود الجنوبية .

واستجدت فى ذلك العصر أنواع الوظائف العسكرية فكان هناك « كاتب الجند » فى كل وحدة عسكرية لتدويس الأوامر ، ومدير الكتبة الحربيين لتدوين التقارير عن المعارك أثناء الحملات الحربية ، ومدير مصبات البحر الذى يشرف على السواحل .

وأغلب الظن أنه لم تكن هناك رواتب ثابتة للجنود ، ولكن كان يصرف لهم الطعام أثناء الحملة ، علاوة على نصيبهم من غنائم الحرب ، أما الضباط فكانوا يكافأون بأراض معفاة من الضرائب مع حقهم فى استمرار استغلالهم لتلك الأراضى طالما كانوا صالحين للخدمة العسكرية ، وفى حالة وفاة صاحب الأرض يتم نقلها إلى الإبن شريطة أن يحمل السلاح مكان والده . وفى بعض الأحيان كان يوهب للضباط بعض أسرى الحرب لاستخدامهم فى منازلهم أو فى زراعة أراضيهم .

جيش من أجل مصر :

كان الاعتقاد السائد قديماً أن الجيش هو جيش الفرعون ، ومعنى هذا أن الجيش كان أداة تابعة للحاكم ، يحقق بها أغراضه بصفة دائمة ، إلا أننا نجد — اعتباراً من الأسرة ١٨ — أن الجيش المصرى لا يذكر فى النصوص المكتوبة باسم « جيش فرعون » أو « جيش الآلهة » أو غير ذلك من الأسماء التى توحى بانحصار السلطة فى قيادة ذات طابع إلهى . . ولكن أصبح الجيش المصرى يذكر باسم « جيشنا » ومعنى ذلك أن جيش مصر صار جيشاً للشعب كله ، وأن الحرب التى يقودها هذا الجيش ليست حرباً تخص فرعون وحده ولكنها حرب تهم كل مواطن فى مصر .

وفى أرجاء العالم المعروف حينذاك ، فى الشام والعراق والنوبة واليمن والصومال وفى ليبيا ، ارتفعت أعلام « جيشنا » أعظم الجيوش وأقواها ، ليسطر ملاحم بطولية ، يرددها الأبناء والأحفاد على مر العصور ، يرددون فيها عظمة جيشهم الذى أخذ ينشر السلام والأمن فى بقاع العالم وقتئذ ، ويبنى ويرفع أول إمبراطورية فى تاريخ البشرية كلها .

الفصل الثانى

احمس الأول وطرد الهكسوس من مصر

١ ــ أول احتلال أجنبي فى تاريخ مصر :

ساد مصر عهد رخاء وعمران وانتعاش اقتصادى ، فى عصر الدولة الوسطى فى الفترة من حوالى (٢٠٦١ ــ إلى ــ ١٧٨٥ ق . م) وفى هذه الفترة عادت البلاد موحدة تحت سلطة مركزية ، واستتب الأمن والنظام ، وارتقت الفنون والآداب والعمارة ، ولكن بنهاية هذا العهد ، ضعفت سلطة الفرعون ، وسرى الضعف فى أوصال الحكومة المركزية ؛ مما ساعد على بروز سلطة حكام الأقاليم ، الذين اشتد النضال فيما بينهم من جهة ، وفيما بينهم وبين الفرعون من جهة أخرى ، وكذلك تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش إلى الحكم ؛ فحلت الفوضى محل النظام ، وكثرت المؤامرات ، واندلعت الثورات فى أرجاء مصر ، وتسرب الفساد إلى كل مرافق البلاد . . وهكذا سقطت الدولة الوسطى ، وبدأ عصر اضمحلال وتأخر ، يعتبر من أظلم عصور التاريخ المصرى القديم ، تولى الحكم فيه ملوك ضعفاء مصريون من الأسرتين ١٣ ، ١٤ .

وفى هذا الجو المضطرب المشحون بالفوضى ، بدأت بعض الهجرات العنصرية الجديدة تفد إلى مناطق غرب آسيا ، مما تسبب عنه كثير من المتاعب السياسية ، والقلاقل الاجتماعية لسكان تلك المناطق ، فى سوريا وفلسطين ، على وجه الخصوص . وقد أدى ذلك إلى أن اندفعت بعض الجماعات الآسيوية فى هجرات متوالية إلى مصر ، وتسللت إلى المناطق شرق الدلتا ، ونظراً لضعف الحكومة المركزية فى مصر وقتئذ ، فقد تمكنت تلك الجماعات من الاستقرار فى بلدة « أواريس » جنوب صان الحجر الحالية شرق الدلتا ، ثم ما لبث هؤلاء المهاجرون الأجانب أن ارتقوا السلطة ولأول مرة فى تاريخ مصر ،تصبح خاضعة لحكم أجنبى من جانب هؤلاء الغزاة الذين كونوا الأسرتين الحاكمتين ١٥ ، ١٦ .

الهكسوس يحكمون مصر :

ظل الهكسوس يحكمون مصر مدة قرن ونصف من الزمان على وجه التقريب ، تراوحت خلالها معاملة الهكسوس للمصريين بين القسوة والشدة وهدم المعابد المصرية فى أوائل حكمهم وبين محاولتهم التشبه بالمصريين وارتداء ملابسهم ، واكتساب العادات والتقاليد المصرية ، وكتابة أسمائهم باللغة الهيروغليفية ، وذلك فى أواخر أيامهم .

كانت هناك محاولات من جانب المصريين لمقاومة هؤلاء الغزاة ولكنها كانت عديمة الجدوى نتيجة للفوضى والضعف السائدين فى البلاد ؛ علاوة على أن هؤلاء الغزاة كانوا يستخدمون أسلحة جديدة لم يألفها المصريون من قبل ، مثل الحصان والعجلات الحربية والسيوف المصقولة من البرونز والأقواس المزدوجة ، والحراب ذات الأطراف العريضة .

ومع ذلك ، فقد كرههم المصريون كرها ظلت مرارته فى نفوسهم طوال فترة التاريخ المصرى القديم كله ، حتى أنهم بعد أن نجحوا فى إجلائهم عن مصر ، قاموا بهدم معابدهم والقضاء على أى أثر يدل عليهم فى أى مكان بمصر ، كما أطلقوا أسماء كثيرة تدل على مبلغ كراهيتهم لهم .

٢ - حرب التحرير المصرية الأولى :

وقع عبء تحرير مصر من هذا الاحتلال الأجنبى على عاتق أسرة وطنية مصرية هى الأسرة ١٧ التى حكمت منطقة طيبة (الأقصر الحالية) ، وفقاً لسلطات محدودة مستمدة من الهكسوس ، وقد بذل آخر ملوك هذه الأسرة الثلاثة جهودا كبيرة حتى تمكنوا من استكمال تحرير مصر وطرد المستعمر الغاصب . وتجلت آيات البطولة والشجاعة التى أبداها أبناء مصر فى أول حرب تحرير فى تاريخ البشرية منذ حوالى ٣٥٠٠ عام ، وشاركت بعض الملكات المصريات العظيمات فى تلك الحرب .

بدأت عملية التحرير على يد الملك « سقنن رع الكبير » ، تشجعه زوجته الملكة (تتى شرى) ثم استمرت فى عهد ابنه « سقنن رع الابن » وزوجته الملكة « أياح حتب » والتى تعتبر من أعظم ملكات مصر فى عمرها القديم كله ، فقد وقفت بجانب زوجها فى معاركه الطاحنة ضد الهكسوس حتى سقط كأول شهيد فى سبيل تحرير وطنه ، ثم حمل لواء حرب الاستقلال بعده ابنه الأكبر « كاموزة » الذى راح يقاتل الهكسوس بتشجيع من أمه الملكة « أياح حتب » وقد نقش على أوراق البردى وجدران المعابد يقول : « أريد أن أعرف معنى قوتى هذه ؛ حتى يكون هناك حاكم فى الشمال (يقصد حاكم الهكسوس) وآخر فى الجنوب . إننى سأصارعه وأبقر بطنه . إن رغبتى هى أن أخلص مصر وأضرب الآسيويين ، أبحرت شمالا فى عزم وقوة لأغلب الآسيويين ، وكان جيشى القوى أمامى كلفحة اللهب .

وقد تمكن « كاموزة » من تحرير بعض مناطق الصعيد الخاضعة لحكم الهكسوس ، كما وصل إلى عاصمة الهكسوس « أواريس » ولكنه استشهد قبل أن يستولى عليها .

ولكن مصر استكملت تحرير أرضها على يد « أحمس الأول » وهو الأخ الأصغر لـ « كاموزة » ، وابن كل من الملك « سقنن رع الابن » والملكة « أياح حتب » ، التى فقدت زوجها ثم ابنها الأكبر فى حرب التحرير .

ويعتبر « أحمس الأول » بطل استقلال مصر فى عهدها القديم بلا منازع فهو الذى طارد الهكسوس من وادى النيل ، وهوملك من أعظم وأشهر ملوك التاريخ المصرى كله . وعلى الرغم من أنه ينتسب إلى الأسرة ١٧ الحاكمة ، إلا أن المؤرخين وضعوه على رأس الأسرة الحاكمة ١٨ (الثامنة عشرة) ، وبدأوا بها عصر الدولة الحديثة فى مصر القديمة ، تلك الدولة التى سادت أعظم امبراطوريات العالم القديم كله .

قام « أحمس » بتشديد الهجوم على الهكسوس فى عاصمتهم « أواريس » وذلك فى ثلاث حملات متتالية خلال عام واحد ، حتى تمكن من دخول المدينة كما قام بمطاردة الهكسوس من مصر عبر شمال سيناء إلى حصن « شاروهين » بمنطقة غزة بفلسطين الحالية ، حيث تحصنوا بها لمدة ثلاث سنوات ، تمكن بعدها من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه ، وفر من بقى من الهكسوس ، ولم يظهر اسمهم بعد ذلك .

استمر « أحمس » فى السير بجيشه حتى وصل إلى بلاد « زاهى » (لبنان الحالية) محرزاً انتصارات هائلة ، ثم قفل عائداً إلى مصر حيث قضى على بعض الثورات الداخلية فيها ، وهزم النوبيين الذين انتهزوا فرصة قتاله فى فلسطين ولبنان وحاولوا الهجوم على مصر من جهة الجنوب .

ثم تفرغ بعد ذلك إلى تنظيم حكومة البلاد ، وإصلاح ما فسد فيها خلال حكم الهكسوس وحرب الاستقلال ، مما استنفذ الجزء الأكبر من فترة حكمه ، إلى أن مات وعمره يتراوح بين الأربعين والخمسين عاماً ، حوالى عام ١٥٥٨ ق . م .

آثار حرب التحرير المصرية :

تلقت الكرامة المصرية طعنة كبرى من الاحتلال الأجنبى ، أصابتها فى ثقتها بنفسها ، وفى عقيدتها بان الآلهة قد اختصت مصر وحدها بالحياة الطيبة الآمنة إلى الأبد . وبدأ الشعب المصرى يفكر فى الوسائل التى يجب اتخاذها للتصدى لأى استعمار أجنبى فى المستقبل .

وبالفعل حدث تطور كبير فى الفكر المصرى التقليدى ، الذى انحصر فى الأمور المتعلقة بوادى النيل وحده ، وحل محله نظرة بعيدة المدى إلى حدود أمن مصرية على مسافات بعيدة عن أرض مصر . وتطور مفهوم السلام بعد حرب الاستقلال لكى يصبح سلاماً مفروضاً بالقوة ، ولكى تمتنع الغزاة الأجانب من مجرد التفكير فى الإغارة عليها . كما قامت مصر ببسط نفوذها على العالم القديم كله لتوفر الأمن لأبنائها .

ومن ثم بدأ عصر الإمبراطورية المصرية وهو ما يطلق عليه فى التاريخ المصرى القديم : عصر الدولة الحديثة ، وارتفعت أعلام الجيش المصرى من منحنى نهر الفرات بالعراق شرقاً ، إلى الشلال الرابع على نهر النيل بالسودان جنوباً ، كان ذلك أحد النتائج المباشرة للاحتلال الأجنبى لمصر وحرب التحرير المصرية الأولى لطرد الغزاة « الهكسوس » .

الفصل الثالث

تحتمس الثالث ومعركة مجدو

ولد « تحتمس الثالث » حوالى عام ١٥٠٤ ق . م ، وتولى حكم مصر فى أول فبراير عام ١٤٦٨ ق . م ،وذلك بعد وفاة الملكة المصرية « حتشبسوت » ، وهى فى نفس الوقت عمته وزوجة أبيه ، وقد استمر يحكم مصر إثنين وثلاثين عاماً متصلة ، إلى أن توفى حوالى عام ١٤٣٦ ق . م ، وفى خلال فترة حكمه قاد أكثر من ست عشرة حملة عسكرية لتوطيد سلطان مصر فى كل أنحاء المعمورة المعروفة فى زمانه ، وكانت أولى حملاته العسكرية بعد خمسة وسبعين يوماً من توليه الحكم أى فى الخامس عشر من ابريل عام ١٤٦٨ ق . م ، وطوال فترة حكمه لم يعرف جيشه طعم الهزيمة .

ويعتبر تحتمس الثالث أعظم ملوك مصر القديمة ، وأقدر قوادها فى التاريخ القديم ، كان سياسياً بارعاً ، ورجل دولة محنكاً ، لعب دوراً هائلا فى تاريخ مصر القديمة ، ويكفيه فخراً أنه لا تذكر إسم إمبراطورية مصر القديمة ، إلا ويذكر إسم « تحتمس الثالث » . هذا بالإضافة إلى أنه بطل معركة من أعظم معارك تاريخ العالم القديم هى معركة « مجدو » .

الإمبراطورية المصرية فى عهد تحتمس الثالث :

بسط « تحتمس الثالث » النفوذ المصرى حتى بلدة « نى » على نهر الفرات بشمال العراق وعلى فلسطين ولبنان وسوريا شرقاً ، كما امتد جنوباً حتى بلدة « نباتا » بالسودان . وشمل كذلك بلاد « تحنو » (ليبيا الحالية) . ووصلت السفن المصرية إلى بلاد « بنتا » (عدن — واليمن الحاليين) . وأصبحت « طيبة » هى عاصمة أعظم إمبراطوريات العالم القديم كله . وامتد الطريق الذى يربط تلك الإمبراطورية من طيبة حتى بلدة « نى » شمال العراق بطول حوالى ٢٠٠٠ كيلو متر ومن « طيبة » حتى بلدة « نباتا » بالسودان حوالى ١٤٥٠ كم ،و أخــذ ملوك « بابل » فى جنوب العراق ، « وآشور » فى شمال العراق ، وآلاشيا (جزيرة قبرص) يتوددون إلى مصر بارسال الهدايا الثمينة . ودفع الجزية التى كانت ترد من كل البلاد الخاضعة للنفوذ المصرى .

الجيش فى عهد تحتمس الثالث :

نظم « تحتمس الثالث » الجيش المصرى تنظيما عسكرياً رائعاً من ناحية التسليح والتدريب ، حتى أصبح أقوى جيوش العالم فى عصره . كما أنشأ أسطولا حربياً يعتبر حادثاً فريداً حينذاك . واستطاع « تحتمس الثالث » أن يسيطر بهذا الأسطول — الذى أحضر أخشابه من لبنان — على موانى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة موانى فلسطين ولبنان ، وصارت مصر ، بهذا الأسطول ، سيدة بحار العالم القديم ، كما استخدم الأسطول لأغراض سلمية مثل جلب العطور والأخشاب الفاخرة لمصر .

توالت بعد حملته الأولى عام ١٤٦٨ ق . م ، التى استولى فيها على « مجدو » عدة حملات بلغت ست عشرة حملة ، وذلك لتوطيد سلطان مصر فى أرجاء العالم المعروف وقتذاك . وفى حملته الثالثة ، تم الاستيلاء على «قادش» على نهر العاصى بسوريا ، وفى حملته الثامنة وصل إلى نهر الفرات ، حيث عبر وطارد ملك « متيافى » ، الذى ولى هارباً أمامه ، وأقام « تحتمس الثالث » لوحة تخلد نصره هذا على الضفة الشرقية لنهر الفرات بجوار اللوحة التى أقامها جده « تحتمس الأول » وكتب يقول: « انه دمر تلك البلاد المسماة «النهرين» والتى ولى ملكها هارباً من الخوف » .

ويمكن القول أن هذا الملك نجح نجاحاً تاماً فى القضاء على الآسيويين الذين اجتمعوا لمعارضة مصر .

نظام الحكم فى عصر تحتمس الثالث :

برزت حكمة « تحتمس الثالث » السياسية عندما راح ينظم وينشىء حكماً مصرياً سياسياً وعسكرياً وطيد الأركان ، فى البلاد التى استولى عليها فى آسيا ، حيث قام بتعيين مندوب سام مصرى لحكم المنطقة كلها ، وجعل من مدينة « غزة » مقراً له ، كما قام بتعيين مفتشين فى المدن الهامة للاشراف على أعمال الأمراء المحليين ولقد بلغ من احكام سيطرته وحسن تنظيمه لتلك الإمبراطورية الواسعة أن نقش على المعابد المصرية « أن جلالته يعرف كل شىء يحدث، وليس هناك أو هنا شىء لا يعرفه ، وانه مثل الإله ، «حوت» نفسه إله الحكمة فى كل شىء ، وانه لم يقم بأى عمل إلاأنجزه » .

ولربط أجزاء هذه الإمبراطورية الشاسعة ، المترامية الأطراف سعى « تحتمس الثالث » لتنظيم المواصلات والبريد لأول مرة فى تاريخ العالم القديم ، حيث كان يسافر « مبعوثو الملك إلى جميع البلاد الأجنبية » وهم يركبون عرباتهم فى تلك الأراضى الوعرة لكى يؤدوا واجبهم كرسل وسفراء لفرعون . وكانوا يحملون رسائلهم من طيبة عاصمة مصر إلى « بوغاز كوى » فى الأناضول أو إلى « نى » على نهر الفرات وأيضاً إلى « نباتا » على النيل بالسودان .

دبلوماسية تحتمس الثالث :

انتهج « تحتمس الثالث » فكرة دبلوماسية رائعة تدل على سعة أفقه ، وبعد نظره ، تمثلت فى العفو عن الأمراء الأعداء ، بعد انتصاره عليهم ، إلا أنه كان عفوا مشروطاً بقسم الولاء والطاعة له ، ثم يأخذ أبناء هؤلاء الأمراء كرهائن لديه فى مصر ، ثم يقوم بتعليمهم وتربيتهم على الثقافة والعادات المصرية . و عندما يحل الدور على هؤلاء الأبناء فى حكم بلادهم يكونون قد تشربوا المدنية والحضارة المصرية ، وامتلأت قلوبهم بحب مصر . وكان لهذه السياسة الحكيمة آثارها فى تماسك الإمبراطورية المصرية لمدة قرن من الزمان بعد « تحتمس الثالث » ، وذلك لاستمرار ولاء هؤلاء الأمراء لمصر فى كل المحن بعد ذلك ، كما عملوا على نشر الثقافة المصرية ، وحب مصر نفسها بين شعوبهم فأحال ذلك كراهية الأجانب لمصر إلى محبة وإعجاب وتقدير لها .

الإدارة الداخلية لمصر :

صارت « طيبة » العاصمة المصرية فى عهد تحتمس الثالث . . عاصمة للعالم القديم كله ، وتدفقت عليها خيرات الدول الأجنبية كلها ، فأنشأ بها المعابد الضخمة ، وصار لها من الثروة ما لم يسمع عنها من قبل . ولم يقتصر نشاط

هذا الملك العظيم على الفتوحات الخارجية بل امتد أيضاً إلى الإدارة الداخلية لمصر حيث أرسى دعائم الأمن والاستقرار وشيد معابد وآثاراً عظيمة ، مازالت آثارها باقية حتى الآن ، تنطق بعظمة عصره وازدهاره .

وعندما توفى « تحتمس الثالث » عام ١٤٣٦ ق . م ، قام المصريون بنسج الأساطير التاريخية والبطولات الرائعة حوله ، كمؤسس للامبراطورية المصرية الأولى ، وكقائد وفاتح للعالم القديم المعروف آنذاك . وقد نقش على جدران المعابد المصرية فى وصفه : « تحتمس الثالث » الإبن المحبوب لآمون رع ، ومن جعل إسم مصر على الإمارات الأجنبية : فلسطين ، وسهول شاوون ، وممر مجدو ، وسهل عكا ، وسهل يسرين ، وبيت شأن ، ودمشق ، وسهل حلب ، والنهرين وجبال اليهودية وأفرايم . . بطل مصر النيل وحاميها وقائد جيشها العظيم فى عربة من الذهب الخالص ، محلاة ومزينة بعتاد الحرب مثل حورس ذى الذراع القوى ، وكإله الحـــرب مثل « منتو » الذى فى طيبة ، بينما قوى أبيه آمون تساعده . .

معركة « مجدو » :

ظروف ما قبل المعركة :

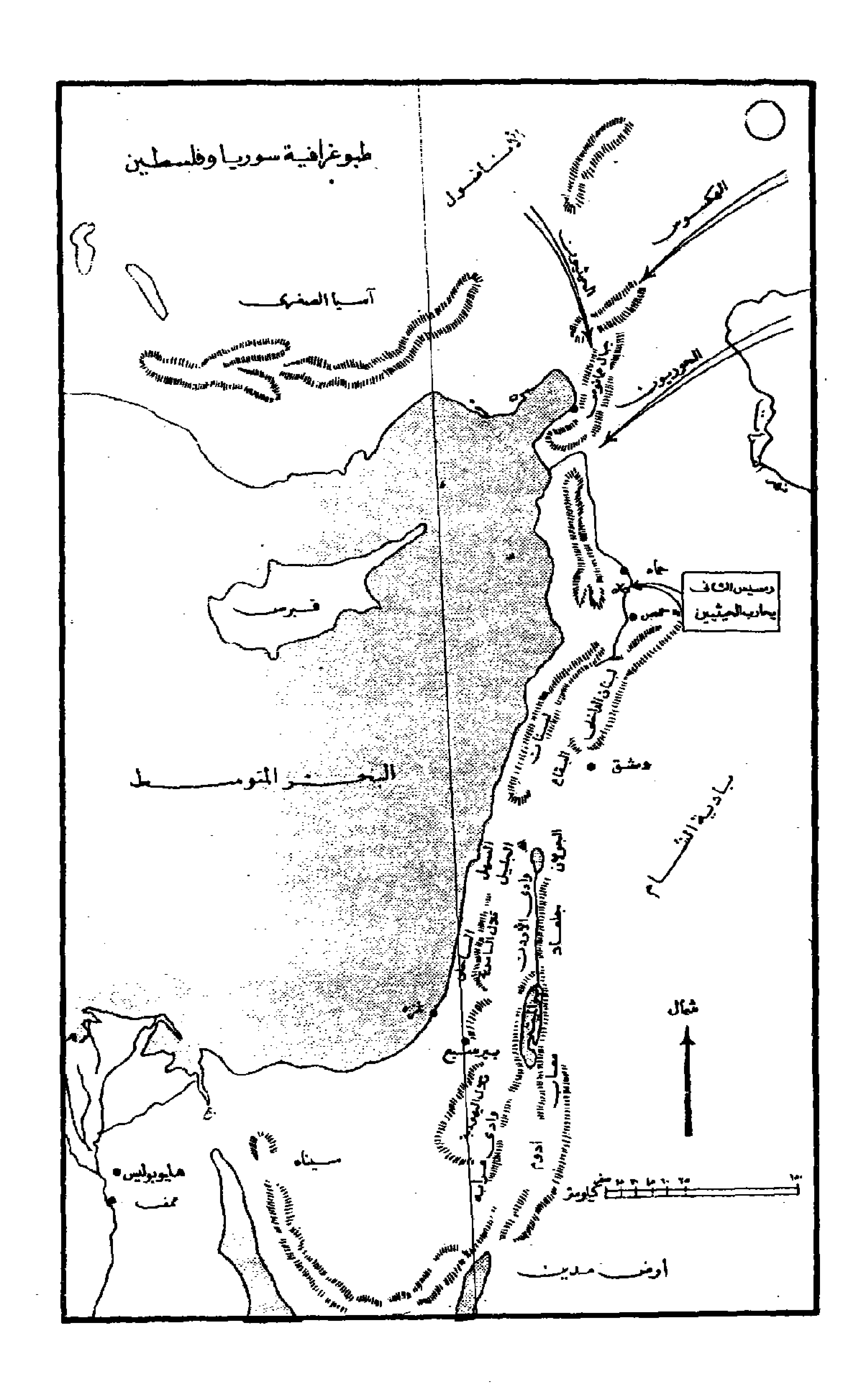
توصل المصريون — من خلال حروب التحرير — إلى المبدأ العسكرى القديم القائل : « إذا أردت السلام فتأهب للحرب » ، ونظرا لنجاح مصر فى معاركها مع الهكسوس . قام فراعنة مصر « أحمس الأول » و « تحتمس الثالث » بشن الكثير من الحملات الحربية فى آسيا وافريقيا لبسط السيطرة والنفوذ المصرى على تلك البقاع تحقيقاً للمبادىء الجديدة التى اعتنقها المصريون بأن أمن وسلامة مصر لن يتحققا إلا بالسيطرة على البلاد الأجنبية قبل أن تقوم بشن هجومها على مصر ، تبلور ذلك فى النظرية العسكرية التى تفيد بأن « أحسن طريقة للدفاع هى الهجوم » . وقد استطاع المصريون القدماء فرض السلام بقوة السلاح ، وأجبروا الحملات الآسيوية والافريقية على الاقتناع بأن مصر بلد لا يمكن التفكير فى انتهاك حرمته .

وفى عهد الملكة المصرية « حتشبسوت » ظهرت بوادر عدائية لمصر من جانب الأمراء الآسيويين ، بطريقة تنذر بالخطر ، وصار من اللازم القضاء على هذه البوادر فى مهدها .

لاح ذلك من جانب أرض الشام والعراق التى كانت — حينذاك — مقسمة إلى دويلات صغيرة أو مدن تقوم بينها الحروب والمشاحنات ، ولم يحدث لها أن عرفت الوحدة الشاملة مثل مصر ، إلا أن عداءهم لمصر وحد بينهم ، إذ اجتمع ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين أميرا تحت قيادة أمير « قادش » وأعلنوا ثورتهم على النفوذ المصرى فى بلادهم والخروج على طاعة فرعون مصر ، وتجمع جيش هؤلاء الأمراء فى « مجدو » .

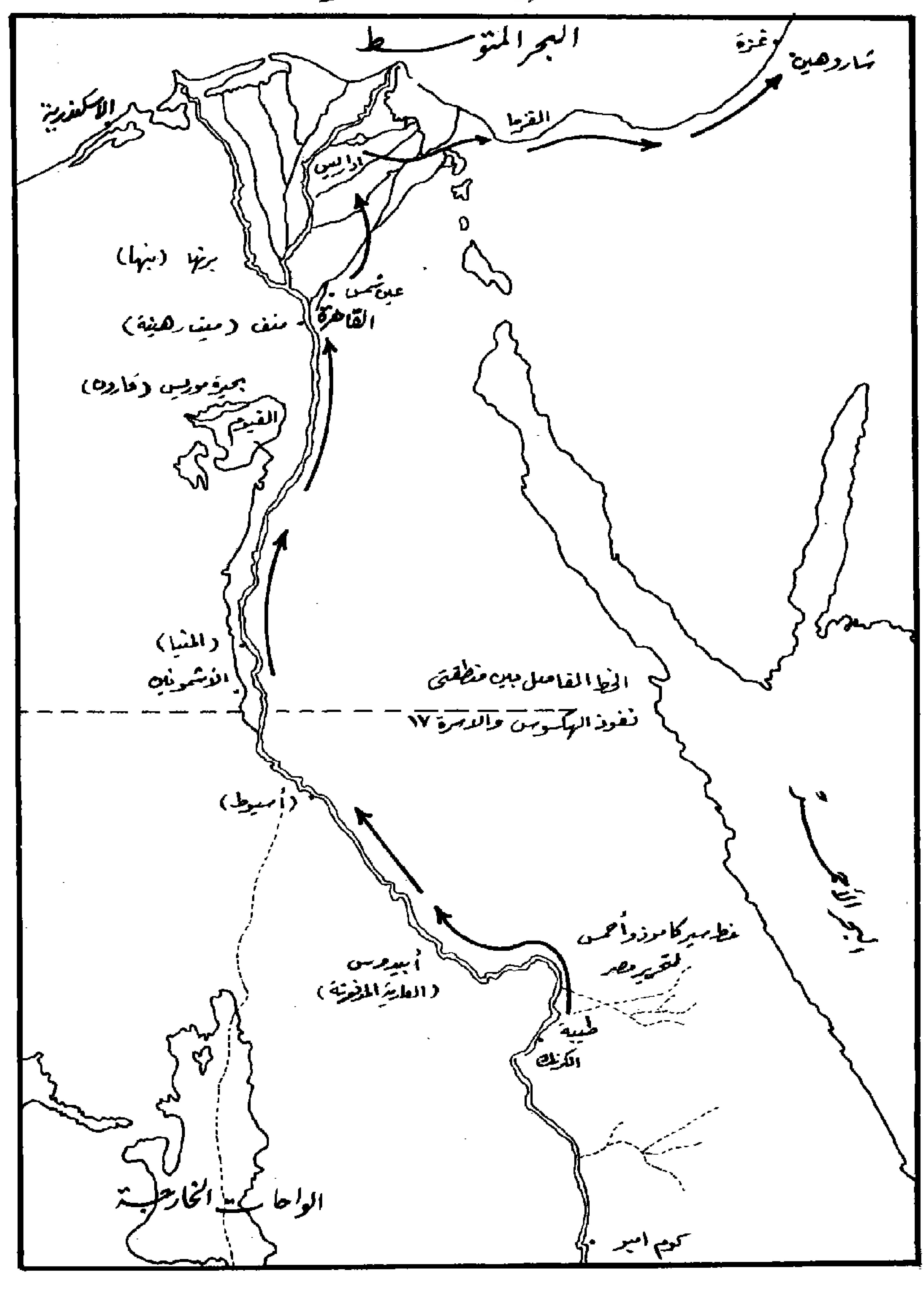
منطقة العمليات :

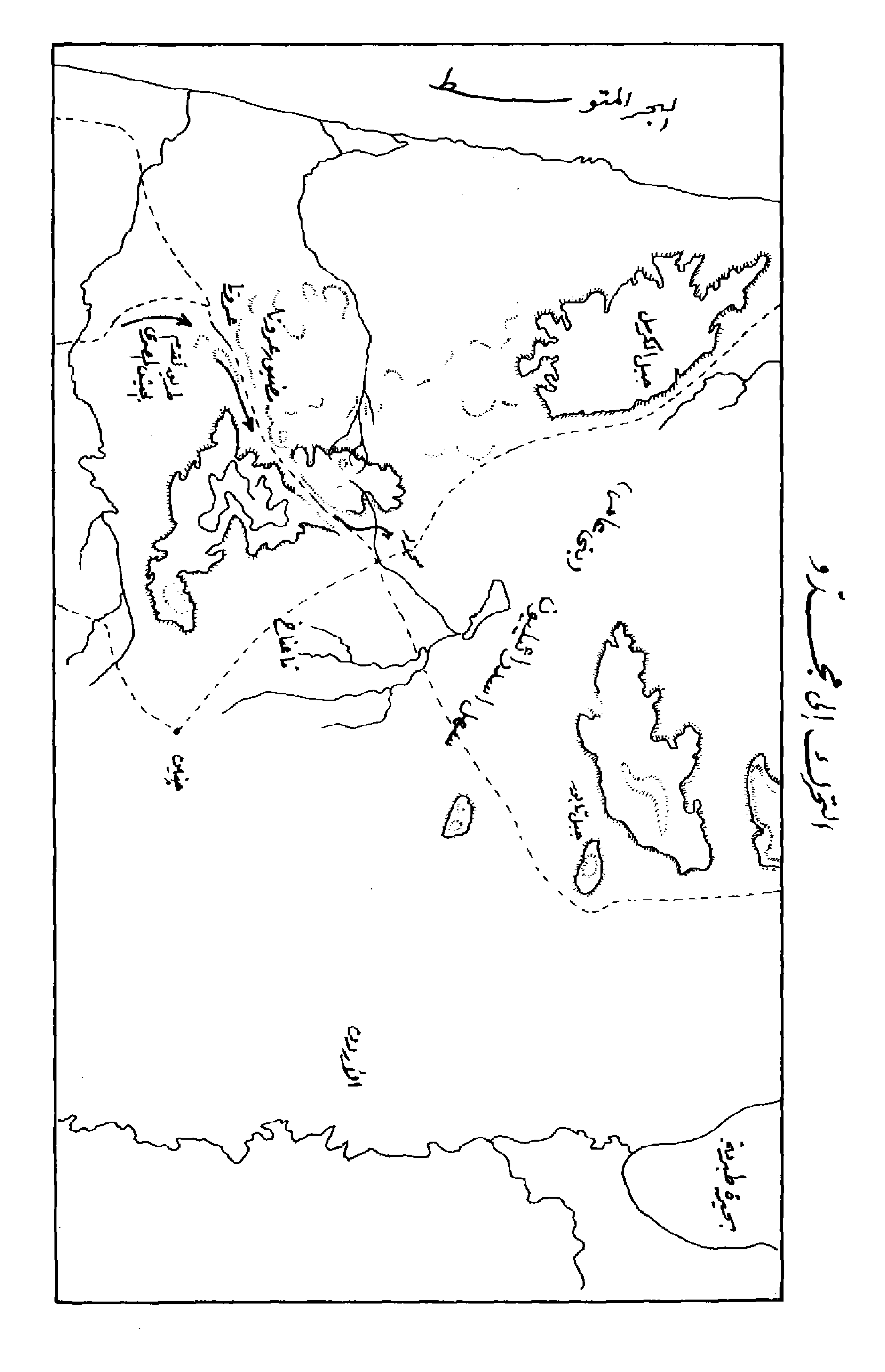
كانت « مجدو » (تل المسلم الحالية فى مرج بنى عامر شمال شرق جبل الكرمل شمال فلسطين) ، منطقة مواصلات هامة ؛ حيث كانت تتمتع بموقع استراتيجى ممتاز ، إذ تتفرع منها أربع طرق رئيسية ، الجنوبى منها يسير بجوار الساحل مخترقاً جبل الكرمل ، ويصل حتى غزة ، والشمالى يسير بجوار الساحل فى اتجاه الساحل الفينيقى (اللبنانى) . أما الطريقان الآخران فيتفرعان إلى الشرق ، أحدهما يتجه نحو دمشق والآخر تجاه سوريا الوسطى .



طبوغرافية سوريا وفلسطين
الأناضول
آسيا الصغرى
القوقاز
الهوريون
حماه
حمص
رمسيس الثاني يحارب الحيثيين
قبرص
البحر المتوسط
دمشق
البقاع
لبنان
بادية الشام
الجولان
وادي الأردن
جلعاد
شمال
بيرسبع
سيناء
هليوبوليس
منف
أدوم
كيلومتر
أرض مدين

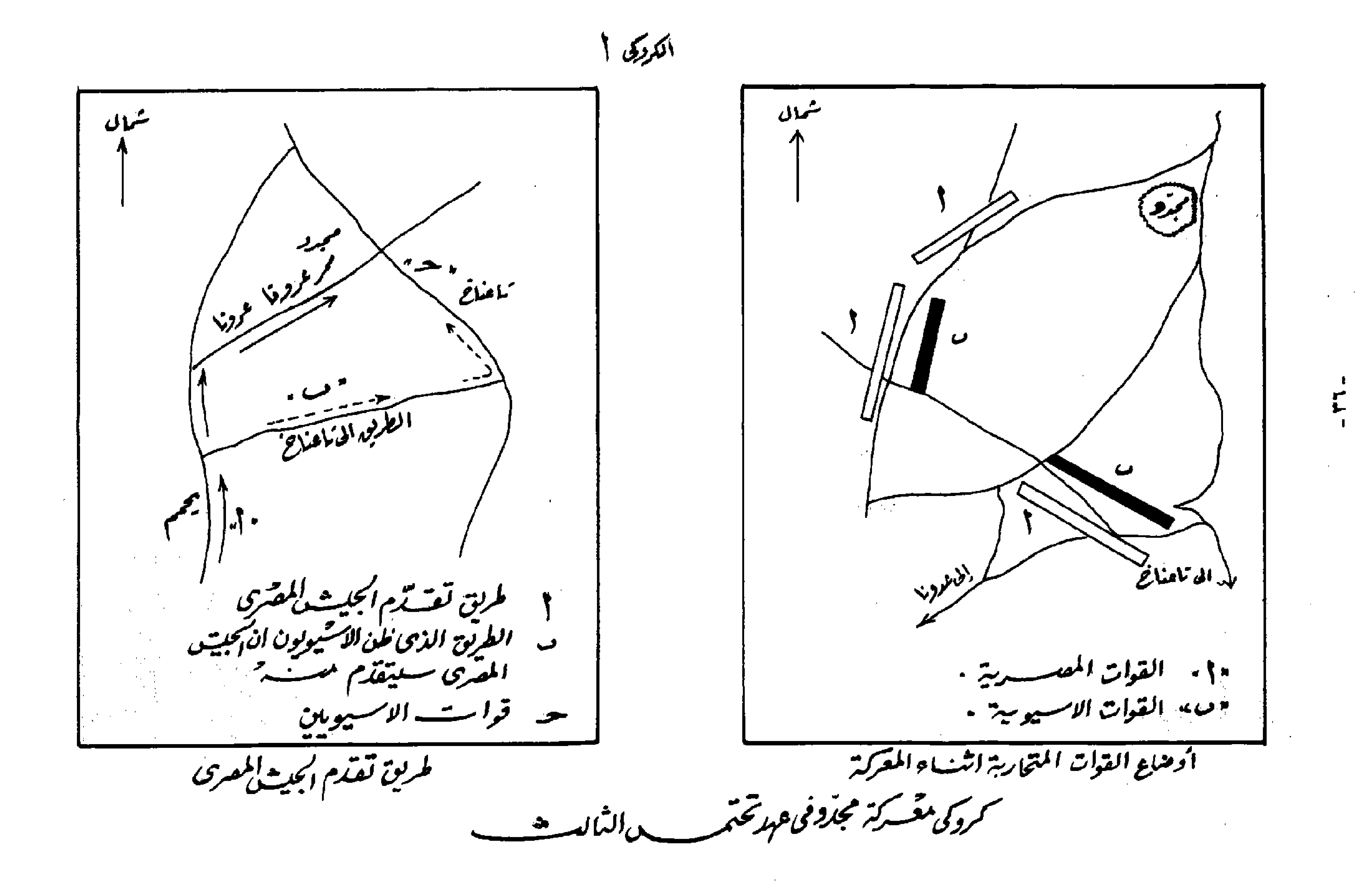
مصر في عهد الهكسوس





التحرك إلى مجدو

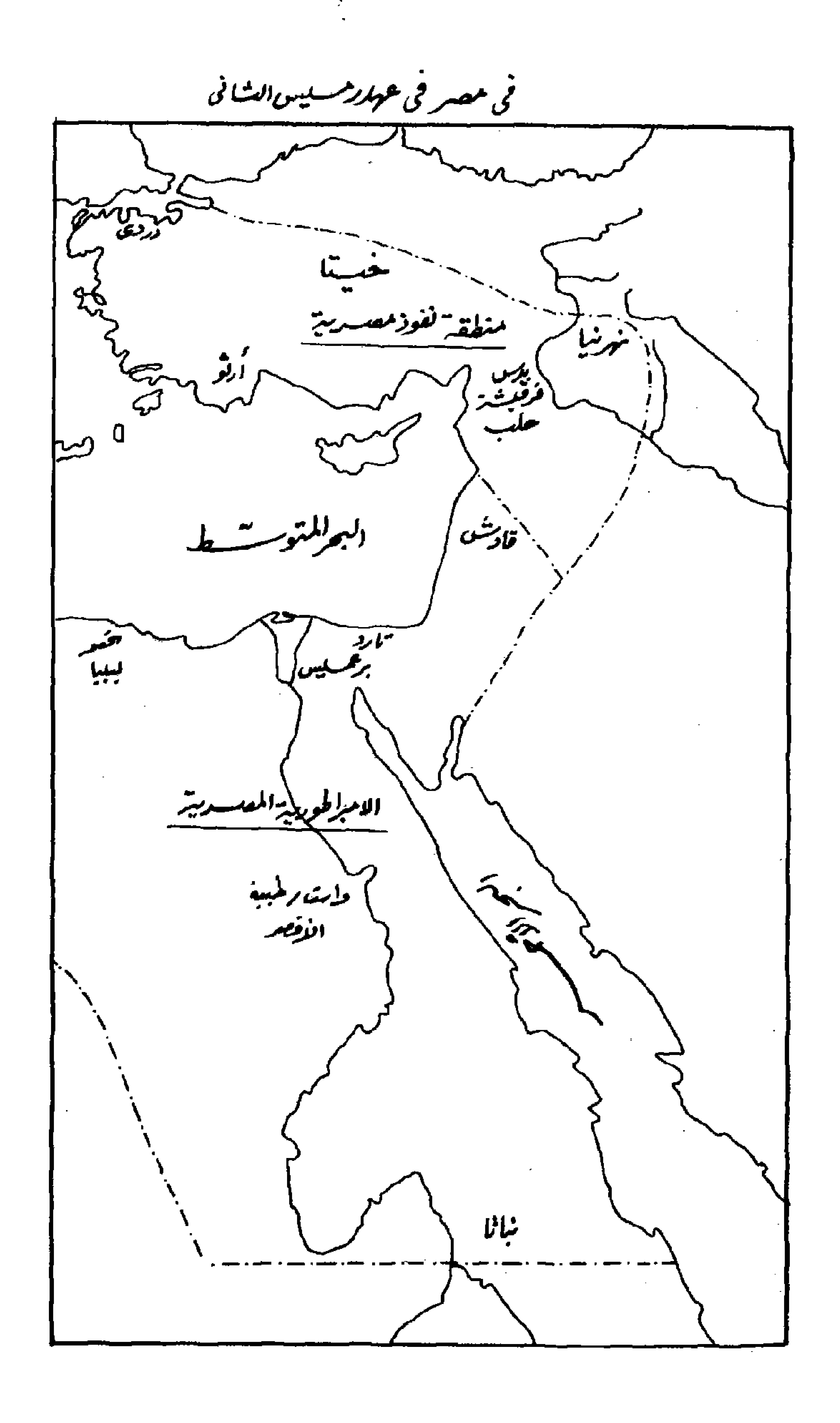
الكروكي ١



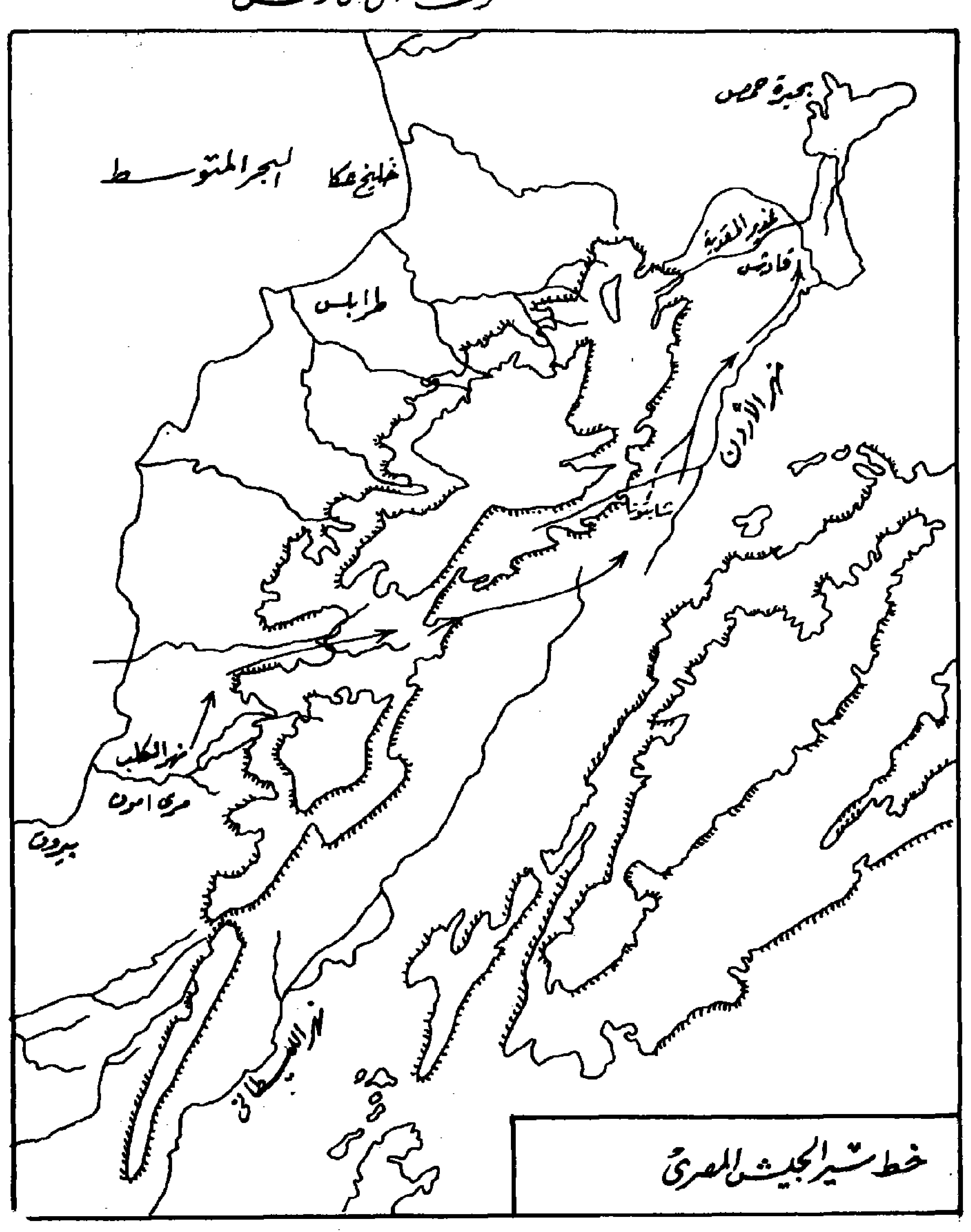
طريق تقدم الجيش المصري

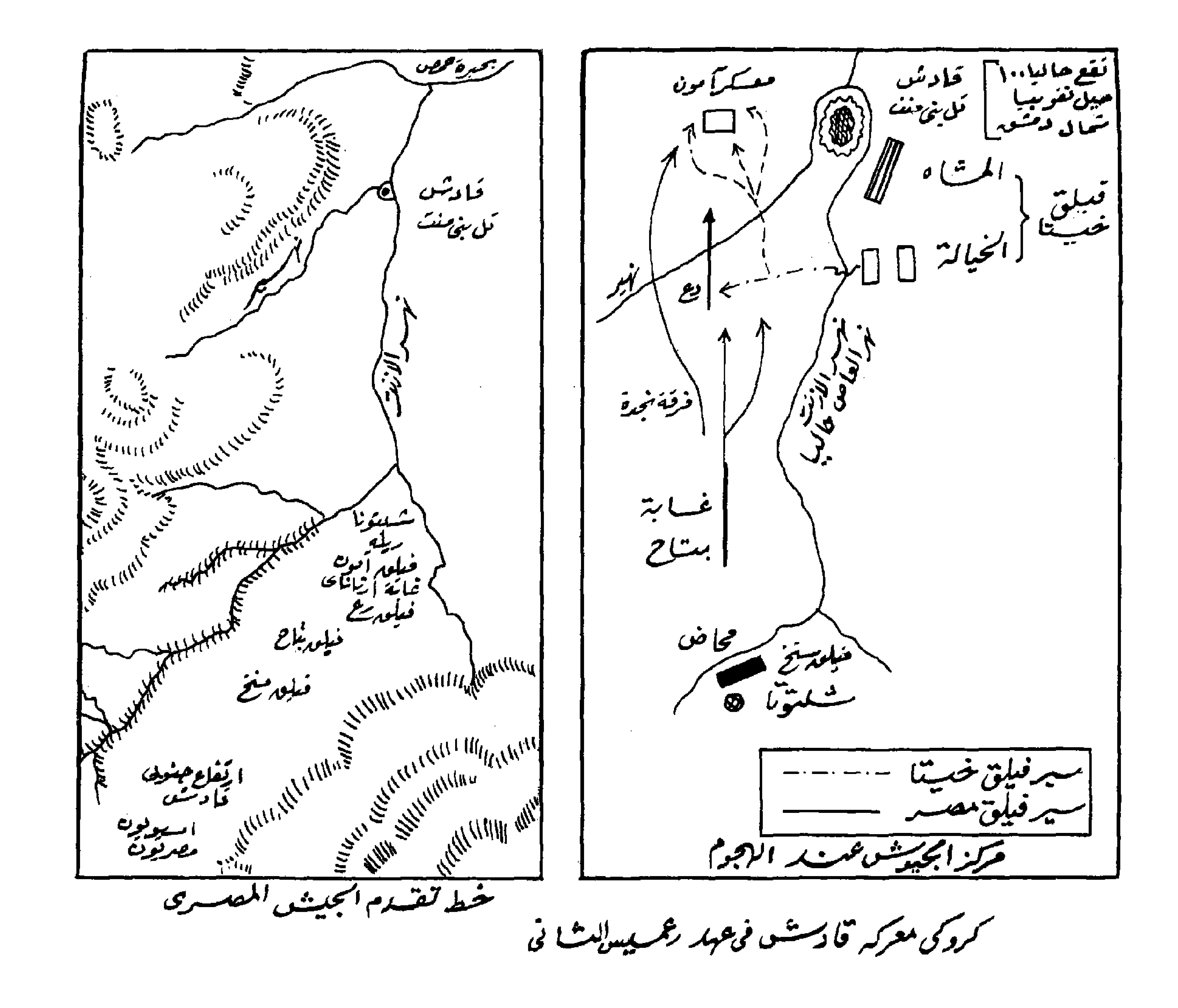
أوضاع القوات المتحاربة اثناء المعركة

كروكي معركة مجدو في عهد تحتمس الثالث


فى مصر فى عهد رمسيس الثانى
خيتا
منطقة نفوذ مصرية
نهرينا
حلب
قادش
البحر المتوسط
ليبيا
تارو
برعمسيس
الامبراطورية المصرية
الأقصر
نباتا

التحرك الى قادش

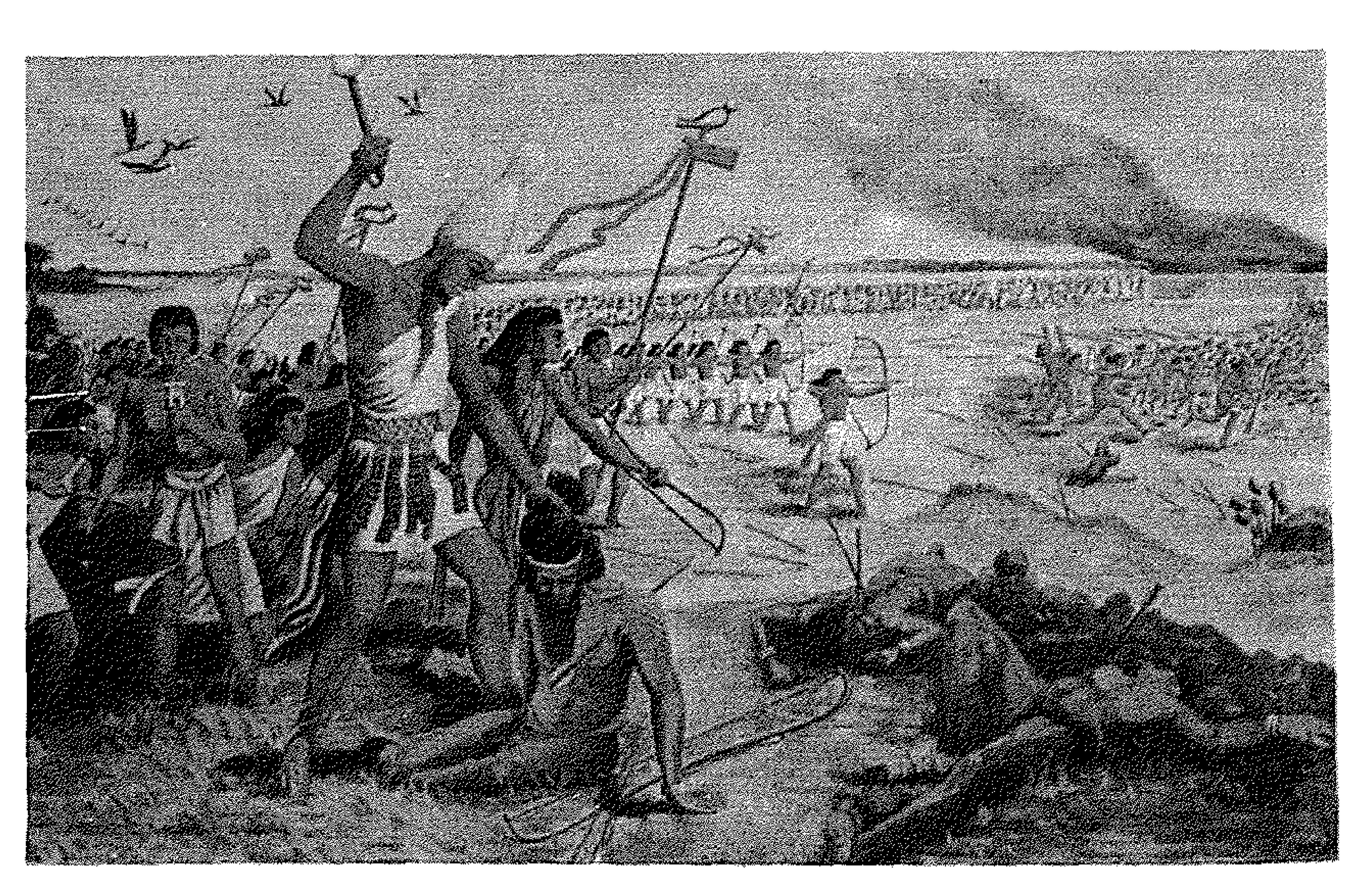




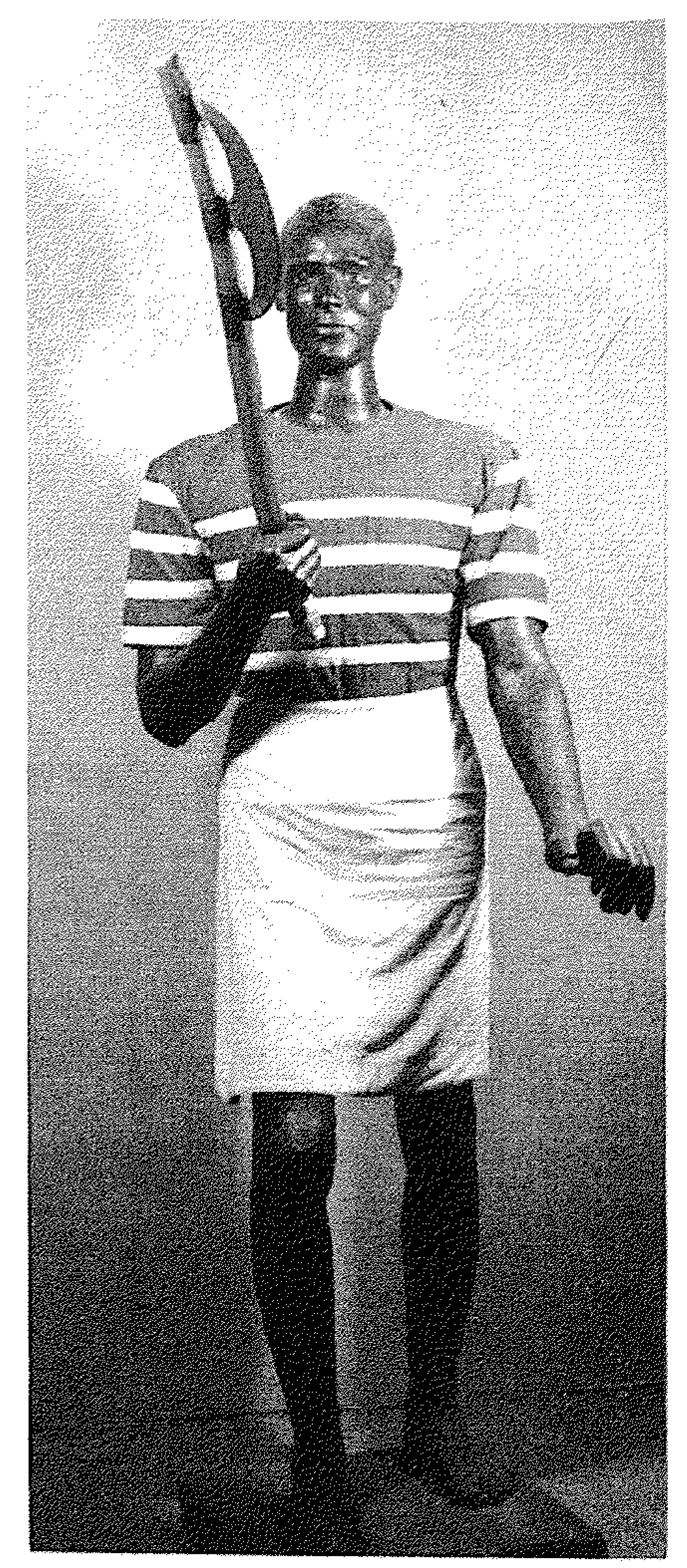
كروكي معركة قادش في عهد رعمسيس الثاني

مصر في عهد تحتمس الثالث

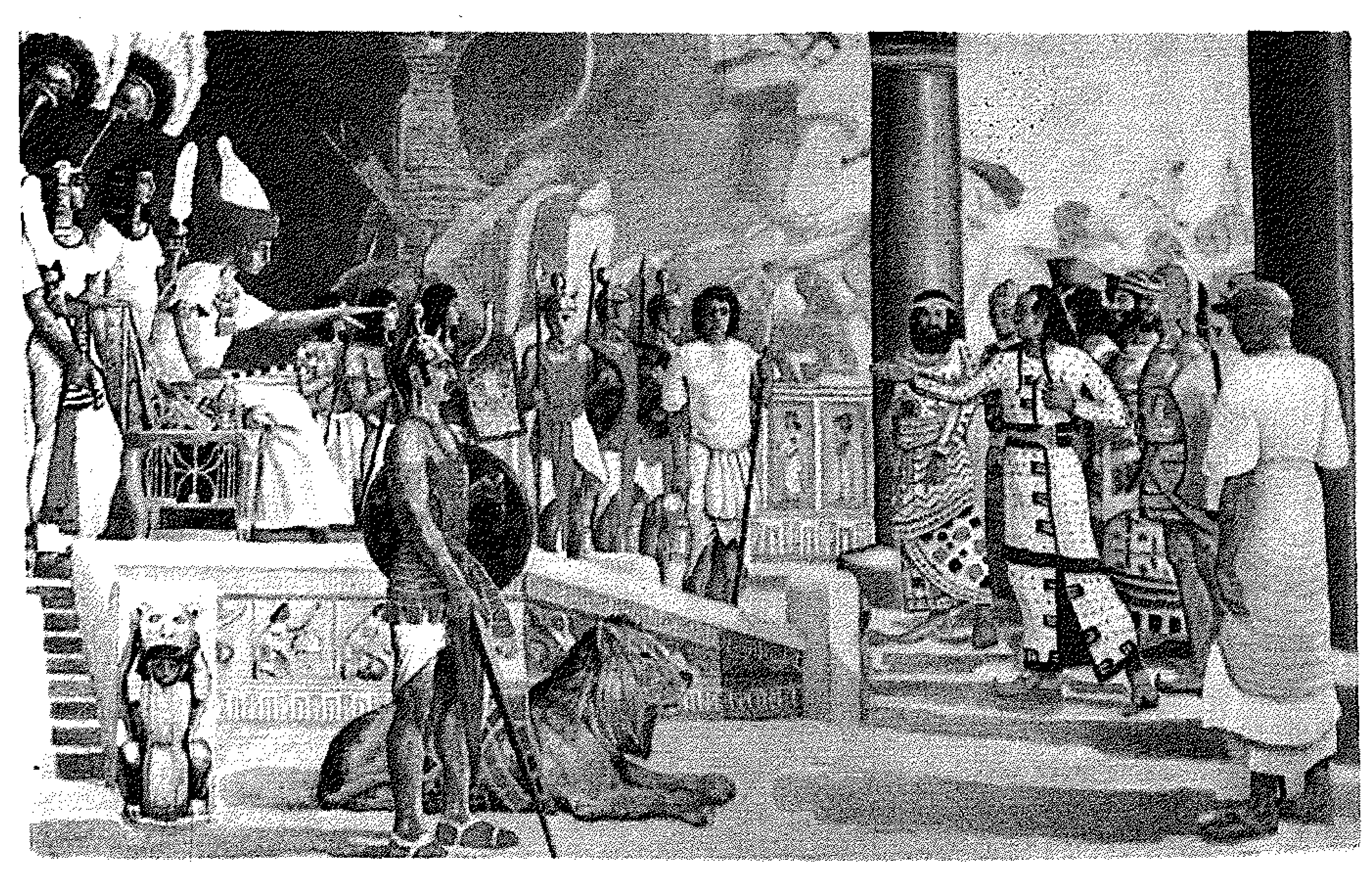
الاناضول
بلاد خاتي
ني
قرقميش
دمشق
قادش
الاشيا
مجدو
آشور
نهر الفرات
بابل
البحر المتوسط
بلاد ليبيا
منف
ثارو
الامبراطورية المصرية
واست / طيبة عاصمة الامبراطورية
" الاقصر حاليا ".
كوش
٣
٤
نباتا
البحر الاحمر
بلاد بنت
٥



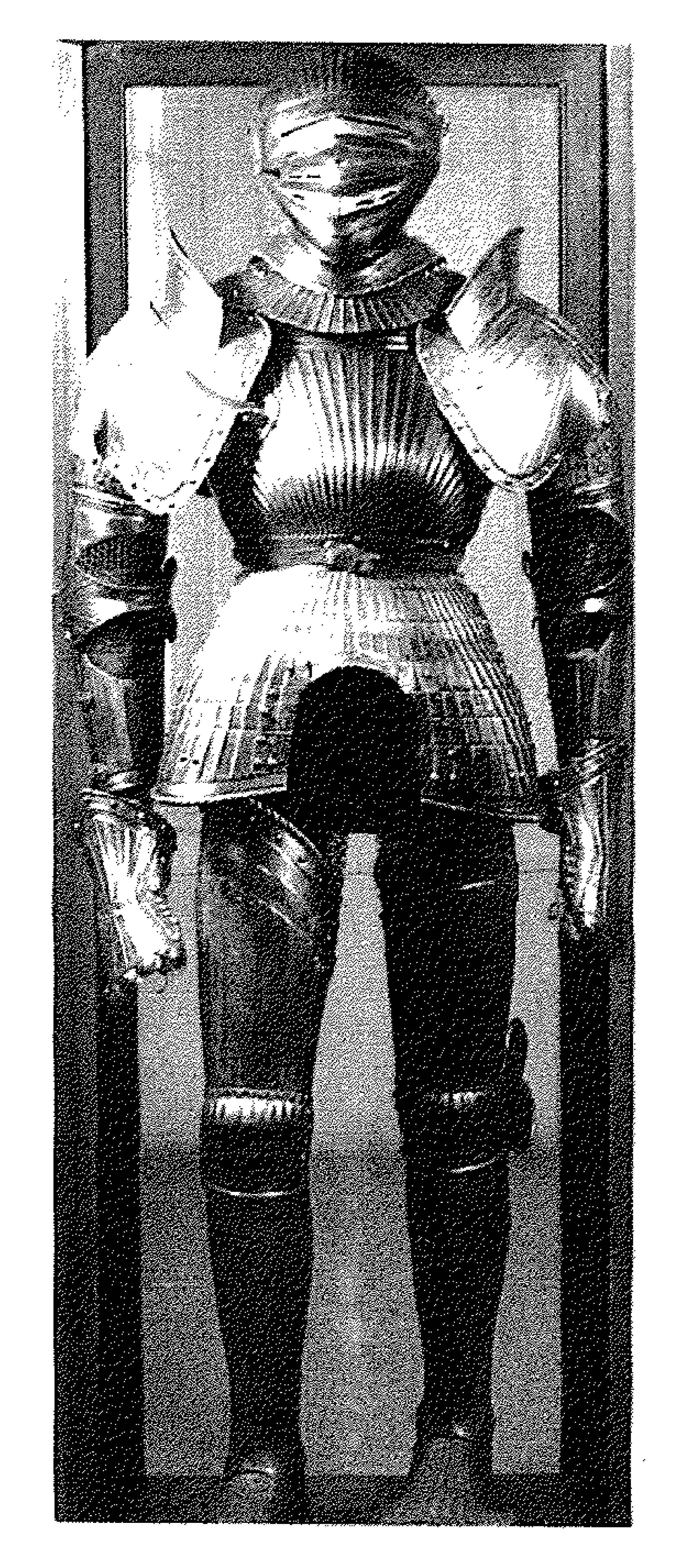
الملك « مينا » فى معـــارك الوحـــــدة
المصرية ـــ حوالى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد .



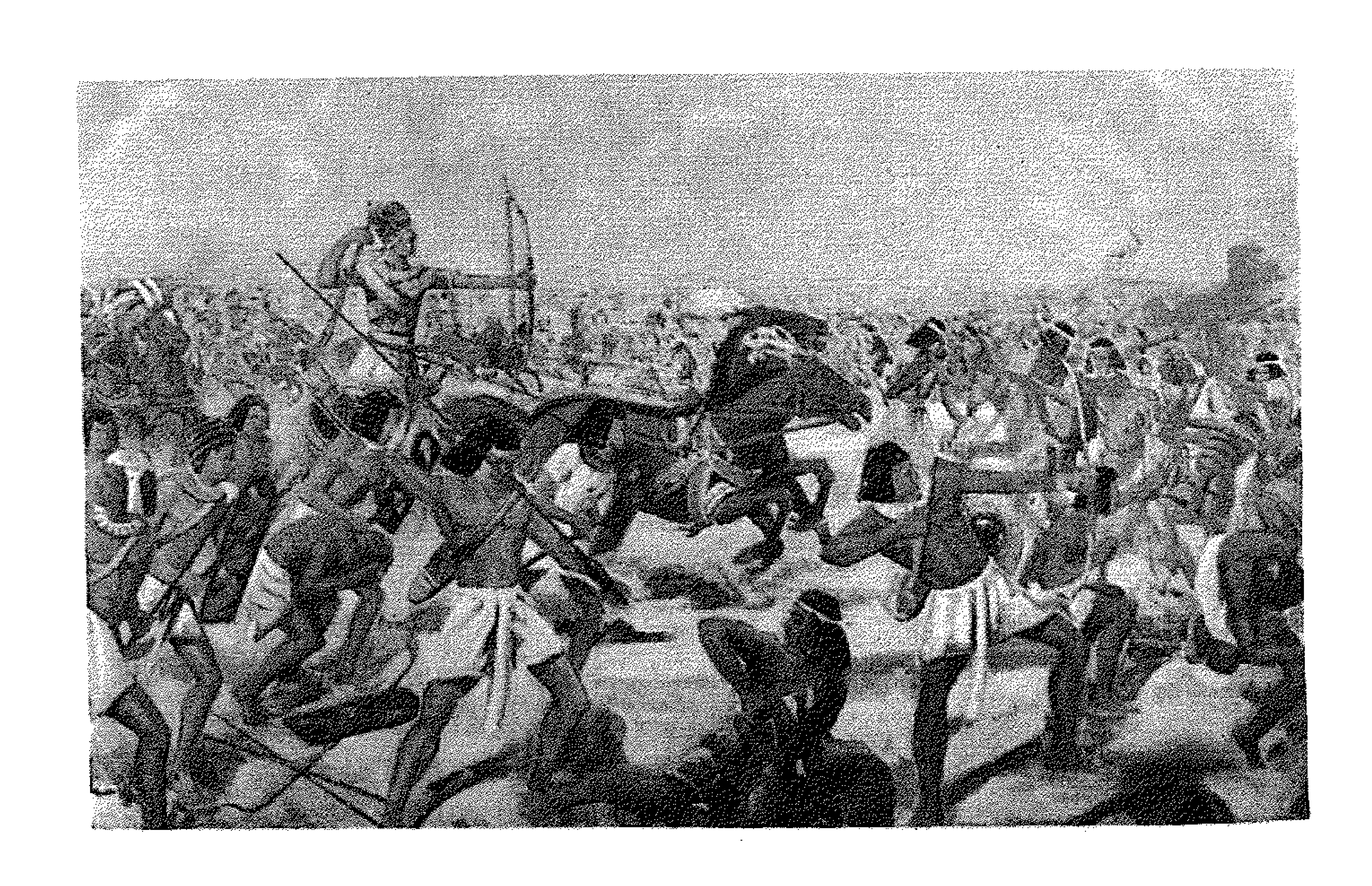
جندى حامل بلطة



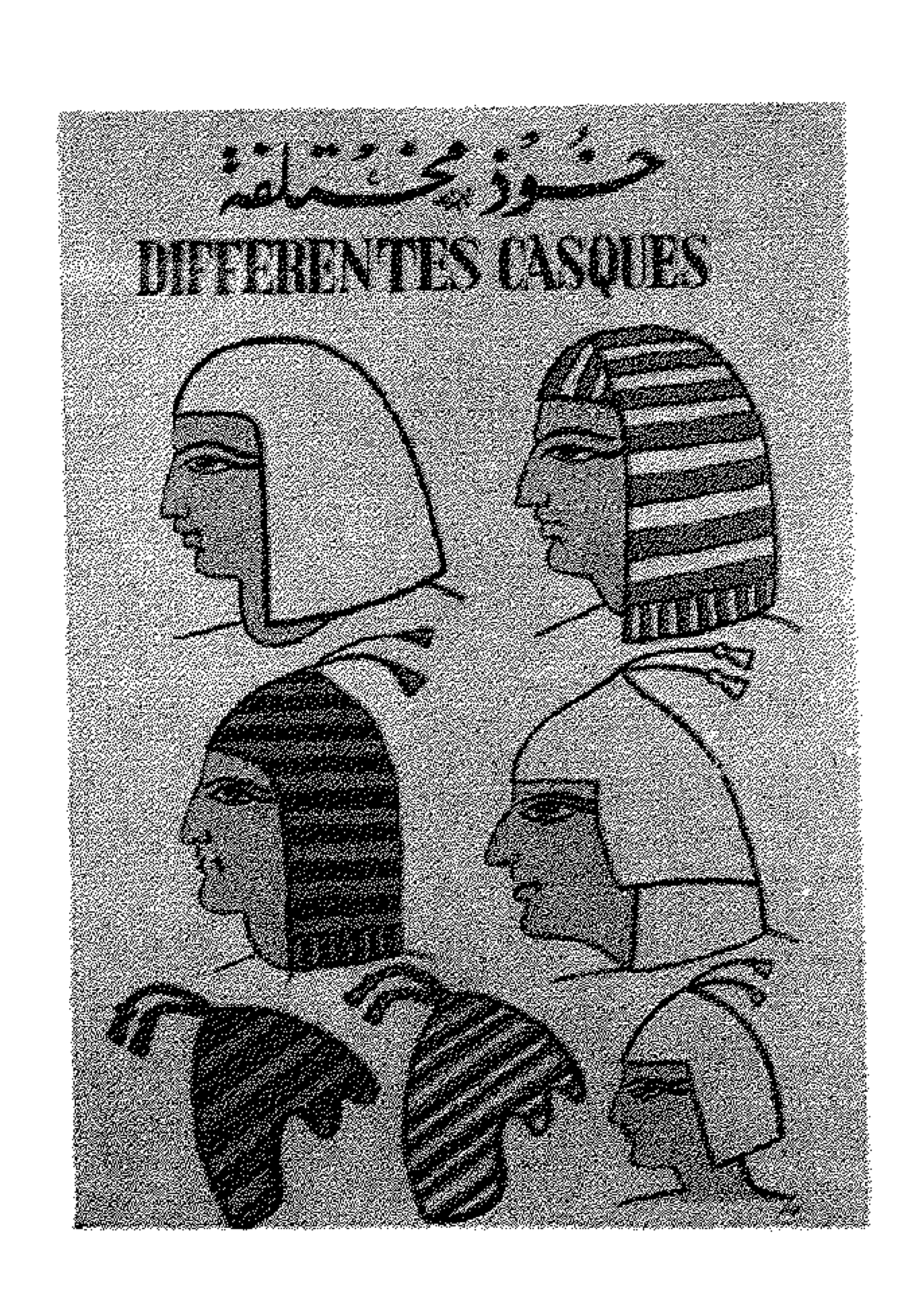
الملك « رعمسيس الثانى » يستقبل مندوبى الممالك الآسيوية معلنين خضوعهم للنفوذ المصرى.



مقاتل يرتدى درعة « الجوشن » مع واقيات الرأس والأذرع والأرجل .



الملك « رعمسيس الثانى » فى عجلته الحربية أثناء القتال .



أغطية رأس وخوذ مصرية قديمة .

وهذا المكان يعتبر ممتازا من الوجهة الدفاعية حيث يصعب اقتحامه ولاسيا من جهة الجنوب ، جهة الاقتراب المحتمل من قبل الجيش المصرى ، حيث كان هذا الطريق ممرا ضيقاً يخترق جبل الكرمل ، كما كانت المدينة محاطة بخندق عميق ، ومسورة بسور مرتفع لحمايتها .

الجيش المصرى يتحرك إلى الشام :

لم يكن قد مضى على تولى « تحتمس الثالث » حكم مصر أكثر من خمسة وسبعين يوما حتى انتفض للقضاء على أعدائه فى « مجدو » وكان ذلك فى الخامس عشر من ابريل عام ١٤٦٨ ق . م .

وتقول النصوص المصرية القديمة « لم يتأخر جلالته فى التقدم نحو بلاد زاهى « فلسطين وسوريا الحاليين » ليقتل الخائنين الذين يعيشون فيها ، وليكافىء الموالين له . . . . » .

ابتدأ « تحتمس الثالث » تحركه من مدينة « ثارو » (القنطرة الحالية) إلى منطقة « مجدو » ، وبينهما مسافة تقدر بـ (٢٣٠ ميلا) ، قطعها فى واحد وعشرين يوماً فقط على مرحلتين ؛ الأولى : من القنطرة إلى غزة فى فلسطين ومقدارها (١٥٠ ميلا) ، اجتازها فى عشرة أيام ، بمتوسط خمسة عشر ميلا فى اليوم الواحد ؛ والثانية : من « غزة » إلى جبل الكرمل بشمال فلسطين ومقدارها (٨٠ ميلا) ، قطعها فى أحد عشر يوماً ، بمتوسط سبعة ونصف ميل فى اليوم ، وهى سرعة تعتبر خارقة بمعايير الفن العسكرى القديم حينذاك ، نظراً لأن هذا التقدم السريع كان يلزمه توفير الإمدادات للجيش من المياه والأغذية . وإذا أخذنا فى الاعتبار أن المرحلة الأولى ومقدارها مائة وخمسون ميلا من القنطرة إلى غزة ، تمت فى أراض صحراوية جرداء ؛ كان معنى هذا أن الجيش الضخم كان يعتمد فى إمداده خلال تلك المرحلة ، ومدتها عشرة أيام ، على خط إمدادات من وادى النيل وخاصة ما يتعلق بالمياه ، مع تخلف وسائل النقل فى هذا الماضى السحيق .

الشورى فى الحرب :

عندما وصل « تحتمس الثالث » إلى جبل الكرمل فى مايو عام ١٤٦٨ ق . م ، عقد هناك مجلساً حربياً للتشاور فى خطة الهجوم . وكان يرى أن الاقتراب من مدينة « مجدو » ، من الأفضل أن يتم عن طريق ممر « غرونا » الضيق . ولكن قادة الوحدات العسكرية عارضوا الملك فى رأيه ، نظراً لأن ضيق هذا الممر سوف يضطر الجيش إلى السير فى خط واحد ، الأمر الذى يعرضه للخطر ، ويقضى على حرية المناورة أثناء عبوره الممر . . ولكن « تحتمس الثالث » أصر على رأيه ؛ معللا ذلك ، بأن عبور الجيش من هذا الممر الوعر أمر غير متوقع من الأعداء ، نظراً لأنه طريق غير ممهد ويستبعد عبور الجيش منه . وأن ذلك سوف يحقق المباغتة التامة للعدو ، وأخذه على غرة ، وبذلك يتوفر أول عامل من عوامل النصر . . وتذكر النصوص المصرية القديمة إصرار الملك على رأيه العسكرى فيقول :

«سيتقدم جلالتى على طريق « عرونا » هذا ، وليتبع جلالتى من يريد منكم أن يأتى لهؤلاء الأعداء الذين يعقهم رع . . . أن يتساءلوا ، هل اتخذ جلالته طريقاً آخر لأنه بدأ يخاف منا . . . ؟

قام الجيش المصرى بعبور ممر « عرونا » الضيق ، بناء على قرار الفرعون ، واستغرق العبور يوماً كاملا دون أن يشعر الآسيويون بذلك ، لعدم توقعهم أن يأتى المصريون من هذا الاتجاه أبداً . وبهذا تحقق للجيش المصرى عنصر « المباغتة » ، الأمر الذى أحدث صدمة عنيفة فى نفوس الآسيويين ، فاختل نظامهم ، وتفرقت صفوفهم ، وساد

الارتباك بينهم ، وهبطت معنوياتهم بينما ارتفعت معنويات الجيش المصرى إلى أقصى درجة ، نتيجة للمفاجأة المذهلة التى دبروها بحكمة ، ونجحوا فيها بامتياز ، وجنوا ثمارها فى غبطة .

والتقى الجيشان ، ونشبت الحرب بينهما ، بعد أن أمضيا ليلة قبالة بعضهما . وعند الفجر ، خرج « تحتمس الثالث » على رأس قواته المصرية ، وما هى إلا ساعات . . تمكن بعدها جيش مصر من حسم المعركة ، وإلحاق الهزيمة الساحقة بهذا التجمع الضخم من الأمراء الآسيويين الذى كان يضم ثلاثمائة وثلاثين أميراً ، وبعد تشتت هؤلاء الآسيويين ، لاذوا بالفرار تاركين وراءهم عرباتهم ومعداتهم ، ومن العجيب ، أن أهل مدينة « مجدو » حينما رأوا هزيمة هؤلاء الأمراء سارعوا باغلاق أبواب مدينتهم على أنفسهم ، عندئذ كاد المهزومون يجنون عندما أوصدت أبواب المدينة فى وجوههم ، وأخذوا يصيحون ويصرخون ويثبون فى الهواء ، حتى أثار ذلك عطف أهل المدينة عليهم ، فشرعوا فى إنقاذهم بادلاء حبال ليتعلق بها هؤلاء المنكوبون ، ثم يرفعون إلى أعلى السور ، هذا بينما رماح المصريين وسهامهم تحصد أرواح الباقين .

ودارت الدائرة على مدينة « مجدو » ، حينما قام « تحتمس الثالث » بضرب الحصار عليها لمدة سبعة أشهر ، إلى شهر ديسمبر من نفس العام ، ولما أن خاب كل رجاء للمحاصرين فى النجاة من قبضة الحصار المصرى، خرج المحاصرون يحاولون استدرار عطف « الفرعون » عليهم ، بارسال أطفالهم حاملين أسلحتهم لتقديمها إلى « تحتمس الثالث » كمحاولة لنيل عفوه عنهم . وتصف النقوش المصرية القديمة موقف أهل المدينة المحاصرين بهذا الوصف « يقفون فوق الأسوار ، يرددون المديح لجلالتى ، يسألون أن أمنحهم أنفاس الحياة » . . .

ولقد برهن « تحتمس الثالث » على عظمته كرجل دولة محنك عندما أصدر عفوا عاماً بشأنهم ، بعد أن كان السائد فى هذا الزمان أن المنتصر يقتل أعداءه شر قتلة ، إلا أن فرعون مصر قد اكتفى ، بدهائه وفراسته ، أن يؤدوا قسم الولاء له طوال حياتهم ، كما سمح لهم بالعودة إلى بلادهم ليستأنفوا حكمها تحت مراقبة المفتشين والحاميات المصرية ولكى يضمن ولاءهم ، عمد إلى جمع أبناء هؤلاء الأمراء وأرسلهم إلى مصر كرهائن على أن يتم تعليمهم وتثقيفهم بالثقافة المصرية لكى يعود هؤلاء الأبناء كحكام على مدنهم وقد تشبعوا بالثقافة المصرية ، وعمرت أفئدتهم بالولاء لمصر ، وأحاطت عقولهم بتصور السلام لدى المصريين .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، غنم الجيش المصرى غنائم كثيرة من هذه المعركة ، فمن تماثيل للأمراء مصنوعة من الأبنوس المحلى بالذهب ، وحجر اللازورد إلى الطنافس والمخفات والأسرة المطعمة إلى أعداد كبيرة من الماشية منها عشرون ألف رأس من الضأن ، وألفان من الماعز هذا بالإضافة إلى ما غنموه من عتاد حربى مثل : تسعمائة وأربع وعشرين عجلة حربية ، وألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصاناً . . وتذكر النصوص المصرية القديمة تلك الغنائم بقولها « كانت بساتينهم ملأى بالفواكه ، ووجدنا النبيذ فى دنانهم ، كالماء فى كثرته ، وكانت حبوبهم فى الأجران بعد درسها أكثر من رمال الشاطىء ، واستولى الجيش على ما زاد عن حاجته ، وهذا ما جعل جيش جلالته ثملا ومعطرا بالزيت فى كل يوم . كما لو كان فى أيام الأعياد فى مصر » . . .

سوف تظل معركة « مجدو » ، التى حدثت منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام — إحدى المعارك الخالدة لا فى تاريخ مصر وحدها . بل فى تاريخ العالم أجمع ، بما حوته من تطبيق سليم لمبادئ الحرب الاستراتيجية العسكرية ، كما ستظل أيضاً درة ناصعة فى عقد التاريخ المصرى القديم . وقد أسفرت هذه المعركة عن « تحتمس الثالث » كقائد من عظماء القادة العسكريين فى التاريخ القديم ، وكمؤسس لمبادئ الحرب والاستراتيجية العسكرية الصائبة .

الفصل الرابع

رعمسيس الثانى ومعركة قادش

رعمسيس الثانى (١٣١٢ — ١٢٢٤ ق. م)

حفل التاريخ المصرى بأعلام شامخة من الحكام والقادة العسكريين ، برز من بينهم علم ، رفرف طويلا فى سماء مصر ، وظل إسمه مدوياً فى آذان العصور ، ذلكم هو « رعمسيس الثانى » ، ملك من أعظم ملوك العالم القديم ، وصفته الوثائق المصرية القديمة بأنه « أشجع الشجعان » ، مؤسس الإمبراطورية المصرية الثانية فى تاريخ مصر القديم . . تولى الحكم بالاشتراك مع والده الملك « سيتى الأول » جريا على سنة بعض الفراعنة ، وكان عمره وقتذاك ستة عشر عاماً ، وحينما توفى والده بعد ست سنوات ، تولى حكم مصر وعمره إثنان وعشرون عاماً ، وظل حاكماً لمصر لفترة طويلة امتدت سبعة وستين عاماً متصلة ، ثم وافاه الأجل عام ١٢٢٤ ق . م ، على وجه التقريب ، وقد ناهز عمره التسعين سنة .

الإمبراطورية المصرية الثانية :

دخلت مصر فى عصرجديد ، نتيجة الثورة الدينية التى رسم ملامحها الملك « أمنحتب الرابع » من الأسرة الثامنة عشر ، والملقب باسم « اخناتون » ، وكانت الثورة تستهدف توحيد الآلهة جميعهم فى إله واحد ، وما ان حل عام ١٣٠٦ ق . م ، حتى زال حكم الأسرة الثامنة عشرة ،وتقلدت الأسرة التاسعة عشرة مقاليد الحكم فى مصر ،وانطلقت هذه الأسرة للعمل بدون كلل لكى تستعيد مصر ممتلكاتها فى غرب آسيا ، التى فقدتها نتيجة المشاكل الداخلية والصراعات الدينية . واعتنق ملوك هذه الأسرة الأفكار والمبادئ المصرية التى سادت بعد عملية التحرير الأولى لمصر من السيطرة الأجنبية ، وهى العقيدة ذاتها التى تقول إن أفضل طريقة للدفاع هى الهجوم ، وأن الدفاع عن سلامة واستقرار وأمن مصر لن يتحقق إلا ببسط النفوذ المصرى على مواطن الخطر فى غرب آسيا والنوبة وشمال السودان لا فى الانتظار للدفاع عن مصر عند حدودها الدولية .

ووقع العبء الأكبر فى استعادة هذه الممتلكات على كاهل ملكين عظيمين من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، هما : الملك « سيتى الأول » الذى حكم مصر من عام ١٣٠٤ — إلى — عام ١٢٩٠ ق . م . والملك « رعمسيس الثانى » الذى ظل يحكم مصرمن عام ١٢٩٠—إلى عام ١٢٢٣ ق. م . والأخير هو مؤسس الإمبراطورية المصرية الثانية فى التاريخ المصرى القديم ، تمييزا لها عن الإمبراطورية الأولى التى أسسها « تحتمس الثالث » قبل ذلك بحوالى مائتى سنة .

السياسة الداخلية :

أرسى « رعمسيس الثانى » دعائم ملكه على مبدأ « العدل أساس الملك » والعدل يتطلب صرامة لتنفيذ القوانين إذ لا يكفى أن يرتفع شعار بل يجب أن تتوفر ضمانات الوصول إليه ، وقد توفرت لهذا الفرعون صفات عظيمة وسمات

شخصية أهله للملك ، فكان صارماً فى تنفيذ قوانين العدالة ، لدرجة أنه يعاقب كل من يتعدى على ملكية الغير وبخاصة المعابد المصرية بجدع أنفه ، وجلده مائة جلدة ، وكيه بالنار ، ويكون ملزماً بدفع غرامة تبلغ أحياناً مائة ضعف لما اغتصبه .

كما استطاع « رعمسيس الثانى » أن يحفر إسمه فى التاريخ المصرى القديم بما شيد من المبانى والعمائر الضخمة ، فى طول مصر وعرضها ، عمراناً لا مثيل له فى السابق أو اللاحق . . فأقام معبد « أبو سمبل » على نهر النيل مباشرة جنوبى أسوان ، ويعتبر أعظم بناء منحوت من الصخر فى تاريخ البشرية ، ويذكر بالفخر له أيضاً معبد « الرمسيوم » على الضفة اليمنى للنيل فى مدينة « طيبة » (الأقصر الحالية) . وصارت مصر فى عهده مركز إشعاع أدبى وفنى حيث ازدهر الشعر والنثر والملاحم والعمائر بصورة متميزة .

وحتى يتمكن « رعمسيس الثانى » من السيطرة على تلك الإمبراطورية المصرية المترامية الأطراف ، وليكون قريباً من الممتلكات المصرية بغرب آسيا وفى ليبيا ، قام بنقل عاصمة مصر من طيبة إلى عاصمة جديدة بشرق الدلتا أطلق عليها إسمه وسماها بـ « رعمسيس » ومكانها بلدة « قنتير » الحالية جنوب بلدة فاقوس بمحافظة الشرقية .

حصن « رعمسيس الثانى » مصر بأعظم جيش وأعظم أسطول أخضع بهما شعوب العالم القديم ، فحارب « شردانا » وهم أهالى جزر البحر المتوسط ، كما حارب « التمحو » ، أى أهالى ليبيا ، وتمكن من إخضاع بلاد النوبة بالإضافة إلى الإمارات الآسيوية فى سوريا وشمالى العراق وآسيا الصغرى ولبنان وفلسطين . وقد نقش انتصاراته على معابده بطيبة فى ملحمة « قادش » التى تعد أول ملحمة كتبت فى التاريخ . وتصف الإمارات والدول التى انتصر عليها وانضوت تحت النفوذ المصرى :

« بداية انتصارات ملك الوجه القبلى والوجه البحرى » :

« وسر ما عت ستبن رع ، إبن الشمس ، محبوب آمون ، رعمسيس معطى الحياة مخلدا ، وقد أحرزها على بلاد خيتا (آسيا الصغرى) وبلاد نهرنيا (شمال العراق) ، وبلاد أرثو (جنوب غربى آسيا الصغرى) وبلاد بدس (شمال سوريا) وبلاد دردنى (منطقة الدردنيل) وأرض مأسا ، وأرض قدقيشيا ، وأرض لك ، وبلاد كركيس ، وأرض قدى ، وأرض كاتا ، وبلاد موشنات وجميع الأراضى الواقعة فيما بين العراق وسوريا وتركيا . وقد لقبه الشعب المصرى « أشجع الشجعان » . وجاء فى وصف شجاعته وبطولته على جدران المعابد المصرية القديمة : « . . لا مثيل له فى الرماية ، وقوته تفوق مئات الألوف مجتمعين ، وهو الزاحف فى المقدمة ، الموغل فى الجموع ، وقلبه مفعم بالشجاعة ، القوى حين ينازل القرن ، كالنار عندما تلتهم ، الثابت القلب كالثور ، المتأهب لساحة القتال ، لا يجهله أحد فى الأرض قاطبة ، وهو من لا يقدر ألف رجل أن يثبتوا أمامه ، وهو من يتخاذل مئات الألوف عند رؤيته . . . » .

« ومات رعمسيس الثانى عام ١٢٢٣ ق . م ، عن عمر يناهز التسعين عاماً ، بعد أن سطر اسمه فى تاريخ مصر القديمة ، كملك من أعظم ملوكها ، ومؤسس إمبراطوريتها الثانية ، صاحب أكثر عدد من العمائر الضخمة التى شيدها إنسان فى تاريخ البشرية ، بطل معركة « قادش » وأشجع شجعان العالم القديم كله » .

معركة « قادش » :

أدت الصراعات الداخلية الناجمة عن الثورة الدينية ، بقيادة « اخناتون » إلى استنفاد جهد حكامها لإخماد تلك الفتن ، وتراخي قبضتهم على أجزاء كثيرة في فتوحاتهم في غرب آسيا التي كان « تحتمس الثالث » قد أحكم سيطرته عليها قبل ذلك بحوالى قرنين من الزمان ، هذا بالإضافة إلى أن أمراء تلك الفتوحات الذين كانوا يدينون بالولاء والطاعة لمصر أخذوا يتصارعون فيما بينهم . وأدى ذلك كله إلى أن انتهز « الحيثيون » المتمركزون في آسيا الصغرى ، هذه الفرصة ، وشرعوا في بسط نفوذهم على شمال ووسط سوريا ، وأخذوا يؤلبون الممالك والمدن الآسيوية في محاولة لتوحيدهم ضد مصر ، مستهدفين إحلال نفوذ « الحيثيين » محل نفوذ المصريين .

في هذا الجو المشحون بالفتن ، الحافل بالصراعات الداخلية سواء في داخل مصر نفسها أو في داخل فتوحاتها زال حكم الأسرة الثامنة عشرة ، وجاءت الأسرة التاسعة عشرة لتتولى مقاليد الحكم في مصر عام ١٣٠٦ ق . م ، ويعزى قيامها إلى القضاء على الفتن التي استشرت نتيجة للثورة الدينية ، وكذلك استعادة سيطرة مصر على فتوحاتها الخارجية ، وعلى أكتاف ملكين من ملوك هذه الأسرة هما : « سيتي الأول » (من ١٣٠٤ – إلى ١٢٩٠ ق . م) ، و « رعمسيس الثاني » (من عام ١٢٩٠ – إلى ١٢٢٣ ق . م) وقع عبء إنجاز هذه الأهداف ، وتأسيس الإمبراطورية المصرية الثانية .

في هذا الوقت ، كانت هناك دولة فتية هي مملكة « خيتا » بزعامة الملك « مواتالو » ، يقوم بادارة سياستها « الحيثيون » بآسيا الصغرى (تركيا) ، وكان فرعون مصر : « سيتي الأول » قد دخل في صراعات طويلة مع هذه الدولة لاسترداد الفتوحات المصرية بآسيا الصغرى ، ولكنه حتى وفاته لم يكن قد تمكن من إتمام هذه المهمة إلا أنه قام بتوقيع معاهدة سلام معها إلى أن تحين الفرصة المواتية ، في وقت لاحق لاستعادة تلك الفتوحات . وكانت تلك المعاهدة لكلا الطرفين مسألة هدنة مؤقتة ؛ حيث سعى الملك « مواتالو » في محاولة لتجميع أمراء أقاليم آسيا الصغرى وشمال سوريا وشمال العراق ضد مصر ، كما انضم إليه أقوام من « الشاسو » أي البدو المقيمين في فلسطين وسوريا ، وبذلك أصبح تحت قيادته جيش كبير جرار من العسكريين ، متحفز للقيام بمسح أي أثر للنفوذ المصري في آسيا ، ومحاولا ، بكل ما لديه من وسائل ، إثارة الفتن ، وإشاعة الاضطراب في البلاد الواقعة تحت السيطرة المصرية مستهدفاً استبدال النفوذ المصري بنفوذ الحيثيين وبسط سلطانه على تلك الأقاليم .

إعداد الدولة للحرب :

اعتنق « رعمسيس الثاني » مبدأ الهجوم كدفاع وقائي ضد أعدائه ، لذا نجده منذ بدء توليه حكم مصر عام ١٢٩٠ ق . م . وهو يخطط للقضاء على تحالف الأمراء الآسيويين ضد مصر قضاء نهائياً ؛ فسارع بالاستيلاء على ساحل فينيقيا (لبنان) حتى وصل إلى بيروت ، وأقام لوحة تبين حدود إمبراطورية مصر عند شاطئ النهر « الكلب » ، وفي نفس الوقت راح يحصن المدينة المصرية التي أقيمت عند مصب نهر « الكلب » وهي « مرى آمون رعمسيس ماعت » وذلك كقاعدة بحرية له تستقبل إمداداته البحرية من مصر حتى لبنان ، إلى أن يتم دفعها بعد ذلك داخل الأراضي السورية .

تنظيم الجيش المصرى :

وعندما انتهى « رعمسيس الثانى » من « استعداداته العسكرية » كان رهن إشارته جيش مصرى من أرقى ما عرف العالم من جيوش تدريباً وتنظيما وتسليحاً . . كان مقسما إلى أربعة فيالق ، كل فيلق يحمل إسم إله من الآلهة المصرية وهى « آمون » و « رع » و « بتاح » و « ستخ » ، هذا بالإضافة إلى قوة خاصة أطلق عليها « جنود الفرعون الشباب » « نعرن » وبلغ تعداد الجيش ما بين خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفا ، وهو عدد ضخم حينذاك ، نظرا لمشاكل التموين والتحرك من مصر إلى سوريا .

تنظيم جيش « خيتا » :

هذا الجيش كان يتكون من فيلقين من المشاة ، يتراوح كل منهما من ثمانية آلاف إلى تسعة آلاف ، بالإضافة إلى عدد ضخم من عربات القتال يقدر بحوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة عربة ، كل عربة تحمل ثلاثة من المقاتلين ، وبذلك يصبح إجمالى هذا الجيش مماثلا للجيش المصرى أى ما بين خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاًمن المقاتلين ، ويضاف إلى كل جيش من الطرفين العربات والأفراد القائمون بالنواحى الإدارية والحراسة .

خطة الهجوم المصرية :

وضع « رعمسيس الثانى » هدفاً نصب عينيه وهو ضرب تجمعات الأعداء بقيادة ملك « خيتا » ، المجتمعين فى مدينة « قادش » السورية ، وهى مدينة لها صيتها حينذاك نظراً لموقعها الاستراتيجى الواقع على نهر العاصى بالقرب من مدينة « حمص » السورية الحالية .

وترجع هذه الأهمية الاستراتيجية إلى ما تتمتع به من موقع يتحكم فى النهاية الشمالية لإقليم البقاع اللبنانى ، وكان لزاماً على أى قوات متجهة من لبنان إلى داخل سوريا أن تمر بهذا المكان .

تحرك « رعمسيس الثانى » بجيشه ، من قلعة « ثارو » (القنطرة الحالية) ، فى اليوم العاشر ، من الشهر التاسع ، من العام الخامس لحكمه أى فى يوم ١٧ ابريل عام ١٢٨٥ ق . م تحرك من «ثارو » وسار بجوار ساحل البحر الأبيض المتوسط وذلك حتى وصل إلى القاعدة البحرية المصرية « مرى آمون رعمسيس ماعت » ، التى كان قد أقامها على مصب نهر الكلب بلبنان ، ومنها انطلق غرباً إلى الداخل فى اتجاه مدينة « قادش » وتقدر المسافة بين المكانين بحوالى ثلاثمائة وتسعين ميلا ، قطعها فى ثلاثين يوماً ، بمتوسط ثلاثة عشر ميلا فى اليوم الواحد ، وتلك سرعة قياسية حينذاك ، توضح مدى الجهد الذى بذله الجيش المصرى فى اجتياز تلك المسافة فى هذا الوقت القصير نسبياً نظراً لإمكانيات ذلك العصر .

وحينما وصل « رعمسيس الثانى » إلى الهضبة الواقعة جنوبى « قادش » ، الموجودة الآن عند قلعة « المرمل » ضمن هضاب وادى البقاع اللبنانى ، عسكر هناك للراحة والاستعداد ، بعد هذا السير الطويل المضنى ، وكان بينه وبين مدينة « قادش » نفسها مسيرة يوم كامل ، ثم استأنف السير بعد ذلك جهة الشمال فى اتجاه المدينة ، وقد سار بحذاء الضفة الشرقية لنهر « ألانت » (نهر العاصى الحالى) ، وكان على رأس فيلقه « آمون » وتتبعه على مسافات متفاوتة الفيالق الثلاثة الأخرى .

اعتقد « رعمسيس الثانى » أن جيش العدو لا يزال بعيداً فى اتجاه الشمال ، وعند اقترابه من إحدى مخاضات نهر ألانت الواقعة عند بلدة « شيتونا » (ربلة الحالية) ، حضر إليه جاسوسان من العدو ، وأخبراه كذباً بأنهما ومواطنيهم يرغبون فى التخلص من جيش « خيتا » والإنضمام إلى المصريين ، وأن الملك نفسه قد تقهقر إلى مدينة « حلب » ، السورية ومعه جيشه ، علاوة على أن الروح المعنوية لدى جيش الأعداء متدهورة ، وهو لا يرغب فى قتال المصريين .

صدق « رعمسيس الثانى » كلام الجاسوسين ، فأسرع على رأس فيلقه « آمون » فى محاولة لاحتلال « قادش » التى ظنها خالية من العدو ، بينما كان ملك « خيتا » وجيشه مختبئين شمال شرق مدينة « قادش » ، وعندما وصل « رعمسيس الثانى » فى تحركه إلى مكان غرب مدينة « قادش » على الضفة الغربية من نهر « ألانت (العاصى الحالى) ، وكان يحيط به حرسه الخاص فقط ، عسكر هناك وقت الظهيرة ، انتظاراً لوصول باقى قوات الفيلق « آمون » ، أما الفيلقان : « رع » و « بتاح » فكانا على الطريق يقومان باختراق غابة « أرنانانى » ، بينما كان فيلق « ستخ » فى المؤخرة بعيداً عن باقى القوات المصرية .

هجـــوم الحيثيين :

فى ظل هذا السلام ، من وجهة نظر « رعمسيس الثانى » الذى كان جالساً على أريكته الذهبية ، جىء بالجاسوسين السابقين المقبوض عليهما حيث أفشيا الأخبار الصحيحة وهى أن ملك « خيتا » ليس فى مدينة « حلب » بل هو على وشك الهجوم من موقعه الآن ، من مدينة « قادش » نفسها .

وسرعان ما أدرك « رعمسيس الثانى » خطورة الموقف ، فبادر بارسال وزيره إلى فيلق « رع » الذى كان قد انتهى من عبور النهر وأصبح على مقربة من مؤخرة فيلق الفرعون « آمون » ، وذلك لتحذيره من هجوم العدو المباغت ، ولكن قبل أن يصل الوزير إلى الفيلق لتحذيره كان العدو قد شن هجومه على فيلق « رع » الذى أخذته المفاجأة ، فانطلق جنوده مهرعين إلى معسكر الفرعون ، والعدو يتعقبهم فى مطاردة وحشية وقد ساد الرعب وانتشر الفزع والهلع .

اســـتعادة التوازن :

فى الليلة الظلماء يفتقد البدر ، فى هذا الوقت العصيب ، من تلك المعركة الفاصلة فى التاريخ القديم ، أظهر « رعمسيس الثانى » كفاءته ومهارته العسكرية كقائد من ألمع القادة فى العالم القديم ، وكأشجع الشجعان كما حكت عنه الأساطير المصرية القديمة ، إذ استطاع أن يحيل الهزيمة إلى نصر ، هزيمة الجيش المصرى الميئوس منه ، الذى بددته المفاجأة ، ومزقت صفوفه ، قد تحولت إلى نصر عندما راح القائد « الفرعون » يلملم فلول المذعورين من فيلقى : « آمون » و « رع » ، وثبت يقاتل بكل بسالة جيش عدوه الملك « خيتا » ، وعندما استعادت قواته توازنها نتيجة حنكته وبراعته ، كانت بقية جيوشه قد أشرفت على الوصول ، يتقدمهم القوات الخاصة والمسماة « جنود الفرعون » « الشباب. نعرن » .

وعندما رأى جيش « خيتا » ذلك الطوفان المغرق الهادر من رجال العسكرية المصرية ، ولى هاربا ، وقد منى بخسائر فادحة ، وكان من بين القتلى كثير من أسرة الملك وموظفيه .

نتـــائج معركة « قادش » :

كان لموقعة « قادش » نتائج سياسية بعيدة المدى أهمها :

تكوين الإمبراطورية المصرية الثانية :

حيث مهدت هذه المعركة الطريق أمام مصر لتكوين إمبراطوريتها الثانية ، كما زرعت الثقة وأثمرت الكفاءة العسكرية للفرعون « رعمسيس الثانى » وجيشه ، تلك الثقة التى آزرته فى حروب امتدت خمسة عشر عاماً متتالية بعد هذه المعركة ، ومكنته من إنجاز انتصارات عسكرية متتابعة ، ووطدت نفوذ وسيطرة مصر على إمبراطوريتها خلال الفترة التاريخية اللاحقة من حكم الأسرة التاسعة عشرة .

تأمين حـــدود مصر :

فقد كان للهزيمة النكراء ، التى حاقت بتحالف الأمراء الآسيويين المتآمرين ضد مصر ، فى تلك المعركة ، والشجاعة الفائقة التى أبداها الفرعون والجيش المصرى ، أثرها فى أنه لم يدر بخلد أية دولة أو مدينة فى العالم القديم فكرة تنازع السيطرة أو النفوذ المصرى طوال فترة حكم « رعمسيس الثانى » .

معاهدة ســلام :

وعندما مات ملك « خيتا » « مواتالو » ، وتولى حكم مملكته أخوه « خاتوسيل » ، سارع بتقديم الصداقة والولاء لفرعون مصر وأبرم معاهدة سلام دائم مع مصر عام ١٢٧٠ ق . م ، تعتبر نموذجاً فريداً فى تاريخ العلاقات السياسية بين البلدين فى هذا الماضى العتيق . واحتوت المعاهدة على الأقسام الهامة التالية :

احتوى القسم الأول على مقدمة تاريخية عن الحروب بين مصر « وخيتا » وتأكيدا على أن الملكين الحاليين ينبذان الحرب ويريدان السلام .

وشمل القسم الثانى اهتماماً ملحوظاً على عدم الاعتداء المتبادل ، وأن أمير « خيتا » لن يقوم ــ من الآن ــ بأى اعتداء على مصر ، أو يأخذ منها شيئاً ، والمقصود بأرض مصر هنا هى فتوحاتها فى آسيا .

وتضمن القسم الثالث ما يمكن أن نسميه « حلفاً دفاعياً » بين مصر و « خيتا » ضد أية قوة ثالثة تحاول أن تنازع أياً منهما فى ممتلكاتهما ، وكذلك ضد أية ثورات محلية داخلية .

وتناول القسم الرابع موضوع تسليم اللاجئين السياسيين إلى بلادهم ، سواء كانوا من ذوى النفوذ « أمراء أو نبلاء » أم كانوا مواطنين عاديين ، مع معاملتهم معاملة حسنة ، وعدم التعرض لهم بقتل أو تشويه أو حرمان من العائلة أو البيت .

وتعرض القسم الخامس ، لما تعرضت له وثائق هذا العصر القديم من ذكر أسماء الشهود الذين حضروا توقيع المعاهدة ، ويكونون من الآلهة ، كما هى العادة ، طبقاً للعقائد القديمة ، وإذا كان كل من الملكين قد أقسم اليمين أمام تلك الآلهة الشهود ، فإن نقض المعاهدة يعتبر من أبشع الذنوب . و قد كتبت المعاهدة على لوحين من الفضة ، احتفظ كل طرف بلوح منها .

استرضاء مصر :

وأفضت تلك المعركة فيما بعد إلى أن سعى الملوك والأمراء الآسيويون يخطبون ود مصر ، ويتحفون فرعونها بالهدايا والعطايا ، اتقاء لغضبها عليهم ، لدرجة أن سارع ملك « خيتا » نفسه ، بتقديم إبنته كزوجة لفرعون مصر « رعمسيس الثانى » ، إظهاراً للولاء له ، وتم هذا الزواج عام ١٢٥٦ ق . م .

الأمن والطمأنينة :

عاشت مصر بعد معركة « قادش » فترة سلام ناعمة بخيرات امبراطوريتها العظيمة ، وتحت حكم ملكها « رعمسيس الثانى » الذى رفعته تلك المعركة إلى مصاف الأبطال فى التاريخ القديم ، لما كان لها من نتائج طيبة على المدى البعيد . . . وكما تذكر النقوش المصرية القديمة « أشجع الشجعان صد جميع البلاد بالرهبة منه ، بينما شجاعة جلالته هى التى حمت جيشه ، فقدمت جميع البلاد الأجنبية المديح لمحياه الجميل » . . .

لقد كانت معركة « قادش » ملحمة شجاعة وصمود ، وبطولة نادرة للجيش المصرى بكل المعايير والمقاييس العسكرية الحديثة .

الباب الثانى

مصر الإسلامية

الفصل الأول

فتح مصر (*)

تمكنت جيوش المسلمين بعد أن قهرت الروم فى معارك الشام من توطيد أقدامها فى هذه البقاع فأصبحت مسيطرة على مدن الشام وفلسطين جميعها سنة ١٧ هـ عدا قيسارية التى أتمت سبع سنوات تحت الحصار حتى فتحها الله على المسلمين سنة ١٩ هـ بقيادة معاوية بن أبى سفيان . . كما أن العراق بعد أن فتحها خالد بن الوليد ترك عليها المثنى إبن حارثة سنة ١٢ هـ بعد أن يئس ملك فارس من قتال المسلمين كما أن هذا الملك مات قبل وفاة أبى بكر وحدثت منازعات عدة فى دولته بين خلفائه وأراد المثنى بن حارثة أن يستغل هذا الخلاف وأقام أحد قادته يقال له « أبو عبيد » جسرا شرق الحيرة فجاءه رستم قائد الفرس على رأس أربعة آلاف ومعهم عدد من الفيلة وحدثت معركة عنيفة سميت معركة « الجسر » انحاز بعدها المسلمون إلى أليس « وكان ذلك فى رمضان سنة ١٣ هـ ، ثم جرت عدة معارك صغيرة بين العرب والفرس فى هذه البقاع على مدى سنتين حتى أرسل عمر سعد بن أبى وقاص فتمكن من هزيمة رستم فى موقعةالقادسية فى آخر سنة ١٦هـ ، ثم توجه جيش المسلمين فى أعقاب الفرس وخاضوا دجلةسباحة ،واستولوا على المدائن ثم على حلوان وأغاروا على الأراضى شرق دجلة ثم اتجه سعد بن أبى وقاص إلى الحيرة وهزم الفرس فى معركة « جالولاء » وأكمل السيطرة على أرض الجزيرة بين النهرين وكان ذلك خلال العام ١٩ هـ .

التفكير فى فتح مصر :

فكر عمرو بن العــاص فى فتح مصر عقب هروب أرطبون الروم من فلسطين إلى وادى النيل وعرض الأمر على عمر بن الخطاب فى الجابية بعد فتح بيت المقدس سنة ١٦ هـ وكان يرمى من وراء ذلك أن يطرق الحديد وهو ساخن فيقضى على بقية جيش الروم قبل أن يتحصن فى مصر وهى بلد عرفت بكثرة خيراتها . كما أن عمرا كان يعرف أن هناك خلافا مذهبيا بالغ العنف بين أقباط مصر وحكامها من الروم .

ولـكن عمر بن الخطاب لم يفكر فى التوسع بعد . . كما أن الشام لم تكن قد خضعت كلها بعد لسلطان المسلمين فأجل تنفيذ رغبة عمرو . وما أن انقضى عام ١٧ هـ حتى تعرضت العراق والشام لطاعون عمواس الذى فتك بعدد كبير من المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان حتى بلغ عدد من مات فى هذا الوباء منهم ٢٠ ألفا وكان ذلك سببا كافيا ليدع عمر التفكير فى فتح مصر . حتى انتهى ذلك الوباء فى عام ١٨ هـ .

والتقى عمرو بن العاص بالخليفة عمر مرة أخرى فى الشام وفاتحه فى شأن المسير إلى مصر وظل به حتى وعده بأن يكتب إليه بعد عودته إلى المدينة — وكان عمرو مرابطا عند قيسارية عندما جاءه الإذن من الخليفة بالتحرك إلى

(*) وزارة الدفاع — هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكرى » — المستوى الأول .

وادى النيل فترك ابنه عبد الله مع معاوية بن أبى سفيان على قوات الحصار وتحرك مع جيشه فى ذى الحجة عام ١٨هـ إلى مصر .

حالة مصر قبل الفتح الإسلامى :

كانت مصر دولة مستقلة يحكمها المصريون منذ أن طرد أحمس المكسوس فى القرن ١٦ ق . م (١٥٧٠) ق . م وذلك لمدة ٦٢٠ سنة ثم تعرضت لحكم الليبى حوالى ٢٠٠ سنة وأغارت عليها النوبة سنة ٧٥١ ق . م حوالى مائة سنة ثم تركوا حكمها للاشوريين وتمكنت من الاستقلال بعد ذلك على يد الملك بسمتك سنة ٦٦٣ ق . م .

ولم يدم استقلال مصر طويلا فقد تعرضت للغزو الفارسى الأول بواسطة قمبيز سنة ٥٢٥ ق . م وحكم الفرس مصر حتى سنة ٣٣٢ ق . م عندما فتحها الاسكندر الأكبر وهزم الفرس وظلت مصر ولاية مقدونية واستقل بها بطليموس (أحد الولاة اليونانيين) وقامت بها دولة البطالمة حتى انتهت بموت كليوباترا ودخول الرومان مصر سنة ٣٦ ق . م .

وهكذا أصبحت مصر ولاية رومانية دخلتها التعاليم المسيحية ودانت كلها بهذا الدين وكانت عاصمتها الإسكندرية خلال دولة البطالمة وأثناء حكم الرومان ولذلك قل شأن « منف » العاصمة القديمة ،وكذا مدينة أون (عين شمس) حيث حظت الإسكندرية بأكبر اهتمام خلال قرون الحكم الرومانى .

وحدث قتال بين الروم والفرس فى مصر عندما حاول الفرس العودة إليها سنة ٦١٦ م وأقاموا بها تسع سنوات ثم تمكن هرقل من اجلائهم وكان ذلك خلال بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت الآيات « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

عهـد الإضطهاد الأعظم :

كان حاكم مصر فى ذلك العصر من قبل هرقل هو المقوقس، وقد عينه الامبراطور الرومانى ليحمل أهل مصر على الإلتزام بالمذهب الموحد الذى أقره أساقفة الشام و بيزنطة ولكن المصريين عارضوا هذا المذهب وتمسكوا بمذهبهم فلجأ إلى حملهم على ذلك بالقوة واستخدم فى ذلك أسلوباً وحشياً شمل جميع أنواع التعذيب حتى سمى هذا العهد « بالاضطهاد الأعظم » وقد دام عشر سنوات وكان أكثر من عانى من هذا التعذيب أساقفة مصر الاقباط وهاجر كثير من المصريين إلى بلاد النوبة وأثيوبيا . هربوا بدينهم من اضطهاد الروم . وساء حكم الرومان فى هذا العهد فقد استولوا على غلات البلاد ومصنوعاتها ، واعتبروا الأرض ملكاً لهم وفرضوا مزيداً من الضرائب على المصريين بل إن القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر تعطلت فى عهد « فوكاس » قبل دخول الفرس إلى البلاد ولم يهتم أحد بإعادتها فتدهورت التجارة وكانت كل هذه العوامل سببا فى بغض المصريين لحكم الروم .

طبيعة أرض مصر فى عصر الرومان : (لوحة رقم ١٣) :

وقد كانت طبيعة أراضى مصر تختلف فى ذلك العهد عن عصرنا الحاضر فقد كان النيل سبعة أفرع متفرع جميعها شمالى مدينة منف العاصمة القديمة وتصب فى مياه البحر المتوسط فيما بين شرق بور سعيد بحوالى ٢٤ ميلا إلى شرق الإسكندرية ويخرج من هذه الفروع عدد كبير من الترع لتغطى شمال مصر حتى كانت الأراضى الخضراء

تغطى المنطقةمن الفرما شرقاً حتى اقليم برقة غرباً . . كما كانت آثار القناة المحفورة بين النيل وخليج السويس لازالت باقية ولكنها معطلة منذ زمن قريب ، وهى ممتدة من النيل إلى البحيرات المرة ثم إلى الخليج . .

أما سيناء فلم يكن بها اختلاف عن وضعها الحالى إلا أن الطريق الذى كان معروفاً فى ذلك الوقت هو الطريق الساحلى الشمالى (٦٠) ويمتد من العريش حتى الفرما وكان امتداد مصر جنوباً حتى بلاد النوبة عند أسوان .

أما أهم المدن فى مصر آنذاك ، فكانت :

العريش : وهى مدخل مصر من جهة الشرق . .

الفرما : وهى شرق بورسعيد الآن قريبة من البحر وتقع على الفرع الشرقى للنيل .

بلبيس : فى مكانها الحالى .

هليوبوليس : وقامت على انقاض مدينة أون القديمة وسميت عين شمس .

مصر : مدينة جديدة على النيل وتقع شرق النيل وتسمى أحياناً منف لأنها تقابلها على الضفة الأخرى .

منف : عاصمة مصر قديماً وكانت تنافس بجمالها الإسكندرية فى ذلك الوقت وتتميز عنها بوجود الأهرامات المتعددة حولها . وكانت تسمى أحيانا « مصر » .

الإسكندرية : تقع على ساحل البحر المتوسط شمال بحيرة مريوط وتحيط بها من الغرب ترعة تسمى ترعة الثعبان وكانت حصينة بأسوارها وحصونها رائعة فى عمارتها وزخرفتها وتحتوى على العديد من المعابد والكنائس والقصور البديعة .

نظام الدفاع عن مصر :

وكان الرومان قد ركزوا الدفاع عن مصر فى منف والإسكندرية ولكن ذلك لم يمنع من تواجد بعض الحصون فى أماكن متفرقة على طرق الاقتراب إلى أهم المناطق الخصبة وهى الدلتا وذلك على النحو التالى :

الدفاع عن مصر (منف) :

حصن بابليون :

هو أقوى الحصون فى ذلك الوقت وكان موقعه فى منطقة مصر القديمة اليوم وكان متين البنيان قوى الأسوار بناه الرومان ليكون حامية مدينة منف ويشرف بناؤه على مسافات بعيدة فى جميع الاتجاهات . ويقع الحصن على النيل وعليه أكبر أبوابه .

حصن الروضة :

ويقع على الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة . فيحقق بذلك الحماية لمدينة منف من جهة النيل ويتحكم فى أى تحركات من جهة الجنوب أو فى المجرى عموماً .

حصن أم دنين :

عند قرية أم دنين التى كانت فى موقع الأزبكية الآن وكانت على الفرع الشرقى للنيل وبها مرفأ سفن كثيرة وفيها حصن منيع .

الدفاع عن الإســـكندرية :

أما الدفاع عن الإسكندرية ، فقد تضمن :

حصن كريون الذى يتكون من عدد من الحصون المتجاورة المنيعة التى تقع إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية وقد وضعت فى طريق التقدم إلى العاصمة ، كذلك كانت أسوار الإسكندرية عالية ومنيعة وقد نصب الرومان خلفها المنجنيق وكانت حاميتها تبلغ ٥٠ ألف جندى .

الدفـــاع على طرق الاقتراب :

(أ) حصن الفـــرما :

يقع على هضبة قرب البحر المتوسط على الطريق إلى مصر من سيناء عند قرية الفرما وهو حصن منيع الأسوار له مرفأ على فرع النيل وبه كثير من التكدسات الإدارية . كما يمكن إمداده من النيل . ويعتبر الموقع الحصين الذى يحمى مدخل مصر الشرقى .

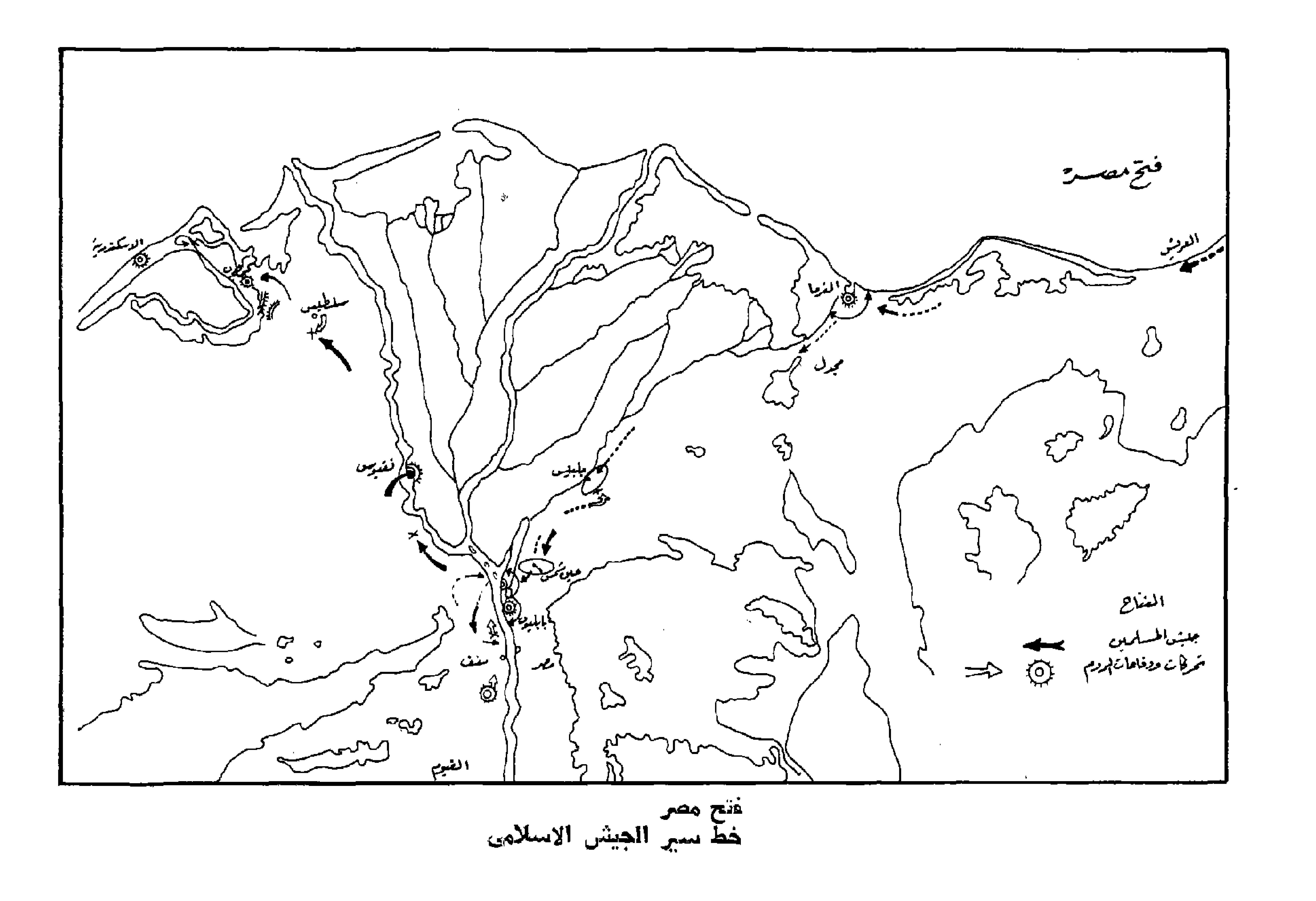
(ب) حصن نقيـــوس :

على الطريق بين مصر والإسكندرية شمال منوف على الفرع الغربى للنيل وعلى الضفة الشرقية له . ويتحكم فى الطريق إلى العاصمة .

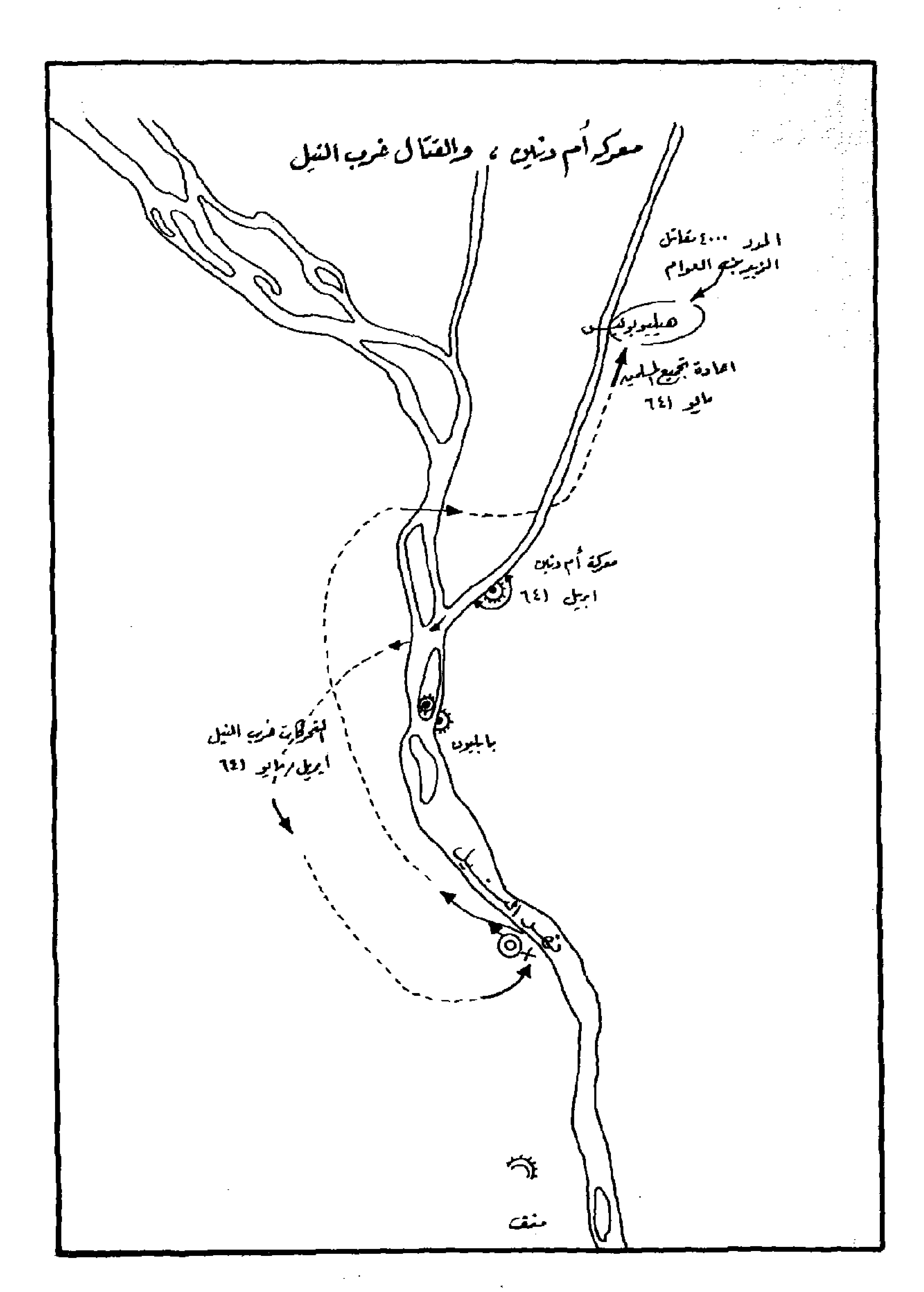
(ج) الدفـــاع عن الفيـــوم والصـــعيد :

وضع الروم قوة خفيفة الحركة مختفية فى مناطق النخيل غرب النيل شمال الفيوم لتكون بمثابة إنذار مبكر لقوات الدفاع عن الفيوم .

كما وضعت عدة وحدات من الجيش الرومانى فى الفيوم لمواجهة أى حملات تتجه جنوباً ولم يرد ذكر حجمها إلا أنها كانت من القوة بحيث يمكنها حماية صعيد مصر .

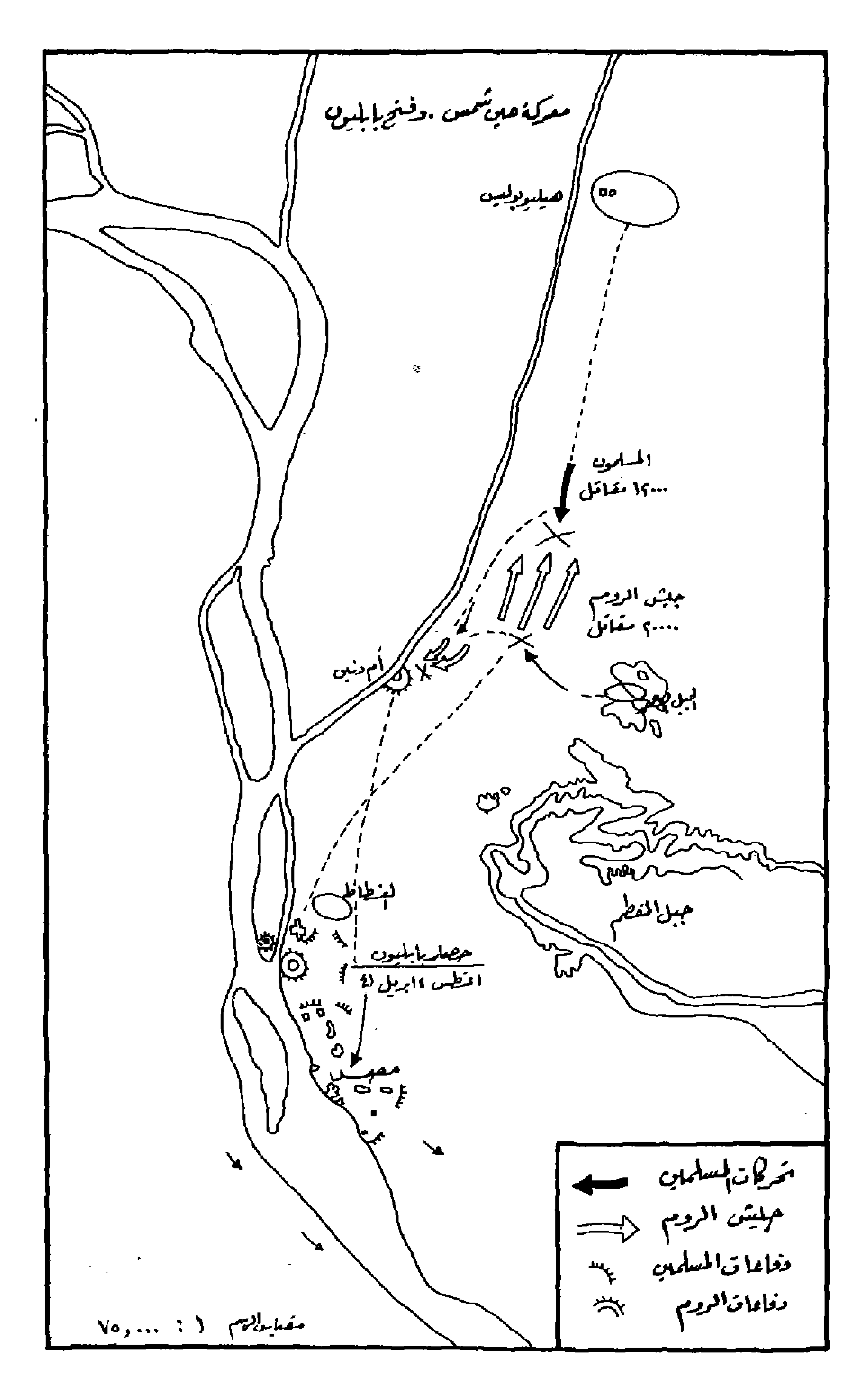


فتح مصر
خط سير الجيش الاسلامى



معركة أم دنين ، والقتال غرب النيل
المدد ٤٠٠٠ مقاتل
الزبير بن العوام
هليوبوليس
اعادة تجميع المسلمين
مايو ٦٤١
معركة أم دنين
ابريل ٦٤١
التحركات غرب النيل
ابريل / مايو ٦٤١
بابليون
نهر النيل
منف

فتح مصر



فتح مصر (مصر الاسلامية)

الفصل الثانى

معارك فتح مصر (*)

تحرك الجيش الإسلامى لفتح مصر :

ترك عمرو الجيش الذى يحاصر قيسارية كما هو وأخذ معه حوالى ٤٠٠٠ مقاتل فقط وأرسل مع رسول الخليفة يطلب مدداً من المدينة .

وتحرك عمرو بن العاص إلى العريش فبلغها يوم عيد الأضحى سنة ١٨ ﻫ الموافق ١٢ ديسمبر ٦٣٩ فدخلها بدون مقاومة ولم يكن بها أى قوات للروم . ثم تابع سيره غرباً بمحاذاة الساحل حتى بلغ الفرما ولم يصادفه أحد حتى بلغها .

حصار الفرما :

كان عمرو يتعمد التباطؤ فى تحركه حتى يدركه المدد الذى طلبه من الخليفة فلما بلغ الفرما وجد بها قوات للروم صدته عن دخولها فضرب عليها حصاراً . والغالب أن قوة الروم فى الفرما كانت كبيرة بدليل أن عمرو لم يجازف باقتحامها . ويؤكد ذلك أن المقوقس لم يبادر بارسال قوات أخرى لنجدتها .

معركة الفرما : (يناير ٦٤٠م) :

دام الحصار شهراً كاملا وكان الروم يدفعون خلال هذه الفترة بعناصر قتالية تهاجم الجيش المحاصر ثم ترتد إلى حصونها مرة أخرى مما يزيد من فاعلية الدفاع . . فلم يكن لدى عمرو ما يكفيه من الإمدادات الإدارية مما دفعه إلى إرسال كتائب من جيشه فى شتى الاتجاهات قامت بعمليات إغارة فى المناطق القريبة وجاءته بما يحتاجه من مطالب إدارية لإعاشة قواته .

عند ذلك رأى قائد الحصن الرومانى أن فترة الحصار قد طالت فقام بتنفيذ عملية بقوات أكبر بغرض تشتيت جيش المسلمين وفك الحصار ولكن المسلمين تصدوا لهم واشتد القتال حتى اضطر الروم للارتداد فانتهز عمرو الفرصة وأمر قواته بمضاعفة الضغط عليهم وتعقبهم حتى سبقوهم إلى أبواب الحصن فسيطروا عليه وتمكن عمرو من دخول المدينة وظفر بعدد كبير من جيش الروم وهدم بعض حصونها وأحرق السفن الراسية فى النيل وقتل من الروم عددا كبيرا .

معركة بلبيس : (مارس ٦٤٠ م) :

قام عمرو باحتلال مدينة الفرما فترك فيها جزءاً من جيشه لتكون معقلا يؤمن الطريق إلى فلسطين حتى يطمئن

(*) وزارة الدفاع – هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكرى » – المستوى الأول .

لوصول المدد إليه . وانضم إلى عمرو بعض قبائل البدو المحيطين بالمنطقة فضمهم إلى جيشه وتحرك يريد منف فمر بقرية « بجدل » ثم القصاصين حتى بلغ بلبيس فى فبراير سنة ٦٤٠ .

تحرك الأطربون [1] على رأس جيش قوامه ١٢،٠٠٠ من الفرسان وحاول أن يأخذ المسلمين على غرة ولكن عمرو كان دائماً على حذر فدارت معركة حامية قتل فيها عدد غير قليل من العرب كما قتل من الروم ١٠٠٠ قتيل وأسر ٣٠٠٠ وانهزم الأطربون وورد أنه قتل [2] وكان ذلك فى مارس سنة ٦٤٠ .

أعاد عمرو تجميع جيشه فى منطقة بلبيس وأطال المقام فيها حوالى شهر وكان يرمى إلى إضاعة الوقت حتى يصله المدد وفى نفس الوقت تمكن خلال هذه الفترة من الاتصال بالمصريين فى المناطق المحيطة وكسب ولائهم .

معركة أم دنين : (أبريل سنة ٦٤١) :

عادت فلول الروم من بلبيس فتحصنت بمصر عند بابليون وأم دنين ولم يتحرك عمرو من بلبيس إلا بعد أن كتب إلى الخليفة عمر يستعجله بشأن المدد ثم أرسل عناصر الاستطلاع لمعرفة أوضاع عدوه قبل أن يفاجئه فعلم مدى تحصن الروم وتأكد له أنه لن يتمكن من اقتحام بابليون ففكر فى مهاجمة الجانب الأضعف فوجه جيشه شطر أم دنين وحاصرها ليمنع عنها المدد .

وقد استعان عمرو بما حوله من مصادر للاعاشة فأعانه ذلك على استمرار الحصار حتى جاءته الأخبار بوصول المدد من أمير المؤمنين ، وكان الروم يخرجون إلى العرب المحاصرين فى دوريات قتالية وما أن رأوا وصول المدد إليهم حتى امتنعوا عن ملاقاتهم والخروج إليهم .

وهكذا تمكن عمرو خلال فترة الحصار من معرفة مداخل الحصن ومخارجه ونقط الضعف فيه ، فلما وصلته الإمدادات وكانت تصل إلى ٤٠٠٠ جندى تمكن من حشد كل قواته ومهاجمة الحصن فتم له النصر وقتل عددا كبيرا من الروم وأسر عددا آخر وسيطر على أم دنين وعلى السفن الراسية فى مرفئها .

القتال غرب النيل :

لم يكن المدد الذى وصل إلى عمرو كافياً حسب تقديره لاقتحام حصن بابليون كما أنه أراد أن يجمع معلومات كافية فلم يهاجم الحصن وإنما استغل المراكب التى وجدها فى أم دنين وعبر النهر إلى الضفة الغربية وضلل بذلك الروم عن معرفة وجهته وتوقعوا أنه لا محالة سيتجه إلى العاصمة (الاسكندرية) .

ولكن عمرو بن العاص وجه جيشه جنوباً إلى الفيوم وابتعد عن النيل فسلك الصحراء حتى لا يتعرض لقوات

---

(١) سبق لعمرو بن العاص أن واجه الاطربون فى فلسطين .

(٢) كتاب الفاروق عمر جـ ٢ صفحة ٩٩ وقد ورد فى بعض الروايات أن المقوقس أرسل بعض اساقفته لمفاوضة عمرو فدعاهم إلى الإسلام فطلبوا مهلة وعادوا إلى المقوقس ، ولكن الاطربون رفض هذا الأسلوب وقام بجيشه لملاقاة المسلمين قبل أن تنتهى المهلة ليحقق المفاجأة . .

الروم قبل أن يتوغل فى المنطقة ويعرف المعلومات الكافية عنها . . وقد تمكن من الحصول على مطالبه الإدارية التى تكفى جيشه من القرى المجاورة للوادى بعد الإغارة عليها .

علم عمرو أن الروم قد خصصوا قوة استطلاع تقوم بمتابعته وهى مختفية بين النخيل على الضفة الغربية للنيل لتكون على اتصال به فضاعف من سرعته جنوباً ثم انقض عليها من الخلف وتمكن من محاصرتها وقتل أفرادها عن آخرهم[1] وقام الروم بهجوم مضاد بواسطة القوات المتجمعة فى الفيوم على جيش المسلمين فى منطقة المعركة ولكن عمرو كان قد تحرك بجيشه بعيداً عن هذه المنطقة وعاد أدراجه بين الفيافى فى الصحراء فتيقن الروم أنهم نجحوا فى رده على أعقابه .

معركة عين شمس : (يونيو سنة ٦٤١) :

علم عمرو بن العاص أن المدد الجديد قد وصل إلى بلبيس فخشى أن يتمكن الروم من قطع الطريق بينه وبين المدد وهو على الضفة الغربية للنيل ، خاصة وأنه يعلم أن حصن بابليون لازال بكامل قوته فأسرع بالعودة من أقصر طريق مستترا بالظلام وعبر النيل شمال أم دنين لكيلا يتعرض للروم فيؤخره ذلك عن الوصول إلى هدفه . وتمكن من الالتقاء بالزبير بن العوام[2] الذى كان على رأس المدد فى منطقة هليوبوليس ولم يكن بهذه المدينة إلا أطلال فقام عمرو باتخاذها كمنطقة تجمع حيث يتوفر بها الماء كما يوجد بها هيئات يمكن الاستفادة بها فى المراقبة وفى ستر الجيش . وبدأ ينظم جيشه ليقوم بالمعركة الفاصلة .

خطة عمرو بن العاص :

علم عمرو أن الروم قد جمعوا قواتهم وعزموا على مهاجمته فقام بتوزيع قواته للقاء عدوه فوضع كتيبة (٥٠٠ رجل) بقيادة خارجة بن حذافة فى منطقة أم دنين وأرسل كتيبة أخرى إلى منطقة تسمى قلعة الجبل فاختفوا فى مغار بنى وائل بالجبل الأحمر ، وجعل هذه التحركات ليلا فلم يشعر بها أحد . وفى أول ضوء تحرك بجيشه لملاقاة جيش الروم الذى كان قد اتخذ طريقه من حصن بابليون لمقابلة عمرو عند عين شمس .

سير المعركة :

تحرك جيش الروم فى عشرين ألف مقاتل بين البساتين قاصداً عين شمس وانحدر عمرو بباقى جيشه حتى بلغ موضع العباسية واستعد للقاء الروم فى السهل .

ولما تقدم الروم التحم الجانبان فى معركة عنيفة وعلا غبار المعركة . وبناء على تخطيط عمرو انحدرت كتيبة قلعة الجبل فهاجمت مؤخرة الروم بعنف بالغ فأصيبوا بالذعر من هول المفاجأة واضطربت صفوفهم وتجمع عدد كبير منهم يريدون أن يلوذوا بحصن أم دنين .

---

(١) كانت هذه القوة حوالى كتيبة بقيادة رجل اسمه حنا وقد حزن الروم لقتله .

(٢) جاء الزبير بن العوام بكتاب من عمر بن الخطاب يقول فيه إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل رجل مقام ألف مثل الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت وخارجة بن حذافة . وأعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولا تغلب اثنى عشر ألفا من قلة . .

كتاب الفاروق عمر جـ ٢ صفحة ٩٩ .

وتعرض الروم لمفاجأة أخرى عند أم دنين عندما برزت كتيبة خارجة بن حذافة من اتجاه غير متوقع وأوغل فيهم قتلا مما أدى إلى زيادة ارتباكهم وتفرقهم . وقد هلك عدد كبير من الروم فى المعركة أثناء الانسحاب خاصة فى النيل عندما التمسوا النجاة فى ركوب السفن التى على النهر .

ومال عمرو بن العاص بجيشه بعد أن طارد الروم فدخل أم دنين مرة أخرى وهرب باقى الروم إلى بابليون استعداداً للقاء آخر مع العرب .

وتحرك عمرو بعد ذلك إلى مصر فاستولى عليها دون التعرض لحصن بابليون ووزع قواته فى المنطقة شمال الحصن حيث أقيم فيها فسطاط عمرو[1] .

معركة بابليون :

حصار الحصن :

لم يلبث الروم الذين لجأوا إلى حصن بابليون أن ركبوا السفن واتجهوا شمالا على صفحة النيل فى اتجاه الاسكندرية واحتل معظمهم حصن « نقيوس » كما أخلى الرومان منطقة الفيوم واتجهت هذه القوات شمالا إلى الاسكندرية . وقام عمرو بتشكيل عدد من الكتائب الخفيفة وأرسلها بسرعة — مستغلا نجاحه فى معركة عين شمس فى عدة اتجاهات وتمكن من السيطرة على الفيوم ومنطقة غرب الدلتا حتى المنوفية وأصبح متحكماً فى جميع الأراضى حول حصن بابليون ، ولعله قصد بذلك أن يشعر حامية الحصن باليأس .

لم يتابع عمرو مسيرته إلى الاسكندرية قبل أن يستولى على بابليون حتى لا يشتت قواته كما أنه علم أن وقت الفيضان قد اقترب فجمع قواته شرق النيل وأحكم الحصار حول حصن بابليون . . وأرجأ اقتحامه إلى ما بعد انحسار مياه الفيضان مما يسهل عليه مهاجمته ويفت فى عضد حاميته نتيجة لطول فترة الحصار . وقد بدأ حصار الحصن خلال شهر أغسطس .

السعى للصلح :

كان المقوقس فى الحصن وظل يحرض الرومان على القتال فاستخدموا المنجنيق والسهام فلم يؤثر ذلك على القوات المحاصرة . وبعد أن دام الحصار أكثر من شهر وأيقن المقوقس أن المدد لن يتيسر وصوله قبل عدة أشهر . نظراً لأثر الفيضان على الأراضى المحيطة كما أن السفن لن يمكنها التحرك من الشمال إلى الجنوب بسهولة عكس التيار فى هذا الموسم بالذات . وأحس بقوة العرب فنصح القادة الذين معه بالسعى للصلح مع المسلمين وبعد أن أقنعهم برأيه أرسل إلى عمرو فى طلب الصلح وذلك خلال شهر أكتوبر سنة ٦٤٠ .

وقد احتبس عمرو رسل المقوقس عنده يومين ثم ردهم إليه بشروطه « إما الإسلام أو الجزية . أو الحرب» وكان المقوقس يرى أن المسلمين فى ظروف صعبة لتعرضهم لفيضان النيل فلما علم رد عمرو وسأل رسله عن أحوال

---

(١) بنى عمرو بن العاص فى هذا الموضع بعد ذلك مدينة الفسطاط ولذلك سميت بهذا الاسم .

المسلمين[1] عجب لأمرهم ، ثم عمل على مصالحتهم ، وطلب مقابلة رسل من طرف المسلمين لتوقيع الصلح .

أرسل عمرو عبادة بن الصامت فى عشرة من المسلمين ، وحاول المقوقس أن يصرفهم إلى غير ما بلغه من الخصال الثلاث ولكنهم أبوا — فطلب المدنة لمدة شهر ولكن عمرو أمهلهم ثلاثة أيام فقط .

فتح بابليون :

رفض الروم الخصال الثلاث واستعدوا للحرب ووجدوا المهلة التى رضيها عمرو فرصة لمفاجأة المسلمين وأخذهم على غرة فخرجوا بكامل أسلحتهم قبل انتهاء تلك المهلة وباغتوا العرب .

ولكن جيش المسلمين لم يفاجأ وإنما أسرعوا إلى سلاحهم وقاتلوا الروم قتالا شديداً وقتلوا منهم أعداداً كبيرة ثم تكاثروا عليهم ومنعوهم من العودة إلى حصونهم وهزموهم شر هزيمة .

عاد المقوقس مرة أخرى ينادى بقبول الصلح مع عمرو على أن يدفعوا الجزية دينارين على كل فرد من أهل مصر من القبط — ولكنه طلب أن يبقى الجانبان كل فى موضعه حتى يوافق هرقل إمبراطور الروم على الصلح . ووافق عمرو على ذلك وحمل المقوقس الصحيفة وسافر إلى الاسكندرية ومنها إلى القسطنطينية لعرضها على هرقل .

رفض هرقل الموافقة على الصلح وعزل المقوقس وأمر بأن يقاتل جيش الروم الغزاة وعلم عمرو ذلك فى نهاية عام ٦٤٠ فانتهت المدنة وعاد القتال بين الطرفين وتحصن الروم خوفاً من هجوم العرب ولم يأتهم مدد وطال الحصار حتى شهر مارس سنة ٦٤١ وأوشك ماء النيل على الجفاف ومات هرقل قبل ذلك فى فبراير وسئم المسلمون من طول فترة الحصار .

وقد صمم الزبير بن العوام على ارتقاء أسوار الحصن وطلب من المسلمين أن يكبروا عندما يسمعوا تكبيره فوضع سلماً واعتلى الحصن ولما كبر وكبر المسلمون فزع الروم وظنوا أن المسلمين قد اقتحموا عليهم حصنهم فساد الهرج والمرج وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه فدخل المسلمون شاهرين سيوفهم وكان ذلك فى الأيام الأولى من شهر ابريل سنة ٦٤١ واستسلم الروم وطلبوا مصالحتهم على أن يغادروا الحصن بدون أسلحتهم وأمتعتهم فقبل عمرو . ولكنهم قبل أن يرحلوا من الحصن قتلوا كل من حبسوهم من القبط المصريين .

أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يستأذنه فى التحرك إلى الاسكندرية فوصله الإذن بذلك بعد شهر واحد من تمام الاستيلاء على بابليون .

فتح الاسكندرية :

تولى حكم الإمبراطورية الرومانية بعد هرقل الامبراطور قسطنطين إبنه فأرسل فى طلب المقوقس ليستعين به

---

[1] قال رسل المقوقس : « رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد .

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم «فقال المقوقس» والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها » .

فى قتال العرب وأعد جيشاً كبيرا بقيادة تيودور ليكون مدداً لقوات الروم فى مصر . وما لبث قسطنطين أن مات فخلفه إبنه . ولم يمنع هذا من خروج الجيش ووصول المقوقس إلى الاسكندرية فى سبتمبر سنة ٦٤١ بينما كان عمرو ابن العاص بجيشه على أبوابها عند كريون .

التحرك إلى الاسكندرية :

تحرك عمرو من بابليون بعد استلامه الإذن من الخليفة فى مايو سنة ٦٤١ فلازم الجانب الغربى لفرع النيل وفكر فى الاستيلاء على حصن نقيوس (شمال منوف) الذى كان على الضفة الشرقية لمجرى النهر وقابل فى طريقه بعض المقاومات عند طرنوط (جنوب منوف) فتغلب عليها بسهولة .

ولم يكن من السهل على عمرو عبور النهر مع انخفاض الماء فيه فى ذلك الوقت من السنة كما أنه خشى أن يتركه شوكة فى ظهره ولم يكد يفكر فى خطته حتى فوجىء بحامية الحصن تخرج إليه عبر النهر فى السفن فجمع قواته من الفرسان وهاجمهم أثناء نزولهم إلى الضفة الغربية وطاردوهم إلى الماء ورموهم بالنبل ، فخشى الروم أن يتبعهم المسلمون بخيلهم فأسرعوا بسفنهم إلى الشمال وهربوا إلى الاسكندرية فاستسلم من بقى من الروم فى نقيوس ودخلها عمرو بدون مقاومة . وقتل كل من فيها .

وقد أرسل عمرو قوة لمطاردة الفارين من حصن نقيوس وجعل عليها « شريك بن سمى » فلما اقترب منهم وجدوه على قلة من الجنود فعادوا إليه وأحاطوا به فاستنجد بعمرو فأرسل إليه مدداً فلما رأوا المدد تركوه واستمروا فى سيرهم إلى الاسكندرية وقد سمى هذا الموقع « كوم شريك » .

وهنا جمع عمرو بقية جيشه واستمر فى السير إلى الاسكندرية فوجد الروم قد تصدوا له عند بلدة سلطيس (جنوب دمنهور بستة أميال) فدارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الروم وهربوا إلى حصن كريون .

معركة كريون : (سنة ٦٤١) :

كانت قوة جيش المسلمين بعد معركة بابليون ١٥,٠٠٠ أو تزيد ذلك لأن الخليفة أمد عمرو بمدد علاوة على من انضم إلى جيش المسلمين من المصريين بينما جمع الروم كل قواتهم فى كريون وكان تيودور قد وصل بالمدد إلى الاسكندرية فسارع لملاقاة عمرو عند كريون .

وتقابل الطرفان عند كريون واشتد القتال وكانت كفة الروم أرجح لكثرة عددهم ولكن المسلمين بذلوا غاية جهدهم ، واستمرت المعركة سجالا لعدة أيام ترجح تارة فى جانب الروم وتارة فى جانب المسلمين وقتل عدد كبير من كلا الجانبين وبعد أكثر من عشرة أيام تمكن المسلمون من اقتحام حصن كريون وانسحب الروم إلى الاسكندرية .

حصار الاسكندرية :

لم يتوقف عمرو عند كريون إلا ريثما يعيد تنظيم قواته ثم استأنف السير إلى الاسكندرية واندفع بكل قواته من جهة الشرق وهى الجهة الوحيدة التى يمكن الاقتراب منها وهلل المسلمون مكبرين ولكنهم فوجئوا بالحجارة الثقيلة

تنهال عليهم بعنف بالغ فقد قصفت المجانيق قذائف متلاحقة سببت أضرارا كبيرة بالمهاجمين مما أدى إلى ارتداد جيش المسلمين .

وقد أعاد عمرو تجميع قواته شرق المدينة وعسكر فى هذه المنطقة شهرين كاملين منتظرا أن يخرج له الروم ليقاتلهم ولكنهم ظلوا متمسكين بحصونهم فحاول مهاجمة المدينة من جهة المكس إلا أن الروم دفعوا بقوة كبيرة من جهة البحيرة وقامت بقتال المسلمين وقتلت منهم ١٢ رجلا ثم عادت مسرعة إلى الحصن قبل أن يلحق بها عمرو .

وكان عمرو قد نبذ فكرة اقتحام المدينة بجيشه عنوة وهى على هذه الدرجة من المنعة والقوة وخشى على جيشه من الملل واليأس فشكل عدداً من الكتائب وأرسلها فى جهات متفرقة من الدلتا لمطاردة الروم وبقى بباقى الجيش محاصرا الاسكندرية وقد دام هذا الحصار أربعة أشهر أو تزيد .

دخول الاسكندرية :

وصلت رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستعجله فى فتح مصر وبدأها بقوله : «أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر . إنكم تقاتلون منذ سنتين . وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم . . . . » وحثه فى نهاية كتابه على الدعاء إلى الله يوم الجمعة ثم مهاجمة المدينة مرة واحدة .

وقد قام بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الجند ثم اتبع ما فيه وتم له اقتحام المدينة عنوة فى أول المحرم سنة ٢٠ هـ أحد أيام شهر نوفمبر سنة ٦٤١ ولم يرد تفصيل فتح الاسكندرية فى رواية أحد من المؤرخين بل أن بعضهم ذكر أن المقوقس جمع الجزية وحملها إلى قائد المسلمين وبذلك تم الفتح . إلا أن هذا المؤرخ ، وهو «بتلر» فى كتاب فتح العرب لمصر ، لم يؤكد أن هناك صلحاً جرى بين عمرو والمقوقس غير صلح بابليون . ولا غرابة فى أن يكون المقوقس قد سعى فى جمع الجزية والاتفاق مع عمرو على أسلوب إجلاء الروم عن مصر كلها . وذلك بعد فتح الاسكندرية عنوة كما ورد فى رواية جميع المؤرخين .

تحليل فتح مصر :

تظهر لنا أحداث فتح مصر أن عمرو بن العاص كان على درجة كبيرة من الدهاء وحسن تقدير الموقف فقد سبق له زيارة مصر وكان يعرف مدى ما وصلت إليه من تفكك ، كما كان يعلم كثرة خيراتها ولذلك أصر على محاولة إقناع عمر بن الخطاب بغزوها .

وقد كانت قوة الروم فى مصر لا تقل عن ١٥٠ ألف جندى . فكان لدى الروم فى حصن الفرما ما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ بدليل إحجام عمرو عن المجازفة بمهاجمة الحصن فى أول الأمر . وكان جيش الأطربون فى معركة بلبيس ١٢,٠٠٠ — كما يعتقد أن قوة الروم فى أم دنين لا تقل أيضاً عن ١٠,٠٠٠ وفى بابليون أكثر من ٢٠ ألفاً بدليل أن هذا العدد تحرك فى معركة عين شمس لمقابلة عمرو ، هذا بخلاف باقى الحصون مثل نقيوس والروضة والفيوم وغيرها من مدن الوجه البحرى ، خاصة عند تانيس ودمياط التى ورد أن عمرو أغار عليها قبل عين شمس وكان بها ٢٠,٠٠٠ كما كان بالاسكندرية ٥٠,٠٠٠ غير ما كان فى كريون ولم يكن جيش عمرو يزيد عن ١٥ ألفاً بعد المدد الثالث ، كما جاء فى معظم كتب المؤرخين . أى أن المقارنة كانت ١٠ : ١

وكان تنظيم الدفاع عن مصر متوازناً ولكنه كان يفتقر إلى المرونة فقد لاحظنا أن كل حصن كان به القوة الكافية التى تتميز بالنشاط فى محاربة الخصم ، ولكن على المستوى العام لم يحاول الرومان توجيه الضربات لإنقاذ حصن محاصر أو قطع الإمداد عن العرب وكان ذلك ممكناً بالقياس إلى قلة عددهم وعدم إلمامهم بظروف الأرض — كما أن الروم كان لديهم من القوات ما يمكنهم من القيام بمثل هذه الضربات .

تميز عمرو بن العاص بالتعقل وتنفيذ مبدأ المخاطرة المحسوبة فلم يكن يقوم بمهاجمة الحصن إلا بعد عمل تقدير موقف سليم لقواته ومقارنتها بعدوه وتنفيذ ذلك فى الوقت المناسب عقب عملية مطاردة بحيث يضمن التمكن من أسباب النجاح .

تجلت كفاءة عمرو فى خطته الدفاعية المحكمة فى معركة عين شمس عندما تمكن من توجيه الضربات إلى أجناب ومؤخرة عدوه ، واستطاع بذلك أن يتغلب عليه ، بينما فشل قائد الروم فى اغتنام أفضل الفرص عندما كان العرب محاصرين بمياه الفيضان حول بابليون .

تجلت كفاءة القائد العربى فى قيامه بتنفيذ الإغارات على القرى والأقاليم المجاورة فجلب الاحتياجات اللازمة لقواته ، وبث الذعر بين المصريين . ويعتبر ذلك نوع من الحروب الوقائية الذى كان له أثره ، إذ كان المصريون بصفة مستمرة متعاونين مع العرب ضد الروم ، كما تبين فى أقوال كثير من المؤرخين .

الفصل الثالث

النصر العظيم فى « حطين » (*)

إن استعراضاً دقيقاً وموجزاً لوقائع معركة (حطين) الحاسمة التى شكلت نقطة تحول بارزة فى التاريخ الحربى للناصر صلاح الدين الأيوبى ، والتى كانت معركة فاصلة بين الجيوش الإسلامية من جهة وجيوش الصليبيين من جهة أخرى ، ليؤكد لنا بما لا يدع مجالا للشك أن العسكرية المصرية كانت تقف بكل أصالتها خلف هذا النصر العظيم الذى أحرزه الجانب الإسلامى ، فإننا حينما نقوم باستعراض القوات التى استنفرها الناصر صلاح الدين من الدول الإسلامية التى كانت قد وحدت تحت رايته ، فلسوف نتبين أن جند النيل كانوا يشكلون قسما واضحاً ومؤثرا من هذا الجيش الإسلامى الكبير والذى جمع جند مصر وسوريا وحلب والجزيرة العربية وديار بكر .

وهكذا يمكننا أن نلقى بنظرة فاحصة على قوات الجانبين عشية القتال فى حطين :

أولا : قوات صلاح الدين :

كانت القوة الضاربة لصلاح الدين مقسمة إلى ثلاث فرق يقود كل منها أحد القادة العظام ، وفى ليلة المعركة قام القائد الأعلى باستعراض قواته التى تألفت من نحو ٢٥ ألفاً (١٢ ألفاً من الفرسان ومثلهم من المشاة) ويعين إبن أخيه « تقى الدين عمر » لقيادة الميمنة ، والقائد الشهير « مظفر الدين كوكبرى » لقيادة الميسرة بينما تولى بنفسه قيادة القلب .

كانت فرق صلاح الدين مقسمة إلى لواءات يقود كل منها أمير ، ثم كتائب يقودها أمراء أصغر ، مكون كل منها من مائة فارس ، فطبلخانات (٤٠ — ٧٠) فارساً ، وهى السرية الحالية ثم « جند الحلقة » (٤٠) فارساً وهى الفصيلة ، وأخيراً أمراء العشراوات وكل منها مكون من عشرة جنود ، وهو ما يعرف حالياً بالجماعة .

ثانياً : قوات الصليبيين :

فى عام (١١٧٨ ميلادية) حينما وقعت معركة « حطين » كانت القــوات الصليبية تحتل الأجزاء الساحلية من فلسطين بالنظر إلى اعتمادها على خطوط مواصلاتها البحرية عبر البحر المتوسط إلى أوروبا لإمدادها بالرجال والعتاد والأسلحة . . أما تحصيناتهم فكانت تعتمد على سلسلة من القلاع القوية فى الدفاع والهجوم ، وبذلك ارتكزت استراتيجيتهم على الحصون من جهة ، وعلى الساحل للتموين والإمداد من جهة ثانية . أما على طول الحد

(*) من دراسة للمؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم .
« الناصر صلاح الدين » — دار المعارف — القاهرة ، تحت الطبع .

الجنوبي لفلسطين – صحراء النقب – فقد أقام الصليبيون سلسلة من القلاع تبدأ من « زعيرة » على الطرف الجنوبي لبحيرة « طبرية » فالكرك ومعاب ومونتريال وساموا والكرمل وبيت جبريل ودروم .

وخلف هذا النظام الدفاعي ، أقيمت قلاع بفورت وشطنوف وفوار وصفد والقسطل وغيرها بهدف الدفاع عن وديان بحيرة طبرية والأنهار المتفرعة منها ، بينما أقيمت في الشمال سلسلة أخرى من الحصون في عكا والكرك (غربي حمص) وبازين (المشرفة على جبال لبنان) ، بينما تم تحصين مدن « صور وصيدا وبيروت» تحصيناً قوياً للغاية .

وقد حشد الصليبيون – عشية حطين – جيشاً يتألف من نحو ٥٠ – ٧٠ ألفاً من الفرسان والمشاة ، وبذلك بلغت نسبة التفوق العددي على قوات صلاح الدين ٢ – ١ ، في حين تولى قيادة قوات المقدمة « ريموند » ، وقاد الملك « جي » قوات القلب ومعه بطريرك « عكا » حاملا خشبة الصليب المقدسة ، أما المؤخرة فتألفت من فرسان « الداوية » و « الاستبارية » .

سير المعركة :

بعد أن عقد الناصر صلاح الدين اجتماعاً حربياً في « عشترى » مع كبار قادته وبحضور أخيه الملك العادل استقر رأيه على الدخول فوراً في معركة فاصلة ضد قوات الصليبيين ، ونبذ أسلوب الدفاع حتى لا تتزعزع ثقة الجند ، كما عرض صلاح الدين على المجلس خطته بعد « حطين » ، والتي قرر فيها أن يتبع كسر الصليبيين في « حطين » بالعمل على غزو فلسطين والمناطق الساحلية على أساس المبادرة بالهجوم « فالمبادأة بالهجوم على العدو » – على حد تعبيره – « تجعله منقاداً لرغباتنا وتجعل مصائب الحرب على رأسه » .

وهكذا قاد صلاح الدين جيوشه يوم الجمعة ٢٥ ربيع أول ٥٨٣ هـ – ٣ يوليه ١١٨٧ م . في اتجاه بحيرة طبرية بحيث يستند ظهرها إلى البحيرة حتى يحول بين العدو ومياهها ، وللعمل على استدراج قوات الملك « جي » للدخول معه في معركة فاصلة يتم له فيها تدميرها بالكامل ، وعندما قام صلاح الدين بالمرور على قواته التي احتلت الجهة الغربية للبحيرة ، كانت قد احتشدت حيث أراد القائد الأعلى بالدقة : أمام « أرض القتل » !

ومع الخيوط الأولى لفجر السبت الرابع من يوليه ١١٧٨ م ، نشب القتال بين الفريقين عندما التحمت فرسان صلاح الدين مع فرسان الملك « جي » في مشهد رهيب يخطف الأبصار حيث اختلطت الخيل بالأجساد والسيوف والرماح ، بينما انعقدت فوق ساحة القتال سحابة هائلة من الأتربة ، أما الأرض فقد غطتها جثث القتلى من الجانبين .

في البداية حاول فرسان الصليبيين اختراق صفوف خصومهم والتقدم نحو بحيرة « طبرية » وينابيع المياه بوادي حمام حول قرية « حطين » ، وهنا تقدم الناصر صلاح الدين على رأس فرقة القلب ليقوم بتحطيم محاولات الصليبيين بعد أن أحدث في صفوفهم ارتباكا عظيما ، على حين نجح في عزل مؤخرتهم عن بقية الجيش . . وفي ذات الوقت أمر القائد العظيم فرقة المزراقين[1] فأشعلوا هشيم الحشائش بالنار التي سرعان ما تأججت تحت أقدام حوافر الخيل فأحدثت بين صفوف الصليبيين هياجاً شديداً .

---

(١) المزراق : عود من الخشب المجوف من القصب الفارسي ، وفيه سنان يشبه الرمح المجوف وبداخله سهم مهلك ، وهذا الرمح يمكن أن يطعن به أو « يزرق » به ، وهو من أسلحة القتال الفعالة في ذلك العهد .

وهنا اجتمع قيظ الحر اللافح وشمس يوليه الحارة مع العطش والنار والدخان لتدور الدائرة على جيش الملك «جي» ، وعندما رأى (ريموند) شدة هجمات فرسان صلاح الدين وحرج موقف قواته ، قاد هجمة مستميتة على ميمنة وميسرة جيش صلاح الدين فى آن واحد ، لتتجلى عبقرية القائدان العربيان « تقى الدين عمر » و « مظفر الدين كوكبرى » اللذان أفسحا له طريقاً للتقدم بين فرقتيهما فاخترق صفوف المسلمين وهو يحسب ذلك نصرا ، وهنا أغلقا عليه دائرة الحصار ليقوم جنود « مظفر الدين كوكبرى » ـ الذى قال عنه صلاح الدين فيما بعد أنه لو لم تكن له إلا واقعة « حطين » لكفته » ـ بالميل ميلة رجل واحد على فرسان « ريموند » الذى لم يجد له سبيلا للخلاص إلا بمحاولة التخلص من المعركة والفرار إلى « صور » ومنها إلى قاعدته بطرابلس بعد أن تكبدت قواته خسائر فادحة مما أضعف صفوف الصليبيين فلحق به « بول » « قائد الاسبتارية » و « وباليان » أمير « بيت جبريل » ـ و « ريتولد » أمير « صيدا » وغيرهم .

ويقود الناصر صلاح الدين هجمة بارعة على قلب جيش الصليبيين ليبيد قسما كبيراً منهم ، وبذلك أدرك الملك « جى » أنه لا نجاة له إلا بالقتال حتى الموت ، فحمل على قوات صلاح الدين حملة مستميتة أحبطتها صلابة قوات المسلمين الذين رنت عيونهم نحو القائد الأعلى ، فأحاطت بجيوش الملك « جى » احاطة السوار بالمعصم ، وهنا قام الملك « جى » بمحاولته الأخيرة فصعد بقواته إلى تل « حطين » محاولا اتخاذ مواقع لجيشه فى هذا المكان المرتفع انتظاراً لنجدات لن تأتى !

وعند ذلك أصدر صلاح الدين أوامره بملاحقة قوات الصليبيين التى تداعت تحت وطأة ضربات فرسان المسلمين حيث دار هناك قتال دام رهيب انتهى فى مغرب شمس ذلك اليوم المشهود بسقوط خيمة الملك الصليبى واستيلاء فرسان صلاح الدين عليها ، وهنا نزل الصليبيون من أعلى التل وقد رفعوا أيديهم مستسلمين بعد أن ألقوا أسلحتهم ، ليتم أسرهم وعلى رأسهم الملك « جى » .

وعندما كان قرص الشمس يميل إلى الغروب ، سرح القائد صلاح الدين ببصره فى ميدان المعركة الذى اصطبغت رماله باللون الأحمر من كثرة ما أريق فوقها من دماء . . كانت الهزيمة التى أصابت زهرة شباب الجنود من جيش الصليبيين ساحقة حقاً .

وكما هى العادة فى المعارك الكبرى ، كانت الخسائر الفادحة قد أصابت جيوش الملك « جى » فى خلال الانسحاب المذعور ، حيث قام فرسان صلاح الدين فى القضاء على البقايا الضعيفة من فرسان الصليبيين ، بينما بدأت قوات المشاة فى جمع الأسرى والخيول والأسلحة التى هجرها أصحابها . .

كان واضحاً تماماً للناصر صلاح الدين فى تلك اللحظات أن الروح المعنوية لأعدائه قد اهتزت اهتزازاً عنيفاً ، حيث تظل الخسارة المعنوية فى المعارك بمثابة العامل الرئيسى لتحقيق النتائج الحاسمة ، لقد كانت هجمات جيوش صلاح الدين على فرق الصليبيين المدرعة الشجاعة الجماعية داخل تشكيلات الملك « جى » المنضمة جيدة التدريب ، لتصبح المقاومة الفردية أمرا مستحيلا ، وهكذا أصبح الخطر بالنسبة لجنود الصليبيين عقاباً أليماً بدلا من أن يكون حافزا على الاقدام .

وهكذا كانت أبعاد هذا النصر العظيم فى « حطين » بمثابة بداية النهاية للوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة ، فنى نفس هذا اليوم الذى لا ينسى ، قر قرار القائد المنتصر صلاح الدين على تغيير استراتيجيته فى الكفاح المسلح

ضد الوجود الصليبي فى فلسطين ، وذلك باتباع أسلوب الضربات المتلاحقة دون هوادة ، ذلك الأسلوب القتالى الذى طبقه صلاح الدين فى دقة مثيرة وبراعة أذهلت خصومه وأطاشت صوابهم ، ونعنى به أسلوب الحرب الخاطفة وحرية الحركة .

بعد « حطين » :

لم تكن « حطين » مجرد انتصار عسكرى فى موقعة حربية جرت بين المسلمين والصليبيين فى ربوع الأراضى المقدسة ، بل يمكن اعتبارها بمثابة « بداية النهاية » لتلك المملكة التى أقامها الصليبيون فى فلسطين والشام فى القرون الوسطى ، وإيذاناً بأفول نجمهم ، فإلى جانب أسر مليكهم ونبلائهم وضياع هيبة المملكة وسلطتها الفعلية إلى غير رجعة ، فقد كان من آثارها ذلك النقص الملحوظ الذى أصاب الصليبيين بعد سقوط زهرة فرسانهم فى « حطين » ما بين قتيل وأسير ، « فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » على حد تعبير المؤرخ « أبى شامة » .

لقد تجلت عبقرية الناصر صلاح الدين بعد موقعة « حطين » مباشرة ، حيث خلص من تقدير موقفه وموقف خصومه تقديراً سليماً بعيد النظر ، فأيقن بعد تلك المعركة الفاصلة أن الصليبيين باتوا تحت رحمته ، وهنا قر قراره على انتهاج أسلوب الحرب الخاطفة وحرية الحركة بهدف الضرب على الحديد الساخن منتهزاً تلك الهزة التى أصابت الروح المعنوية لأعدائه بعد انكسارهم الحاسم فى « حطين » ليستولى على المدن والقلاع الصليبية بأقصى قدر عرف فى ذلك العصر من خفة الحركة وقوة الصدمة .

كذلك ينبغى الإشارة هنا إلى أن صلاح الدين بقراره هذا كان يهدف — على الجانب الآخر — إلى منع النجدات والإمدادات التى كانت تتوالى على أعدائه من الطريق الأوحد الذى كان يربطهم بالقارة الأوروبية آنذاك ونعنى به طريق البحر ، وأخيراً كان هذا القرار يكفل تأمين خطوط مواصلات صلاح الدين البرية الطويلة والتى كانت تربط أطراف مملكته الشاسعة فى الشام ومصر .

لقد عكست تلك النظرة الاستراتيجية الثاقبة لصلاح الدين فى أعقاب « حطين » عن فكر عسكرى ناضج مكنه من تقدير أبعاد المعرفة العميقة للمعطيات السياسية العليا للدولة ، ومن ثم انطبقت إدارته للحرب على السياسة ، ليصبح صلاح الدين « رجل دولة » بالمعنى الحقيقى إلى جانب كونه قائداً عسكرياً طبقت شهرته الآفاق .

كما يجدر بالذكر كذلك ، أن الناصر صلاح الدين أدرك إدراكاً عميقاً بأنه لن يتمكن من غرس الفضائل الحربية لدى قواته العسكرية والتى كانت تعتمد على النظام الإقطاعى إلا من منبعين رئيسيين لا غنى عنهما معاً ، الأول هو سلسلة من الحروب والانتصارات العظيمة ، أما الثانى فهو نشاط الجيش الذى عمل على الوصول به إلى أقصى قدر من الجهد ، وهكذا فكلما كبر الجهد الذى كان يطالب به القائد الأعلى جنوده ، كلما ازدادت ثقته فى الحصول عليه وبذلك اعتز جند صلاح الدين بتخطى المخاطر أكثر من اعتزازهم بالفرار منها .

بين فكى الكماشة :

لم يضيع صلاح الدين وقتاً بعد « حطين » ، فلكى يضع هذا القرار الاستراتيجى موضع التنفيذ ، بادر على الفور باصدار تعلياته إلى أخيه الملك العادل فى مصر ، يأمره فيها بالزحف على رأس قواته على فلسطين من اتجاه

الجنوب الغربى ، بينما قام بقيادة قوات الشمال ميمماً صوب عكا بحصونها المنيعة القوية بهدف إحكام طرفى الكماشة على بيت المقدس — قدس أقداس المسلمين والتى أحكم الصليبيون قبضتهم عليها — من الشمال والجنوب فى آن واحد .

لقد شكل هذا التصميم على احتلال عكا أولا تطبيقاً مثيراً ودقيقاً لنظرية « الاقتراب غير المباشر INDIRECT APPROACH » والتى قام الكابتن « سير بازل ليدل هارت » البريطانى بوضع أسسها بعد صلاح الدين بأكثر من سبعة قرون من الزمان ، كذلك أدرك القائد العربى العظيم تمام الإدراك أن سقوط عكا المنيعة بعد نصر « حطين » الحاسم ، سيكون بمثابة المسمار الأخير فى نعش مملكة الصليبيين بالشام ، لتسقط بعدها « بيت المقدس » فى يده كالثمرة الناضجة .

ويصاب من يقتفى آثار تحرك صلاح الدين على رأس جيوشه فى القطاع الشمالى للشام بالدهشة من تلاحق ضرباته السريعة — كسيل جارف من النار — والتى وجهها نحو قلاع الصليبيين ومدنهم المحصنة ، والتى سرعان ما تهاوت تحت وطأة ضرباته القوية بعد ذلك .

الفصل الرابع

معركة المنصورة (*)

هكذا كانت مصر – منذ القدم – الصخرة التي تحطمت عليها أحلام الطامعين وغزوات المغامرين .. ولعل من أروع ما سطر التاريخ العسكرى ذلك الدور الحاسم الذى قامت به القوات المصرية فى تحطيم الغزوة الصليبية التى استهدفت مصر والعرب فى القرن الثالث عشر الميلادى .

إن استعراضاً موجزاً ودقيقاً لدور مصر التاريخى الذى فرضه عليها القدر لحماية الأمة العربية جمعاء من غزوات التتار والمغول والصليبيين وكافة الهجمات الاستعمارية الضارية عبر القرون ، ليثبت لنا – بما لا يدع مجالا للشك – أصالة هذا الشعب العربى فى مصر وعراقته وجهاده المتواصل فى الذود عن الوطن العربى الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج . .

إننا هنا نتعرض لواحدة من أهم وأخطر تلك الغزوات الشرسة ، التى بدأتها جيوش الصليبيين هناك فى الشرق – على ثرى الأرض الطيبة فى فلسطين وقادها ملك فرنسا بنفسه – لويس التاسع – على رأس جيش ضخم من غلاة المتعصبين الذين تستروا تحت ستار الدين – وهو منهم براء – ذلك الدين الذى تدعو تعاليمه التى بشر بها السيد المسيح عليه السلام إلى المحبة والحب والخير .

جاءوا فى غزوة صليبية مدعمة بالفرسان والمدافع وآلات التدمير والهلاك ، ليوطدوا أقدامهم فى مصر ، حتى يتم لهم القضاء على الأمة العربية بعد أن تسقط درة الشرق وعاصمة العرب ولكن هذا الشعب المكافح الذى استنفره وحشد طاقاته هذا العدوان السافر قام عن بكرة أبيه ، ليخوض معركة خالدة فى دمياط والمنصورة تم له فيها القضاء على هذه الغزوة الظالمة ، وهكذا دقت مصر العربية المسمار الأخير فى مصير الحملة الصليبية بأسرها والتى اضطرت بعد تلك الهزيمة إلى الانحسار ، ليعود من تبقى من هؤلاء الغزاة إلى البلاد التى وفدوا منها .

الدفاع عن دمياط :

فى أواسط القرن الثالث عشر وفى عام ١٢٤٨ ميلادية على وجه التحديد – كان الملك الشاب لويس التاسع ملك فرنسا يضع اللمسات الأخيرة لحملته الصليبية التى استهدفت غزو مصر والاستيلاء عليها . وبينما كان حاكم مصر آنذاك السلطان الصالح نجم الدين – حفيد الناصر صلاح الدين العظيم – موجوداً فى الشام لإخضاع بعض الاضطرابات هناك تناهت إلى أسماعه الأنباء الأولى عن هذه الحملة الأوروبية والتى كانت قد أبحرت بالفعل تقصد الشواطىء المصرية. ويشاء سوء طالع هذا الحاكم الشجاع ، أن تتضاعف همومه ، حين أصيب فى تلك الأثناء بالتهاب رئوى خطير ، ليعود إلى مصر محمولا على محفة ، لعجزه عن امتطاء صهوة جواده .

(*) المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم .

حينما وصل السلطان نجم الدين بن أيوب إلى « أشموم » — بالقرب من المنصورة — فى نيسان (ابريل) ١٢٤٩ كانت كل الدلائل تشير إلى أن هدف الحملة الصليبية هو احتلال دمياط ، ثم استكمال السيطرة على بقية أنحاء البلاد . . .

وهكذا أصدر نجم الدين تعلياته بالبدء فوراً فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة وتخزين المؤن والسلاح فيها ، بعد أن تم حشد حامية قوية للدفاع عنها . وبينما كانت هذه الإجراءات تجرى أرسل السلطان جيشاً تحت قيادة فخر الدين — أمير المماليك البحرية — إلى الجانب المطل على النيل من دمياط بهدف منع نزول الصليبيين على الشاطئ ، بينما قام السلطان نفسه بالمرابطة على رأس قواته فى موقع حصين أمام المدينة استعداداً للقتال الوشيك .

إنذار ورفض :

يذكر المؤرخون أن الملك لويس التاسع — ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية — قد أبحر من ميناء مرسيليا فى ٢٥ آب (أغسطس) عام ١٢٤٨ على رأس أسطول بحرى ضخم تحرسه قوة عظيمة من سفن القتال ، فى نحو ١٨٠٠ سفينة تحمل ٨٠ ألف مقاتل بمؤنتهم وعتادهم وخيولهم . .

وفى يوم الرابع من يونيو ١٢٤٩ ، وصل الأسطول الفرنسى إلى المصب الشرقى للنيل ، حيث قام بالنزول إلى المياه الضحلة قرب الشاطىء آلاف الفرسان تحت خوذاتهم الفولاذية اللامعة ودروعهم الثقيلة ، حاملين سيوفهم المستقيمة ذات الحدين ورماحهم الطويلة . . وقد امتطوا ظهور الخيل ، ليتبعهم حملة الأقواس . . وقد حجبت الأفق صفوف المشاة المتراصة تحت قيادة مليكهم الشاب . . بينما ارتفع العلم الملكى أمامهم .

وهكذا رست سفن الغزاة فى دمياط ، على الجانب الآخر من النيل ، وتقدم رسول الملك لويس التاسع حاملا إنذار الملك إلى السلطان نجم الدين بن أيوب . . كان الإنذار يقول :

« . . أما بعد » . .

« فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية . . كما أنى أعترف بأنك أمين الأمة المحمدية وأنه غير خاف عليك أن أهل الجزائر والأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار . . وقد أبديت ما فيه الكفاية . . وبذلت لك النصح إلى النهاية . . فلو حلفت بكل الإيمان ، ودخلت على القساوسة والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك . . فان كانت البلاد لى فهى هدية وقعت فى يدى . . وإن كانت البلاد لك والغلبة على ، فيدك العليا ممتدة إلى . . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء » .

وصل هذا الإنذار من الملك لويس التاسع إلى السلطان نجم الدين ، وهو يعانى من وطأة المرض الشديد . . وما أن قرأه حتى أغرورقت عيناه بالدموع ، وقال رافعاً يديه إلى السماء « إنا لله وإنا إليه راجعون . . » .

ثم أملى على القاضى بهاء الدين زهير رده ورد مصر على هذا الإنذار المتعجرف ، قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . وسلام الله وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد » .

فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فلتعلم أننا أرباب السيوف ، ما قتل منا فرد إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه .

فلو رأت عينك – أيها المغرور – حولنا سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك . فهنالك تسيء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . . فإذا قرأت كتابى هذا فكن فيه على أول سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » . . وكن على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وتعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » وإلى قول الحكماء : « ان الباغى له مصرع ، وبغيك فيه مصرعك . . وإلى البلاء يقلبك . . والسلام » .

فى اليوم التالى لوصول هذا الرد الشجاع الذى بلور موقف مصر الأبية دائماً ، وأوضح حرصها على القتال حتى النهاية دفاعاً عن بقائها وحماية الأمة العربية ، إزاء هذا الجيش المتفوق عدداً وعدة ، والذى كان يجمع خلاصة تقدم أوروبا وخبراتها القتالية وتقدمها التكنولوجى ، نقول فى اليوم التالى دارت معركة قصيرة بين الفرسان الصليبيين والقوات المصرية (من المماليك البحرية) بقيادة الأمير فخر الدين يوسف انتهت باستيلاء الفرنجة على دمياط وغنموا ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة الكثيرة والأقوات والذخائر وغيرها .

وعندما وافت السلطان نجم الدين بن أيوب أنباء هذه الهزيمة ، وهو فى فراش مرضه ، أمر باعدام خمسين رجلا من رجال حامية المدينة . . ثم أصدر أمراً عاماً بالانسحاب إلى المنصورة ، حيث بدأت إجراءات الاستعداد للمعركة الفاصلة الوشيكة ، كما أقبل المجاهدون من عامة الشعب لينضموا إلى المقاومة الشعبية التى أخذت فى مناوشة الفرنجة والإغارة على معسكراتهم ليلا ، كما قاموا بأخذ العديد من الأسرى ونقلهم يومياً إلى القاهرة ، فى محاولات مستمرة لخفض الروح المعنوية للغزاة ، يقابلها ارتفاع مقابل فى معنويات الجيش المصرى الذى بدأ يحتشد للدخول فى المعركة .

الحرب الحياة :

وبينما مصر كلها تتأهب للحرب ، مات السلطان فى يوم ٢ نوفبر عام ١٢٤٩ ، وهنا بدأ دهاء الملكة شجرة الدر ، التى أخفت نبأ وفاته حتى لا يتسرب الخبر إلى الفرنجة ، ثم استدعت الأمير فخر الدين وولته قيادة الجيش دون أن يدرى أحد بوفاة السلطان .

ما أن استقر الحال بجيش لويس التاسع فى مواقعه بدمياط حتى بدأ العمل على تحصين معسكره بالأسوار والخنادق والمتاريس ، فنصب جنوده المنجنيقات وقاذفات الأحجار وراحوا يلقون بالصخور على جيش المصريين عبر ترعة أشموم (أشمون) لعلهم يزحزحونهم عن مواقعهم ، بيد أن المصريين أجابوا ضربة بضربة وحجرا بحجر . . وحمى وطيس التراشق بينهما ليل نهار ، حتى أصيب جيش الفرنجة بخسائر فادحة ومن ثم أدرك الصليبيون أن المصريين يفوقونهم فى هذا النوع من القتال الثابت ، فقر قرارهم على الانتقال من الدفاع إلى الهجوم الخاطف ، والدخول فى معركة فاصلة ، واعتقد الفرنسيون أن بامكانهم تحقيق النصر فيها ، وخاصة بعد أن بدأ المصريون يتفننون فى ابتكار

وسائل اختطاف جنود الفرنجة من معسكرهم على الشاطيء الآخر ، عن طريق السباحة بها خلال الظلام ثم الإغارة على معسكرات الصليبيين والعودة بأسرى .

هذه الصواريخ الرهيبة :

وهنا استخدم المصريون – وللمرة الأولى فى تاريخ الحروب الصواريخ أرض – أرض . الأمر الذى شكل تفوقاً تكنولوجياً أحرزه المصريون للتغلب على التفوق الأوروبى فى أساليب القتال ومعدات الحرب . فألقى الرعب فى قلوب الفرنجة ، ورفع معنويات القوات المصرية .

لقد أعطتنا الأميرة (أنا كومنينا) – إبنة إليكسيوس كومنينوس الذى شهد الحروب الصليبية – وصفاً دقيقاً لهذه الصواريخ التى كانت « مزيجاً من الرعب والموت » على حد تعبيرها ، فى كتابها عن سيرة أبيها حيث صورت لنا مدى روعتها حين تعلو فى السماء وحين تشتعل ، ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الجنود وتفتك بالخيول .

لقد وصفت هذه الصواريخ فقالت : ان المصريين قد صنعوها من النحاس ، بفوهة تشعل منها وفى مؤخرها قوس ينطلق ليدفعها للأمام ، وبداخلها مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد ، بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . وكان المصريون يطلقونها من مدافع المنجنيق فتنفجر بقوة الاصطدام ليندلع منها لهب لا يمكن لإنسان أن يخمده ، وبذلك ينتشر شررها فى كل مكان ليحيل ما حوله جحيما .

أما الفارس المؤرخ « دى جوانفيل » – مؤرخ حروب لويس التاسع ومستشاره الخاص – فيصف المفاجأة التى أصابت جيوش لويس التاسع ، بعد أن استخدم المصريون صواريخهم الجهنمية للمرة الأولى ، حيث يقول :

.. وفى الليل .. أتى المصريون بآلات عجيبة ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا نقوم على حراستها أنا والسير « والتر كوريل » ثم قذفونا منها بشيء ملأ نفوسنا بالدهشة والرعب .. نار كأنما هى الدنان المشتعلة وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ، لها دوى كالرعد كأنما هى طير جارح يشق الهواء ، ولها ضوء ساطع عظيم من جراء انتشار اللهب الذى يحدثه الضوء حتى أنه يمكن رؤية كل ما فى المعسكر كما لو كنا فى وضح النهار . لقد رمانا المصريون فى هذه الليلة ثلاث مرات بتلك الآلات الجهنمية العجيبة وزاد فى دهشتنا وذعرنا ، ما قام به هؤلاء المصريون ، حينما وضعوا قواذفهم تجاه حصوننا الخشبية ، ليفتحوا علينا فجأة باب جهنم ، فتندلع النار فى أبراجنا ، وتمتد ألسنتها لتلتهم كل ما تصل إليه ... » .

إزاء هذا الذعر الذى نزل بالفرنسيين من جراء استخدام المصريين لهذا السلاح الجديد قرر الملك لويس التاسع المبادرة بالهجوم فوراً على قوات القائد فخر الدين ..

وفى يوم ٥ فبراير من عام ١٢٥٠ قام الملك الشاب بقيادة جيشه ليفاجيء القوات المصرية مفاجأة تامة داخل معسكرهم ، الأمر الذى دفع بالقائد فخر الدين إلى امتطاء صهوة جواده قبل أن يرتدى دروعه ، حيث اقتحم صفوف الصليبيين على رأس قوة صغيرة فى شجاعة نادرة ، إلا أنه سقط تحت سنابك الخيل ..

وهكذا فتح الباب أمام جيش لويس التاسع لدخول المنصورة ..

القتال داخل المنصورة :

اقتحمت قوات الصليبيين أحد أبواب المنصورة تحت قيادة الكونت « دارتوا » ــ شقيق الملك لويس التاسع ــ وكانت مفاجأة تامة جديدة للصليبيين ، حينما قامت قوات المماليك البحرية بمباغتة الصليبيين وردهم على أعقابهم لتطارد فلولهم فى كل مكان ، وتتعقبهم فى الأزقة والشوارع ، فلما لاذوا بالبيوت للاحتماء بها ، انهال عليهم سكانها بالضرب ، وتساقطت فوق رؤوسهم القذائف من الأسطح والنوافذ . .

وكان على رأس هذه القوات الباسلة من المماليك البحرية التى فاجأت الصليبيين بهذا الهجوم البارع ، قائد سيكون له شأن عظيم فى تاريخ مصر بعد عشر سنوات بالدقة ، هو الظاهر بيبرس البندقدارى ، الذى حكم مصر سبعة عشر عاماً حكماً جيداً .

ويصف لنا المؤرخ « دى جوانفيل »[1] القتال خلال هذه المعركة التى قتل فيها من الصليبيين ١٤٠٠ فارس وكثير من نبلاء فرنسا . . يقول :

« . . فيها أظهر الطرفان مهارة فائقة وصلابة فذة . . وقام أبطالهم بأعظم الأعمال وأروعها إقداماً وجرأة . . إذ أن القتال فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع ، إنما كان صورة مروعة لملحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة بعضها ببعض . . فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال . . هنا وهناك . . على الرؤوس وفى الصدور وخلف الظهور ، صيحات تزأر ، وأنات تزفر . . وكأس الموت على شفاه القتلى تدور . . وآنذاك طارت ضربة طائشة فأصابت الكونت « دارتوا » الذى خر صريعاً على الفور ، فأخذ القائد المصرى درعه وسيفه ورفعهما أمام جنوده صائحاً : « هذا هو درع الملك وسيفه . . إن الملك عدوكم قد مات . . ! » .

المعركة الحاسمة :

ونقترب من يوم المعركة الفاصلة ، والتى فيها المصريون تحت قيادة القائد (أقطاى) الذى تولى قيادة الجيش بعد مصرع القائد فخر الدين . لقد كانت تلك المعركة التى أبلى فيها جند مصر وزهرة شبابها بلاء حسناً ، هى المسمار الأخير فى نعش تلك الحملة الصليبية التى استهدفت غزو مصر ، فانقلبت الآية ، ليدفن نبلاء فرنسا وأوروبا تحت أرضها الطيبة . . أما مليكهم الشاب ، الملك لويس التاسع ، فقد حل ضيفاً على مصر كأسير حرب كما سنرى . .

إننا نستقى أحداث تلك المعركة الفاصلة مما كتبه المؤرخ الفرنسى « دى جوانفيل » ذاته يقول :

« أرسلت الشمس أول خيوطها . . ورأينا الأرض كأنها تتحرك أمام ناظرينا . . وقد أقبل أربعة آلاف فارس يحملون أسلحتهم ، ويتهادون على ظهور جيادهم فى منظر رائع ، ووقفوا تجاهنا فى أبدع نظام . . وبعد قليل ظهر من خلفهم جيش جرار من المشاة ، حجب من كثرته أمامنا وجه الأفق . . فأحاطوا بجيشنا كله ، وعلى الأثر تبدى

---

(١) « جان دى جونفيل » مستشار الملك لويس التاسع ــ صحبه فى حملته على مصر عام ١٢٤٨ ، قام بتاريخ هذه الحرب بدقة حيث ذكر أنباء المعارك الحربية بالتفصيل وبحياد ، كما قام بوصف أحوال مصر وصفاً شائقاً وفريداً ، ترجمت مذكراته إلى اللغة الإنجليزية .

من وراء هؤلاء جيوش أخرى لا يعرف البصر مداها ، فاصطفت فى المؤخرة على نسق عجيب ، ولاح القائد المصرى على رأس جيوشه ينظمها ويرتب صفوفها وأماكنها ، فلما انتهى من ذلك ، تقدم وحده على ظهر جواده ، وسرح البصر فى قواتنا . . فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندنا أوفر ، وبانقاصها فى الأماكن التى يرانا فيها أقل قوة . . وظل هذا القائد منهمكاً فى تلك العمليات حتى إذا ما انتصف النهار ، وقف وسط جنوده فى مهابة وجلال ، وباشارة من يده دوى فى الفضاء فجأة صوت الطبول ودوى النفير ، وكأنما زلزلت الأرض زلزالها وانتفضت السماء بقصف الرعود ، فامتلأت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الفرنسيين الذين ما دق سمعهم من قبل مثل هذا الصوت الرهيب . . ثم بدأ الخيالة والمشاة فى السير معاً فى خطوة واحدة وفى كل جانب وبدأ الهجوم » .

ويستطرد المؤرخ الفرنسى قائلا : « وتنقلت فرق العدو على مسرح القتال بنظام عجيب ، كأنما لاعب ماهر ينقلها على رقعة الشطرنج ، واندفع مشاتهم نحو رجالنا فى الوقت الذى أطلقوا فيه على فرساننا صواريخهم الجهنمية ، وبعدها انقض فرسانهم فى سرعة عجيبة وحماسة هائلة على فرقة الكونت (دانجو) فأنزلوا بها هزيمة نكراء ، وكان الكونت منتصباً على قدميه ومعرضاً نفسه للخطر المحقق ، لولا أن أنقذه أخوه الملك ورد المصريين عنه . إلا أن جيش لويس كان قد أصيب بضربة قاضية . . فمن الفرق السبع التى يتألف منها ، أبيدت اثنتان إحداهما بقيادة « فرابار وليم دى سناك » قائد الفرسان الداوية ، وكان قد دخل المعركة بمن تبقى على قيد الحياة من رجاله بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة ، ولما كان يعلم بضعف قواته فقد أقام أمام عسكره حاجزاً من كتل الخشب ، إلا أن هذا لم يغن شيئاً . . فقد قام المصريون باحراقه بصواريخهم الملتهبة ، وأطبقوا على رجال الفرقة فى عنف بالغ . . وسرعان ما قضوا عليهم قضاء مبرماً ، وكان قائدها « دى سناك » قد فقد إحدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء التى أسلفنا ذكرها ، ففقد الثانية فى هذه المعركة . . ثم سقط قتيلا وهو يدافع لآخر رمق دفاع الأبطال . . أما الفرقة الأخرى التى أبادها المصريون فكانت بقيادة الكونت « دى بواتييه » وهى مؤلفة فى أغلبها من المشاة ، أما الكونت فكان ممتطياً صهوة جواده ، لقد أباد المصريون هذه الفرقة عن آخرها وأسروا قائدها ، الذى تمكن فيما بعد من الهروب » . .

القوة الضاربة لجيش الصليبين :

وهكذا انكسرت القوة الضاربة للجيوش الصليبية ، فبعد انتهاء معركة المنصورة فى ٣ شباط (فبراير) من عام ١٢٥٠ م وتوقف القتال . . تفشت الأوبئة فى معسكرات الصليبيين الذين لم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا بالقائها فى النيل والقناة . .

يعطينا المؤرخ « دى جوانفيل » صورة أليمة للحالة التى وصلت إليها قواتهم ، حين طفت هذه الجثث بعد أيام قلائل على صفحة المياه ، ليصبح هذا المنظر الكئيب للجثث المشوهة « هو كل ما تبقى من أولئك المحاربين التعساء » على حد تعبير المؤرخ الفرنسى !

رحلة العذاب والموت :

فى الرابع والعشرين من فبراير من نفس العام ، وصل « توران شاه » — إبن السلطان الصالح نجم الدين — من العراق . وما أن دخل المنصورة حتى نودى به سلطاناً على مصر خلفاً لوالده ونقلت إليه الملكة « شجرة الدر » السلطة . . وعندئذ فقط أعلنت وفاة السلطان الصالح نجم الدين !

أما الصليبيون ، فقد دارت المفاوضات بينهم وبين الجانب المصرى ، وأدى إصرار المصريين على أخذ الملك لويس التاسع إلى فشل المفاوضات ، وهكذا لم يبق أمام هذا الجيش المهزوم إلا أن ينسحب تحت ضغط الجيش المصرى ، فى ظروف بائسة تحف به أعظم الأخطار ، فى مسيرة طويلة على الجسر الطينى العالى على حافة النيل ، بدأت فى مساء الخامس من نيسان (ابريل) حين تحركت فلول الصليبيين فى اتجاه الشمال ، مخلفين وراءهم أكداساً مكدسة من الخيام والذخائر والمهمات وآلات القتال غنيمة طيبة للمصريين . .

وخلف هذا الجيش البائس ، تحركت القوات المصرية لتقوم بالإغارات المتصلة — ليل نهار — على مؤخرة جيش الصليبيين التى وضعت تحت قيادة السير « والتر دى شاتيلون » للدفاع عنها وحماية الجيش من هجمات المصريين وهكذا تبع الجيش المصرى هذه القوات المنسحبة فى حالة يرثى لها ، حتى غادرت الأراضى المصرية تجر أذيال الخيبة والفشل . .

أما الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الشرسة ضد مصر ، فقد قامت القوات المصرية بأسره مع معظم النبلاء الفرنسيين . . ويروى « دى جوانفيل » قصة اعتقال مليكه — كما سمعها منه شخصياً — فيقول :

« . . تخلف الملك عن فرقته . . لينضم إلى المؤخرة التى كان يقوم بحمايتها السير « والتر دى شاتيلون » ، وكان يمتطى صهوة جواد صغير . . لم يكن معه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين « سير جيوفرى سيرجين » الذى دافع عن مولاه حتى بلغ الإعياء بالملك مبلغاً عظيما ، فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة « منية أبى عبد الله » على مسيرة بضعة أميال من المنصورة — وهناك أحاط بهم المصريون — فأصبحت المقاومة آنئذ عبثاً . . فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم المصريون على حياتهم ، وكان عددهم يربو على الخمسمائة ومعظمهم من الفرسان النبلاء ، وهكذا قبض المصريون على الملك ونقلوه إلى إحدى السفن إلى المنصورة ، ليوضع فى الأسر بدار إبراهيم بن لقمان — كاتم سر السلطان — وهناك قيدوه بالسلاسل وأبقوه فى حراسة الحراس الذين تلقوا التعليمات بمعاملة الملك الأسير بما يليق بمقامه من الإجلال والاحترام ! » .

مصر قلعة العرب :

وهكذا كسرت مصر الروح الصليبية التى سادت القرن الثالث عشر الميلادى ، ذلك أن المملكة الصليبية فى الشام وبيت المقدس ، ما لبثت بعد فترة وجيزة من تلك المعركة الفاصلة أن تقلص ظلها ثم زالت ، بفضل المقاومة الباسلة التى أبدتها مصر ، وروح القتال العظيمة التى قاد بها المصريون الحرب فى هذه الغزوة الشرسة التى استهدفت القضاء على العرب والإسلام فلم يكد يمر واحد وأربعون عاماً على انتهاء معركة المنصورة الخالدة هذه حتى قام سلطان مصر الأشرف باحتلال عكا — فى ١٨ مايو ١٢٩١ — وبذلك قضت مصر على البقية الباقية من الوجود الاستعمارى فى بيت المقدس .

الفصل الخامس

جيش مصر يحقق نصرا خالداً على التتار في عين جالوت (*)

التتار قادمون :

وكأنما كانت هذه الأمة الإسلامية على موعد مع القدر ، فى عام ٥٤٩ هـ . ولد فى الصين رجل خلف بصماته الدموية على البشرية جمعاء لحقبة طويلة ، استخدم هذا الرجل قدرا من القسوة البالغة أدت إلى انقراض دول والإطاحة بعروش راسخة وقتل الآلاف من البشر بدون ذنب جنوه ، وذلك من خلال سلسلة من الفتوحات التى تشبه الأساطير والتى لا تدانيها فتوح الاسكندر الأكبر والرومان ، فى مزج غريب لكل ضروب الإفراط من كل نوع بين الوحشية والفظائع والمذابح التى تثير القلب والنفس والعقل جميعاً ، والتى صنعت انتصارات مدوية كأنها المعجزات .

هذا الرجل هو « جنكيزخان » ــ قائد التتار ــ والذى بسط سلطانه فى فترة وجيزة من الزمان من حدود الصين على المحيط الهادى شرقاً حتى قلب أوروبا وعواصم الشام غربا .

ويجمع المؤرخون على أن « جنكيزخان » هذا كان يبدو وكأنه يفوق البشر فى جبروته كأنه مطرقة ضخمة ابتليت بها البشرية فتجرد من الشفقة والرحمة ، بل كان أقسى الغزاة الذين عرفهم العالم ، فان الدم الذى سفك بأمره والعمران الذى خرب على يديه يندر أن يحدث مثله فى أية فترة من فترات التاريخ .

بعد وفاة « جنكيزخان » الرهيب ، تولى « مكوقان » ــ حفيده ــ عرش التتار ليستدعى أخاه « هولاكو خان » بعد أن أمده بجيش جرار من التتار ذوى الخبرة فى القتال والحروب ، وأصدر إليه تعليماته ليتقدم من « توران » إلى إيران حتى « أقصى بلاد مصر » ، مرورا بالعراق « فإذا تكبر واستعصى خليفة المسلمين هناك ، فألحقه بغيره من الهالكين » .

ولم يضيع « هولاكو » وقتاً ، حيث بادر حفيد « جنكيزخان » الرهيب على الفور باجتياح إيران على رأس جحافل جرارة أبادت الحرث والنسل هناك قاضية قضاء مبرماً على طائفة الإسماعيلية بها .

العالم الإسلامى وجهاً لوجه أمام التتار :

فى تلك اللحظات التاريخية الحالكة ، رابطت جيوش التتار بقيادة « هولاكو » ــ الذى لم يهزم أبداً ــ على حدود الأمة الإسلامية فى العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر ومملكة الصليبيين فى فلسطين ، لينتاب الهلع حكام تلك الممالك الذين رأوا فى خصمهم الدموى عدواً لا يقهر . .

(*) بقلم المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم .

وهكذا قدر على الخليفة المستعصم بالله — آخر خلفاء العباسيين — أن يواجه قدره إزاء ذلك الانذار المتعجرف الذى أرسله إليه « هولاكو » والذى يوجه فيه إلى الخليفة أمراً مباشراً وواضحاً لا دوران فيه : « بادر بردم الخنادق وهدم الحصون وتوجه إلى مقابلتنا ، وإلا فاننا مستعدون لقتالك ، واعلم انى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد ؛ فسوف لا تنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت فى باطن الأرض ! » .

وجاء إلى « هولاكو » رد الخليفة الذى قبل التحدى دون أن يستند على معطيات واقعية « . . وإذا كنت تريد الحرب والقتال . . فلا تتوان لحظة . . فان تحت امرتى ألوفاً مؤلفة من الفرسان والمشاة على أهبة الاستعداد للقتال ! » .

وهكذا زحفت جيوش التتار من أطراف بلاد الروم نحو بغداد التى حوصرت من كل اتجاه زهاء شهر دار خلاله قتال دموى انتهى بقتل الخليفة المستعصم بالله بطريقة وحشية موغلة فى القسوة ، فى حين أمر « هولاكو » بقتل جنود الجيش العباسى — بعد استسلامه — عن بكرة أبيهم ، أما بغداد العاصمة الإسلامية ومحط أبصار المسلمين فقد اجتاحتها جحافل التتار ليأتوا على كل ما فيها ، فخربت المساجد وهدمت القصور وأبيح القتل والسلب والنهب دون حد ، وسفكت الدماء فى أسلوب وحشى لم تشهد له البشرية مثيلا من قبل ، حتى قدر المؤرخون المعتدلون القتلى فى هذا الهجوم الكاسح ما بين ٨٠٠ ألف ومليونين من المسلمين .

إن ما نود الاشارة إليه هنا أن سقوط بغداد على هذا النحو المأساوى ، أوقع العالم الإسلامى فى حالة رهيبة من الفزع والذهول والحيرة ، ليصبح مجرد ذكر إسم « هولاكو » مثيراً للفزع فى أشد القلوب قوة وثباتاً بين أمراء الأمة الإسلامية حيث كانت تلك المأساة بمثابة لطمة قاسية وبلاء شديداً نزل على الإسلام والمسلمين الذين فقدوا خلافتهم العباسية التى كانوا يتطلعون إليها باعتبارها رمزاً للممالك الإسلامية جميعاً ، كما كان المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام بالنظر لنفوذه الدينى بعيد الأثر فى نفوس المسلمين جميعاً .

بعد سقوط بغداد فى براثن التتار ، ، وجدت الأمة الإسلامية أن قلبها النابض قد توقف ، وأن هيبتها قد ضاعت .

جيوش التتار على أبواب مصر :

وبينما انعقدت سحب اليأس والفزع فى سماء المنطقة ، بادر « هولاكو » على رأس جيوشه بالزحف على بلاد الشام التى كان يتقاسم حكمها آنذاك كل من الصليبيين والأرمن وحكام المسلمين من أحفاد الناصر صلاح الدين العظيم ، والذين كانوا يحكمون فى « فيارقين » و « كيفا » والكرك وحلب ودمشق وحماة وحمص .

فى شهر رمضان من عام ٦٥٧ هـ ، زحف التتار من « أذربيجان » صوب سوريا لتسقط « فيارقين » بعد أن أبدى المدافعون عنها ضروباً منقطعة النظير من الشجاعة والإقدام ، وقتل الملك الكامل شر قتلة ، حين أمر « هولاكو » بتقطيع لحمه قطعاً مع إجباره على بلع هذه القطع حتى مات ، ثم أمر بقطع رأسه وحملها على رمح والطواف بها فى البلاد السورية لتعلق فى نهاية المطاف على سور « باب الفراديس » بدمشق ، حتى يكون عبرة لمن يعتبر من بقية أمراء الشام .

وعلى الأثر سقطت « نصيبين » و « حمص » وحران والرها والبيرة ثم حلب ، ليعم الرعب كل بلاد الشام ، وهكذا تقدم « هولاكو » مباشرة إلى دمشق الفيحاء التى كان أهلوها قد علموا بما حل بأهالى البلاد المحتلة من تشريد وتقتيل ، فسارع وجهاء المدينة إلى « هولاكو » يقدمون إليه التحف والهدايا فدخلها دون قتال .

وخلال الأسابيع الثلاثة التى أعقبت فتح « دمشق » ، أتم التتار فتح سوريا ، ثم تقدموا إلى غزة دون مقاومة ، وهكذا أصبحت جيوش الدمار والموت على باب مصر الشرقى تماماً ! .

موعد مع القدر :

وانه لمن المناسب الآن تماماً أن نحاول إلقاء نظرة ثاقبة على الموقف داخل مصر التى كانت فى تلك اللحظات على موعد مع القدر ، حيث قدر عليها التصدى لتلك المطرقة التى ابتليت بها البشرية . . فى حين بات الناس فى أرجاء البلاد يتوجسون خيفة وينتظرون أحداثاً جساماً فى ظل هذا الجو النفسى المشبع بالتوتر والقلق الذى ساد أنحاء العالم الإسلامى ، كانت مصر تحت حكم السلطان الطفل « الملك المنصور » الذى كثرت مفاسده وشغل عن شئون الملك باللهو ، بينما سرى الخوف من التتار إلى مصر لكثرة اللاجئين إليها من العراق وديار بكر ومشارف الشام والذين راحوا يتحدثون بفظائع التتار ووحشيتهم ، حتى أيقن الشعب فى مصر بأن هؤلاء الغزاة إنما هم قوم لا يغلبون .

وعلى الجانب الآخر ، وقف « قطز » — المملوك نائب السلطنة والبلاد — يرقب الأحداث وقد حز فى نفسه أن تترك البلاد فى هذه الفترة الحاسمة لهذا الملك الطفل الذى التفت من حوله بطانة السوء وأصحاب المطامع فى حين رأى الناس فى « قطز » أصلح الجميع لتولى حكم البلاد لصلاحه وقوته وشدة بأسه وجهاده السابق فى قتال الصليبيين فى المنصورة والشام ، وكأنما كانت الأقدار تعد هذا القائد العظيم ليدخل التاريخ الإسلامى من أوسع أبوابه وأمجدها ، ففى وسط هذا الظلام الحالك الذى خيم على أمة الإسلام والمسلمين ، وحيث لم تعد هناك فى الأفق بادرة أمل مضيئة ، قام « قطز » بخلع السلطان الطفل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر بعد أن تلقب بالملك المظفر . معلناً بيانه للناس :

— « إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم لتقيموا على السلطنة من شئتم ، وإذا كان فيكم من يرى نفسه أقدر منى على الاضطلاع بهذا الأمر ، فليتقدم لأحله محلى فيعفينى من هذه التبعة العظيمة ويتحمل مسئولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله » .

من « هولاكو » إلى سلطان مصر :

بعد أن تولى « قطز » عرش مصر وصله رسل « هولاكو » عام ٦٥٨ والذين سلموه إنذارا من « ملك الملوك شرقاً وغرباً الخان الأعظم إلى الملك المظفر « قطز » قال فيه :

« إنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى ، فالكم من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فابشروا بالمذلة والهوان . فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم . . . . » .

من أجل التوصل إلى القرار :

ما أن وصل رسل « هولاكو » يحملون هذا الإنذار إلى سلطان مصر الجديد « قطز » ، حتى بادر — على عادة ذلك العهد — يجمع « مجلس الجيش » برئاسته وعضوية أتابك العسكر وقضاة المذاهب الأربعة والأمراء وعددهم ٧٤ أميراً .

قرأ عليهم السلطان « قطز » إنذار هذا « الرب فى السماء والحاكم على الأرض » كما كان يدعو نفسه فى تبجح غريب ، ثم طلب الرأى والمشورة . ليبدأ « ناصر الدين قيمرى » فى استعراض دموية هذا السفاح الرهيب وكيف قامت جيوشه باخضاع البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى أبواب مصر ، كما لو كان قد اختص بالتأييد السماوى « . . . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان ، فليس فى ذلك عيب أو عار » .

وتعاقب الأمراء المصريون الذين عكست كلماتهم صورة الحالة النفسية السيئة التى كان الجميع يئنون تحت وطأتها . كانوا يعون تماماً الحكمة من « رأس الذئب الطائر » فى بغداد ومدن الشام وغيرها ، واختتم الأمراء كلمتهم بعرض رأى كبيرهم الذى قال : « انه ليست لنا طاقة ولا قدرة على مقاومة وقتال التتار ، ولكننا نرى أن نرسل لهولاكو خطاباً لطيفاً نتقى به شره ولنتفق معه على مال نؤديه له كل سنة لئلا يهاجمنا فيأتى على الحرث والنسل ، فلا فائدة من مقاومة التتار واللين معهم أنفع من الشدة » .

« قطز » يقبل التحدى :

فى تلك اللحظات الدقيقة التى كان يتقرر فيها مصير الأمة الإسلامية بأسرها لأجيال طويلة قادمة ، تكلم الرجل الذى وضعته الأقدار ليوقف مد التتار العالى ، قال الملك المظفر « قطز » :

إن الله تعالى يقول فى كتابه : « حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . وأنتم تريدون أن تقلبوا الآية لتقول : « تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون » ؟ ثم قام إلى كبيرهم ، واختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه وهو يقول :

« إن السيف الذى يجبن حامله عن القتال ، لخليق بأن يطعن به » .

« . . وإننا الآن أمام اختيار بين ثلاثة : الصلح أو القتال ، أو الجلاء عن الوطن ، وسأستبعد الأمر الأخير ، فإنه لا وطن لنا إلا مصر ، كما أرى أن نستبعد كذلك الرأى الأول بالصلح مع التتار فهم قوم لا يوثق بعهودهم ، والرأى الأخير عندى هو أن نستعد للقتال ، فإذا انتصرنا فهو المراد وإلا فكيف نكون مسلمين أمام الله ؟ ! » .

ثم أمر الملك المظفر باحضار رسل التتار (١٥ رجلا) بين يديه ، ليأمر بقتلهم وتعليق رؤوسهم فى القاهرة ، بعد أن نودى بأمرهم بين الناس ، وسيقوا فى موكب عظيم ، راكبين الجمال التى شدوا على أقتابها بالحبال ووجوههم إلى أذيالها ، حتى وصل الموكب الكبير — على صوت الطبول — إلى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ليقطع رأس الرسول الأول ، وعند « باب زويلة » علقت رأس الرسول الثانى ، وفى « باب النصر » علقت رأس ثالثهم ، والرابع « بالريدانية » ، ثم أنزل الباقون ليقتلوا دفعة واحدة وعلقت رؤوس الجميع على « باب زويلة » .

وفى ذات اليوم ، أمر الملك المظفر « قطز » باستعراض عظيم للقوة ، سار فيه الجيش المصرى فى ميدان « الريدانية » حيث أقبلت — أمام سرادق الملك والأمراء — فرق الفرسان والمشاة والمنجنيقات والمجانة فى أعداد كبيرة شاكية السلاح حتى ازدحمت بهم الطرق والميادين .

وفى مساء ذلك اليوم الذى اتخذ فيه الملك المظفر قرار الحرب ، والذى علقت فيه أول رؤوس للتتار فى القاهرة كانت مصر قد ألقت القفاز فى وجه حاكم الأرض : هولاكو الرهيب .

يقول المؤرخ « رينسمان » فى كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية » :

« .. من سوء حظ التتار ، أن توغلهم فى فلسطين قد أثار دولة إسلامية كبرى لم تكن قد تعرضت للهزيمة على أيديهم ، وهى مصر ، التى قبلت التحدى الكبير على الفور » .

العمل من أجل جمع كلمة المسلمين :

لا شك أن الملك « قطز » كان قد تولى حكم مصر فى فترة حالكة وفى ظل ظروف لا يحسد عليها على الإطلاق ، حيث كانت تواجهه المتاعب فى الخارج والداخل على السواء ، بعد أن قام بعض أمراء المسلمين فى بلاد الشام بالاتصال بهولاكو وتقديم فروض الطاعة له ، بينما وقع عدد من دولها تحت الاحتلال التتارى بالفعل ، لتتمزق الأمة الإسلامية — التى كافح الناصر صلاح الدين طويلا من أجل توحيدها — وأخيراً كانت تواجهه العديد من الخلافات بين أمراء المماليك وطائفة المعزية والأيوبية وغيرها داخل مصر .

بادر « قطز » باعداد الجيش المصرى للحرب واستكمال عدته وأعتدته ، فى ذات الوقت الذى عمل فيه على إقامة جبهة قوية من ملوك بلاد الشام وأمرائها ، فبادر بالكتابة إلى كل منهم رسالة يشرح لهم فيها بأنه قد عقد العزم على قتال جحافل التتار وأنه قد أعد لهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وانه مصمم على تخليص بلاد المسلمين من رجسهم باعتبار أن بلاد الشام هى حصون مصر الأمامية ووقوعها فى أيدى التتار يعرض سلامة مصر للخطر الداهم .

فى تلك الرسائل التاريخية ، يؤكد « قطز » بأنه لن يسمح لأحد من أمراء الشام بالاستسلام للتتار وأنه سيعاقب من يمالىء الأعداء منهم بالقتل وتوريث بلاده لمن هو أحق بها منه ممن قاتل التتار « وإذا لم يستطع أحدكم الوقوف فى وجه العدو واضطر للنجاة بنفسه ، فعليه أن يلحق بالديار المصرية حيث يجد منها التكرمة والحفاوة حتى يحين الوقت لتحرك الجيوش المصرية فيقاتل معها عدو الإسلام والمسلمين » .

لقد تجلت حكمة « قطز » السياسية بصورة جلية فى تلك الرسالة التى كتبها إلى الملك العادل فى الشام ، والتى طمأنه فيها وعرض عليه إمداده بجيش مصرى كبير لمعاونته فى التصدى للمغول، انه فى تلك الرسالة يقسم بأغلظ الإيمان أنه لا ينازعه فى الملك ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، كما يعرض عليه فيها بأن يقدم إليه مع جيشه ، وإذا كان لا يطمئن إلى حضوره فإنه مستعد لأن يسير إليه الجيش صحبة من يختاره : « .. وإن اخترتنى خدمتك ، وإن اخترت قدمت ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم إليك . فإن كنت لا تأمن حضورى ، سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره » .. فى يقينى ، أن الملك المظفر « قطز » كان — بالعمل على توحيد الجبهة الإسلامية على هذا النحو — قد خط السطر الأول فى وثيقة النصر المرتقب .

الإعـــداد للحرب :

قام الملك المظفر بالشروع فوراً فى إعداد الأمة للحرب ، لم يعرف للراحة طعماً شهوراً طوالا حيث قام بتوطيد أركان عرشه بين عواصف الفتن والمؤامرات ، فى حين أخذ إعداد الجيش يجرى على قدم وساق بهمة لا تعرف الكلل ، فى الوقت الذى عمد فيه إلى رفع الروح المعنوية فى مصر ضارباً بشدة على أيدى أولئك الذين راحوا ينشرون روح الهزيمة والتخاذل بين الصفوف ، وبذلك أنزل السكينة والطمأنينة فى قلوب سواد الناس بعد أن كانت ترتجف هلعاً من ذكر التتار مذكراً إياهم بأن مصر التى قضت على جيوش الصليبيين منذ قليل ، لقادرة بعون الله على القضاء على جحافل التتار أعداء الإسلام والمسلمين ، ومن الجدير بالذكر ، أن هذا الشعور بالثقة قد تمكن من الجميع ، حتى كف الفاسقين عن السرقة وارتكاب المعاصى ، وامتلأت المساجد بالمصلين ، ولم يبق للناس من حديث فى كل مكان إلا حديث الحرب والجهاد .

« كيتوبوقــا » بطل التتـــــار :

فى تلك الأثناء ، وصلت أنباء إلى « هولاكو » تفيد بوفاة أخيه الأكبر « منكو خان » فى الصين ، وتنازع أخويه الآخرين على تولى العرش ، وبذلك قر قراره على العودة بقدم من جيشه ، بعد أن سلم القيادة إلى القائد « كيتوبوقا » على رأس القوة الباقية وقوامها نحو عشرة آلاف فارس من المحاربيز الأشداء ، موصيا إياه بتحقيق المهمة التى جاءوا من أجلها والقتال « حتى الموت » لفتح الدولة الباقية فى العالم الإسلامى والتى لم تكن قد فتحت بعد : مصر .

ويحدثنا المؤرخ « ابن تغرى بردى » عن القائد التتارى « كيتوبوقا » فيقول :

« كان « كيتوبوقا » عظيما عند التتار ، يعتمدون على رأيه وشجاعته وحسن تدبيره ، وكان بطلا شجاعا ومقداماً . خبيراً بالحروب وفتح الحصون والاستيلاء على الممالك ، فهو الذى فتح بلاد العجم والعراق ، وكان « هولاكو » ملك التتار يثق به كل الثقة ، ولا يخالفه فيما يشير إليه ويتبرك به » .

لقـــاء عاصف فى غــزة :

بعد أن استكمل الملك المظفر « قطز » إعداد الجيوش المصرية للحرب ، قام باستعراضها وهو مرتد لباس الحرب ، ثم قام الجيش — على عادة ذلك العصر — بحلف اليمين أمامه ، ليتسلم عتاد القتال من خزانة السلاح ، وأخيراً قام بتعيين قادة الفرق والأجنحة ، فى حين تولى بنفسه قيادة القلب ، وعين القائد « بيبرس البندقدارى » على رأس مقدمة الجيش ، وكان قائداً عبقرياً أثبت كفاءة عسكرية فى الحروب السابقة وتحقيق الإنتصارات على الفرنجة المرة تلو الأخرى ، وبعد ذلك ، أصدر أوامره إلى « بيبرس » بالتقدم على رأس المقدمة إلى غزة التى كان التتار قد قاموا باحتلالها تحت قيادة « بايدر » التتارى الذى بادر بالكتابة إلى قائده الأعلى « كيتو بوقا » ينبئه بأنباء ذلك الزحف المصرى الذى تواترت إليه الأنباء بشأن اتجاهه نحوه ، وجاءه رد قائده : « قف مكانك وانتظر حضورى » ، ولكن « بيبرس » لم يمهله ، حيث قاد قواته فى وثبة خاطفة اقتحم بها المدينة لتنسحب جيوش التتار — للمرة الأولى فى تاريخهم الدامى الطويل — على ساحل فلسطين الشمالى ، فى حين تعقبتهم القوات المصرية حتى شاطىء نهر العاصى .

صداء الانتصار على التتار فى غزة :

كان للنصر الخاطف الذى أحرزته القوات المصرية الأمامية على جيوش التتار فى غزة ، أصداء واسعة فى كافة مدن الشام التى كانت معظمها قد خضعت للتتار ولحلفائهم من المسيحيين الشرقيين .

فى دمشق ، ثار المسلمون على حكامهم من الصليبيين الذين كانوا قد عملوا على إذلالهم تحت حكم المغول ، كما تشجع المسلمون فى بقية مدن الشام التى كانت قد وقعت تحت نير الاحتلال التتارى فثاروا على حكامهم القساة . أما الصليبيون فى الشام — وبخاصة فى عكا — فقد أثارتهم أحداث التخريب التى ارتكبتها قوات التتار فى مدينة « صيدا » آنذاك ، فقرروا الوقوف ضد هذا العنصر القاسى الوافد من الشرق ، حتى ولو أدى الأمر إلى التحالف مع المصريين ضد « كيتوبوقا » التتارى .

القتال فى جبهة واحدة :

وهنا تتجلى حكمة « قطز » السياسية ، فنراه يبادر على الفور إلى مسالمة الصليبيين بغية التفرغ للقتال فى جبهة واحدة ، على أن يتفرغ لتصفية حسابه مع أعدائه الصليبيين بعد الانتهاء من أمر التتار .

فما أن انتهت معركة غزة ، حتى أرسل طلباً إلى الحكومة الصليبية فى عكا يطلب منها فيه السماح لقواته بالعبور عبر الأراضى الساحلية التى كانت القوات الصليبية تسيطر عليها ، حتى يتمكن من مواجهة جيوش التتار ، وهنا وافق الصليبيون على طلبه حيث وجدوا فى قتال ملك مصر مع التتار فرصة للانتقام منهم : للتخريب الذى أحدثوه فى « صيدا » من جهة ، ولتخوفهم من وحشية التتار ونواياهم العدوانية التوسعية من جهة أخرى .

يروى لنا المؤرخ « المقريزى » قصة (قطز) مع الصليبيين قبيل خروجه للقتال ضد التتار فيقول :

« ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة (بعد انتصار بيبرس على بايدر) وأقام بها يوماً ثم رحل عن طريق الساحل إلى مدينة عكا وبها يومئذ الفرنجة فخرجوا إليه وأرادوا أن يسيروا معه نجدة ، فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم بأن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم بأنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المصريين ، رجع إليهم وقاتلهم قبل أن يلقى التتر » .

وهكذا قام الصليبيون فى عكا بتقديم التسهيلات الحربية للجيوش المصرية حين سمحوا لبيبرس بالمرور على رأس قواته فى الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها بحذاء الساحل ، إلى جانب قيامهم بعمليات إعادة التنظيم والتموين للجيش المصرى تحت أسوار عكا .

يعلق « رينسيان » فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » على ذلك فيقول :

« ولا شك أن قيام الفرنجة بتموين جيش المصريين قد أعطى ميزة كبيرة لم يتمتعوا بها ، إذ أتاحت للجيش المصرى — تحت قيادة قطز — فرصة مواتية للقاء العدو على أهبة الاستعداد » .

ويكشف لنا كفاح الملك المظفر « قطز » ضد التتار ، عن مواهب قائد حربى عظيم حقاً ، حيث يمكن التعرف على سلامة نظرته العسكرية من استعراض التعليمات التى قام بإصدارها إلى القائد الشجاع « بيبرس البندقدارى » والتى تضمنت المبادىء التالية :

ـ إن الهجوم خير من الدفاع فى مقاتلة التـــار .

ـ البدء ـ على الفور ـ بدفع دوريات مسلحة بقوة لاستطلاع تحركات جيوش التتار وتشكيلاتهم . ونود الإشارة إلى أن هذا الإجراء العسكرى الذى لا يزال فى مقدمة الفن العسكرى اليوم ، لم يكن أمراء المسلمين يتبعونه من قبل فى قتالهم ضد التتار ، والذين كانوا يكتفون ـ عندما تصلهم تهديدات « هولاكو » ـ بالعمل على تقوية الدفاعات والحصون ، مؤثرين السلامة بالدفاع خلف الأسوار دون أن يدركوا أنهم بذلك إنما يوقعون أنفسهم فى فخ لا فكاك منه .

ـ « افطر بعدوك قبل أن يتغدى بك » : كان « قطز » يعلم كذلك عقيدة التتار التى كان « جنكيز خان » قد أرساها والتى تقول : « افطر بعدوك قبل أن يتغدى بك » ، كما كان على علم كذلك بعمليات الخداع والتمويه التى برعت جيوش التتار فى اتباعها من بعده .

إن الدراسة المتأنية لاستراتيجية الملك المظفر « قطز » ضد التتار فى معركة « عين جالوت » لتثبت لنا بصورة لا تقبل الشك أنه قد بناها على نسق أساليب قتال المغول من حيث الخداع والتظاهر بالهزيمة والفرار بغية استدراج العدو ثم العودة بسرعة خاطفة كاللهب للقضاء عليه .

كذلك توضح لنا وقفة قصيرة نستعرض فيها طبيعة الأرض فى منطقة القتال ، ان الملك المظفر « قطز » قد قام باستغلالها إلى أقصى حد لصالحه ، حيث كانت المستنقعات التى تنتشر حول بلدة « بيسان » تحدد ـ بالضرورة ـ تقدم جيوش المغول فى اتجاه الجنوب الغربى دون سواه ، وعليه فقد خطط « قطز » خدعة باهرة قضت بدفع طلائع القوات المصرية ـ تحت قيادة ركن الدين « بيبرس » ـ للاشتباك مع قوات التتار ، ثم التظاهر بالهزيمة والفرار بغية استدراج التتار نحو الثغرة المتروكة عمداً بين جناحى القوات المصرية ، وعندما يندفع نحوها العدو اندفاعه المعهود ، وبعد أن تتوغل قواته داخلها مسافة كافية ، تقوم القوات المصرية الضاربة بالاطباق عليها من خلف التلال للاجهاز عليهم .

تشكيل القتـــال للمعركة :

بعد النصر الأول للجيش المصرى فى غزة ، تقدم الملك المظفر « قطز » على رأس بقية الجيش للانضمام إلى قوات ركن الدين بيبرس هناك ، واجتمع « قطز » و « بيبرس » ليناقشا سويا خطة المعركة الوشيكة ، وعندما حل الظلام قام الملك المظفر بالمرور على الجنود ، يرتبهم ويكثر عليهم التأكيد فى اليقظة وأخذ الأهبة ويحثهم على الجهاد ويشوقهم إلى الجنة .

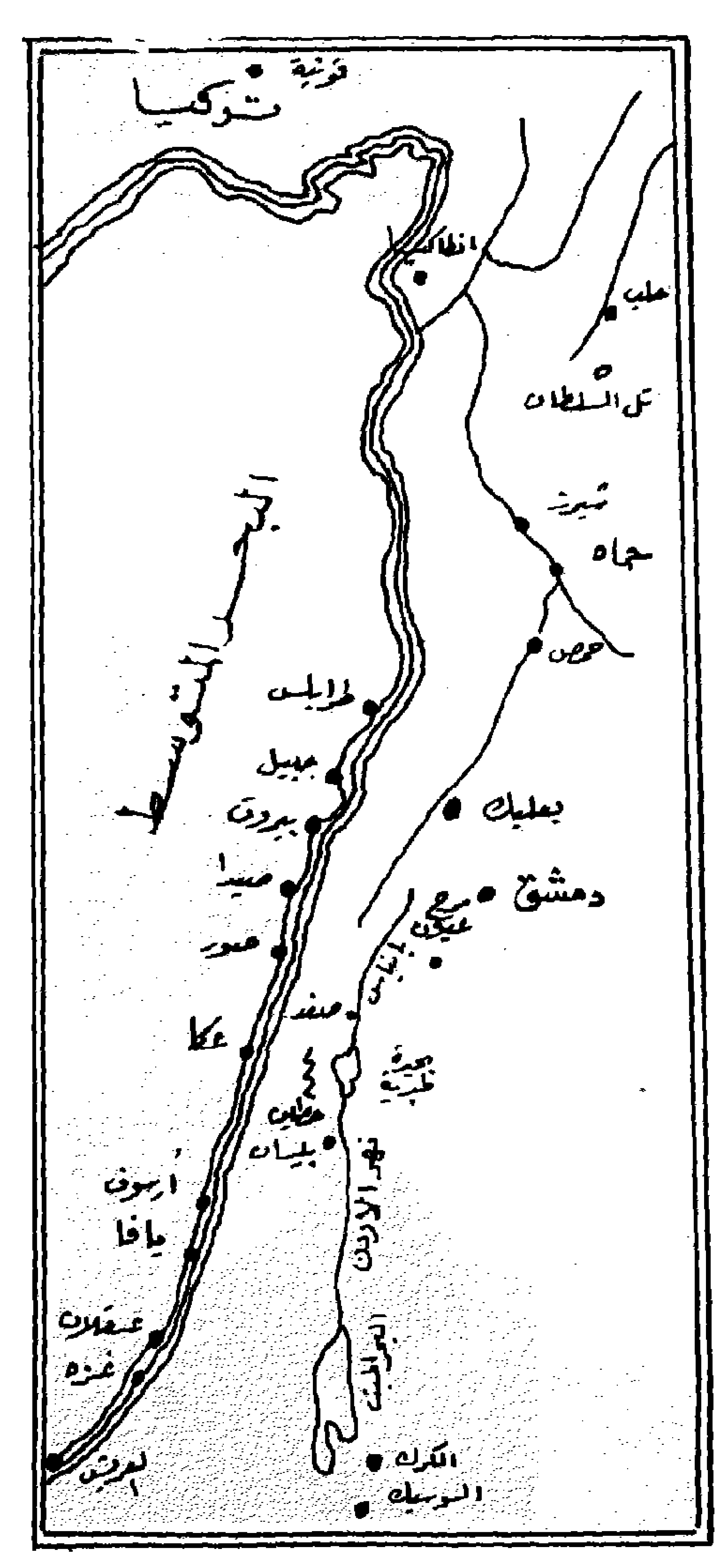
كذلك قام « قطز » بتحديد تشكيل القتال بحيث يقود ركن الدين بيبرس الميسرة ، والأمير « بهادر » الميمنة ، فى حين تولى الملك بنفسه قيادة القلب .

المعـــركة :

أشرق صباح يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وقد اصطف الجمعان المتضادان اللذان تأهبا للقتال ، وقد سيطرت عليهما رهبة الموقف ـ كان كل جندى على الجانبين يعلم تماماً أن القتال الوشيك سيحدد مصير المنطقة بأسرها .



السلطان « صلاح الدين الأيوبى » بطل معركة « حطين » و « بيت المقــدس » عــام ١١٨٦ م .



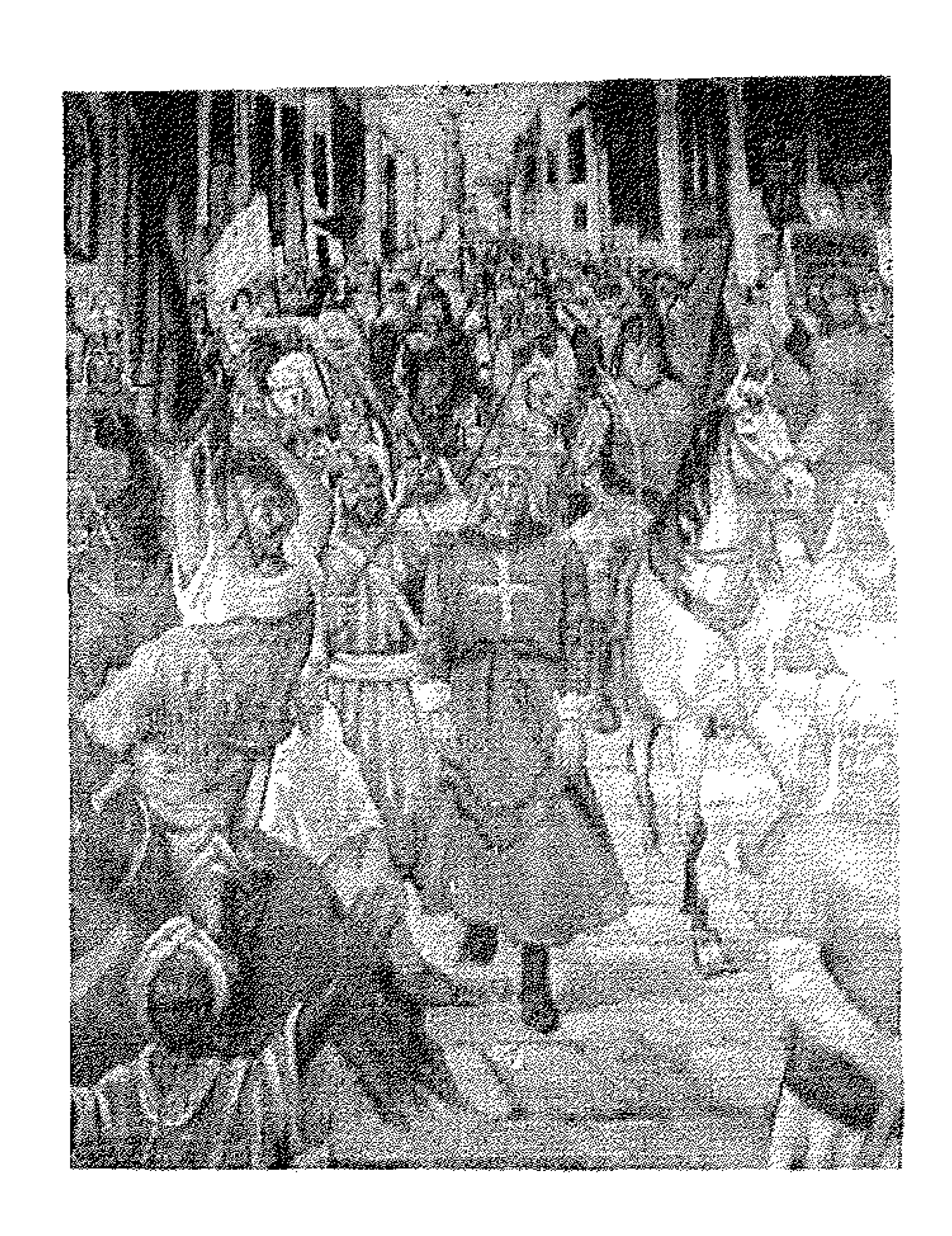
حروب صلاح الدين ضد القوات الصليبية
في السنوات ١١٧٤ - ١١٨٠ م



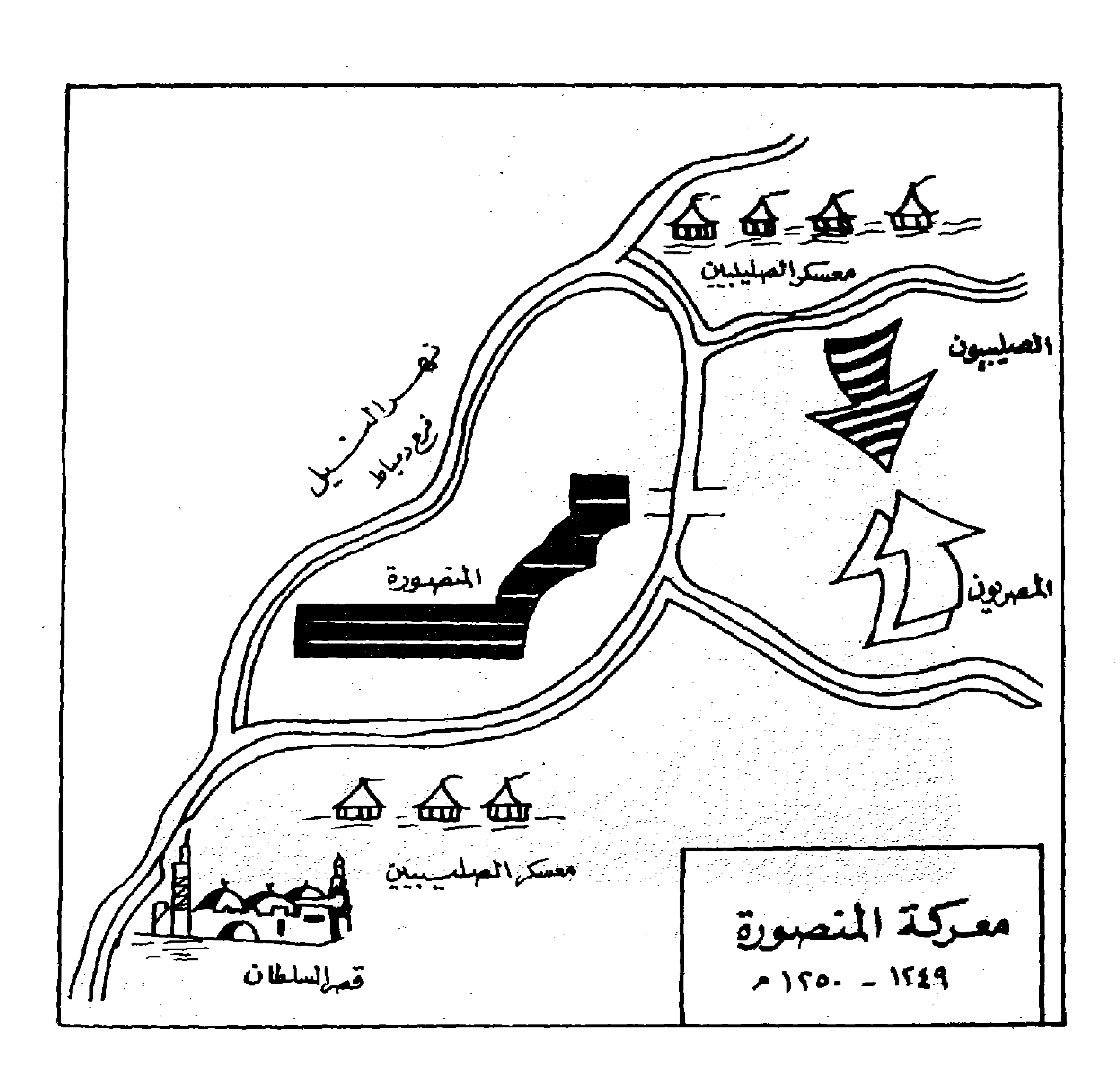
الجيش المصرى بقيادة السلطان « صلاح الدين الأيوبى »
عقب انتصاره فى معركة « بيت المقدس » عام ١١٨٦ م .



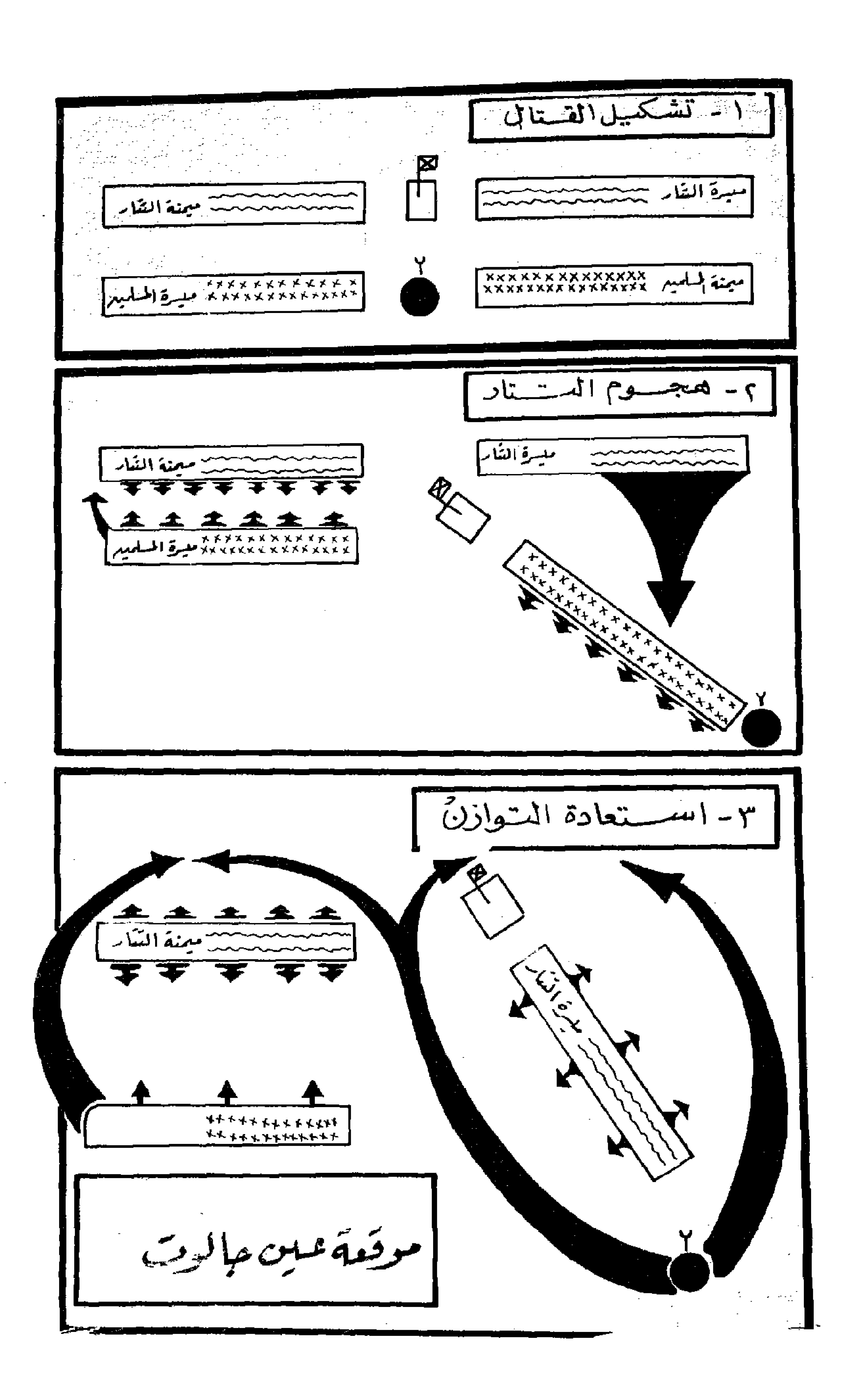
انتصار الجيش المصرى على الصليبيين فى معركة « حطين » عام ١١٨٦ م .



الملك الفرنسى « لويس التاسع » بعد هزيمته من الجيش المصرى فى « المنصورة » عام ١٢٤٩ م ووقوعه فى الأسر .



معسكر الصليبيين
الصليبيون
نهر النيل
فرع دمياط
المنصورة
المصريون
معسكر الصليبيين
قصر السلطان
معركة المنصورة
١٢٤٩ - ١٢٥٠ م



١ - تشكيل القتال
ميسرة التتار
ميمنة التتار
ميمنة المسلمين
ميسرة المسلمين
٢ - هجوم التتار
ميسرة التتار
ميمنة التتار
ميسرة المسلمين
٣ - استعادة التوازن
ميمنة التتار
ميسرة التتار
موقعة عين جالوت

تقدم « كيتوبوقا » — قائد التتار — فى خيلاء ممتطياً صهوة جواد أبيض ، وقد أمسك بيديه سيفان على عادة التتار ، بعد أن ألقى بنظرة طويلة إلى رجاله يشجعهم ويحثهم على القتال . وعلى الجانب الآخر ، كان الملك « قطز » على ظهر حصانه الأرقط يستكمل اللمسات الأخيرة لخطته التى تم الإتفاق عليها مع ركن الدين بيبرس ، وأخيراً أخذ مكانه فى قلب الجيش الإسلامى ، بينما أحاطته ثلة من اشجع فرسان المسلمين فى شكل نصف دائرة .

بدأ القتال عندما أطلق « كيتوبوقا » صيحة الحرب الهائلة ، فى نفس الوقت الذى دقت فيه طبول الجيش الإسلامى وانطلق الفريقان لتنهال السهام القاتلة من جانب التتار على جيش المصريين حتى اشتد الأمر عليهم ، ولكنهم ما لبثوا أن اندفعوا نحو العدو خلف الملك المظفر « قطز » الذى أشار بيده للاندفاع لتصافح الصفوف الأمامية من القوتين بالسيوف ، وليبدأ القتال الذى استبسل فيه الجانبان استبسالا عظيما .

كان بالإمكان فى تلك اللحظات بالدقة ، أن يلاحظ الجنود المسلمين ابتسامة راضية ارتسمت على أسارير الملك الذى انشرح صدره عندما وجد أن رجاله ينقضون على التتار ، لقد أيقن آنذاك أنهم بدأوا يتخلصون من عقدة الخوف من جنود هذا الجيش الذى لا يقهر .

ولكن سرعان ما هجم فرسان التتار كسيل جارف من النار هجمة عنيفة على ميمنة الجيش الإسلامى التى تراجعت على الأثر تحت وطأة الضغط التتارى ، وفى تلك اللحظة ، قام الملك المظفر « قطز » بتنفيذ خدعته المخططة من قبل بالانسحاب على رأس القلب إلى الخلف وتبعته قوات القلب ثم قوات الميمنة ، تتبعهم قوات التتار وقد حسبوا ذلك نصراً .

فى تلك الأثناء ، كان واضحاً لقطز أن « كيتوبوقا » يبغى تطويق ميسرة المسلمين (تحت قيادة ركن الدين بيبرس) الذى قام بحث رجاله على الصمود والاستبسال ، فثبتوا ثبوتا عظيما حتى كثر القتل فيهم وفى أعدائهم .

وهنا تقدم الملك المظفر « قطز » كالسهم ، فكشف عن خوذته وألقى بها إلى الأرض ، صارخاً بأعلى صوته « وا إسلاماه » ليحمل بمن معه حملة قوية على ميسرة التتار وقلبهم وردد معظم الجند الإسلامى صيحة الملك الهائلة ، وحملوا حملة قوية انتعشت بها الميمنة الإسلامية التى تقدمت ببطء شديد من جموع التتار ، ثم قاد هجوماً خاطفا بقسم من القلب فيما بين ميسرة العدو وقلبه ، فى حين أمر الأمير « بهادر » فرسان الميمنة بالانتشار فى اتجاه الشمال الشرقى لتطويق ميسرة التتـــار .

بعد قتال عنيف ، تمكن الملك « قطز » وفرسان القلب من توسيع الثغرة فى صفوف التتار بين الميسرة والقلب ، لتندفع إليها القوات المصرية . وهنا أمر الملك « قطز » باستكمال تطويق ميسرة العدو ، فاندفع بقية القلب الإسلامى إلى الثغرة لمعاونة ميسرة المسلمين ، على تطويق من لم يتمكن من الفرار .

وتعطينا المراجع التاريخية وصفاً مؤثراً ودقيقا لقتال الملك المظفر « قطز » الذى بدأ فى ساحة المعركة حاسر الرأس وقد احمر وجهه فصار كقطعة من اللهب يعلوها اعصار من الدخان الأسود ، وهو يتقدم الصفوف ويضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال ، فكلما اعوج له سيف التمس سيفاً آخر ، ثم قاد هجمة خاطفة بقسم من القلب فيما بين ميسرة العدو وقلبه معلنا للامير « بهادر » — قائد الميمنة — بعزمه على تطويق ميسرة العدو ، وهكذا أمر « بهادر » رجاله بالانتشار إلى الشرق والشمال ، فى حين أخذ الملك (قطز) يحث فرسانه على توسيع الاختراق فى صفوف التتار

لفتح ثغرة واسعة بين ميسرة العدو وسائر جيشه ، ولم تزل هذه الثغرة تتسع بما اندفع إليها من صفوف المصريين حتى أمر الملك « قطز » باستكمال تطويق ميسرة العدو ، وهكذا اندفع بقية القلب الإسلامى إلى الثغرة لمعاونة ميسرة المسلمين على تطويق من لم يتمكن من الفرار من قلب وميمنة العدو ، وبذلك تم حصار جيش التتار فى هاتين الدائرتين وحيل بينه وبين الفرار ، وقام الجيش الإسلامى بتوجيه هجمات ساحقة من جميع الاتجاهات على قوات التتار ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح حتى امتلأ الفور بجثثهم وأشلائهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل من « ساقتهم » الذين تمكنوا من الفرار إلى تل مجاور حيث راحوا يمطرون المسلمين بوابل من سهامهم ، ولكن قوة من فرسان المسلمين قامت بمطاردتهم وقاتلوهم حتى سحقوهم سحقاً .

فى نهاية ذلك اليوم العصيب ، كتب الله النصر للمسلمين على جيوش التتار التى لم تهزم قط من قبل ، أما الملك المظفر « قطز » فخر على أرض المعركة ساجداً شاكراً لله تعالى على هذا النصر العظيم ، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تنهمر على لحيته حتى اختتم صلاته ، فامتطى صهوة جواده ، وخطب فى جيشه قائلا :

« أيها المسلمون . . ان لسانى يعجز عن شكركم ، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى . لقد صدقتم الله الجهاد فى سبيله ، فنصر قليلكم على كثير عدوكم . قال الله تعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقال عز وجل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

« اياكم والزهو بما صنعتم ، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله ، انه ذو القوة المتين ، وما يدريكم لعل دعوات اخوانكم المسلمين على المنابر فى الساعة التى حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم — يوم الجمعة — وفى هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان ، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التى بها ضربتم ، والرماح التى بها طعنتم ، والقسى التى عنها رميتم واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه . وان الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده . . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ألا فترحموا على اخوانكم الذين علم الله ما فى قلوبهم من الإيمان والخير ، فاختار لهم الشهادة والجنة ، واختار لكم النصر والبقاء ، لتعودوا للجهاد فى سبيله ، وما عند الله خير وأبقى » .

يعطينا « رشيد فضل الله الهمذانى » — مؤرخ حروب التتار — وصفاً دقيقاً لسير القتال ، فكتب :

« أقبل « كيتوبوقا » كأنه بحر من اللهب ، معتمداً على قوته وسطوته ، وكان « قطز » قد عبأ الجيش فى كمين وأعده خير إعداد ، ثم ركب هو بنفسه وثبت مع نفر قليل من الجند وقابل « كيتوبوقا » مع عدة آلاف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس فى « عين جالوت » فقذف التتار سهامهم وحملوا على المصريين ، فتراجع « قطز » ولحقت بجنوده الهزيمة ، وهنا تشجع التتار وتعقبوه وقتلوا كثيرا من المصريين ، إلا أنهم عندما بلغوا الكمين الذى دبره قطز انشق عليهم من ثلاث جهات ، وأغار المصريون على جنود التتار ، وهنا رمى « قطز » خوذته وصاح بأعلى صوته : « وا إسلاماه » وحمل بنفسه ومن معه حملة صادقة ، وقاتلوهم قتالا مستميتا من الفجر حتى منتصف النهار ، حتى تعذرت المقاومة على جيش التتار ولحقت به الهزيمة آخر الأمر »

---

(١) جامع التواريخ : « تاريخ المغول » — المجلد الثانى — ج ٢ — الترجمة العربية — ص ٣١٢ وما بعدها .

وحين قامت بعض فرق التتار بالجوء إلى قم الجبال والمرتفعات ، تعقبهم المصريون وأفنوهم عن آخرهم ، بينما هرب من سلم منهم إلى الشرق ، وهكذا دخل الملك « قطز » دمشق فى آخر شهر رمضان فاستقبله الأهالى بالابتهاج » .

نهاية درامية للقائد التتـــار :

كذلك يعطينا المؤرخون وصفا دقيقا لنهاية القائد السفاح « كيتوبوقا » على يد الملك المظفر « قطز » ، فيقولون أن القائد التتارى قد قاتل قتال الأبطال حتى بعد أن انفض عنه جنوده فى ختام المعركة ، فظل يكر على القوات المصرية ، وحينما زين له بعض رفاقه الهرب من ساحة القتال صاح فيهم قائلا :

« لا مفر من الموت هنا . . فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان » وظل يقاتل إلى أن كبا به جواده فأسره المصريون ، ليحمل مكبلا إلى « قطز » الذى بادره قائلا :

« أيها الرجل الناكث بالعهد . . ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة ، قد وقعت أخيراً فى يدى » .

وفى وقاحة ، أجاب قائد التتـــار :

« أيها الفخور المغرور . . لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا ، فأنا إذا قتلت على يديك ، فإنى أعلم أن ذلك من الله لا منك فلا تخدع نفسك بهذه المصادفة ، ولا بهذا الغرور العابر ، واعلم أنه حين يبلغ « هولاكو » العظيم نبأ قتلى ، فسوف يغلى غضباً ، وستطأ سنابك خيول التتار البلاد من « أذربيجان » حتى الديار المصرية ، ان لهولاكو ثلاثمائة ألف فارس مثل « كيتوبوقا » وهنا أمر الملك المظفر « قطـــز » بقتل « كيتوبوقا » جزاء وفاقاً لمـــا ارتكبته قواته من جرائم ووحشية بالغة يندر أن تشهد لهـا البشرية مثيلا ، ففصل رأسه عن جسده لتحمل إلى مصر ، حيث أخذت مكانها اللائق إلى جانب رؤوس التتار الأربعة التى علقت من قبل على أبواب القاهرة ! .

آثـــار عين جالوت :

تعتبر موقعة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة فى التاريخ الإنسانى بأسره ، فهى لم تكن قتالا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها قواعد وقوانين متعارف عليها ، وإنما كانت حرباً همجية شنتها قبائل بربرية متوحشة سفاكة للدماء مخربة للعمران ضد سكان المدن فى كل مكان .

ويمكن أن نطلق لخيالنا العنان لنتصور النتائج التى كان من شأنها أن تترتب على انتصار المغول فى هذه المعركة .

فلا شك أن انتصار هذه القبائل البربرية كان من شأنه القضاء التام على حضارة العالم شرقاً وغرباً ، ومن هذه الزاوية تكن موقعة « عين جالوت » قد تركت فى تاريخ البشرية أثراً أشد وأقوى مما تركته كل هذه المعارك ، لقد رأينا كيف قامت جحافل التتار بهدم الحضارات وسحق الأهالى والعبث بالأديان والمقدسات فى إيران والعراق والشام ، وما كان هذا المصير المؤلم ليصبح من نصيب مصر وحدها فى حال انتصار التتار ، بل كان من شأن الأمة العربية كلها أن تدخل فى عصر مظلم حالك طويل بعد انهيار مصر تحت وطأة التتـــار .

ولو انتصر التتار ، لواصلوا زحفهم إلى ليبيا وبلاد النوبة ، ولاسترد الفرنجة بيت المقدس ولتضاءل شأن الإسلام إلى أدنى حد ، الأمر الذى كان من شأنه تغيير مجرى التاريخ .

يقول « رينسيمان » فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية »[1] :

« بسقوط المدن الثلاثة الكبيرة : بغداد وحلب ودمشق ، تراءى كأن الإسلام فى غرب آسيا قد حانت نهايته ، إلا أن ما أحرزه المصريون من انتصار ، أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له ، فلو أن التتار تمكنوا من التوغل فى مصر ، لما بقى للمسلمين فى العالم دولة كبيرة شرقى بلاد المغرب » .

إن انتصار المصريين فى « عين جالوت » لم ينقذ مصر فحسب من وحشية التتار ، بل أنقذ بلاد الشام كذلك ، لأن التتار — بعد تلك الضربة القاضية التى نزلت بهم — لم يعد لهم مقام فى الشام ، بعد أن جردوا من أية قوة تحميهم وتزود عنهم ، اللهم إلا إذا جاءتهم موجات أخرى ضخمة من جنوب آسيا لإعادة الكرة من جديد ، وهو ما لم تعد تسمح به ظروفهم وأوضاعهم الداخلية بعد « عين جالوت » .

وفى هذا يحدثنا المؤرخ « رشيد الدين الهمدانى — فى كتابه « جامع التواريخ »[2] :

« وقد أراد هولاكو أن يرسل جيوشاً مرة ثانية إلى الشام للانتقام لمقتل قائده « كيتوبوقا » ، ولكن لم تكن الظروف فى ذلك الوقت تسمح بذلك ، بسبب وفاة « منكو خان » ، وبسبب الخلافات التى ظهرت بينه وبين أقاربه ، ولهذا عدل عن الفكرة .

القضـــاء على خـــرافة :

كانت معركة « عين جالوت » بمثابة سد منيع حال دون تقدم التتار إلى مصر كما تقدم ، بعد أن قضى المصريون فى تلك المعركة الفاصلة على تلك الخرافة التى كانت تقضى بأن التتار إنما هم قوم لا يغلبون ، وعلى الرغم من أن الهزيمة لم تلحق شخصيا بهولاكو ، إلا أنها مثلت ضربة قاصمة أنزلها المصريون بجيوش التتار ، ولا شك أن تلك الهزيمة التى أصابتهم ، بالإضافة إلى مصرع القائد التتارى « كيتوبوقا » كانت بمثابة صلمة عنيفة أصابت « هولاكو » المتعجرف والذى ما أن بلغته أنباء مقتل قائده الكبير ، حتى تأثر تأثراً شديداً وأقسم على أن يغسل العار الذى لحق بالتتار ، وأراد أن يرسل حملة عسكرية جديدة إلى بلاد الشام ومصر ، غير أن الظروف لم تمكنه من ذلك .

قلبت موازين القـــوى ! :

كذلك قلبت نتائج معركة « عين جالوت » الموقف بين المسلمين والصليبيين فى الشام رأساً على عقب ، حيث اعتمد الصليبيون فى تلك الفترة فى بقائهم بفلسطين على ذلك التنافس الذى كان محتدما بين الأيوبيين هناك ، والمماليك فى مصر . . ولكن انتصار المصريين فى « عين جالوت » غير بشدة من موازين القوى لغير صالح الصليبيين فى الشام ، إذ ترتب عليه قضاء المماليك على بقايا الأيوبيين الذين خانوا أوطانهم وتعاونوا مع « هولاكو » فكتبوا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية — الترجمة العربية — ج ٣ ، ص ٥٣٧ و ٥٣٨ .

(٢) جامع التواريخ ، جـ ١ ص ٣١٧ .

بذلك صك عدم أهليتهم للبقاء ، وهكذا عادت وحدة مصر والشـام تحت حكم المماليك فى مصر ، وهى الوحدة التى طالمـا ذاق الصليبيون من أمرها الكثير .

حمت أوروبا من سطوة التـــار :

كذلك كان خطر التتار قد عم البلاد الإسلامية قبيل « عين جالوت » ، وامتد إلى شرق أوروبا وكان « هولاكو » وخلفاؤه من بعده يعدون للقيام بغزو أوروبا بأسرها وتخريب حضارتها ، وذلك بعد تمام استيلائهم على منطقة الشرق الإسلامى عبر الصحراء الغربية — نفس طريق الحرب الذى طالمـا سلكه الغزاة والفاتحين فى مختلف العصور — ولكن عندما كسر المصريون شوكة التتار فى « عين جالوت » انهارت آمالهم وضعفت همتهم وبذلك فقط توقف المـد التتـارى الكاسح .

لقد تنبه بعض المؤرخين الأوربيين إلى تلك الحقيقة ، فاعترفوا بأهمية « عين جالوت » وذكروا أنها لم تنقذ مصر والشام من خطرهم فحسب ، بل خلصت كذلك العالم الأوروبى والمدنية الأوروبية من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا آنذاك طاقة على دفعه[1] .

أعطت المسلمين درسـاً فى التضامن ضـد الخطـر :

كذلك أعطت نتائج معركة « عين جالوت » درساً فى التـآزر والتضامن فى مواجهة الأخطار الخارجية ، فعندما ظهر خطر التتار واشتدت وطأتهم فى بلاد الشام آنذاك ، سعوا إلى تحصين أنفسهم بالتضامن ليسيروا قدما فى طريق الجهاد ، حتى تمكنوا — فى النهاية — من تحرير أوطانهم من التتار وحماية الإسلام من الأخطار العظيمة النازلة به حتى يستعيدوا مكانتهم بين الأمم باعتبارهم رسل الإنسانية ومنقذيها .

لقد كان انتصار المسلمين فى هذه الموقعة الفاصلة أمراً جعل الأوروبيين يدركون تماما انهم قادرون على حماية أنفسهم وأن لديهم الإمكانات التى تكفل خدمة البشرية ورفع حضارتها فى مدارج الرقى والازدهار .

يقول « سيديو » فى كتابه « تاريخ العرب العام » :

« لقد وجد التتار حينما أغاروا على الشعوب الإسلامية فى النصف الأخير من القرن ١٣ فى مقاومة المصريين وشجاعتهم حاجزا يتعذر اقتحامه ، وانضمت عدة قبائل إسلامية إلى الجيوش المصرية فساعدتها على تحقيق النصر ، ولم يتردد الظاهر بيبرس — أمير أمراء المماليك البحرية — فى الدفاع عن الإسلام ، فى حين لم يفكر أمير آخر فى النهوض بهذا العبء ، لقد كان « بيبرس » سياسياً محنكا كما كان قائداً ممتازاً » .

أما ذلك الرجل العظيم الذى اقترن اسمه بهذا النصر الكبير فى « عين جالوت » إلى الأبد ، فيصفه المؤرخ « بن تغرى بردى »[2] بقوله :

« كان « قطز » بطلا شـجاعا مقداما حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسـلام وخير وله اليد البيضاء فى جهاد التتار ، عوض الله شبابه بالجنة ورضى عنه » .

---

(١) Browne: A Literary Hist. of Persia, IV P, 6; Gamb. Med. Hist. vol, VI PP, 28, 43, 44.

(٢) بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — الجزء السابع — ص ٨٤ .

الباب الثالث

معارك الجيش المصرى فى الشام

الفصل الأول

فى مواجهة الجيـوش التركية(١)

المؤرخ العسكرى : محمد فيصل عبد المنعم

اعتباراً من عام ١٨٣١ نشبت الحرب بين مصر وتركيا ، على أراضى الشام ، التى كانت تمثل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية واسعة الأرجاء .

ولقد اختلف المؤرخون فى ذكر أسباب ودوافع هذه الحرب . . وان اتفقوا جميعا على أن السبب الرئيسى لها كان ينحصر فى النوايا السيئة التى كان يكنها سلطان تركيا لمصر فى شخص واليها (محمد على)(٢) .

إلا أن الأمر الذى نستهدفه من بحثنا هذا وتحليلنا لمعارك الجيش المصرى ضد الجيوش التركية ، إنما هو فى واقع الأمر بيان لتوضيح بسالة الجندى المصرى الذى كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بالقتال سواء للدفاع عن وطنه أو لتحطيم جيوش عدوه وتأمين حدوده . . وهذه هى الزاوية التى ينبغى أن تسلط عليها كافة الأضواء ونحن بسبيل الدراسة لهذا العرض التاريخى المدعم بالأسانيد والوثائق .

قـوة الجيش المصرى فى بداية حرب الشـام :

كانت قوة الجيش المصرى النظامى ، حينما أعدت حملة الشام ، تبلغ نحو ٧٠ ألفا موزعين بين الأسلحة على الوجه التـالى :

١٨ آلاى مشـاة .
٨ الآيات خيالة .
١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين والقوات غير النظامية . .

---

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » – مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ، ١٩٧١ .

(٢) والجدير بالذكر أن السلطان العثمانى لم يوافق على تولية (محمد على) حكم مصر عام ١٨٠٥ إلا مكرها . . حيث لم يدع فرصة بعد ذلك لعزله أو التآمر عليه إلا واغتنمها . . فى عام ١٨٠٦ حاول نقله إلى ولاية (سالونيك) ، وفى عام ١٨١٣ عين (لطيف باشا) أحد رجال الحكومة المصرية – لولاية مصر على أن يطيح بمحمد على – كما قام فى ذلك الوقت بمنح (خسرو باشا) – ألد أعداء (محمد على) منصب الصدارة العظمى . .

– أوردنا هنا أهم الدوافع ، مع تعمد اغفال بعض الأسباب الفرعية مثل سوء التفاهم الذى ساد بين (عبد الله باشا الجزار) والى (عكا) و (محمد على) بسبب هجرة الفلاحين من مصر إلى ولايته . . أو عدم وفاء الأول بدين عليه لمحمد على .. الخ . . .

– كان تعداد مصر فى ذلك الحين نحو الأربعة ملايين نسمة . .

القوات المصرية التي خصصت للحملة :

وقد بلغت القوات البرية التي خصصت لحملة الشام نحو ٢٥ الفا من الجنود بالإضافة إلى ٣٠٠٠ من الخيالة (الفرسان) وذلك على النحو التـــالى[١] :

- ٥ آلايات مشاة (آلاى ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ وآلاى الحرس) .
- ٤ آلايات خيالة (آلاى ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ المدرعة والرماحة) .
- ١ أورطة مدفعية (تحتوى على ٤٠ مدفع ميدان و ٢٠ مدفع حصار و ١٠ هاونات) « دعمت فيما بعد » .
- ٤٠٠ جندى من المهندسين .
- ١٢٠٠ خيالة (من البدو) .

الاســـــطول :

كما تألفت القوات البحرية المصرية المشتركة فى الحملة من ٢٣ سفينة حربية تحت قيادة أمير البحر (عثمان نور الدين باشا) منها ٧ فرقاطات و٦ قرويته و ٣ أباريق و ٧ سفن مدفعية علاوة على عدد من الناقلات الصغيرة .

القـــوات العثمانية النظـــامية

ويحسن هنا أن نتعرض إلى بيان حالة الجيش التركى الذى أعده السلطان (محمود الثانى) على النمط الحديث بعد قضائه على القوات « الإنكشارية » خلال مذبحة ١٦ يونية ١٨٢٦ الرهيبة .

قائد الجيش :

كان على رأس الجيش العثمانى السر عسكر « حسين باشا »[٢] ذو الميول الرجـ[illegible] الجامدة غير المحبة للتطوير فى أساليب القتال ، الأمر الذى دعا السلطان إلى أن يعين معه قائداً آخر هو « محـ[illegible]ـا » الذى تولى قيادة كافة الوحدات المنظمة عدا قوات الحرس ، وكان الأخير متطور الفكر ميالا إلى التجديد والتطوير ، مما قسم الجيش التركى إلى قسمين ، قسم (المحافظين) بقيادة السر عسكر « حسين باشا » وقسم (المجددين) بقيادة « محمد باشا » ، أما باقى قادة الجيش ، فكانت تعوزهم الكفاءة ويفتقرون إلى مؤهلات القيادة الناجحة .

القـــــوات :

بلغ تعداد الجيش العثمانى نحو ٦٠ ألفا من الجنود من بينهم ٤٥ ألفا من وحدات النظام الجديد ، يمثلون آلة القتال الفعالة ، ولكن كانت تنقصهم أيضا أهم مقومات النجاح – النظام – وذلك فضلا عن ميلهم إلى الاسراف ورغبتهم فى الحصول على الغنائم[٣] .

---

(١) خصص لكل آلاى خيالة ٣٠٠ جمل لنقل المتاع والمياه – كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل احتياجاتها .

(٢) وهو الذى قام بإبادة (الانكشارية) – بدأ حياته سهالا فجاسوسا ثم قائد قلعة ثم جلاداً ثم باشا الباشوات – قلده السلطان (محمود) رتبة مشير ولقبه بالمشير الأكرم كما ولاه مصر وكريت والحبشة .

(٣) التاريخ الحربى لعصر محمد على باشا : القائمقام عبد الرحمن زكى .

تقرير رسمي يصف حالة القوات العثمانية :

« في تقرير رسمي عن حالة الجيش العثماني عام ١٨٣٦ جاء فيه »[1] :

« من حسن بكباشي طوبجي غارديا إلى سامح بك في ٢٨ جمادى الآخرة عام ١٢٥٣ » .

أصدر الحاج علي باشا أمراً إلى علي بك أمير الاى الآلاى الثاني ليخرجه إلى التدريب ، ولما بلغني هذا الخبر توجهت إلى مكان التدريب فجلست في موضع اتفرج فيه على تدريب الآلاى المذكور فرأيتهم يتدربون تدريب المناورة فحسب ولا بأس في تدريبهم ، وقد شاهدت في ذلك اليوم الحاج علي باشا وأيوب باشا لواء رديف (قونية) حضرا مكان التدريب وبما أن الآلاى المذكور لم يستعمل اليوم السلاح في ميدان التدريب ، وكانت دواب الفرسان والمدفعين في المرعى ، فلم تتيسر لي مشاهدة تدريباتهم وحركاتهم الخاصة في استعمال السلاح ومع ذلك خطر على بالي أنني استطيع أن أكون فكرة عن كيفية تدريباتهم بكل من مهارة ضباطهم ، فبدأت أحدث الضباط الذين يترددون على التاجر سالف الذكر باختلاف صنوفهم سواء كانوا من ضباط المشاة أو الفرسان أو المدفعية ، فسألت كل صنف منهم — فيما يختص بطائفته عن أصول التدريب ، فأجابوا : نحن لا ندرى أصولا أو قوانين مثل العساكر المصرية وإنما شأننا أن نخرج إلى التدريب فنتدرب ، وقد علمت من افاداتهم أيضا في تدريباتهم وحركاتهم وسألتهم أيضا عن الطريقة التي يسلكونها في تأديبهم لمن يرتكبون مخالفات أو جرائم ، فعرفت أن ذلك ليس خاضعا للقانون أو النظام وإنما يؤدب كل ضابط من كان في معيته بما يتراءى له ، وقد يحدث أحيانا أن يموت أحد المذنبين تحت الضرب . . سمعت ذلك من (يسقيل) كبير أطباء الآلاى الثاني ، حتى قيل أنه بلغ عدد الذين ماتوا من جراء الضرب ١٦ جنديا قيدت أسماؤهم في دفتر الطبيب المذكور . . وظاهر من هذا أن الجيش المصري كان يفضل الجيش العثماني في نظامه يؤيد هذا القول ما رواه المارشال « فون مولتكة »[2] عن حالة الجيش العثماني الذي كلف بتدريبه فترة طويلة من الزمن ، وما ذكره المارشال « مارمون »[3] في رحلته الشهيرة التي استعرض فيها — عام ١٨٣٤ — بعض فيالق الجيش المصري فأعجب بكفاءتها وحسن نظامها قائلا :

« كان لواء المشاة المؤلف من الآلاى التاسع والآلاى العشرين في طريق السويس للابحار منها إلى الحجاز لنجدة الجيش المصري فيه ، واستعرضت بنفسي هذا اللواء فقام أمامي بمناورات دامت ٣ ساعات في سهل العقبة فأعجبت به ايما اعجاب ، وإذا كان عساكره في مقتبل السن وحديثي العهد بالانتظام في صفوفه ، فقد لاحظت مبلغ تأثير القائد الأعلى للجيش في تشكيله ونظامه ، والحق أن العساكر الذين استعرضهم يميلون إلى الدقة والنظام والدراية بالفنون

---

(١) وثيقة رقم ٢٥٥ - ١٢٥ عابدين تحت عنوان (حالة الجيش العثماني في قونية عام ١٨٣٧) .

(٢) **Moitké, helmuth briefuler zustande und begeben heiten in der turkei aus den Jahren, Berlin, 1841.**

(٣) الماريشال مارمون : دوق دى راجوز — أحد قادة الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ — عين قائداً للاسكندرية والبحيرة وبنى حصنى (كوم الناظورة) و (كوم الدكة) . . وسمى الأول (حصن كافاريلى) باسم قائد فرقة مهندسى تلك الحملة الذى قتل خلال حصار (عكا) وسمى الثانى (حصن كريتان) باسم الكولونيل (كريتان) من قسم المهندسين والذى قتل فى معركة (أبى قير) بين الفرنسيين والجيش التركى ودفن فيه وكان (مارمون) مقربا لنابليون الذى رقاه إلى رتبة (ماريشال) . . ولكنه خانه ولم يجن ثمار تلك الخيانة ، حيث قامت الحكومة الفرنسية التى خلفت حكومة(نابليون) بطرده من الخدمة ، فقام بسياحة فى بلاد الشرق وزار مصر عام ١٨٣٤ حيث أكرم (محمد على) وفادته وطلب منه استعراض الجيوش المصرية البرية والبحرية وتدوين ملاحظاته عليها .

العسكرية ، وقد رأيت فى قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة وشهدت أيضا الآلاى السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنوده فى الخدمة أكثر من عشرة أشهر ومع ذلك رأيتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستعملون أسلحتهم بكل مهارة وكفاءة » .

وصف طبيعة مسرح العمليات

يمكن تقسيم مسرح العمليات الذى جرت على أرضه المعارك إلى ٤ مناطق تتباين فى الإتساع ، وتمتد من الشمال إلى الجنوب — متوازية تقريبا .

وأولى هذه المناطق :

منطقة الشاطىء وتتكون من عدة سهول ساحلية تختلف فى اتساع رقعتها ، وينفصل بعضها عن بعض بالجبال التى تمتد فى بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط ، مثل (الكرمل) فى لبنان وجبل (أحمر داغ) بالقرب من (انطاكية) — ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع فى الجنوب لدى سهل (شارون) الذى يبلغ متوسط عرضه هناك ١٥ ميلا ، وكثيرا ما تتجه السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة مع مجارى المياه ووديان الأنهار كسهل (ازدرائيليون) شمال الكرمل ووادى العاصى (الأورنت) المتاخم لأنطاكية ، غير أنه فى الوسط — حول طرابلس وبيروت — تضيق المنطقة الساحلية وتمثل شريطا وعراً للغاية .

المنطقة الثانية :

وتشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى وتكون ثلاث سلاسل جبلية « الانصارية فى الشمال — ولبنان فى الوسط — وأفرايام ويهودا فى الجنوب » والسلسلتان الأوليان عبارة عن جبال شاهقة تصل فى بعض مناطقها إلى ارتفاع ١١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم ، وقليلا ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم ، كما تحتوى ثنايا وقمم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان .

أما المنطقة الثالثة : فتشتمل على الأودية العميقة التى تسلك فيها الأنهار الثلاثة (العاصى — الليطانى — الأردن) .
ويصب الأولان فى البحر مباشرة — أما الأخير (الأردن) ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب فى البحر الميت المغلق كما يتميز العاصى والليطانى بخصوبة وديانهما الفسيحة ، أما وادى الأردن فضيق لا يتيسر عبوره إلا فى مناطق محدودة ، بينما يمتد وادى الأردن إلى الجنوب حيث يتصل بوادى العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة .

أما إلى الشرق من منطقة الوديان فتقع الهضبة الشرقية الشاهقة (جوف سوريا) وهى منطقة مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ومتصلة بالصحراء القاحلة فى كثير من المواضع ، ومع ذلك تكثر بها المناطق الخصبة الوافرة المياه والثمر ، كالأراضى الواقعة حول حلب ودمشق وأرض مؤاب .

وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حداً فاصلا تصلح فى ثناياه العمليات الحربية الواسعة الحركات .

التقسيم الإدارى للشــــام :

أما التقسيم الإدارى للشام فقد كان مقسما إلى ولايات هى :

١ ــ ولاية حلب : وهى القسم الشمالى من البلاد .

٢ ــ ولاية بيروت : وتشمل السواحل البحرية وما بينها وداخل البلاد من اللاذقية شمالا إلى حيفا جنوبا .

٣ ــ ولاية الشام (سوريا) وقاعدتها مدينة (دمشق) وتشمل داخل البلاد وشرقها .

٤ ــ متصرفية القدس : وتتضمن جميع البلاد الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

٥ ــ متصرفية لبنان : وكان لها نظام خاص واستقلال إدارى ووال تعينه الدول بالاتفاق مع الباب العالى كل ١٠ سنوات وموقعها فى أواسط بلاد الشام ، بين ولايتى سوريا وبيروت .

وصف حـــال البلاد قبل حرب الشــــام :

قبل دخول القوات المصرية أرض الشام كان الخراب يشمل البلاد فالضرائب فادحة ، والظلم متفش حتى أصبحت البلاد على شفا الدمار والإفلاس التـــام .

الخطـــة المصرية العـــامة

تتطابق إلى مدى بعيد ــ الخطة المصرية لفتح الشام بخطة (نابليون) مع فارق وحيد ، حيث لم تكن لمصر السيادة البحرية التامة فى شرق البحر المتوسط نظراً لوجود الاسطول الانجليزى فى تلك المنطقة .

وقد قسمت وحدات الحملة إلى قسمين : القسم الأول تحت قيادة (ابراهيم باشا) الذى اتخذ البحر طريقا يصل به إلى (يافـا) وكانت قاعدته (العريش) ــ أما القسم الثانى فكان تحت قيادة (ابراهيم يكن) والذى تحرك برا من (الخانقاه) ــ وقد حدد موعد تحرك الحملة فى أوائل عام ١٨٣١ إلا أن انتشار وباء الكوليرا فى مصر ، قضى على حوالى خمسة آلاف من رجال الجيش الأمر الذى أدى إلى تأخير تحرك طلائع الجيش من معسكر (الخانقاه) بقيادة اللواء (ابراهيم يكن) ــ مارا ببلبيس والصالحية فقاطية فبئر العبد ــ والعريش حتى خان يونس وغزة ومنها إلى يافـا[1] حيث تقابلت قواته مع وحدات (ابراهيم باشا) الذى نزل بها بحرا وعلى الفور اندفعت كتيبة صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقدمت وحدات خفيفة أخرى تحت قيادة (حسن بك المانسترلى) واستولت على (صور) و (صيدا) و (بيروت) و (طرابلس) .

---

(١) حينما رســا الأسطول المصرى تجاه (يافــا) توجه وجهاء المدينة إلى (ابراهيم باشا) وعرضوا عليه التسليم ، فوافق وأنزل سرية استولت على مدافع قلعة المدينة (٤٧ مدفعا بذخائرها) ومواقعها الحربية .

القوات المصرية تنشىء جسراً للإمداد :

كان لابد – إزاء حملة كبيرة بهذا الحجم – من قيام الحكومة المصرية بإنشاء جسر بحرى – برى لضمان إمداد القوات بمختلف الاحتياجات المطلوبة لها من ذخائر وتموين . . . الخ .

وبناء على ذلك فقد أقامت الحكومة نظاماً إداريا يكمل فيه كل من الإمداد البحرى والإمداد البرى بعضهما البعض ، فبينما كانت المؤن والذخائر والاعتدة ترسل – على السفن من الموانىء المصرية إلى ثغور الشام تم انشاء المخازن والمستودعات فى تلك الثغور[1] .

وثيقة رسمية توضح الموقف الإدارى للحملة :

وفى وثيقة هامة – تمثل تقريرا من المهندس (قاسم اغا) كتبه عام ١٨٣٢ (٢٤ رمضان ١٢٤٧ هجرية) – نقرأ آراء هامة بخصوص التخطيط الإدارى[2] وننقلها فيما يلى :

« بما أن الجيش المصرى قد أصبح بعيدا عن مصر ويحول بينه وبينها الصحراء وأن طريق البحر ليس بمأمون دائما وأنه ليست هناك غلال لتموين الجيش بسبب ما استحكم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء ، اقترح ما يلى:

أولا : مد خط من مصر وانشاء اشونة للغلال على خط مستقيم بطول الجهات التى تمتد فيها الحركات العسكرية (فى الصالحية وقاطية والعريش وغزة ويافا وحيفا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وما إليها ..) ويودع فى كل من هذه الشون مقدار كاف من وسائل النقل ليتولى ايصال ونقل مؤونة الجيش من مصر إلى كل النقط حتى المعسكر .

ثانيا : ينشأ فى (دمياط) مستشفى كبير ليرسل اليه من الجيش العسكر المرضى والضعاف للمعالجة فيه – وتنشأ فيها أيضا أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد فيعين منهم الحراس فى الشون كما يسد منهم النقص الذى يحصل فى الآلايات – وإذا أخذ بهذا النظام فيصان كيان الجيش بحيث تبقى الآلايات التى يتكون منها كاملة العدد ويحفظ أيضا الطريق المشترك الذى بين مصر وبر الشام وتقل للغاية عدد الخسائر التى تحدث فى الدواب بسبب طول الطريق الممتد من مصر إلى الشام » .

السلطان العثمانى يتأهب للحـــرب

أصدر السلطان أوامره إلى القائد التركى (حسين باشا) بتنظيم الجيش فى الأناضول وفى ذات الوقت قام السلطان بتعيين (عثمان باشا اللبيب) حاكما على (طرابلس) رغم ما كان معروفا من الخصومة الشديدة بين القائدين .

أما الحامية المصرية الموجودة فى (طرابلس) لحمايتها فكانت لا تزيد عن ٣٠٠٠ جندى (الآلاى ٨ المشاة) تحت قيادة القائمقام (ادريس بك) علاوة على بعض قوات الاعراب والدروز بقيادة الأمير (خليل) أحد أبناء الأمير (بشير الشهابى) .

---

(١) يعود الفضل فى وضع هذا التنظيم والإشراف على تنفيذه إلى (نظيف بك) مدير مستودعات التموين فى ذلك الوقت .

(٢) وثيقة رقم ٢٣٢ عابدين – تقرير مقدم من المهندس (قاسم أغا) .

نصر سريع للقـــوات التركية :

حالف الحظ القائد التركي (عثمان باشا) ، حين تقدم القائد المصرى القائمقام (ادريس بك) على رأس أورطة إلى السهل المكشوف خارج المدينة لمهاجمة القوات التركية (المتفوقة عدة وعددا) الأمر الذى نتج عنه إبادة الكتيبة وتقهقره مع فلول قواته إلى الخلف .

الحامية المصرية بطرابلس تلقن الأعداء درســا قاسيا :

شجع النصر السريع الذى أحرزه القائد التركي (عثمان باشا) على تدعيم معسكره أمام طرابلس ، وفى ٣١ مارس قام بمهاجمة المدينة ، فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع (مصطفى بربر) ومعهم ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير (خليل) وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، كما أبدت ضروبا من الجرأة والشجاعة أنزلت بالأعداء هزيمة منكرة ، فر على أثرها الجنود الأتراك فى اتجاه (مينه) .

الجيش المصرى يستولى على طرابلس :

حينما وصلت أنباء معركة (طرابلس) إلى قيادة الجيش المصرى الذى كان يحاصر مدينة عكا المنيعة ، قررت إحكام الحصار عليها مع التقدم فى ٢٩ مارس على رأس قول مؤلف من عشرة آلاف جندى (منها آلاى الحرس والآلاى السابع الخيالة وستة مدافع) فى اتجاه (صيدا) و (بيروت) ، وفى ٤ أبريل وصلت القوات المصرية إلى (بادرون) على مبعدة ٦ ساعات من طرابلس— وما أن علم القائد التركى (عثمان باشا) بذلك حتى استولى عليه الفزع ، فترك مدفعيته وعتاده وولى الادبار مع جنوده إلى منطقة (حماة) حيث عسكرت طلائع الجيش التركى .

وفى اليوم التالى دخل الجيش المصرى مدينة (طرابلس) ظافرا ، ليتابع مطاردة قوات (عثمان باشا) فتجاوزت قواته لبنان ، مدركة (حمص) وبذلك أصبحت القوات المصرية مشرفة على وادى (الأورنت)[1] وعلى مسافة مرحلتين جنوبى (حماة) — معقل الجيش التركى .

---

(١) نهر ينبع فى لبنـــان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماة وأنطاكية ويصب عند السويدية ويعرف باسم (نهر العاصى) — التاريخ الحربى لعصر محمد على — القائمقام عبد الرحمن زكى .

الفصل الثانى

معركة الزراعة : ١٤ ابريل ١٨٣٢

القوات المصرية تهزم القوات التركية :

حينما قدرت القيادة المصرية موقفها عقب دخولها (حمص) قررت العودة إلى (عكا) وبالفعل تحركت القوات المصرية فى اتجاه (خان قصير) حيث عسكرت فى سهل الزراعة (جنوبى حمص)، ولكن (عثمان باشا) اعتقد أن القوات المصرية قد تراجعت عن موقف ضعف ، فجمع إلى قواته حشدا من أهالى المنطقة والأكراد وفرسان العرب (نحو ١٥ الفا) وتوجه بهم لمقاتلة الجيش المصرى الذى كانت قيادته قد دبرت خطة محكمة ، وذلك بتقسيم قواتها إلى قسمين وحشدت خلف كل قسم منها مدفعية فى مواقع مستترة عن بصر العدو ، مع خداعه وإيهامه بالتزام جانب الدفاع ، وبالفعل خدع القائد العثمانى وهجم بكل وحداته على القسمين اللذين لبثا ساكنين حتى أصبح العدو على مسافة قريبة جدا فارتد المصريون بسرعة هائلة خلف المدافع ليصبوا حممها على الأتراك الذين أصيبوا بخسائر فادحة ، واختل نظام جيشهم وأصيبت قيادته بحالة من الذعر ، فارتدت جموعه خائبة مهزومة ليطاردهم الفرسان المصريون حتى دفعت بفلولهم إلى نهر (الاورنت) حيث مات الكثير منهم غرقاً ، وهكذا انتهت معركة الزراعة فى الرابع عشر من ابريل ١٨٣٢ — بهزيمة الجيش التركى وارتداد (عثمان باشا) إلى (حماة) فى انتظار وصول الإمدادات لاستئناف القتال .

الجيش المصرى يؤمن بعلبك :

وفى انتظار جولة جديدة بين المصريين والعثمانيين قامت القيادة المصرية بتأمين مدينة (بعلبك) التى تم احتلالها ببعض الوحدات التى استدعيت من حول (عكا)[1] .

أهمية موقع (بعلبك) :

وتقع مدينة (بعلبك) التاريخية فى وادى نهر الليطانى الذى يربط قسمى لبنان (الداخلى والخارجى) ويصل بين وادى نهر الأردن ونهر الأورنت (العاصى) كما تنبع من تلك المنطقة الأنهار الثلاثة (الأردن — الليطانى — العاصى) مكونة أخدوداً طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط وقد مرت ببعلبك أكثر الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب ، بالنظر إلى موقعها الاستراتيجى الهام الذى يسيطر على الشام بأكمله ، كما أنها تقع على مسافة متساوية من دمشق وبيروت وطرابلس ، وقد كان تقدير القيادة المصرية أن السيطرة على منطقة (بعلبك) وما حولها يحول دون وصول الإمدادات إلى الأتراك كما يمنع قدوم أية قوة لمعاونة « عبد الله باشا الجزار » لفك الحصار عن (عكا) وذلك بعد أن أمنت القوات المصرية أجنابها باطمئنانها إلى مسلك اللبنانيين الموالى نحوها .

---

(١) وكانت تتألف من الآلاى ١٢ المشاة وآلاى الخيالة الثالث يدعمها ٣ بطاريات مدفعية ميدان انضم إليها فيما بعد الآلاى ١٨ المشاة (من طرابلس) والآلاى ١١ المشاة (الذى وصل حديثا) وآلاى الحرس وآلاى الخيالة السابع ، وبذلك أصبح مجموع القوات المصرية المرابطة فى (بعلبك) أربعة آلايات مشاة — ٢ آلاى خيالة — قوات مدفعية — وحدات معاونة — علاوة على بعض القوات غير النظامية .

الفصل الثالث

معركة عكا (٢٧ مايو ١٨٣٢)

صفحة مجيدة فى تاريخ الجيش المصرى :

استقر رأى القيادة المصرية بعد تحصين (بعلبك) وتأمين شمال سوريا ووسطها على القيام بهجوم كاسح ضد (عكا) التى كانت لا تزال تحت الحصار ممثلة شوكة فى الجنب الأيسر للجيش المصرى ، ولم تكن معركة (عكا) بالمعركة العادية ، فعكا هذه بعينها هى التى تحطمت على أسوارها عجلة الحرب الفرنسية تحت قيادة (نابليون) الشهيرة ، وكانت بحصونها وقلاعها وأسوارها الضخمة تمثل صخرة قوية تقف فى وجه المهاجمين على مر العصور خاصة وأن حاكمها (عبد الله باشا الجزار) كان قائداً ثابت الجنان وقديرا على القتال[1] .

المعركة :

وفى ٢٧ مايو ١٨٣٢ قامت القوات المصرية المحاصرة لعكا بالهجوم عليها هجمة قوية وقاومت حامية المدينة مقاومة باسلة استمرت طوال نهار ذلك اليوم المخضب بالدماء ، فلما آذنت الشمس بالمغيب حمل المهاجمون حملة جديدة قوية أبدوا فيها من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه فى أول النهار ، ودافع خلالها (عبد الله باشا الجزار) ورجاله دفاع الأبطال ، ولكن بحلول الظلام كانت حصون المدينة الحصينة تتهاوى حصنا عقب حصن فى أيدى جنود مصر الذين عاهدوا الله على تحقيق النصر مهما غلت التضحيات[2] .

(سنت جون) يصف خطة استيلاء المصريين على (عكا) :

وقد وصف مستر (سنت جون)[3] معركة استيلاء الجيش المصرى على (عكا) وصفا مسهبا جاء فيه :

« كانت أوامر القيادة المصرية صباح يوم ٢٦ مايو ١٨٣٢ إلى كبار ضباط القوات المهاجمة كالآتى :

اللواء أحمد المونوكلي يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاة للهجوم على برج (قبو برج — قلعة البــاب) .

---

(١) فى خلال معركة (عكا) أصدر سلطان تركيا مرسوما يرمى فيه مصر بالمروق عن الإسلام أتبعه فى ٤ مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على وابراهيم وإباحة دمائهما وكان السلطان قد أعلن الحرب رسميا على مصر فى ٢٣ ابريل من نفس العـام .

(٢) كانت (عكا) محصنة بأسوارها المتينة تحميها عدة أبراج من جهتى الشرق والشمال ، كما كانت مبانى الحكومة محاطة بأسوار عالية ، أما من جهة البحر ، فكانت الأسوار أقل متانة بينما كانت المياه قليلة العمق لا تسمح برسو السفن الكبيرة على مقربة منها ، كما كانت جميع الحصون بحالة جيدة ومدفعية الحامية قوية ومياهها وافرة ولديها كميات كبيرة من المؤن والذخائر بما يكفيها لتحمل حصار طويل ، وقد زاد (عبد الله باشا الجزار) فى استحكاماتها القديمة بعد فشل (نابليون) أمامها فصارت أقوى مما كانت .

(٣) سنت جون (مصر تحت حكم محمد على) — الجزء الثانى — ص ٩٤٣ — ٤٩٦ .

الكتيبة الثانية المشاة تهاجم الثغرة المقابلة للنبي صالح .

الكتيبة الثالثة بقيادة (عمر بك) تهاجم الثغرة المعروفة بالزاوية .

قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة القوات المهاجمة عند الحاجة كما صدرت الأوامر إلى كتيبة من الآلاى العاشر للوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض سالف الذكر .

كتيبة أخرى تقوم بنقل السلالم قبل الساعة الأولى بعد منتصف الليل إلى الخندق الواقع بجانب (قبو برج) مع استعدادها للقيام بالهجوم عند صدور الأوامر بذلك .

المهندسون العسكريون يقومون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع خلال الظلام أثناء قصف المدينة بالمدفعية .

وفى صباح يوم ٢٧ مايو عقب شروق الشمس أصدر القائد العام الأوامر ببدء الهجوم واستمر القتال طيلة اليوم وفى المساء سقطت عكا فى قبضة المصريين .

« ومن ثم جاء أعيان المدينة يلتمسون الرحمة ، وقد أجيبوا إلى طلبهم فى أريحية وشجاعة ، ولما كان من الطبيعى أن يقوم الجند بأعمال النهب فى المدينة المفتوحة ، مثلما يفعل زملاؤهم فى الشرق والغرب قديما وحديثا ، فقد قام القائد العام فى اليوم التالى بإعادة النظام إلى المدينة ، كما أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، مع اصداره الأوامر لجنوده بإعادة ما فى حوزتهم من أسلاب وغنائم » .

خسائر حامية (عكا) :

كانت قوة حامية (عكا) فى بداية الحصار تبلغ نحو ستة آلاف مقاتل لم يبق منهم وقت سقوط المدينة سوى ٤٠٠ فقط[1] .

خسائر المصريين :

وكانت خسائر المصريين خلال معارك عكا كما يلى :

١٤٢٩ جريحا و ٥١٢ قتيلا

حسب التفصيل التالى :

قتلى		جرحى	
١	قائمقام	١	قائمقام
٢	قائد أورطة	١	بكباشى
٢	صاغ	٢	قائد أورطة
٣	يوزباشى	٢	صاغ
١٥	ضابطا (رتبا أخرى)	٨	يوزباشى
٤٨٩	جنديا	٤٧	ضابطا (رتبا أخرى)
		١٣٦٨	جنديا

(١) بلغ عدد ما ألقته المدفعية المصرية على (عكا) ٣٠ ألفا من القنابل الضخمة و ٢٠٠ ألف من الطلقات الصغيرة .

التقرير الرسمي للقائد المصري عن معركة (عكا) :

وفيما يلي نذكر نص التقرير الرسمي للقائد العام للقوات المصرية عن معركة (عكا) وسقوطها :

« بعد أن أطلقت بعض طلقات الهاون مؤذنة ببدء الهجوم قصدت في الحال إلى البطارية التي كانت خلف الفصيلة المنوط بها الزحف على الزاوية وكنت قد عهدت إلى (ابراهيم باشا يكن) بالهجوم على الثغرات التي من ناحية الباب ووقفت الأورطتان الثانيتان من كل من الآلايين الخامس والعاشر إلى جانبي كجنود احتياطية واتخذت الأورطة الرابعة من الآلاي الثاني كجيش احتياطي للفيلق الذي بقيادة (ابراهيم باشا يكن) ، وهذا الفرق في توزيع القوات الاحتياطية ناشيء من أنه كان من المنتظر أن تحدث مقاومة شديدة من ناحية برج الخزانة الذي كان يوجد به (عبد الله باشا الجزار) نفسه ، وكنت قد اعتزمت الهجوم من ناحية الخان القريب من البحر ، ولكن بعض المخبرين من أهل المدينة المحاصرة جاءوا إلى معسكري في الليلتين السابقتين وأخبروني بأن أربعة ألغام وضعت تحت هذا الخان من القنابل الكروية الصغيرة والرصاص ، فخسرنا عدداً من العساكر ، ولم نوفق إلى النجاح ، وامتاز قائد الأورطة الموكول إليها هذا التسلق بالبسالة النادرة والإقدام العجيب ، وفي ثغرة الزاوية لم تطلق عساكرنا النار إلا بعد أن اتخذت منها مركزا لها ، أما (باب عكا) فإن عساكرنا ما كادوا ينزلون في الخندق حتى بدأوا بإطلاق البنادق وصعدوا إلى قمة الثغرة وتبعهم في الحال عساكر الأورطتين الأولى والثانية من الآلاي الخامس ، وتقدمت جنودنا في جهة الزاوية حتى بلغت الباب الذي بالقرب من قلعة الخزنة — إلا أن (عبد الله باشا) خرج من البرج على جمع من رجاله وصدهم إلى ما وراء الخندق شاهرا سيفه أمامهم وأخذت قنابل العدو الكروية تتساقط على جنودنا فتراجعوا حتى وصلوا إلى بطارية منصوبة على مسافة أربعين خطوة من تلك المنطقة ، فاجتهدت ومعي أمير الاي الفرقة الخامسة في إعادتهم للقتال ، وفي أثناء ذلك كان حامل العلم قد تقدم إلى الأمام فاستأنف عساكرنا الحملة بعنف وما هي إلا هنيهة حتى بلغت أسفل الذروة التي كان العدو يحتلها ، وتلقاهم من أعلاها برمي الأحجار عليهم ، ثم اجتازوا الذروة وعادوا إلى النقطة التي كانوا قد وصلوا إليها في المرة الأولى فرفع المحصورون عندئذ علمهم على البرج الصغير الذي كان بين برج الخزانة وبرج الزاوية[1] وهناك اجتمعوا ثم حملوا من جديد على عساكرنا وصدوهم إلى الزاوية فألقى فريق منهم بنفسه في الخندق وتراجعوا حتى بلغوا حافتها الأخرى ، أما الباقون فصعدوا على الثغرة ووالوا اطلاق البنادق فأخذ الضباط عندئذ يدافعون عند الثغرة وسيوفهم مسلولة بأيديهم ، وبذلك تيسر صد العدو من جديد ، وجمع المحصورون في النهاية جموعهم ولموا شعثهم فشتتوا عساكرنا بعد أن ألقوا بثلاثين منهم في الخندق ولكنهم ما لبثوا أن صدوا ثانية لأن عساكرنا أوغلوا في الزحف من ناحيتهم حتى لم يبق بينهم وبين البرج سوى مسافة صغيرة جدا ، فأمرت على الفور (عمر بك) بأن يقيم استحكاما ويتفرغ للدفاع عنه منفذا أمري طبق المرام فكان الامير الاي« أحمد بك » قائد الفرقة الخامسة من الفرسان ومعه بعض جاويشيتنا قد اعتلى الثغرة وأخذ يشجع عساكرنا الذين صب عليهم العدو من بنادقه نيرانا حامية ، وانقطع اطلاق النار بعد ذلك من الجانبين في منتصف الساعة السادسة مساء ، وفي أثناء ذلك دعوت رئيس المهندسين وأمرته باستكشاف نقطة وقع نظري عليها بالقرب من الباب وخيل إلى إمكان التسلق منها فعاد بعد بضع دقائق مؤكدا صلاحيتها للتسلق فعرضت على رئيس إحدى أورط الآلاي العاشر أداء هذه المهمة برجال أورطته فأطاع ، ومع أنه حصر ثلاثين قتيلا وستين جريحا فقد حتمت عليه الاستمرار في التسلق فنجح بمهارة فائقة وشجاعة نادرة واستولى على الخان واتخذه موقعا لجنوده .

---

(١) وذلك علامة على التسليم ، وواضح إنها كانت لخداع فحسب .

وكان أول الصاعدين على السور أمير الاى المدفعية (سليم بك آرتوز) ومعلم الفرسان (ابراهيم أغا الرشمانى) من مدينة (دير القمر) ووراءهما (ابراهيم باشا يكن) نفسه ، ولكن رصاصة أصابت (ابراهيم الرشمانى) من سور (عكا) الداخلى فقتلته .

وعلى حين فجأة اندفعت إحدى فرق الفرسان المصرية إلى داخل المدينة فلم يجد المحاصرون إلا سبيلة واحدة هى التسليم ، وقد تعاون الفرسان مع إحدى أورط الآلاى العاشر المشاه فى ذلك الاقتحام النهائى » .

من تقرير (ابراهيم يكن)[1] :

كما أنه من المناسب أن نذكر فيما يلى مقتطفات من تقرير (ابراهيم باشا يكن) الذى يقول فيه :

« قبيل شروق شمس يوم الأحد صعدت الأورطة الثانية من الآلاى الثانى الذى يقوده الأمير الاى (اسماعيل بك) إلى البرج الذى تم الهجوم عليه فى الحملة الماضية وتسلقت الأورطة الأولى التى كان يقودها (أحمد بك) الأسوار التى إلى يمين البرج (قبو برج) وبعد أن رفعت الأورطتان الأعلام المصرية على هذا البناء ضويقوا من المحاصرين حتى اضطروا إلى التقهقر إلى نصف ارتفاع الثغرة ، وكنت وقتئذ أتقدم للامام مع الأورطة الرابعة فإذا بثلاثة ألغام كان العدو قد لغم بها البرج تنفجر ، فتراجع عساكرنا . وكان القائد العام يهاجم بعنف فى جهة الزاوية لأن الأعداء الذين فرض علينا قتالهم انتقل معظمهم إلى الجهة المتقدمة فاغتنم الضباط هذه الفرصة لحث العساكر على الزحف فاندفعوا نحو البرج اندفاعا شديداً وبعد ما استولوا عليه اتجهوا نحو اليمين ثم وصل المهندسون العسكريون ومعهم حزم كبيرة من الخشب وفروع الأشجار وسلات اسطوانية ليقيموا بها استحكاما ، وكان جنودنا قد غنموا مدفعا من مدافع البرج فاستخدموه فى ضرب داخل الموقع وبعد ساعة من إقامة الاستحكام حمل العدو ثلاث مرات ولكن على غير جدوى : . وفى هذه المعركة قتل الأمير الاى (اسماعيل بك) وقبيل الساعة الخامسة مساء استولت الأورطة الأولى من الآلاى العاشر على الخان بين (قبو برج) و(برج الانجليز) ومن ثم طلب المحاصرون الأمان . . . الخ[2] .

المصريون يتجهـــون شمالا

الجيش التركى يحتشـــد فى (قونية) :

لم يكد شهر مايو ينتصف ، حتى كانت معظم وحدات الجيش التركى تحت قيادة (حسين باشا) قد احتشدت فى (قونية) — شمالى طوروس — كما قامت بعض التشكيلات باحتلال (أدنه) جنوبا . . ثم تقدمت فى يونيه ١٨٣٢ إلى (انطاكية) ، مع القيام بتحصين (حمص) واحتلالهـــا .

الحكومة المصرية تدعم قوات الشـــام :

أما على الجانب المصرى فقد كانت الروح المعنوية بين الضباط والجنود مرتفعة بسبب الانتصارات المتوالية التى أحرزوها تحت أفق مشتعل بالنار خلال فترة الأشهر الستة المنصرمة ، كما قامت الحكومة المصرية فى نفس الوقت

---

(١) وكان يلقب (ابراهيم الصغير) . .

(٢) من تقرير ابراهيم باشا يكن بتاريخ أول المحرم سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢/٥/٣٠) .

بتدعيم قوات حملة الشام بالآلايات المدربة بصفة مستمرة ، فوصلت إليه الآلايات المشاة ٥ ، ١٨ ، ٢٠ والآلاى الثامن الخيالة علاوة على ٣٠٠٠ من البدو لسد الخسائر وتكملة لمرتبات الحرب فى الوحدات العاملة ، فى ذات الوقت الذى واصلت فيه السفن المصرية نقل العتاد والأسلحة إلى موانىء الشام التى أصبحت جميعها تحت سيطرة المصريين[1].

الاتجـــاه إلى دمشق :

وفى ٩ يونية عام ١٨٣٢ تقدمت القوات المصرية فى جيش مؤلف من نحو ١٨ ألف جندى قاصدة (دمشق) بهدف تأمين الشام بأكلها ، وذلك تطبيقا للمبدأ الذى كان (نابليون) قد أعلنه من قبل « ان النصر يجب تدعيمه بتقدم الكتائب بقوة » .

وفى ٤ يونية وصلت طلائع القوات المصرية إلى ضواحى (دمشق) برفقة الأمير (بشير الشهابى) على رأس ١٨ ألفا من المقاتلين ، عقب اشتباك قصير مع الأتراك الذين ولوا الأدبار سريعا ، حيث احتلت القوات المصرية عاصمة الشام يوم ١٦ يونيو فى مشهد فرح واغتباط بينها وبين الأهالى الذين رحبوا بها ترحيبا حاراً ، وهكذاتم اختيار (دمشق) مقراً للحكومة المصرية بالشام بعد أن عين (ابراهيم يكن باشا) حاكما عليها على رأس حامية مؤلفة من الآلاى الثانى المشاة وأورطة من الآلاى الخامس والآلاى الثامن .

---

(١) قامت القيادة المصرية فى ذاك الحين بإصلاح مينائى (عكا) و (حيفا) بمعاونة مهندس فرنسى لتصبحا قاعدتين وطيدتين لحملة المصرية بالشام ، وذلك بمعونة ٤٠٠ من جنود المهندسين و ٢٠٠٠ من العمال ، كما كان الآلاى العاشر المشاة ووحدتمن الخيالة يقومان بحراسة خطوط مواصلات القاعدة .

الفصل الرابع

معركة (حمص) (*)

كان احتلال الجيش التركى لأنطاكية وحمص[1] — والمسافة بينهما لا يستهان بها — خطأ بالغا من الوجهة العسكرية ومخالفة واضحة لمبادىء الحرب واتباع مبدأ (الحشد) ، وقد استغلت القيادة المصرية هذا الخطأ على الفور ، حين قررت الاتصال بمقدمة الجيش التركى وسحقها ، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك ، وهكذا غادرت القوات المصرية « دمشق » متوجهه نحو « حمص » التى كانت الحامية التركية بها حينئذ تصل إلى نحو ٣٠ ألف مقاتل[2] .

القائد العثمانى واثق من النصر على (الفلاحين المصريين) :

كان (محمد باشا) — قائد الحامية العثمانية بحمص واثقا من الانتصار على أعدائه (المصريين الفلاحين) — على حد تعبيره — بل لقد اعتقد أنه سيفوز لامحالة فى معركة (حمص) وينال المجد بمفرده . . وفى صبيحة يوم ٧ يولية وصل إلى المدينة ، وكانت أسوارها فى حالة طيبة ، بعكس حال قواته التى أنهكها التعب وأسقمها السير الطويل وهزتها الهزائم المتتالية التى ذاقوا مرارتها على أيدى أبناء وادى النيل .

وفى نفس اليوم — ٧ يوليو — أيضا كانت وحدات الجيش المصرى[3] قد قامت بحركة التفاف واسعة أضحت عقبها على مسيرة خمس ساعات من (حمص) .

موقف محير :

ما ان أدرك القائد العثمانى حرج الموقف ، حتى جمع كبار ضباطه للمشاورة فى الأمر ، الذى أشار بعضهم بالتقهقر المنظم إلى موقع آخر بينما أشار البعض الآخر بالتحرك للقضاء على الجيش المصرى على الفور .

واتخذ القائد القرار : البقاء لقتال الجيش المصرى وإبادته : فليلتزم خطة الدفاع ولتكن أسوار (حمص) وقنواتها المتعددة ومبانيها الحصينة موانع حصينة يقاتل من خلفها .

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة ، ١٩٧١ .

(١) تقع مدينة (حمص) على الشاطىء الأيمن من نهر العاصى وموقعها غاية فى الأهمية حيث تمثل ملتقى عدة طرق ، نظراً لوقوعها على طريق (بعلبك) و (دمشق) جنوباً — وطريق (انطاكية) ، و (حلب) شمالا .

(٢) كان القائد التركى (محمدباشا) قد وصل إلى « حمص » بعدأن استدعى بعض وحداته من (بعلبك) و (طرابلس) .

(٣) كانت القوات المصرية تتألف من ثمانية آلايات من المشاة وستة آلايات خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية (مجموع القوة ٣٠ ألف مقاتل) علاوة على قوة البدو .

وهكذا وضعت الخطة التركيـــة :

وزع (محمد باشا) قواته على شكل صفوف : فى الصف الأول ٤ آلايات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق وتستند ميمنته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر العاصى وميسرته على الصحراء ، وخلف الصف الأول ، وضع الصف الثانى وبه آلايان مشاة وآلاى خيالة عبر الطريق بين نهر العاصى ودمشق ويدعم قلب وميمنة الصف الأول ، وإلى شرق الطريق المذكور ، وضع آلايا آخر من الخيالة لتدعيم ميسرة الصف الأول .

أما الصف الثالث — الذى امتد بين نهر العاصى وضيعة خربة ، ويبعد حوالى ١٨٠٠ متر عن جنوب شرق قلعة (حمص) فوضع به قواته غير النظامية وآلايا من الخيالة لحماية ميسرته .

أما بالنسبة للمدفعية فقد وزعها قطعة قطعة بين صفوف وحداته سالفة الذكر بمعدل مدفع فى كل أورطة ومدفعين فى كل آلاى خيالة ، مع وضع ٢١ مدفعا فى مواقع مختارة خلف ميمنة قواته .

تحركات الجيش المصرى :

فى فجر الثامن من يوليو بدأ الجيش المصرى مسيرته متجها جنوب (حمص) بتشكيل القتال التالى :

الآلاى ١٢ المشـــاة .

الآلاى ٢٣ المشـــاة .

الآلاى ١٨ المشـــاة .

آلاى الحرس .

الآلاى الخامس المشـــاة .

الآلاى الحادى عشر المشـــاة .

وقد سارت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فقد وضع فى الاحتياط خلف منتصف القـــوة .

أما المدفعية فقد تم وضع ٤ بطاريات منها فى الصف (الخط) الأول والثانى .

كما تم توزيع قوات الخيالة كالآتى :

٣ آلايات على كلا جانبى التشكيل كله ، فى الميمنة والميسرة ، بينما تحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الاجناب للقوات الاحتياطية .

وقد كان هذا التشكيل يسمح للقوات المصرية بالمناورة حسبما تمليه طبيعة الأرض خاصةشرق ضيعة الحربة التى كانت طبيعتها تسمح للمصريين بالقيام بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك ، أضعف نقطة فى خط دفاعهم حيث لم تكن ترتكز على موانع قوية تمكنها من كسر حدة الهجوم المصرى .

الخطـة المصرية للهجـوم :

صدرت تعليمات الهجوم للقوات المصرية وكانت كما يلي :

١ - يقوم قلب الجيش المصرى ، بهجوم على مواجهة الجيش التركي بكل قوته ، يطغى بمشاته وخيالته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسعة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم مخادع بجوازرة نهر العاصى لشغل ميمنة الاتراك فى خطيه الأول والثانى وبذلك يربك عملهما نهائيا .

- يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٢ ، ٤ والآلاى الثالث - الرماحة المدرعين) نحو الضيعة المهدمة وعند وصوله لأنسب المواقع يفتح تشكيله بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) ويلتف حول ميسرة مؤخرة الأتراك .

- آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ يدعمان القوة السابقة وتفتح تشكيلها عند وصولها إلى غرب وجنوب غربى الضيعة المهدمة .

- بطارية مدفعية تتخذ مواقعها المناسبة تجاه الضيعة .

- أثناء اجراء هذه التحركات تأخذ الآلايات ١٣ ، ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مواقعه بدلا من الآلاى الثانى عشر وتفتح وحداتها على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

- فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصلة مكونة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة وبطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين نهر العاصى والقناة لمهاجمة ميمنة الاتراك ويوضع كاحتياطى لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثـانى .

المعـركة ٦ يوليـة ١٨٣٢ :

ما أن بدأت القوة المنفصلة (الآلاى المشاة والآلايان ٦ ، ٧ خيالة وبطارية المدفعية) التقدم نحو الأرض الواقعة بين نهر العاصى والقناة حتى سيطر الرعب على قلوب الأتراك ، فاضطر القائد العثمانى إلى إصدار أوامره إلى أورطتين فى اليمين لتغيير مواجهتهما لصد الهجوم المفاجىء ، وما أن حلت الساعة الخامسة حتى بلغ القتال عنفوانه حين اشتد قصف المدفعية المصرية على صفوف الأتراك التى سادها الهرج والمرج ، وباتت طلقات مدفعيتها غير محكمة الإصابة نتيجة لعنف نيران المدفعية المصرية .

وفى اللحظة الحاسمة ، بدأ الهجوم الساحق حين تحركت آلايات الخيالة (٢ ، ٣ ، ٤) - وكانت على الميمنة - شرقاً حسب الخطة الموضوعة ، للقيام بحركة الالتفاف حول ميسرة الأتراك ، وتحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المهدمة بنحو ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ ياردة لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين على مقربة من الضيعة ، وكان الهجوم شديداً ومحكما ، فتراجع الأتراك وتفرقوا واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق (حمص) ، وعندما رأى الفرسان الترك النظاميون ماحل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصد هجمة المصريين وكادوا ينجحون فأمدت القيادة المصرية فرسانها بقوة من جنود الحرس والمشاة والمدفعية فأوقعوا بهم وفرقوهم ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تقهقرت إلى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتخلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركي الذى اصطدم بنيران المصريين المحكمة ، فى الوقت الذى لم تمده مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فقد بدأ فى التقهقر ، وقام (محمد باشا) بتقدير الموقف الذى أصبح حرجاً بعد أن أصبحت ميمنته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع ،وكان ينبغى عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعززبها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضاد فى ناحية الضيعة لكنه لم يفعل ، وأخيراً وجد حلا يائسا يخرجه من ورطته فأمر آلاى الخيالة فى ميسرة صفه الثانى بهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا إلى الضيعة ، كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى[1] للقيام بالهجوم بالسلاح الأبيض لاقتحام الآلاى المصرى الثانى عشر ، وأسرع آلاى الخيالة بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعبا فبات هجومه غير منظم ،وقابلته مدفعيـــة الحرس بنيرانها المحكمة ـ فدار وولى الأدبار ، أما آلاى المشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر إليه ولكنه توقف تحت تأثير نيران الآلاى الخامس المصرى ، ثم هاجمه من الجنوب الآلاى الثالث عشر المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة ، ولكنه لم يفعل شيئاً لمقاومة هذا الهجوم .

وما أن حل الظلام حتى أخذ القائد العثمانى يبحث عن وسيلة لينقذ بها نفسه واقتدى الضباط بقيادتهم وهكذا بدأت الفوضى والذعر ، ينتشران حين جاء دور الجنود ليتركوا صفوفهم ويولوا الأدبار مدحورين .

وتقدمت القوات المصرية الظافرة لتحتل المواقع التى تركها الأتراك ، ولتعيد تنظيم صفوفها على شكل مربع ـ المدفعية فى الزوايا الأربع ـ وهكذا انكسر الجيش التركى مرة أخرى فى تلك المعركة ـ معركة حمص التى عرفت عند المصريين بيوم (هزيمة الباشوات) ، ودخل الجيش المصرى المدينة صباح يوم ٦ يولية بينما كان الأتراك يتقهقرون فى غير انتظام جنوب (حلب) و (انطاكية) بعد أن تركوا جيادهم فى المدينة يمتطيها مشاة أبناء وادى النيل .

خســـائر الطـــرفين :

الأتـــراك :

بلغت خسائر الأتراك فى معركة (حمص) ٢٠٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ أسير كما استولت القوات المصرية على عشرين مدفعاً للعدو علاوة على الذخائر والعتاد ومعظم جياد الجيش التركى .

المصريون :

أما المصريون فقد بلغت خسائرهم ١٠٢ قتيل و ١٦٢ جريحا .

المـاريشال (فيجان) يصف انتصار المصريين :

ويصف المـاريشال (فيجان) حركات المعركة من الجانب المصرى ، فيقول : إن كل دقائق الخطة المصرية كانت محكمة ، كما اتسمت بالنشاط والبراعة فى تنفيذها ، حيث اتفقت الأوضاع التى اتخذتها القيادة المصرية كل الاتفاق مع التكتيك المثالى والحالة التى يستطيع بها تنفيذ المناورة من تقدم أو هجوم جانبى أو بالمواجهة أو حتى التقهقر ـ الأمر الذى لم تفكر فيه أبدا ـ كما كانت الوحدات المصرية موزعة بعمق كاف يسمح لهـا بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقاً لمـا ينبغى أو كما يقول حرفياً :

«La manœuvre était en germe dans le dispositif de son armée»

---

(١) كان هذا الآلاى يرتكز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى .

كما كانت حركة الالتفاف ، حول وجنب القوات التركية رائعة محبوكة فى تفاصيلها ومجموعها ، كذلك كان هجومها على ميسرة الترك مع استخدام نيران المدفعية بسيران حسب خطة موضوعة لا هباء أو ارتجالا وبذلك حققت القوات المصرية فى تلك المعركة مبادىء الحرب من المرونة والسرعة والمفاجأة والحشد .

المارشال (فيجان) : الجيش المصرى أحرز الكثير من الانتصـــارات :

ويضيف المارشال (فيجان) :

« لقد كانت الفرق المصرية فى حالة جيدة رغم أن مظهرها لم يكن ليروق لأولئك الأوربيين الذين اعتادوا رؤية الجندى الفرنسى أو الألمـــانى بمظهره الفخم وهو متقلد سلاحه ، غير أن أهم شىء فى الواقع هو أن هذا الجيش كان يجيد القتال ، ولهذا أحرز الكثير من الانتصارات ، كما صمد ازاء المزائم دون أن تفتر له همة أو تلين له قناة . . ويجب ألا يغيب عن بالنـــا أنه مما يشرف هذا الجيش أن حكومة (شارل العاشر) فكرت فى الاستعانة به حين أعدت حملتها على بعض المستعمرات . . . » .

جيشـــان شرقيان وجهـــا لوجه :

فى معركة (حمص) تقابل — وجها لوجه — جيشان شرقيان خاضعان لنفس الظروف من ناحية التسليح وأسلوب الحرب ، ولكن النصر كان حليف الجانب الذى تفوق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروحه المعنوية كما انتصرت خفة الحركة والسرعة إزاء الجمود التركى ، وهكذا محا الجنود المصريون هزيمتهم — أو هزيمة أسلافهم — التى لحقت بهم عام ١٥١٧ فى معركة (مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغـــورى .

الفصل الخامس

معركة (بيلان) ٣٠ يولية ١٨٣٢ (*)

تقدم القوات المصرية فى اتجاه (حلب):

عقب هزيمة الجيش العثمانى أمام (حمص) دخلت القوات المصرية المدينة فى التاسع من يوليو متجهة نحو (حلب) ثم (حماه) التى بلغتها فى اليوم التالى ، وذلك بغرض مطاردة قوات العدو ومنعه من إعادة التنظيم فاحتلت (ما هنيكة) يوم ١١ و (معار) و (نعمان) يوم ١٢ و (تل سلطان) يوم ١٣ و (وزيتان) يوم ١٥ .

القائد التركى يصر على أن يرتوى جواده من ماء النيـــل :

حينما بلغت مسامع (حسين باشا) سردار الجيش العثمانى أنباء هزيمة جيش (محمد باشا) فى (حمص) ارتد بقواته إلى (حلب) واتخذ مواقعه بها وبادر إلى طلب المؤونة والرجال من أعيانها الذين كانوا يبغضون الحكم العثمانى، فأبوا السماح لجنوده بدخول مدينتهم إلا بالنسبة للجرحى والمرضى فقط ويحاول (حسين باشا) الاحتفاظ بهدوئه ليقول لمرافقيه من القادة (إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب المـــاء فقد صمم على الارتواء من ماء النيل) وهكذا – وإزاء موقف أهالى (حلب) من رفضهم لإيواء جنوده اضطر السردار العثمانى إلى مغادرة ضواحيها على رأس قواته قاصدا الاسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثمانى – بعد أن استقر رأيه على إقامة تحصيناته فى مضيق بيلان[1] الذى تسمح طبيعة أرضه بالدفاع .

القـــوات المصرية تصل (انطاكية) :

وكان الجيش المصرى قد بلغ خلال سيره الطويل (حلب) يوم ١٧ يولية ثم استأنف التقدم يوم ٢٥ يوليو مستهدفا (انطاكية) وذلك على محورين :

الأول : مؤلف من الجنود غير النظاميين الذين اتخذوا طريقهم إلى انطاكية مباشرة . والثانى : يتألف من القوات النظامية التى عبرت مضيق (كليس) والتفت شمال (انطاكية) بهدف تطويقها من الخلف .

وفى يوم ٢٨ يولية وصلت القوات المصرية تجاه (انطاكية) حيث تمت عدة مناوشات بين البدو وبعض الوحدات التركية ، لتدخل المدينة عقبها ، وهكذا وقفت القوات المصرية – يوم ٢٩ يولية – أمام جبال (أمانوس)[2].

(*) محمد فيصل عبد المنعم « مصر تحت السلاح » – مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ، ١٩٧١ .

(١) تقع مدينة (بيلان) جنوبى الإسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها ويصل إليها طريقان : طريق من (كليس) وطريق من (انطاكية) ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى (بيلان) حيث يكونان طريقاً واحدا يصل إلى المدينة .

(٢) أحد شعاب جبال (طوروس) شاهقة العلو (١٨٠٠ متر) والذى يجتازه مضيق (بيلان) الذى يفصل بين سهل (انطاكية) وخليج الإسكندرونة أو يفصل بين سوريا وكيليكيا وهو الممر الذى اجتازه جميع القادة عبر تاريخ الحروب لفتح الشرق ، من مصريين و آشوريين وفرس واغريق ورومان وعرب وافرنج وترك وسواهم . .

مواقـــع الجيش التركي الدفاعية :

القائد العثماني يتبع أسلوب الدفاع الخطي :

تألف الجيش التركي تحت قيادة (حسين باشا) من نحو ٤٥ الفا من الجنود من جميع الأسلحة علاوة على ١٦٠ مدفعا ، وكان هذا الجيش يرابط فى مواقع منيعة على قمم جبال (بيلان)حيث احتشدت المشاة (٥ أورط) فوق هضبة [1] عالية تعاونها بعض قطع المدفعية التي وضعت على مرتفع قريب من الطريق ، كما أقام الأتراك أمام صفوف المشاة بعض الموانع وزعت خلالها المدفعية بينما وضعوا آلايين من الخيالة فى واد ضيق يقطع الطريق جنوبى (بيلان) :

أما مؤخرة الأتراك والمؤلفة معظمها من المشاة فكانت موزعة على خط واحد فوق قمة (أمانوس) وهكذا نلاحظ للوهلة الأولى أن السردار (حسين باشا) قائد الجيش التركي لم يكن موفقا فى وضع خطته الدفاعية ، حيث اتبع أسلوب الدفاع الخطي فى توزيع قواته ، بينما أهمل تماما مبدأ العمق . . الأمر الذى حرمه من حرية القيام بالمناورة على نطاق واسع عند نشوب القتال فيما بعد . .

خطط الجيش المصري :

عسكر الجيش المصري فى السهل المنبسط تحت مضيق (بيلان) غرب الطريق الواصل من (كليس) و (أنطاكية) بينما اتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

قـــرار القيـــادة المصرية :

اجتمعت القيادة المصرية لبحث الخطة وتقدير الموقف وقد استقر رأيها على اتباع الخطة التالية :

الأخذ بخطة الهجوم فى اليوم التالى (صباح ٢٩ يولية) مع القيام بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك من الجنب تمهيداً للاحاطة بها ، ثم احتلال بعض المرتفعات المتحكمة فى الوسط مما يجعل مشاة الأتراك هدفاً لنيران المدفعية المصرية ، وفى ذات الوقت تدفع قوة للاحاطة بميمنة الجيش التركي (كما اتبع فى معركة حمص) وقد كانت خطة الالتفاف المذكورة تتطلب تدبير القوات الآتية :

٤ آلايات مشاة ــ ٣ آلايات خيالة ــ ٤ بطاريات مدفعية ميدان بينما يقوم الأميرالاى (حسين بك المانسترلى) بالاستعداد للهجوم المباشر على قلب وميمنة الأتراك والتقدم على طريق (بيلان ــ انطاكية) على رأس الآلاى ١٣ المشاة تدعمه بطارية مدفعية (وقد قام بالتنفيذ فعلا) بينما يتبعه الآلاى الخامس الخيالة كقوة احتياطية .

أما اللواء الثانى الخيالة والآلاى السادس (الرماحة المدرعة) فقد كلفا بالعمل بين القوتين المذكورتين ، ومساعدة إحداهما عند الضرورة بينما يوضع الآلاى ١٨ المشاة وبطارية مدفعية ميدان فى الاحتياط .

---

(١) كانت هذه الهضبة تصل ميمنة الجيش إلى طريق وعر يخترق جبال (أمانوس) آتيا من (خان قرموط) إلى (بيلان) .

المعركة

المدفعية المصرية تصب الجحيم على القوات العثمانية

ما أن شاهدت القيادة التركية تقدم شعبتى الهجوم المصرى حتى بادرت بفتح النيران الشديدة فى اتجاه تقدمهما فغمرتهما القذائف بعنف ، وفى الحال قامت المدفعية المصرية (الموجودة بالشعبة اليمنى) بعمليات القصف المضادة بنيران محكمة للغاية وشديدة التأثير — كما فتحت فصيلتا القناصة (من الحرس) تشكيلهما بسرعة واخترقتا غابة صغيرة مقتحمة الجبهة برصاصها السريع ، لتلحق بهما بعد قليل أورطة من الحرس مدعمة بالمدفعية واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ليستمر وصول بقية آلاى الحرس بسرعة مع أفراد الآلاى الثامن فى موجات متتالية وفى ذات الوقت كان الهجوم بالمواجهة (بقيادة المانسترلى) يسير على ما يرام وقد نجحت بطارية المدفعية الملحقة به فى إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك وهنا انحرف آلاى المشاة الثالث عشر إلى غرب طريق (أنطاكية) وهاجم ميمنة العدو ، بينما أخذ الآلاى ١٨ مكانه ، فى الهجوم العنيف ضد قوات الوسط (القلب) وفى اللحظة التى انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولية تهيأ للالتفاف على ميسرة العدو فلم ينتظر (حسين باشا) اللطمة المسددة نحوه وعمل على التقهقر السريع نحو (بيلان) وهنا انتهز القناصة المصريون الفرصة فهجموا على بطارية مدفعية تركية (٦ مدافع) وقاموا بإبادة أطقمها وتدمير المدافع ، وحين حاولت بعض آلايات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام تصدت لها نيران قوات الحرس الأمر الذى جعلها تسرع نحو (بيلان) بدون انتظام .

وهكذا خلا الطريق إلى (بيلان) من القوات التركية ، لتواصل القوات المصرية التقدم بسرعة الأمر الذى تسبب فى حرج مركز قلب الجيش التركى ، التى أدركت قيادته أن خط الرجعة إلى (بيلان) قد أصبح مقطوعا بوصول المصريين إلى الطريق فلاذ العدو بالفرار وتخلى عما تبقى له من مواقع ، بعد أن تبعثرت وحداته فى الجبال وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الأتراك حيث وصل رماته ومدفعيته إلى اكمة قريبة من أقصى الميمنة ولما رأى العدو ما حل بالميسرة تخلى أيضا عن مراكزه وتقهقرت فلوله فى الجبال .

خسائر الجانبين :

باستيلاء المصريين على مواقع الأتراك الحصينة انتهت معركة (بيلان) بهزيمة تامة للجانب العثمانى بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات خسر فيها الجيش التركى ٢٥٠٠ قتيل و ٢٠٠٠ جريح وأسير كما غنم المصريون الذين لم تتجاوز خسائرهم ٢٠ قتيلا نحو ٢٥ مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والعتاد .

ما بعد (بيلان)

قضت القوات المصرية المنتصرة ليلة ٢٩ يولية فى مواقع الأتراك عدا أورطتين أمرتا بدخول (بيلان)[1] وفى ٣٠ يولية اتمت القوات احتلال (بيلان) . . أما الخيالة — تحت قيادة عباس باشا حلمى — فقد سلكت طريق

---

(١) انفصل عنهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرعة لاستكشاف الطريق إلى الإسكندرونة .

(الاسكندرونة) حيث استولت على كميات هائلة من الغنائم بالإضافة إلى ١٤ مدفعا وكميات من الأطعمة تكفى لمدة أربعة شهور ، لم يسعف الوقت القائد التركى لتدميرها .

احتــلال الإســكندرونة :

وقد احتلت القوات المصرية كذلك ميناء (الاسكندرونة) ، كما اندفعت قوات الخيالة إلى (باباس) بعد أن أسرت نحو ١٤٠٠ تركى ، كما سلمت (انطاكية) و (اللاذقية) و (السويدية) . أما (حسين باشا) ــ القائد التركى فقد أسرع نحو (أدنة)[1] بعد أن اجتاز بفلوله مضيق (طوروس) . وبعد قليل احتلت القوات المصرية (أدنة) و (طوروس) . وبعد أيام كان علم مصر يخفق عاليا على مرتفعات (أورفا) و(عينتاب) و (مرعش) و (قيصرية) . .

موقف بريطانيــا من نجــاح المصريين :

كانت السياسة البريطانية إزاء نجاح القوات المصرية واكتساحها الجيش التركى ووقوفها تجاه الآستانة غامضا ، حيث كانت تلك السياسة تقف فى مفترق الطرق . . فمن جهة كانت بريطانيا ترى قيام مصر بتأسيس دولة عربية قوية تقف فى وجه التيار السلافى الروسى .. ومن جهة أخرى كانت تود تدعيم موقف تركيا وتقويتها لتظل حاجزا تجاه ذلك التيار ، مع هدم الامبراطورية المصرية الناشئة لخطورتها على طريقها إلى الهند : درة التاج البريطانى[2] .

ولقد ظل موقف بريطانيا فى منتصف الطريق ، فوقفت مترددة ، لا تقاوم المصريين ولا تظاهر السلطان . . إلى أن أنكشف هذا الموقف فيما بعد كما سيرد ذكره .

أما الموقف الفرنسى ، فقد كان أكثر وضوحا ، حيث قامت فرنسا بإبلاغ الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة ما بسبب ضعف قواته العسكرية إزاء القوات المصرية الفتية المتزايدة بحراً وبراً .

---

(١) تعتبر (أدنة) مفتاح الزحف على الأناضول .

(٢) لم تكن قناة السويس قد شقت فى ذلك الحين .

الفصل السادس

معركة قونيـة (*)

القـوات المصرية فى مواجهة العاصمة العثمانية

موقف الجيش العثمانى :

عقب الهزيمة الساحقة التى نزلت بالجيوش العثمانية فى معركة (بيلان) . . وفى أواخر اكتوبر أعاد الأتراك تنظيم صفوفهم مرة أخرى استعداداً لمنازلة الجيش المصرى فى جولة جديدة .

وهكذا انتظم الجيش الثانى التركى فى ٨٠ ألفا من الجنود موزعين على أقسام أربعة على النحو التالى :

القسم الأول : ويتألف من ٢٠ ألفا من الجند النظاميين ويتمركز فى (اشقودرة) التى ضمت أيضا القيادة العليا للجيش ومقر الوزير .

القسم الثانى : ويتألف من ٢٠ الفا من الجنود فى (أرضروم) ويحتشد بين (سيواس)و (قيصرية) تحت قيادة (عثمان باشا) والى (طرابزون) .

القسم الثالث : ويتألف من ١٠ آلاف جندى تحت قيادة (سليمان باشا) ويحتشد فى منطقة (طوروس) على ميسرة الجيش المصرى لستر منطقة (صاتاليـا) .

أما القسم الرابع : فقد تألف من فلول الجيش التركى ويتألف من نحو (٢٠ — ٣٠) ألفا من الجنود بقايا جيش (حسين باشا) ويحتشد فى منطقة (قونية) تحت قيادة (رؤوف باشا) .

السلطـان يبث الحماس فى نفوس جنوده :

ولم يدخر السلطان العثمانى وسعا لبث الحماس فى نفوس جنوده الذين أضحوا وسيلته الوحيدة والأخيرة للابقاء على كيان دولته . فأقام لهم طوابير العرض وقام بمقابلة الضباط وأقام لهم الولائم كما وزع عليهم النياشين ومنحهم الرتب المتعددة وخلع عليهم كسوات التشريفة والسيوف كما داوم على حضور الصلوات مع جنود جيشه .. وكانت آخر كلمات السلطان إلى قائد جيشه الذى منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب تشجيعا له « . أنقذ الدولة فإن شكرى لك ولعساكرك إذا أنت فعلت لا يكون له حد . . » .

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة ، ١٩٧١ .

موقف الجيش المصرى :

وعلى الجانب الآخر . . كان موقف الجيش المصرى عقب معركة (بيلان) كما يلى :

١٠ آلايات من المشاة — ١٢ آلايا من الفرسان — بعض وحدات المدفعية — ٥٠٠٠ جندى (وحدات مساعدة) — ٢٠٠٠ من البدو :

ومما يذكر أن نصف هذه القوات قد صار تخصيصها للقيام بواجبات حراسة خطوط المواصلات بين مصر والشام والدفاع عن الحاميات الرئيسية وبذلك يمكن القول بأن ٢٧ ألفا فقط من مجموع القوات المصرية كانوا يمثلون القوة الضاربة للجيش وهكذا كان التفوق العددى إلى جانب الترك بنسبة ٣ : ١ .

السيطرة على مضيق (طوروس) :

تمكنت القوات التركية من السيطرة على مضيق (طوروس) الحاكم بينما اتخذت القوات المصرية موقف الدفاع بناء على تعليمات الحكومة المصرية من القاهرة . وهكذا انتهت القيادة المصرية بالشام إلى اتخاذ القرار بالاستيلاء على هذا المضيق دون انتظار تعليمات ، ولما كان التنفيذ سيتطلب أولا ضرورة الاستيلاء على (هرقلة — أركلى) ، فقد قامت القوات المصرية بالفعل بالاستيلاء عليها يوم ١٥ اكتوبر . . كما صدرت الأوامر باتباع القوات لطريقين[1] خلال التقدم إلى (هرقلى) : القوات غير النظامية والبدو تتخذ الطريق الأيمن للهجوم على (شفت خان) بينما تتقدم قوة مختلطة من الخيالة والمشاة والمدفعية على الطريق الأيسر لمهاجمة (نمرود) .

وفى ١٨ اكتوبر وصلت تلك القوة إلى (نمرود) بدون قتال ، بينما وصلت القوة الأولى إلى (طوروس) لتجتاز مقدمتها مضيق (كولك بوغاز) حيث اعترضتها قوة تركية مؤلفة من المشاة والفرسان فى نفس الوقت الذى قامت فيه قوة تركية أخرى باحتلال المرتفعات الهامة ، الأمر الذى دعا القائد المصرى (سليم بك) إلى إصدار الأمر بفتح نيران شديدة على الأتراك ، كما أمر خيالته باقتحام صفوفهم فتمكنت من تشتيتها وإحداث الذعر بين أفرادها بعد أن قتلت منهم ٢٠٠ جندى وأسرت ٣٠٠ .

ويستمر (سليم بك) على رأس قواته فى مطاردة فلول الأتراك بهدف إزالة المقاومة الشديدة التى أبدوها . . ثم يواصل المطاردة عبر طريق (هرقلى) .

احتلال هرقلى :

عندما بلغت مسامع (ابراهيم باشا) أنباء هذا القتال العنيف ، بادر فى ٢٣ اكتوبر — إلى مغادرة (نمرود) متقدما على رأس القوات إلى (هرقلى) عبر جبال (طوروس) ، وقد قامت القوات التركية باخلاء المدينة فور ظهور طلائع المصريين يوم ٢٥ اكتوبر .

---

(١) أحد الطريقين يمر خلال (منارة خان) و (شفت خان) و (أولان كيشل) و (شابان) والثانى يمر من خلال (طوروس) و (نمرود) و (شاكال) و (زليفنسا) .

الموقف السياسى

خيم على مسرح العمليات هدوء نسبى استمر ثلاثة أسابيع . : كانت الاتصالات السياسية خلالها مستمرة بين الدول الأوروبية والباب العالى من جهة – وبينها وبين الحكومة المصرية من ناحية أخرى . . وقد أرسل (ابراهيم باشا) رأيه إلى والده بالقاهرة والذى يتلخص فى ضرورة التقدم إلى (قونية) تمهيدا لوثبة ثانية يهدد بها السلطان العثمانى . . بينما كان (محمد على) يرى عدم تجاوز (قونية) . . خشية اغضاب الدول الأوروبية .

التقـــدم إلى (قونيـــة) :

وفى ١٦ نوفمبر صدرت التعليمات للقوات المصرية بالتقدم إلى (قونية)[1] على النحو التالى :

تسير المشـــاة فى قولين :

قول اليمين ويتألف من الحرس والآلاى الرابع عشر .

وقول اليسار ويتألف من الآلاى الثالث عشر والثامن عشر .

على ألا يبتعد القولان عن بعضهما إلا بمقدار ما يسمح به تشكيل الفتح فى صفين :

الحرس والآلاى الثالث فى الصف الأول .

والآلاى الرابع عشر فى الصف الثانى .

أما المدفعية فنى تشكيل القطاع أو بالأصناف (الجماعات) كما يسمح الطريق على أن توضع مدفعية فى رأس القول على ميسرة الآلايين ١٤ ، ١٨ بينما يسير لواء الخيالة الثانى فى المقدمة على قولين :

الآلاى الثانى فى طليعة الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى الثالث عشر المشاة :

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب التالى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حربه – متاع المدفعية – فالخيالة – فالمشاة ، مع عمل الترتيبات اللازمة للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

التحـــرك :

وفى ١٧ نوفمبر تحركت وحدات الجيش المصرى على النحو السابق بيانه فى نظام كامل وبدون صعوبة أو مقاومة حيث غادر قول اليمين (كارخان) متجهاً الى (شوميرة) ليلتقى بقول اليسار .

---

(١) كان هناك طريقان يؤديان إلى (قونية) : الطريق الأيمن ويمر بمدن (كيجير – كارابونار – كاتانيه – ايزميل – قارخان) والأيسر ويمر بمدن (كارمان – كاسابا – شوميرة) .

العدو يخلى قونيـة :

فى نفس يوم التحرك علمت القيادة المصرية بأن الأتراك أخلوا (قونية) فى الليلة السابقة فلم تضيع وقتا وبادرت بدفع بعض القوات خفيفة الحركة والمدفعية فى اتجاه (قونية) حيث دخلتها ليلة ١٧ نوفمبر . . وفى الصباح توجهت نحو (آق شهر) قوة للمطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والآلاى الرابع الخيالة وبطاريتا مدفعية تمكنت من اللحاق بحرس المؤخرة التركى فى ضواحى (ايلجون) وانزلت به خسائر فادحة ، كما أسرت بعض قواته وعادت مسرعة إلى (قونية) لحاق بالقوات الرئيسية من جديد .

تحركات الجيش التركى :

وصل (رشيد باشا) إلى (آق شهر) ونزل فى (قديم خان) على مبعدة ٩ ساعات من شمال غربى (قونية) على رأس جيش بلغ تعداده نحو ٥٤ الفا من الجنود موزعين على النحو التـالى :

٥٤ أورطة مشاة ــ ٢٨ بلوك خيالة ــ ١٠٠ مدفع ــ ٢٠ الفا من الجنود النظاميين .

مقـدمات المعـركة :

فى ١٨ أكتوبر ، تعثر قول تركى لازمه سوء الطالع فى قرية (سيلة)[1] المنيعة وكان يحتلها ألفا مصرى حيث دارت معركة ــ دعمت خلالها القوة المصرية بآلاى مشاة وأورطة من الآلاى التاسع عشر والآلاى الثالث خيالة وخمسمائة فارس وبطارية مدفعية . . وكانت نتيجة المعركة ارتداد القوة التركية منهزمة بعد أن تركت خلفها ٥٠٠ أسير وثمانية بيارق وخمسة مدافع وكمية وفيرة من العتاد والذخيرة .

الأتراك فى قبضـة القوات المصرية :

وفى اليوم التالى هاجمت القوات المصرية فى تشكيل يتألف من الحرس و ٣ آلايات خيالة و ٣ بطاريات مدفعية حامية تركية كانت تحتل (دوكوزلوخان) التى تبعد ٣ ساعات من (قونية) على الطريق المؤدى إلى (لاديك)[2] ، ولم يضيع الاتراك وقتهم فبادروا إلى التسليم منضمين إلى زملائهم أسرى الأمس فى قرية (سيلة) .

المعركة : (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) :

كان يوم المعركة ــ الجمعة ٢١ من ديسمبر عام ١٨٣٢ ــ يوماً شديد البرودة ، كما كان الضباب يخيم على ميدان المعركة لدرجة حالت دون اكتشاف كل من القائدين المتصارعين لمواقع جيش خصمه .

مسرح المعـــركة :

تقع مدينة (قونية) فى ملتقى طريق الأناضول وتستند على شعاب جبال (طوروس) ، كما يحيط بها سور منيع ــ أما الأراضى التى دارت عليها المعركة فتقع أمام المدينة فى الاتجاه الشمالى الغربى حيث تمتد هضبة خصبة بينما يستند الميدان فى الغرب على ميول تلال (سيلة) ــ كما تحدها من الشرق طائفة من المستنقعات ، أما الطريق بين (لاديك) و (الآستانة) فيمر فى منتصف ميدان المعركة تماماً .

---

(١) تناقصت القوات المصرية فى (قونية) إلى ٢٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعاً بسبب سحب بعض وحداتها لحماية خطوط المواصلات التى طالت عقب التقدم الطويل فى سوريا الشمالية .

(٢) وتقع على بعد ٨ كيلومترات شمال غربى (قونية) .

تقدير الموقف من وجهة النظر المصرية :

توقعت القيادة المصرية أن (رشيد باشا) سيلجأ إلى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة الممتدة بين جبال (سيلة) ومنطقة المستنقعات وأنه يستهدف الاستيلاء على (قونية) بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى . . وبعد أن قدرت القيادة الموقف قررت مفاجأة (رشيد باشا) قبل أن يفتح قواته فى تشكيل القتال ، بحيث لا تبدأ المدفعية المصرية القصف إلا بعد أن تصبح القوات التركية داخل المرى المؤثر ، وبذلك يتيسر استخدام قوات الجناح الأيمن على أحسن وجه .

الجيش المصرى يتخذ تشكيل القتال :

وهكذا اتخذ الجيش المصرى تشكيل القتال فى ٣ صفوف يرتكز وسطها على طريق (لاديك) على النحو التالى :

الصف الأول : بقيادة (سليم بك المانسترلى) ويتألف من الآلايين ١٣ و ١٨ .

الصف الثانى : بقيادة (سليمان بك الفرنساوى) ويتألف من الآلايين ٣ و ١٤ وعلى بعد ٥٠٠ خطوة من الصف الأول فى تشكيل قول مزدوج .

أما الاحتياط فتحت قيادة (سليم بك) ويتألف من آلاى الحرس على بعد ٣٠٠ خطوة من الصف الثانى فى تشكيل قول مزدوج ويدعمه لواءا الخيالة الأول والثانى .

وإلى الطرف الأيمن فى المؤخرة قوات الدلاة والبدو .

أما المدفعية فتتألف من ٣ بطاريات فى الصف الأول موزعة فى اليمين والقلب واليسار .

بطاريتان فى وسط الصف الثانى ــ بطارية فى الاحتياط خلف الحرس وكاجراء احتياطى لتلافى حركات التطويق التى قد يقوم بها العدو ، أمرت جميع آلايات مشاة الصف الثانى بتعيين أورطة مشاة فى تشكيل مربع على كلا الجانبين على مسافة ٢٥٠ مترا من الآلاى .

أوضاع الجيش التركى القتالية :

أما (رشيد باشا) فقد قام بتوزيع قواته على النحو التالى :

الصف الأول : فى تشكيل مفتوح ــ أما الثلاثة الأخرى ففى تشكيل منضم بالأورط . . وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس وآلايين خيالة أما الصف الثانى فتألف من آلايين مشاة وآلايين خيالة وبالنسبة للصفين الثالث والرابع فقد تألف كل منهما من آلاى مشاة .

وفى المؤخرة ، إلى اليمين واليسار فقد وضع قواته غير النظامية والألبانيين وجنود البوسنة من المشاة والخيالة .

أما المدفعية فوزع بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين فى كل أورطة مشاة وأربعة مدافع فى كل آلاى خيالة .

كما قام (رشيد باشا) بقيادة قوات الميسرة بنفسه (ربما لأنها كانت تمثل أضعف نقطة) بينما تولى (سعد الله باشا) قيادة قوات القلب و (خير الدين باشا) قوات الميمنة .

أما المسافة بين القوات المصرية والتركية فكانت تبلغ نحو ٣٠٠٠ متر .

الأتراك يبدأون بقصف المدفعية :

تقدمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ٦٠٠ متر من مواقع القوات المصرية ، وعند الظهيرة بدأت المدفعية التركية فى إطلاق قذائفها على المصريين الذين لم يجاوبوا على القصف كالأوامر .

وعلى حين فجأة . . استهلت المدفعية المصرية فى أعظم حشد - القصف على طول الجبهة بنيران شديدة متواصلة ، واشتد القصف من الجانبين حتى أصبح ميدان المعركة جزءاً من الجحيم .

الضباب ينقشع :

وفى لحظة انكشف فيها الضباب ظهرت للمصريين نقطة الضعف لدى الجانب التركى ، والتى كانت تتمثل فى وجود ثغرة طولها ١٠٠٠ متر بين الخيالة التى تتألف منها ميسرة الجيش التركى والمشاة الأمر الذى جعل الميسرة فى شبه عزلة عن بقية الجيش .

المصريون يستغلون الموقف :

وانتهزت القوات المصرية الفرصة بسرعة فزحفت قوة الحرس والفرسان[1] واجتازت (عين مياه) بقليل ثم انعطفت يسارا حيث ميسرة الأتراك وقامت بالهجوم عليها هجوماً كاسحاً مدعماً بقصف المدفعية وقد بلغ من شدة الهجوم ما جعل مواقع الأتراك تهتز هزا عنيفاً وتفقد توازنها مما اضطرهم إلى التقهقر فى غير انتظام شمالا فى اتجاه المستنقعات ، وبذلك تم تدمير ميسرة الجيش التركى . وبينما كانت القوة المصرية فى سبيلها للتقدم نحو (خان قديم) إذ أبصرت إلى اليسار الآلاى السابع عشر التركى متقدماً فى تشكيل منضم للاطباق على الميمنة المصرية ، فغيرت القوة المصرية اتجاهها وقامت - بعد أن تم تدعيمها بالآلايين ١ و ٢ خيالة وبطارية مدفعية - بمهاجمة الآلاى التركى الذى انهالت عليه النيران المركزة من كل صوب وأحاط به المصريون ، فسلم جنوده أسلحتهم وأصبحوا أسرى لدى الجيش المصرى .

قائد الجيش التركى يقع أسيراً فى أيدى المصريين :

عندما أدرك (رشيد باشا) أن ميسرته قد دمرت ، أراد أن يلحق بها لجمع شملها فضل الطريق فى الضباب الكثيف حتى وقع أسيراً فى أيدى القوات المصرية التى جردته من سلاحه واقتادته إلى القيادة العامة .

---

(١) وكانت تتكون من آلاى الحرس واللواء الرابع خيالة تحت قيادة (أحمد باشا المونوكلى) مدعما ببعض قطع المدفعية وآلاى الخيالة الثانى .

المطاردة :

أمرت القيادة المصرية قواتها الاحتياطية (عدا وحدة مدفعية وأورطة مشاة) بالتقدم مع قوات الحرس فى طريق مواز لطريق (لاديك) للقضاء على القوات الاحتياطية العثمانية بعد أن تم تدعيمها بنصف بطارية مدفعية والآلاى الثانى الخيالة . . بينما تابع الآلاى الرابع مطاردة خيالة الأتراك فى المستنقعات حتى وصل إلى الخان ولحق بآلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهجم فيه الآلاى التاسع عشر المشاة التركى . . بينما نيران المدفعية المصرية تنصب فى إحكام كالجحيم عليه حتى عم الفزع فى قلب القوات التركية وفر الجنود غير النظاميين إلى تلال (سيلة) عن طريق (لاديك) وفى الساعة الخامسة من مساء يوم المعركة ، كان القتال لا يزال مستمرا بعد أن حاول الأتراك الاعتماد على قوات الميمنة فى الصمود وتحويل المعركة لصالحهم إلا أن القوات المصرية قابلت ذلك بقصف مدفعى عنيف قضى على ما تبقى من الجيش التركى ، حيث حصد صفوفهم حصداً واستمرت الملحمة ثلاث أرباع الساعة لتسفر عن كسر هجمة الأتراك وهزيمتهم مع تشتيت كافة وحداتهم فى السهل وفى (قونية) .

هزيمة الجيش العثمانى :

انتهت المعركة أمام (قونية) بهزيمة قوات الإمبراطورية العثمانية هزيمة ساحقة بعد أن دام القتال خلالها سبع ساعات . . بلغت خسائر الأتراك فيها ٦٠٠٠ أسير على رأسهم قائد الجيش وعدد كبير من الضباط علاوة على ٣٠٠٠ قتيل و ٤٦ مدفعاً وعدد كبير من الأعلام العسكرية .

خسائر المصريين :

أما خسائر القوات المصرية فلم تتجاوز ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحاً .

عاصمة الأتراك فى متناول الجيش المصرى المنتصر :

وهكذا أضحت الأبواب المؤدية إلى عاصمة الأتراك مفتوحة على مصراعيها فى مواجهة الجيوش المصرية المنتصرة بعد انتهاء معركة (قونية) التى فقد السلطان العثمانى بانتهائها جيوشه التى كان يعول عليها للقضاء على المصريين .

موقف الدول الأوروبية :

بدأت القيادة المصرية فى (قونية) — عقب النصر المؤزر الذى أحرزته على القوات العثمانية — تعيد تنظيم قواتها ، رغم رغبتها فى مطاردة فلول العدو ، حيث كانت تعليمات الحكومة المصرية تقضى بالتوقف فى انتظار ما يسفر عنه موقف الدول الأوروبية تجاه التقدم المصرى الآستانة . . وفى ٢٠ يناير وصلت تعليمات جديدة من (محمد على) يأذن فيها للقوات بالتقدم . وعلى التو قامت القيادة باصدار تعليمات للتقدم فى اتجاه (كوتاهية) التى وصلتها يوم ٢ فبراير وبذلك أصبح الجيش المصرى على مسافة ٥٠ كيلو متراً من الآستانة لا يعترض طريقه خلالها جندى واحد للسلطان :

الزم مكانك ولا تتقدم :

وفى (كوتاهية) تلقى القائد العام للقوات المصرية بالشام خطاباً من (محمد على) يأمره فيه بالتوقف حينما يصله خطابه ذاكرا له أن السلطان قام بارسال (خليل باشا رفعت) إليه للاتفاق على الصلح[1] .

---

(١) وصل (خليل باشا رفعت) بالفعل إلى مصر ومعه رسالة من السلطان العثمانى إلى (محمد على) يعده فيها بالعفو عنه مع منحه ولاية عكا وملحقاتها وولاية سوريا وأدنةبالإضافة إلى طلب محالفةتعاون بينه وبين (خسروباشا) تضعحدا لنزاعهما .

الفصل السابع

اتفاقية (كوتاهيه)

١٨٣٣/٥/١٤

وفى ١٤ مايو١٨٣٣ تم عقد اتفاقية (كوتاهية) التى وضعت حداً مؤقتاً للنزاع بين مصر وتركيا .. وبموجب هذه المعاهدة ولى (محمد على) مصر والحجاز وكريت بينما ولى (إبراهيم باشا) سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية (أدنة) . . وبذلك ارتفع العلم المصرى فوق تلك الأقاليم ، وانتهت – إلى حين – الحرب بين الجيوش المصرية والعثمانية .

موقف الجيوش المصرية بعد عقد اتفاقية (كوتاهية) :

وفى عام ١٨٣٣ يمكننا أن نصل إلى توزيع الجيوش المصرية على النحو التالى[1] :

الوحـدات	مصر	الجزيرة العربيـة	السودان	كريت	سوريا	المجموع
٢٣ آلاى مشاة	١٧,٣٥٢	٧,٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥,٥٧٧	٧٠,٣٣٧
٣ آلاى مدفعية	٤١٠٢				٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١			٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠				٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤		١٥٥١	٣٤٣٥
بسلو		٦٦٨	٦٠٤		٤٠٩٨	٥٣٧٠
المجمـوع	٢٧,٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩,٦٢٥	٩٧,٣٠٣

هذا بالإضافة إلى :

٣٤٨٨ طلبة المدارس الحربية

٦٧٩٩٨ قوات الشرطة المحلية

٢٥١٤٣ جنود البحرية ودور الصناعة

١٩٣٩٣٢ صناع وعمال عسكريون

(١) من خطاب كتبه البارون (بوالكونت) – ممثل فرنسا فى مصر إلى الدوق (بروجليه) – وزير الخارجية الفرنسى فى ٢ يولية ١٨٣٣ .

هدنة مسلحة

(١٨٣٣ — ١٨٣٩)

لم تمثل اتفاقية (كوتاهية) سوى هدنة مؤقتة أخذ فيها الطرفان يستعدان لاستئناف القتال ، كما استمرت الحكومة العثمانية تؤلب سكان البلاد التي أصبحت تحت الحكم المصرى وتنفث بينهم الدسائس بوساطة أعوانها بشتى الوسائل لإثارتهم ضد الحكم المصرى ، ومن ذلك :

— الدعايات السيئة التي أشاعها رجال تركيا وأعوانهم ووكلاء الدول الأوروبية ضد مصر وضد الحكم المصرى ولاسيا فى (نابلس) وبيت المقدس ودمشق وحلب .

— تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع (عبد الله الجزار) ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التي كانوا يأملون فى الحصول عليها ، وهكذا جرت اشتباكات عديدة بين المصريين وأهالى (عكا) و (نابلس) و (حلب) و (بيروت) .

— فرض الضرائب الباهظة بواسطة (إبراهيم باشا) بالإضافة إلى رسوم الجمارك وتطبيق نظام الاحتكار مع الزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقاً لسياسة (محمد على) الاقتصادية الظالمة التي كان يطبقها على المصريين .

— نفور الشعوب من الجندية الإلزامية التي فرضتها الإدارة المصرية على الأهالى . . بعد أن قتل الاحتلال العثمانى شعور المواطنين بروح الجندية . . بل لقد أدى فرض نظام التجنيد بواسطة الحكم المصرى إلى هجرة أعداد كبيرة من الأهالى إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

ولقد أدت هذه الأسباب — بعضها أو مجتمعة — إلى قيام الثورات التالية :

— عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) بزعامة الشيخ قاسم الأحمد وأبى غوشى .

— عصيان (صفد) الذى أخمده الأمير (بشير الشهابى) — من لبنان .

— فتنة (دمشق) و (طرابلس) عام ١٨٣٤ أيضاً ثم (عكا) و (صفيتا) و (حلب) و (انطاكية) و (بعلبك) و (بيروت) .

— ثورة (النصيرية) شرقى (اللاذقية) عامى ٣٤ — ١٨٣٥ .

— ثورات الدروز فى (حوران) عامى ٣٦ — ١٨٣٨ .

الفصل الثامن

معركة نزيب (*) (نصيبين)[1]

٢٤ يونية ١٨٣٩

لم تكن اتفاقية (كوتاهية) - فى ١٨٣٣/٥/١٤ - التى أبرمت عقب معركة (قونية) كافية لوضع حد للنزاع بين تركيا ومصر . . ومن ثم فقد ظل الطرفان يستعدان لاستئناف القتال فى الوقت المناسب[2] . بينما حاولت تركيا بكل الوسائل تقوية جيوشها وإشعال نيران الثورة فى الولايات الشامية للخروج على الحكم المصرى . . وإزاء تلك الدسائس قررت الحكومة المصرية إعلان الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية . . وبناء عليه فقد استدعى (محمد على) سفراء الدول الأجنبية فى مصر وأعلمهم بعزمه هذا وفى يناير ١٨٣٩ عقد الباب العالى مجلساً حربياً قرر فيه إعداد جيش قوى تحت قيادة (حافظ باشا)[3] .

القوات المتضادة :

الجانب التركى :

تألفت القوات العثمانية من ٨٠ ألف مقاتل و ٣٠٠ مدفع حشد معظمها فى شرق الأناضول وكان توزيعها كالتالى :

قوة (أنقرة) : تحت قيادة (محمد على باشا) ١٢,٠٠٠ جندى (٤ بطاريات مدفعية) ؛
قوة (قونية) : تحت قيادة (على باشا) ٢٠,٠٠٠ جندى (١٠ بطاريات مدفعية) .
قوة (ملطية) : تحت قيادة (حافظ باشا) ٤٢,٠٠٠ جندى (منها ٢٤ بطارية مدفعية) .
قوة (قيصرية) : تحت قيادة (عثمان باشا) ٥,٦٠٠ جندى (منها ٢ بطاريات مدفعية) .

(*) محمد فيصل عبد المنعم - « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

(١) نزيب Nezip وتعرف خطأ باسم (نصيبين) ونزيب هو الاسم التركى الصحيح لها كما جاء فى تقويم الجمهورية التركية لعام ١٩٢٧ بالتركية - وهى مدينة فى ولاية (غازى) جنوب تركيا على حدود سوريا - وكانت قبل الحرب العالمية الأولى من ألوية (حلب) - كما ورد فى كتاب (تاريخ مصر الحديث : ص ٢٤٥ : وحصلت مواقع شديدة بين الجيوش التركية والمصرية فى (نزيب) انتهت بانهزام الأول وفرارها إلى مرعش) .

(٢) بموجب هذه المعاهدة ولى الباب العالى (محمد على) ولاية مصر والحجاز وكريت . . بينما جعل (ابراهيم باشا) والياً على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة .

(٣) حافظ باشا : منح رتبة السرعسكر عقب انتصاره على ثورة الأكراد - اشترك فى الحرب الروسية - التركية قاد الحملة التركية التى جردت لإخماد ثورة البانيا - عين حاكما على اقليم (سيواس) بالأناضول - كان يتميز بسعة الأفق وبعد النظر كما كان محبوبا من جنوده .

القوات المصرية :

المشاة :

فرقة الحرس — آلايات ١ و ٢ و ٣ (بقيادة الفريق عثمان باشا)	٨٦١٧
اللواء الأول — الآلاى ٦ و ٢٢ (بقيادة أمير اللواء سليم بك)	٤٧٣١
اللواء الثانى — الآلاى ٤ و ١٢ (بقيادة أمير اللواء إبراهيم بك)	٥٢١٦
اللواء الثالث — الآلاى ٦ و ١٢ (بقيادة أمير اللواء حمزة بك)	٧٣٩٣
اللواء الرابع — الآلاى ٩ و ١٤ (بقيادة أمير اللواء عمر بك)	٤٥٥١
اللواء الخامس — الآلاى ١٠ و ١١ و ١٧ (بقيادة أمير اللواء فرحان بك)	٧١٦٥
مجموع قوات المشاة	٣٧,٦٧٣

الخيالة :

لواء الفرسان — آلايان (بقيادة أحمد باشا المونوكلى)	١٧٣٨
اللواء الأول خيالة — الآلاى ١١ و ٢ (بقيادة أمير اللواء رستم بك)	١٦٧٩
اللواء الثانى خيالة — الآلاى ١ و ١٣ (بقيادة الجوخدار)	١٧٢٨
اللواء الثالث خيالة — الآلا[illegible] و ١٠ (بقيادة إبراهيم بك)	١٦٣٠
مجموع قوات الخيالة (الفرسان)...	٦٧٧٥

المدفعية : بقيادة أمير اللواء (جعفر بك صادق)

مدفعية الحرس (بقيادة الأمير الاى خالد بك)	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الثانى المشاة (بقيادة أمير اللواء محمد العنتبلى)	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الأول الخيالة (بقيادة أمير الاى حاذق بك)	١٠٤٠
آلاى المدفعية الثانى خيالة (بقيادة أمير الاى زكى بك)	١٠٦٧
مجموع قوات المدفعية	٦٢٣٩

المجموع الكلى لقوات الجيش المصرى ٥٠,٠٧٣ ضابطا وجنديا[1] و ١٦٢ مدفعاً .

تحضيرات المعركة :

قامت القيادة المصرية بتحصين (كولك) — أحد مضايق (طوروس) والذى يعتبر منفذا من الأناضول إلى سوريا ، كما قامت بتدعيم حاميات ولاية (أدنة) .

---

(١) أرسلت الحكومة المصرية — بناء على طلب القيادة المصرية بالشام — امدادات عسكرية تحت قيادة وزير الحربية مؤلفة من الجنود النظاميين و ٨٠٠٠ جندى غير نظامى معظمهم من الفرسان علاوة على ٢٥ الفا من قوات البدو ، كما الحق بهم ١٦٠٠٠ ماروفى ، وذلك فى أواخر ابريل عام ١٨٣٩ .

وإزاء ذلك قام (حافظ باشا) — قائد القوات التركية — بتقدير موقفه وقرر الزحف من منطقة (أورفا) و (ديار بكر) حيث لا تواجهه مضايق أو مسالك وعرة أو جبال .

وما أن علمت القيادة المصرية بذلك ، حتى قامت بتوجيه العديد من الوحدات إلى (حلب) بهدف مراقبة طلائع الجيش التركي في (عينتاب) و (كليس) القريتان من الحدود التركية .

وعلى الجانب الآخر أصدر (حافظ باشا) أوامره إلى بعض وحداته بعبور نهر الفرات وقد قامت بعبوره بالفعل إلى شاطئه الأيمن يوم ٢١ ابريل ١٨٣٩ .

وفي منتصف ابريل كانت وحدات الجيش التركي قد قامت بتبديل مراكزها واتجهت صوب (ساموساتة) .

كما تجمع لواء (إسماعيل باشا) في (بيرة جك) في ذات الشهر والتي وصلها (حافظ باشا) بعد أيام حيث استولى على (ساموساته) ثم يمم صوب (بيرة جك) على الشاطيء الأيسر لنهر الفرات .

وفي الثاني والعشرين من مايو ١٨٣٩ عبرت طلائع الجيش التركي نهر الفرات ووصلت إلى (نزيب) — داخل الحدود السورية — واحتلت المنطقة الواقعة بين نهر الفرات وأحد روافده (ساجور) — كما احتلت القوات التركية أيضاً قرية (تل باش) واستمرت في تقدمها في اتجاه (مزار) بسوريا حيث قامت بالإغارة على ١٤ قرية بعينتاب ونهبتها .

القيادة المصرية تقرر الهجوم :

في مواجهة تلك الاعتداءات صدرت الأوامر إلى سبعة آليات مصرية من الخيالة تدعمها ١١ بطارية مدفعية خفيفة بالتحرك من (حلب) يوم ٢٩ مايو ، كما كلف (سليمان باشا الفرنساوي) بالحاق بها على رأس قوات المشاة .

وفي اليوم السادس من يونية ١٨٣٩ أصدرت الحكومة المصرية تعليماتها إلى قائد القوات المصرية بالهجوم على قوات العدو وطردها من الأراضي السورية .

بدء الاشتباكات :

في ٢٣ يونية ١٨٣٩ قررت القيادة المصرية مهاجمة الجيش التركي عند فجر اليوم التالي[1] مع القيام بدفع قوة صغيرة للاستكشاف (١٥٠٠ بلوك — ٤ آلايات من الخيالة — وبطاريتي مدفعية خفيفة) . كما صدرت التعليمات إلى القوات المصرية الرئيسية بالاستعداد للهجوم بعد أن تم حشدها على ضفاف نهر (ساجور) .

نتيجة الاستكشاف :

عادت القوة المصرية التي كلفت بالاستكشاف[2] — والتي قوبلت بمقاومة شديدة من القوات التركية — بمعلومات تؤكد صعوبة إجراء الهجوم بالمواجهة نظراً لمناعة مواقع العدو ، كذلك تبين صعوبة إجراء الهجوم من الأجناب ،

---

(١) عارض سليمان باشا هذا القرار لاعتقاده بأن وجود الضباط البروسيين في الجيش المعادي يجعل مواقعه عظيمة التحصين .

(٢) حينما عادت قوة الاستكشاف المصرية إلى مواقعها الأصلية بعد أن أدت مهمتها اعتقدت القيادة التركية أن القوات المصرية الرئيسية قد بدأت في التقهقر والانسحاب .

الأمر الذى حدا بالقيادة المصرية إلى وضع خطة ترى للقيام بحركة التفاف واسعة بهدف الوصول إلى خلف مواقع العدو لإجبار الجيش التركى على الدوران وترك مواقعه المحصنة والقتال فى الأرض المكشوفة..

القائد التركى يرفض نصيحة البروسيين :

وقد اقترح الألمان الذين كانوا يؤلفون هيئة أركان حرب (حافظ باشا) على القائد التركى الانسحاب من (نزيب) والتوجه إلى (بيرة) على الضفة اليسرى لنهر الفرات تفادياً للتعرض إلى حركات التطويق التى قد تقوم بها القوات المصرية ، ولكنه رفض هذا الاقتراح . . وحينما أشاروا عليه أيضاً بضرورة ضرب القوات المصرية أثناء تقدمها وعبورها المضايق ولنهر (كرسين) رفض كذلك الاستجابة إلى تلك النصيحة .

تحرك الجيش المصرى :

فى ١٨ يونية تقدمت قوات الجيش – تحت قيادة (سليمان باشا) نحو (توزل) حيث عبرت نهر (ساجور) الكبير فى اليوم التالى – وفى يوم ٢٠ يونية استأنفت التقدم إلى (مزار) فى خمسة قولات مشاة وقولين خيالة فوصلتها فى العاشرة صباحاً ، حيث التقت فيها بطلائع من الجيش التركى تتألف من آلايين مشاة وخمسة مدافع و ٥٠٠ جندى غير نظامى . . ففوجئت وانسـ ـ تحت وابل من نيران القوات المصرية الأمامية فى اتجاه (نزيب) بعد أن تركت خيامها وعتادها الذى غنمه المصريون ، وهكذا احتشد الجيش المصرى فى مزار يوم ٢٠ يونية . وقد أصبح على مسيرة ساعتين من مواقع العدو .

القوات المصرية تبدأ فى تنفيذ حركة الالتفاف :

فى صباح يوم ٢٢ يونية انتقل الجيش المصرى من معسكر (مزار) إلى اتجاه الجنوب حيث اجتازت بعض وحدات المشاة قنطرة (مزار) ورابطت فوق التلال المطلة عليها للمراقبة . . بينما ظلت قوات الخيالة فى مواقعها لستر هذه التحركات ، كما شرعت المدفعية فى عبور القنطرة ذاتها . . وما أن انتظمت القوات بعد العبور حتى تقدمت للسير فى اتجاه (كرسين) فى تشكيل القتال بعد أن انحرفت عن خط السير الحقيقى لإيهام العدو بأنها تستهدف الوصول إلى (حلب) .

وفى خلال هذا التقدم ، ظهرت بعض الوحدات التركية على ميسرة الجيش المصرى (على بعد ٣٠٠ متر) ولكن ما أن اتخذت القوات المصرية تشكيل القتال ضدها حتى بادرت إلى الانسحاب (والمرجح أنها كانت مكلفة بواجب الاستكشاف فقط) .

وما أن حل مساء نفس اليوم حتى بدأت التشكيلات المصرية فى إجراء عملية عبور كبرى (كرسين) حيث انتهت منها فى الثانية صباحاً وبمجرد انتظام القوات على الضفة اليسرى للنهر نظمت على شكل مروحة ترتكز ميمنتها وميسرتها على النهر بينما احتلت بعض وحدات المدفعية المرتفعات الأمامية وخلفها ثلاثة صفوف من المشاة فالخيالة ثم العتاد وما تبقى من المدفعية احتل مواقعه خلف الصف الثالث .

وهكذا انقضى نهار ٢٣ يونية والجيشان يتأهبان للقاء الحاسم فى اليوم التالى[1] .

المعركة :

ما أن بزغ فجر يوم ٢٤ يونية حتى كان الجيش المصرى قد تم تشكيله فى ترتيب القتال على النحو التالى[2] :

- ثلاثة خطوط من المشاة موازية لبعضها : الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة ، والخط الثانى على يمين الأول ويتألف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمينه ويتكون من ثمانى كتائب .
- على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ متراً منه ٩ بطاريات مدفعية (٥٤ مدفعاً) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .
- على يمين خط المشاة الثالث وعلى مسافة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات مدفعية (٦٠ مدفعاً) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .
- اربع بطاريات مدفعية (٢٤ مدفعاً) خلف خطوط المشاة الثلاثة .
- اربع بطاريات مدفعية (٢٤ مدفعاً) أمام خطوط المشاة الثلاثة لتدعيم آلايات الخيالة عند اللزوم .
- ستة آلايات من الخيالة أمام البطاريات الأربع الأخيرة فى موازاة خط المشاة الثالث .
- فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف البطاريات الأربع المحتشدة خلف خطوط المشاة الثلاثة كاحتياط .
- لواء خيالة الحرس المؤلف من آلايين (أحدهما من لابسى الدروع) والثانى (من حملة الرماح) خلف الجميع للعمل كحرس مؤخرة .

التطويق :

وفى خلال التقدم ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش وتمهيداً لحركة الالتفاف انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى فى اتجاه (بيرة جك) . . وبعد أن تقدمت القوة نحو الكيلو متر فى الاتجاه ذاته لاحظت أن القوات التركية لم تتحرك من مواقعها الدفاعية ، وهنا صدرت التعليمات إلى كافة التشكيلات بالالتفاف نصف دورة إلى اليسار وبذلك صارت خطوط تقدمه موازية تقريباً لخطوط الجيش التركى . . ثم كررت نصف دورة أخرى متجهة إلى ربوتين تجاه الجناح الأيسر التركى ، حيث احتلت إحداهما ببطارية مدفعية من العيار الكبير ، بينما احتلت أربعة آلايات خيالة مواقعها خلف الربوة الثانية بعد أن تم تدعيمها بآلايين من المشاة .

---

(١) التاريخ الحربى لعصر محمد على – القائمقام عبد الرحمن زكى – ١٩٥٠ .

(٢) بعد منتصف الليل بقليل قامت القوات التركية بقصف مواقع الجيش المصرى بالمدفعية . . إلا أن القوات المصرية صوبت نيران مدفعيتها فى اتجاه القوات التركية حتى تم اسكاتها . . وقد قدرت خسائر المصريين من جراء هذا القصف بنحو ١٠ قتلى و ٣٠ جريحاً .

أوضاع الجيش التركي عند بداية الهجوم :

كانت أوضاع الجيش التركي عند بداية الهجوم في مواقعه الدفاعية موزعة على النحو التالي :

قوات الميمنة وتتألف من الحرس – والقلب والميسرة من ٣ لواءات مشاة – وعلى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . . وفي الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعاً ، وفي الخط الثاني ١٣ كتيبة . . بينما وضع في الاحتياط ٤ لواءات و ٩ آلايات خيالة و ١٣ مدفعاً . . كما كانت كتائب الخط الأول في تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطي في تشكيل قولات .

الاقتحام :

بمجرد احتلال القوات المصرية للربوتين . . بدأت وحدات الجيش التركي في إطلاق النيران عليها بينما قامت الأولى بالالتفاف يساراً بعد أن دعمت بأربعة آلايات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى الرابع عشر المشاة : الميمنة تحت قيادة (سليمان باشا) والقلب تحت قيادة الفريق (أحمد باشا المونوكلي) بينما قاد قوات الميسرة الفريق (عثمان باشا) . . وقامت المدفعية المصرية بالتمهيد للاقتحام بالقصف الشديد المركز ، فردت عليها المدفعية التركية بالقصف المضاد واستمر تبادل إطلاق النيران نحو الساعتين ركزت خلالها المدفعية المصرية قصفها على المدفعية التركية بينما ركزت الأخيرة ضربها على قوات المشاة . . كما قامت البطارية كبيرة العيار (فوق الربوة) باسكات عدة بطاريات للمدفعية التركية . . وبعد أن اشتركت الهاونات المصرية في تكثيف النيران التي انصبت دون انقطاع على القوات التركية بدأت قوات الأتراك في التراجع ، كما فر بعض الجنود وقد انحطت معنوياتهم خاصة بعد انفجار عربات الذخيرة في مؤخرة القوات التركية بتأثير نيران المدفعية المصرية وتزايد الارتباك وعمت الفوضى بعد أن أطلق قائد المدفعية الأميرالاى (جعفر بك صادق) بعض الصواريخ على تشكيلات الجيش التركي .

المدفعية المصرية ترفع معنويات الجيش المصري :

وقد سبب نشاط المدفعية المصرية وقصفها المتواصل ارتفاع معنويات القوات المصرية التي قامت باقتحام القوات التركية بالسونكي ، فبادرت خيالة العدو بالفرار . . بينما تقدم الآلايين ١ و ١٣ خيالة فاستوليا على القسم الأيسر للمواقع التركية مكتسحين شراذم العدو المتفرقة في الطريق . . وواصلت التشكيلات المصرية الأخرى تقدمها مكتسحة مواقع الأتراك الذين ألقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار . . لتقتفي المدفعية أثرهم بالقصف المستمر المتواصل .. وبذلك تمت هزيمة الأتراك وشتت الجيش التركي الذي لم يبق له أثر في ميدان المعركة . .

خسائر الجانبين :

استولت القوات المصرية على مقر قيادة القائد التركي (حافظ باشا) بكامل معداته ومهماته كما قام الجيش المصري بالاستيلاء على ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعاً تركياً بذخائرها ، وفي اليوم التالي تم الاستيلاء على ٣٤ مدفعاً في حصن (بيرة جك) وقد بلغت خسائر الأتراك في هذه المعركة نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح و ٥ آلاف من الجنود ، علاوة على الاستيلاء على خزينة (حافظ باشا) والتي كانت تحتوى على عدة آلاف من الجنيهات علاوة على الأوراق والخطط والأوسمة .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ ما بين قتيل وجريح .

نتيجة المعركة :

بانتصار الجيش المصرى فى معركة نزيب (نصيبين) أصبح الطريق مفتوحا إلى (استانبول) دون عوائق بعد أن ذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية بالأناضول[1] .

تعليق :

تمثل معركة (نزيب) صفحة من أمجد صفحات العسكرية المصرية المشرقة ، والتى يمكن أن نضعها فى مستوى معركة (أوسترلتز) التى قضى فيها (نابليون بونابرت) على زهرة الجيوش النمساوية القوية . . حيث تمكن الجيش المصرى خلال تلك الموقعة من مفاجأة العدو عقب سير اقتراب طويل مع تنفيذ حركة التفاف واسعة النطاق — بما صاحبها من إجراء عمليات عبور عديدة للأنهار تمت فى سرية تامة ونظام دقيق وبدون خسائر تذكر على وجه العموم .

دور المدفعية المصرية الذى لا ينسى :

كما أن الدور الذى لعبته المدفعية المصرية خلال المعركة لا يمكن أن ينسى أو يطويه الزمن . . فقد قامت بالدور الرئيسى فى المعركة منذ بدايتها حتى النهاية ، وكان لقصفاتها المركزة العنيفة أكبر الأثر فى إحراز النصر على الجيش التركى وتشتيت جموعه بينما قامت كل من قوات المشاة والخيالة باستغلال التأثير الذى أحدثته المدفعية فى صفوف الأتراك على خير وجه ، وذلك باستكمال القضاء على القوة الضاربة للجيش التركى وبث الذعر والفوضى بين تشكيلاته الكبيرة العدد والتى طوتها سهول الأناضول بين جنباتها الفسيحة .

الأسطول العثمانى يستسلم فى الاسكندرية :

وكأنما لازم الأتراك سوء الحظ وأبت الهزيمة الا أن تلاحقهم فى كل مكان . . إذ قام أمير البحر (أحمد فوزى باشا) فى يوم الرابع عشر من يولية ١٨٣٩ بتسليم الأسطول العثمانى والذى كان تحت قيادته بكامل قطعه إلى الحكومة المصرية فى الميناء الغربى بالاسكندرية ، وكان هذا الأسطول الحربى يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١ ألفاً من البحارة و ١٦ ألفاً من المشاة . .

---

(١) فرت فلول الجيش التركى فى اتجاه (مرعش) بينما فر بعضها فى اتجاه شمال (بيرجك) أما (حافظ باشا) فقد فر إلى (روم كالة) فى محاولة يائسة لجمع شتات جيشه المهزوم فى (مالطية) .

الفصل التاسع

قوى الاستعمار تتحرك

عزز النصر الذى أحرزته القوات المصرية فى معركة نزيب – والذى أودى بأكبر جيش حشدته تركيا – وما تبع ذلك من استسلام الأسطول العثمانى ، مركز مصر العسكرى حيث ضمن لها السيادة على شرق البحر المتوسط الذى كانت تركيا تنازعها فيه من قبل .

ولقد أثارت هذه الانتصارات الحاسمة أحقاد دول أوروبا الدفينة ضد مصر ، وفى مقدمة تلك الدول زعيمة الاستعمار العالمى : بريطانيا التى كانت ترنو إلى الاستيلاء على ممتلكات الإمبراطورية العثمانية . . وهكذا توالت الاجتماعات بواسطة سفراء تلك الدول (إنجلترا – النمسا – فرنسا – بروسيا الروسيا) فى (لندن) . . . تلك الإجتماعات التى أسفرت عن إصدار مذكرة وقعها سفراء تلك الدول إلى الحكومة العثمانية – يوم ٧ يولية ١٨٣٩ – أى عقب معركة (نزيب) باثنين وثلاثين يوماً والتى جاء فيها :

« إن سفراء الدول الموقعين على هذه المذكرة يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالى أنهم تلقوا من حكوماتهم هذا الصباح بأن الاتفاق على المسألة الشرقية[1] تام بينها ولذلك فهم يطلبون منه أن يوقف اتخاذ أى قرار نهائى دون مساعدتها لما قد يكون لها من الفوائد التى يرونها . . . » .

أول تدخل أوروبى جماعى :

ولقد كانت تلك المذكرة وما تلاها من أعمال بمثابة أول تدخل أوروبى جماعى فى قضايا الشرق الجماعى العربى فى التاريخ الحديث . . ذلك التدخل الذى قابلته مصر بالاستنكار الشديد بعد أن فهمت ما ينطوى عليه من نتائج خطيرة . . فى نفس الوقت الذى رحب به الباب العالى أشد الترحيب لأنه ينقذه من ورطته .

المفاوضات بين الدول :

ودارت المفاوضات بين الدول الخمس للاتفاق على الخطة النهائية . . فدعت انجلترا إلى حرمان مصر من ثمار انتصاراتها واعادتها إلى حدودها الأصلية . . مع إعادة الأسطول العثمانى إلى تركيا باعتبار أن ذلك يمثل أفضل الحلول فى رأيها .

رسائل الساسة الغربيون تكشف النقاب عن سوء نوايا بلادهم تجاه مصر :

ولعل الرسالتان التان أقوم بعرضهما فيما يلى تكشفان النقاب عن نوايا الدول الأوروبية تجاه مصر .

---

(١) المسألة الشرقية اصطلاح سياسى أطلقته الدول الأوروبية فى القرن التاسع عشر على القضايا الخاصة بالدولة العثمانية والتى كانت تدور حول طرد هذه الدولة من أوروبا واقتسام ممتلكاتها . .

رسالة سفير فرنسا فى (لندن) :

فى رسالة أرسلها (سبستيانى) — سفير فرنسا فى (لندن) إلى حكومته عقب مقابلته اللورد (بالمرستون) — وزير خارجية بريطانيا — يقول :

« . . تريد بريطانيا انتهاج سياسة الشدة تجاه مصر لحملها على إعادة الأسطول العثمانى إلى حكومة الآستانة والعودة إلى حدودها الأصلية وأن (بالمرستون) يكرر القول بأنه يجب اتخاذ الوسائل التى تجعل مصر عاجزة عن الإضرار بتركيا والقضاء عليها . . . » .

رسالة (بالمرستون) :

أما الرسالة الثانية فقد كتبها (بالمرستون) — إلى ويليام كامبل — سفير بريطانيا فى (كابل) ويقول فيها :

« . . إن الشروط المعروضة على الحكومة المصرية حسنة جداً ما دامت تلك الشروط تحرم (محمد على) من (دمشق) و (حلب) وهما الطريق إلى العراق . . وفوق هذا يجب أن يثبت كل عام فيها أعطى له وإن كان تثبيته فى ولاية مصر دائماً . : وقد كان قصده تأليف مملكة عربية بجميع بلاد العرب — والمشروع جليل الشأن لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به . . أضف إلى ذلك أن تركيا تعتبر أفضل دولة تملك طريق الهند . . (لم تكن قناة السويس قد شقت بعد) فهى أفضل من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ، نزوعاً لعمل كثير الحركة . . فالواجب علينا أن نساعد السلطان على إعادة تنظيم جيشه وأسطوله وماليته ، فإذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء . . . » .

قرارات (لندن) :

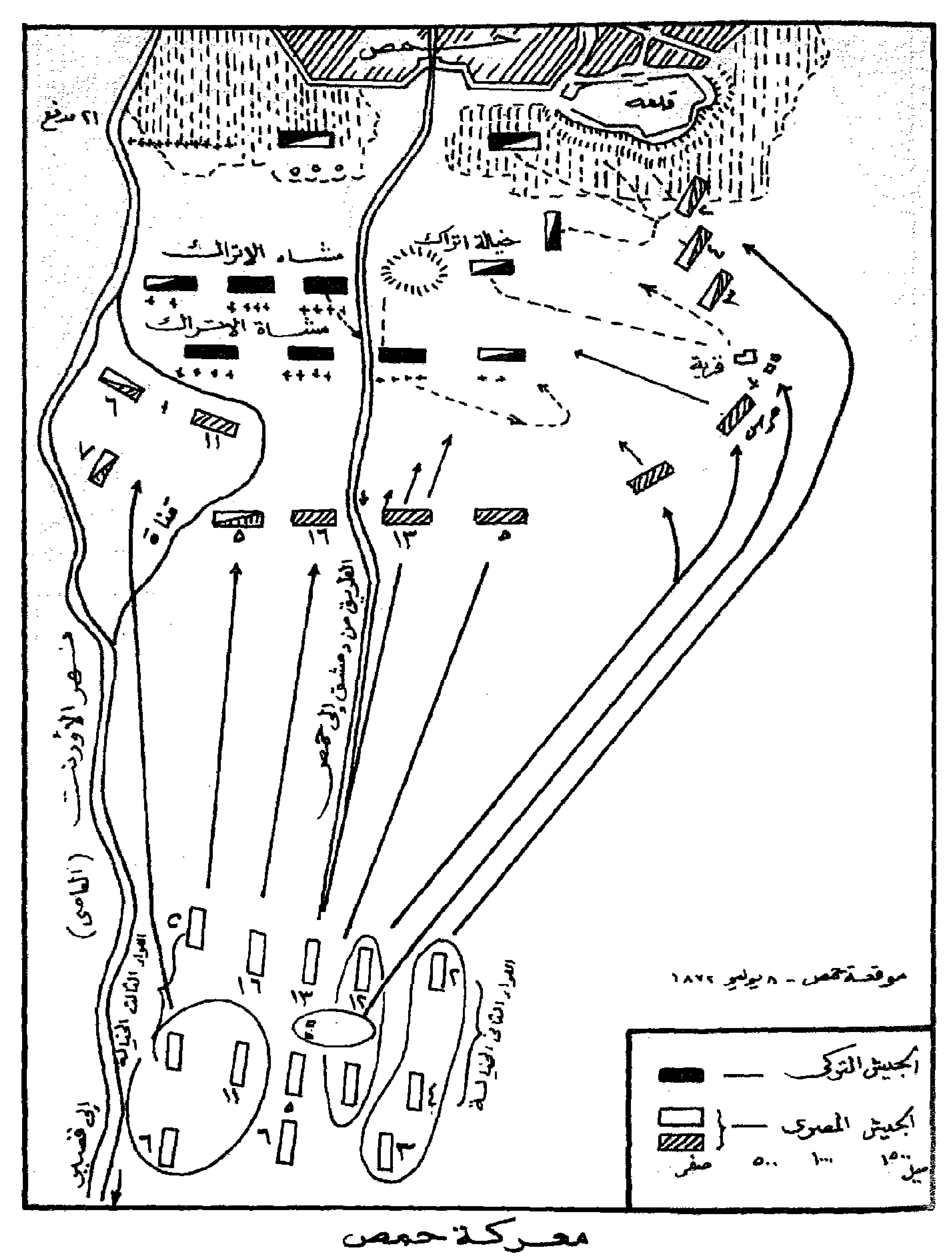
وبعد مفاوضات طويلة ، انتهت بلا نتيجة ، ووقفت فيها فرنسا إلى جانب مصر مطالبة باعطائها سوريا إلى جانب ولاية عكا ، صدرت (معاهدة لندن) — فى ٥ يولية ١٨٤٠ — والتى لم تدع إلى مشاوراتها فرنسا بسبب موقفها من مصر .

نص معاهدة (لندن) — ٥ يوليو ١٨٤٠

١ — اتفق السلطان مع ملكة بريطانيا وإمبراطور النمسا والمجر وبوهيميا ، وملك بروسيا ، وقيصر الروسيا على شروط التسوية التى تريد الدول أن تمنح لمصر وهى مثبتة فى الفصل الملحق بهذه المعاهدة .

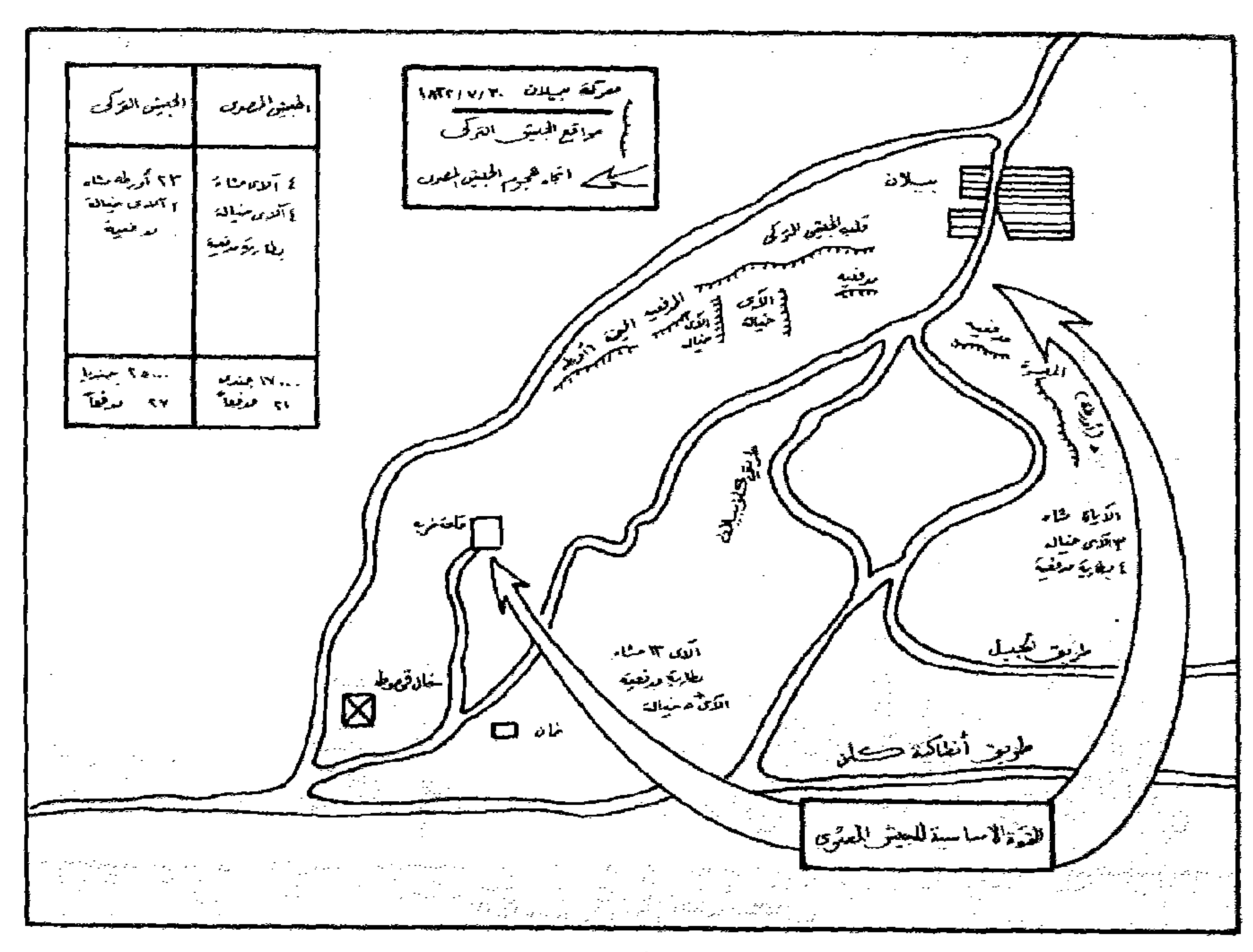
ويتعهد أصحاب الجلالة أن يعملوا متحدين وأن يوحدوا مجهوداتهم لإكراه مصر على أن تتبع هذه التسوية ، ويتعهد كل فريق بأن يساعد على بلوغ هذا الغرض تبعاً للوسائل التى يستطيع استخدامها فى هذا السبيل .

٢ — إذا رفضت مصر التسليم بهذه التسوية التى تبلغ إليها الآن من لدن السلطان بمعاونة أصحاب الجلالة فان هؤلاء يتعهدون بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان الوسائل المتفق عليها بينهم حتى تتم التسوية ، وقبل ذلك يدعو السلطان



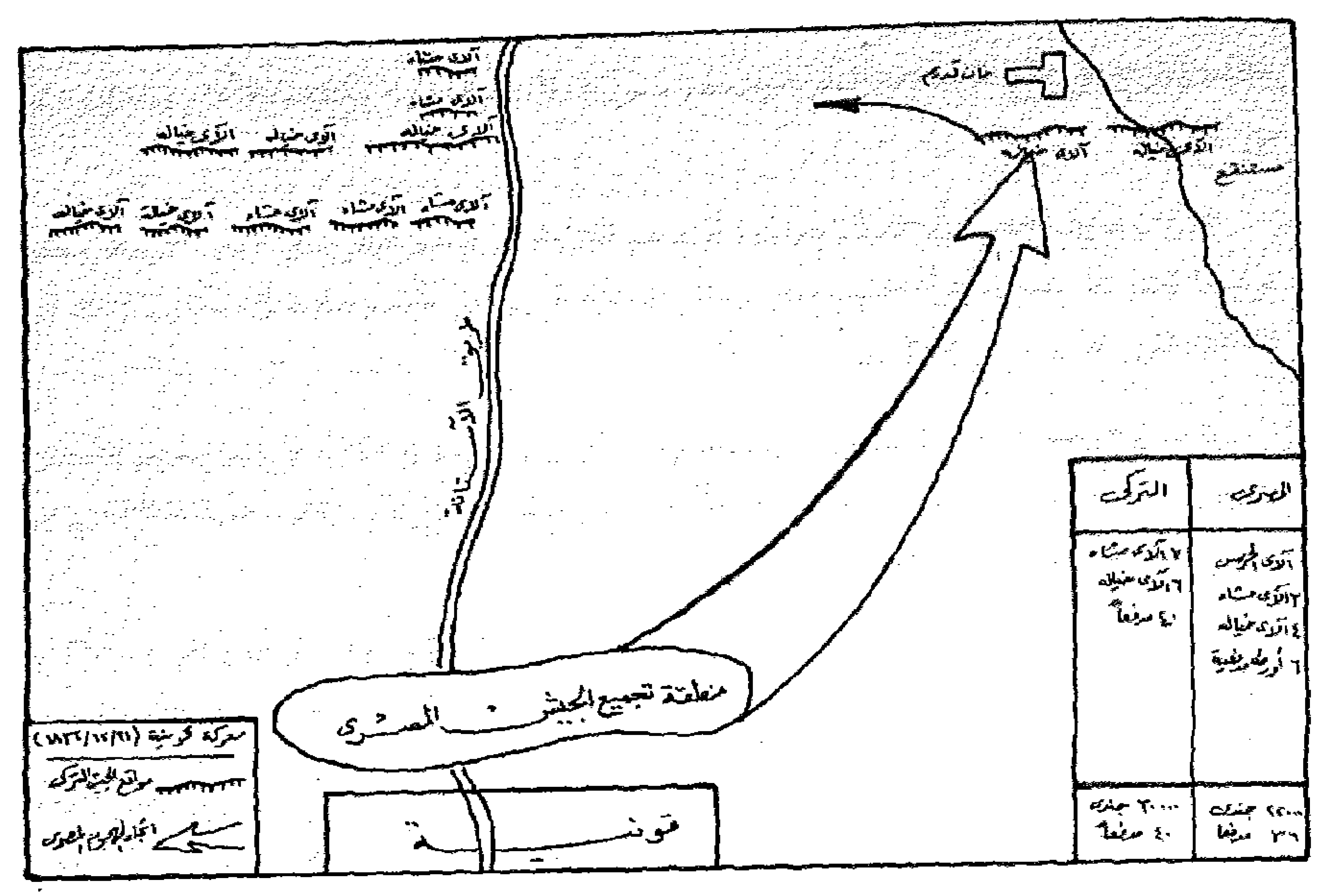
معركة حمص

خريطة توضح تفاصيل خطط الجانبين المصري والعثماني وسير العمليات

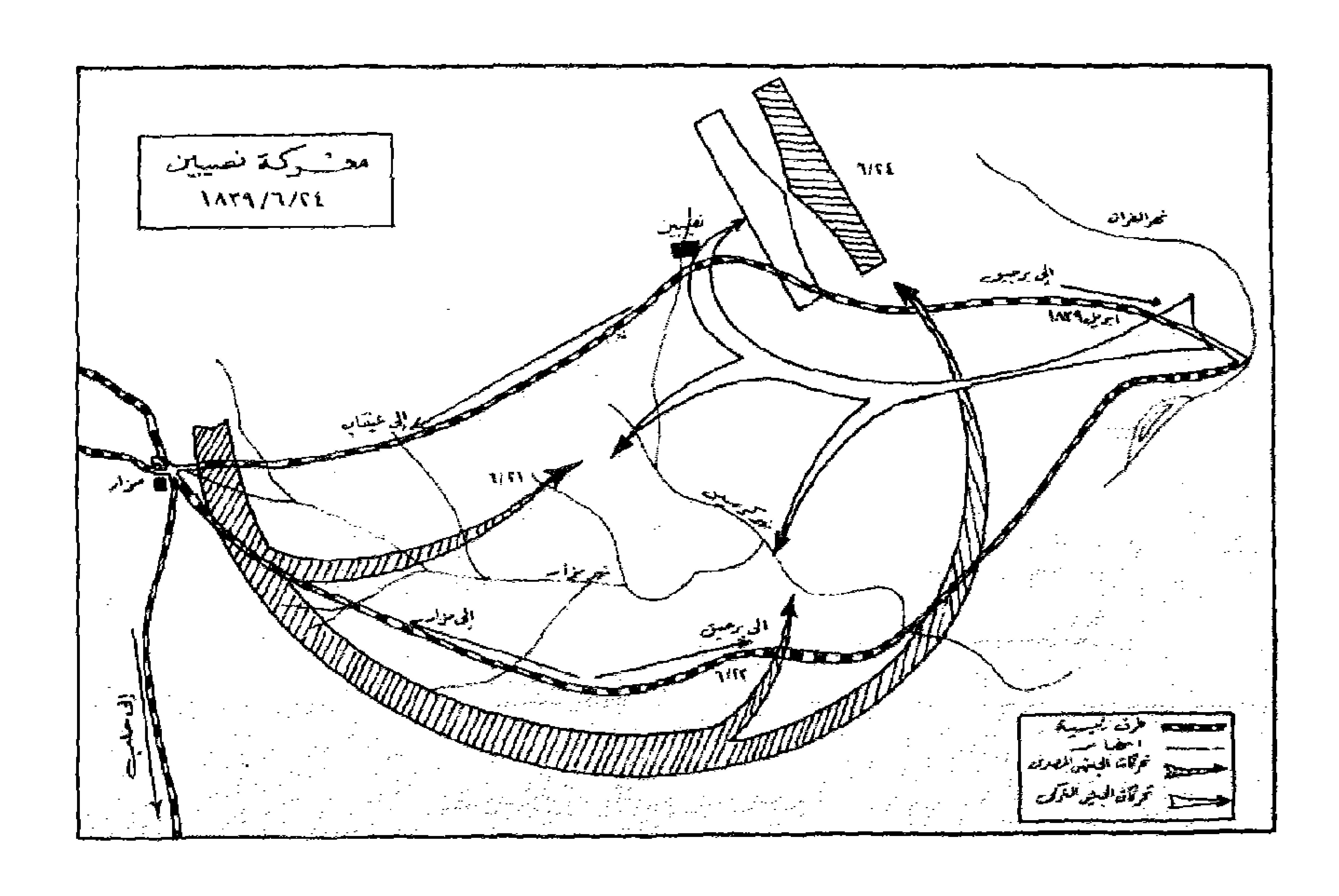


معركة بيلان

اتجاهات الهجوم للجيش المصري



اتجاه الهجوم - معركة قونية



معركة نصيبين
١٨٣٩/٦/٢٤

حلفاءه لمعاونته على قطع المواصلات البحرية بين مصر وسوريا وإلى إرسال المواد الجديدة والسلاح ومعدات الحرب من كل نوع .

٣ — ويتعهد أصحاب الجلالة بأن يصدروا أوامرهم اللازمة إلى قوانهم البحرية فى البحر المتوسط ويعلونها فوق ما تقدم بأن يقدم قواد أساطيلهم طبقاً للوسائل المتوفرة لديهم كل تأييد ومعاونة فى إمكانهم وذلك لرعايا السلطان الذين يعربون عن إخلاصهم :

٤ — إذا رفضت مصر الخضوع لشروط التسوية المذكورة ووجهت قواها البرية والبحرية إلى الآستانة فان المتعاقدين يلبون دعوة السلطان إلى سفرائهم فى الآستانة فيتذرعون بالوسائل التى يتفقون عليها للدفاع عن عرشه وجعل البوسفور والدردنيل بمنجاة من كل عدوان :

ومن المتفق عليه أن القوات التى تندب للقيام بمهمة فى مكان معين تظل قائمة بمهمتها إلى أن يستغنى السلطان عنها ، وعندما يرى أن وجودها لم يعد لازما تنسحب تلك القوات راجعة إلى البحر الأسود أو إلى البحر المتوسط .

٥ — من المعلوم حتما أن التعاون المذكور فى البند السابق والذى يرمى إلى وضع البوسفور والدردنيل والعاصمة التركية تحت رعاية الدول المتعاقدة لمقاومة كل عدوان من مصر لا يعد إلا وسيلة استثنائية بناء على طلب السلطان والغرض منها الدفاع عنه فى الحالة الخطرة . والمتفق عليه أن هذه الوسيلة لا تخالف فى شيء القاعدة القديمة المتبعة فى السلطنة العثمانية وهى التى منعت كل وقت المراكب الحربية للدول الأجنبية من دخول البوسفور والدردنيل ويعلن السلطان من جهته أنه يصمم فيما عدا الحالة المذكورة — كل التصميم على أن يحتفظ كل الاحتفاظ بالقاعدة القديمة المقررة فى سلطته وأنه ما دام الباب العالى فى سلام لا يسمح لأى مركب حربى بالمرور فى البوسفور والدردنيل ، ويتعهد أصحاب الجلالة المتعاقدون على احترام ذلك .

ملحق المعاهدة :

ينوى السلطان أن يمنح مصر ما يأتى ويبلغه لها :

المادة الأولى : يعد السلطان بأن يمنح (محمد على) وسلالته المباشرة من بعد إدارة باشاوية مصر ، ويعد أن يمنحه مدة حياته باشاوية عكا وقيادة قلعة عكا مع إدارة الجزء الثانى من سوريا الذى يحدد فيما بعد على شرط أن يقبل هذه المنح بعد عشرة أيام من تبليغه إليه فى الاسكندرية على يد مندوب من جانب السلطان .

وعليه أن يسلم إلى هذا المندوب التعليمات اللازمة لقواد البر والبحر لينسحبوا فى الحال من بلاد العرب ومن المدن المقدسة ومن جزيرة كريت ومن الأجزاء الأخرى من أملاك السلطنة الخارجة عن حدود مصر وحدود باشاوية عكا كما عيناها .

٢ — إذا لم يقبل هذه التسوية فى مدى عشرة أيام يسحب السلطان إدارة باشاوية عكا على أن يظل راضياً بمنح (محمد على) وسلالته المباشرة حكم مصر بالتوارث بشرط أن يقبل هذه المنحة فى مدى عشرة أيام أخرى تالية للعشرة أيام الأولى أى فى مدى ٢٠ يوماً تبتدىء من اليوم الأول الذى يتلقى فيه البلاغ وعلى شرط أن يسلم لمندوب السلطان الأوامر اللازمة لقوات بريته وبحريته بأن ينسحبوا حالا .

٣ — ان الضريبة السنوية التى تدفعها مصر للسلطان تحسب على حساب الأملاك التى تعطى إدارتها لا على حساب المنحة الأولى ولا على حساب المنحة الثانية .

٤ — عدا ما تقدم فليكن مفهوماً أنه سواء أكان فى الحالة الأولى أم فى الحالة الثانية فان على (محمد على) أن يسلم قبل انقضاء العشرة أيام الأولى أو العشرين يوماً الأسطول التركى وعساكره وسلاحه للمندوب الذى يعين لتسلمه ويشهد قواد أساطيل الحلفاء هذا التسليم .

وليكن مفهوما أيضاً أن مصر لا تستطيع بحال من الأحوال أن تدخل فى الحساب أو تخصم من الضريبة التى تدفعها للسلطان النفقات التى أنفقتها على الأسطول العثمانى مدة إقامته فى الموانىء المصرية .

٥ — ان جميع المعاهدات والقوانين فى السلطنة العثمانية تنفذ فى مصر ، وفى باشاوية عكا ، ويرضى السلطان على شرط دفع الضريبة ، أن يجبى إيراداتها من الضرائب والرسوم المقررة شرعاً ومن هذه الضرائب والرسوم تدفع النفقات الملكية والعسكرية فى تلك الأملاك .

٦ — القوات التى ينظمها باشا مصر وعكا تعد شطرا من قوات السلطنة العثمانية وتعتبر دائماً كأنها معدة لخدمة الدولة .

٧ — إذا لم يقبل (محمد على) فى مدة عشرة أيام أو عشرين يوماً كما جاء فى المادة الثانية المنح المعروضة عليه فان السلطان يكون حرا فى سحبها وفى اتباع الخطة التى توحى بها مصالحه طبقاً للنصائح التى يسديها إليه حلفاؤه .

مصر ترفض قرارات (معاهدة لندن) :

وفى ١٤ من اغسطس عام ١٨٤٠ وصل إلى ميناء الاسكندرية (رفعت بك) مندوب الباب العالى حاملا المعاهدة وملحقها لإبلاغها إلى الحكومة المصرية . . التى قررت رفض ما جاء بها معلنة أن ما أخذته بالسيف لا تسلمه إلا بالسيف .

وزار قناصل الدول الأربع (بعد أن استبعدت فرنسا) — رئيس الحكومة المصرية وأبلغوه قرار الدول رسمياً واستمهلوه عشرة أيام ، فطلب منهم إبلاغه إياه كتابة . ففعلوا بعد أن أكدوا له أن فرنسا عاجزة عن مساعدته وأن الدول الأربع مصممة على تنفيذ قراراتها ولو أفضى ذلك إلى قيام حرب أوروبية . .

ثم عاد مندوب السلطان ومعه قناصل الدول يوم ٢٤ أغسطس لاستلام إجابة (محمد على) النهائية فرد عليهم بالرفض فأبلغوه بأنه لم يبق له حق فى ولاية عكا لأنه لم يقبلها فى الأيام العشرة الأولى . . وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر كما جاء فى المعاهدة آنفة الذكر ثم انصرفوا بعد أن أمهلوه عشرة أيام أخرى .

وقد دعا (محمد على) — عقب انصرافهم — مندوب السلطان (رفعت بك) واقترح عليه حل الخلاف مباشرة بينه وبين الحكومة العثمانية على أساس إعادة (أطنة) و (كريت) وبلاد العرب إلى السلطان على أن تكون له ولاية مصر وراثية مع حكم سوريا مدة حياته ، وسلمه كتاباً بما تقدم .

الدول الأوروبية ترفض المقترحات المصرية :

وعاد (رفعت بك) إلى الآستانة وسلم السلطان المقترحات التى حملها ، فأبلغها الباب العالى إلى السفراء الأربعة الذين أجمعوا على رفضها وعلى وجوب إقالة (محمد على) من حكم مصر . . وهكذا أصدر السلطان العثمانى مرسوماً بذلك .

وقد أعقب ذلك أن غادر قناصل الدول الأربع الاسكندرية يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠ برفقة مندوب السلطان فكان ذلك إيذانا بقطع العلاقات السياسية مع مصر وباعلان الحرب التى كانوا يعدون لها والتى لم تكن مصر مسئولة عن قيامها بأية حال[1] .

وكانت تلك الدول قد شرعت منذ توتر العلاقات مع مصر إلى إرسال الرسل والجواسيس وتوزيع الأسلحة والأموال على الذين استطاعوا استمالتهم بالرشوة فى بعض المناطق الساحلية من جبل لبنان ، كما وصل إلى ميناء (بيروت) — فى التاسع من سبتمبر عام ١٨٤٠ — أى قبل قطع العلاقات بنحو أسبوعين — أسطول بحرى للحلفاء يتألف من ٢٠ بارجة بريطانية و ٣ نمساوية و ٣ تركية بقيادة الأميرال (ستراتفورد) — قائد الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط — وقائد قوات الحلفاء البحرية ، كما سلمت إليه حملة عسكرية برية مؤلفة من ٧ آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال السير (تشارلس سميث) — منها ٥٣٠٠ تركى و ١٥٠٠ بريطانى و ١٠٠ نمساوى .

قوات الحلفاء تحتل موانىء الشام :

وقررت قوات الحلفاء أن تبدأ باحتلال ثغر (جونية) — شمالى (بيروت) — للاتصال باللبنانيين مباشرة وتوزيع الأسلحة على الموالين ، وهكذا وصل الأسطول المشترك إليها يوم ١٠ وقام على الفور بانزال الجنود الذين تقاطروا إلى البر وفى مقدمتهم الأمير (عبد الله حسن شهاب) — حاكم قضاء (كروان) وابن أخى الأمير (بشير) .

وبعد أن أتموا احتلال (جونيه) والمناطق المجاورة أنذر قائد الأسطول قائد (بيروت) المصرى طالباً منه تسليم المدينة ، فلم يجبه . . فأطلقت سفن الحلفاء المدافع على قلاع المدينة وأبراجها مما دعا الحاكم المصرى إلى إرسال كتاب إلى الأمير البريطانى يحتج فيه بشدة قائلا: ان عدداً من النساء والأطفال والمرضى والفلاحين الأبرياء قد ذهبوا ضحية هذا العدوان وأنهم إذا كانوا حقيقة يرغبون سلامة الأبرياء فليوجهوا إنذارهم إلى رئيس الحكومة المصرية بشأن تسليم (بيروت) أما هو فان الأوامر التى لديه توجب عليه الدفاع عنها وأنه لن يسلمها بل سيدافع مع جنوده بكل ما أوتوا من قوة : :

وقد اتجهت سفن الحلفاء إلى (جبيل) — أحد ثغور لبنان الشمالية والتى تقع فى منتصف الطريق الساحلى بين (بيروت) و (طرابلس) — فاستولت عليها كما قصفت — ليلة ١٨ — حيفا بالمدفعية فاستسلمت ، وفى يوم ٢٤ هاجمت (صور) وأنزلت بها قوات برية ،كما وصلت إلى (صيدا) ثمانى سفن للحلفاء يوم ١٦ وطلبت التسليم ، وحينما رفض قائدها قصفت القلعة وثكنات الجند والمنازل فخربت الكثير منها ثم أنزلت نحو ألف جندى قاومتهم الحامية المصرية مقاومة عنيفة حتى سلمت بعد أن قتل قائدها ومعظم جنودها .

---

(١) تاريخ مصر السياسى (من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية سنة ١٩٥٢) — أمين سعيد .

اتفاقية (نابيار – بوغوص)

الاسكندرية ليست أمنع من عكا :

فى نوفمبر ١٨٤٠ وصل الكوماندور (نابيار) إلى الاسكندرية على رأس ثمانى بوارج حربية بغرض القيام بمظاهرة بحرية لإرهاب الحكومة المصرية ، وفى ٢٢ من ذات الشهر وجه رسالة إلى مدير ديوان الخارجية (بوغوص يوسف) قال له فيها :

« .. إن الاسكندرية ليست أمنع من عكا ، وان الفرصة سانحة لمحمد على لينشىء إمارته ويحتفظ بالوراثة فى أسرته » .

فردت الحكومة المصرية على هذه الرسالة قائلة :

« .. إن تبعة الحرب فى ساحل الشام لا تقع على مصر بل على عاتق الحلفاء الذين قدموا بلاغهم باسم السلطان ، وان محمد على خاضع للسلطان وهو يسلم بما عرضوه عليه ، ولكنه يلتمس من السلطان أن يمنحه حكم سوريا طيلة حياته ... » .

ورأى (نابيار) فى لهجة هذا الرد ما ينم عن الرغبة فى الصلح والوفاق ففتح باب المفاوضات التى انتهت يوم ٢٧ نوفمبر إلى الاتفاق التالى :

« بين الكوماندور نابيار قائد القوات البحرية الراسية أمام الاسكندرية من جانب وبين بوغوص يوسف وزير خارجية مصر المفوض من جانب آخر تم الاتفاق الآتى » :

المادة الأولى : بما أن الكوماندور نابيار بصفته المبينة أعلاه قد أحاط (محمد على) بأن الدول أشارت على الباب العالى باعادة حكم مصر الوراثى إلى عهدته ، وبما أنه يرى ذلك وسيلة لوضع حد للحرب وويلاتها فانه يتعهد بأن يصدر أوامره بالجلاء فورا عن سوريا ، ويتعهد أيضاً باعادة الأسطول العثمانى بمجرد أن يصل إخطار رسمى من الباب العالى بالتنازل عن حكم مصر الوراثى وأن يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من جانب الدول .

المادة الثانية : يضع الكوماندور نابيار تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة من سفنه تنقل إلى سوريا الضابط الذى يعهد إليه بابلاغ القائد العام للجيش المصرى فى سوريا أمر الجلاء ويعين الأميرال (ستراتفورد) قائد القوات البريطانية من ناحيته ضابطاً لملاحظة تنفيذ هذا الأمر .

المادة الثالثة : يتعهد الكومندور نابيار بناء على ما تقدم بوقف الحركات العدائية من جانب القوات البريطانية ضد الاسكندرية وضد كل ناحية من أنحاء الأراضى المصرية ويبيح حرية الملاحة للسفن المعدة لنقل الجرحى والمرضى وسائر الجنود المصرية الذين ترغب الحكومة المصرية فى نقلهم إلى مصر بطريق البحر .

المادة الرابعة : للجيش المصرى الحق فى الانسحاب من سوريا حاملا معه أسلحته ومدافعه وجياده وبالجملة كل مهماته » .

وقد اعتبرت الحكومة البريطانية هذا الاتفاق تسوية معقولة وقبلته رسمياً وأصدرت تعليمات إلى سفيرها بالآستانة بالسعي لتنفيذه : . حتى أصدر الباب العالي – بعد مماطلة وتسويف – المرسوم المطلوب لإقرار هذا الاتفاق في ١٣ فبراير عام ١٨٤١ :

القوات المصرية تجلو عن الشام :

في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٠ أصدر (إبراهيم باشا) أوامره إلى الوحدات المصرية العاملة بالشام بالجلاء والعودة إلى مصر ، بعد أن عين (حلب) مركزا لحشد القوات والأسر المصرية العائدة .

الجيش الذى لم يعرف الهزيمة يبدأ رحلة العودة :

وفى (المزيريب) – شرقى بحيرة (طبرية) – استراح الجيش ثلاثة أيام لوضع الخطة التفصيلية للجلاء والتى كانت تقضى بالعودة على النحو التالى :

القسم الأول من الجيش تحت قيادة (سليم باشا) والثانى بقيادة (أحمد باشا الدرملى) والثالث بقيادة (أحمد باشا المونوكلى) والرابع تحت قيادة (سليمان باشا الفرنساوى) يسلكون طريق شرق الأردن وغزة فالعريش . . إلى جانب استخدام طريق الحج وعمان فالعقبة ومنها إلى (نخل) والسويس .

أما القسم الأخير والذى كان تحت قيادة (إبراهيم باشا) – ويتألف من قوات الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق فيعود عن طريق البحر من (غزة) إلى الاسكندرية .

ولقد كانت رحلة العودة شاقة مجهدة الأمر الذى نتج عنه أن هذا الجيش المنتصر أبداً والذى لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة قد فقد خلال هذه الرحلة نحوا من ثلاثين ألف رجل من جراء العطش وقلة الزاد وضربات الشمس بالإضافة إلى هجمات قطاع الطرق واللصوص .

الباب الرابع

الجيش المصرى يحرز الانتصارات فى المكسيك

الفصل الأول

الأورطة المصرية - السودانية
تحرز ٤٨ انتصارا فى حرب المكسيك

للمؤرخ العسكرى : محمد فيصل عبد المنعم[1]

جيوش نابليون الثالث فى المكسيك :

أراد (نابليون الثالث) أن يحقق التوازن مع نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية ــ فى خمسينيات القرن التاسع عشر ، وذلك بتأسيس حكومة ملكية كاثوليكية فى المكسيك ، منتهزاً فرصة إساءة حكومة المكسيك معاملة بعض رعايا فرنسا وانجلترا وأسبانيا ، فاتفق مع حكومتى إنجلترا وأسبانيا على استخـدام القوة المسلحة لإخضاع المكسيك عام ١٨٦١ .

فرنسا تنفرد بالقتال فى المكسيك :

ولم يلبث الخلاف أن دب بين الدول الثلاث ، فسحبت إنجلترا وأسبانيا جنودهما من المكسيك فى ابريل ١٨٦٢ وبذلك انفردت فرنسا بالقتال فى تلك البلاد[2] .

نابليون الثالث يرجو صديقه سعيد باشا مساعدته فى القتال :

ولما كان نابليون الثالث صديقاً لخديو مصر فى ذلك الحين ــ سعيد باشا ــ فقد أرسل إليه يطلب معاونته بآلاى من الجنود المصريين ، فقبل سعيد رجاءه وأرسل إليه أورطة (كتيبة) مؤلفة من ٤٥٣ جندياً بين ضباط وصف ضباط ، وكانت هذه الأورطة مكونة من ٤ بلوكات (سرايا) وتتبع آلاى المشاة التاسع عشر ، وكان جنودها يتألفون من المصريين والسودانيين .

الأورطة المصرية ــ السودانية تغادر الاسكندرية :

وهكذا وفى ٨ يناير ١٨٦٣ أقلعت الباخرة الفرنسية (لاسين La Seine) بالأورطة المصرية ــ السودانية من الاسكندرية مارة بطولون حتى وصلت (فيراكروز)[3] فى ٢٣ فبراير بعد سفر ٤٧ يوماً .

وكانت تلك الأورطة بقيادة البكباشى (مقدم) جبر الله محمد ونائبه اليوزباشى (النقيب) محمد الماس .

---

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » ــ مكتبة القاهرة الحديثة ــ القاهرة ، ١٩٧١ .
(٢) بطولة الأورطة السودانية ــ المصرية فى حرب المكسيك : عمر طوسون ــ ١٩٣٣ .
(٣) أكبر موانىء المكسيك .

التقارير الفرنسية تصف الانطباع الأول للأورطة المصرية ــ السودانية :

وقد جاء فى التقارير الفرنسية عن تلك الأورطة :

« أنها كانت ذات ملابس حسنة وسلاح جيد وهيئة أنيقة واستعداد عسكرى يثير إعجاب كل من يراه » .

إلا أن أسلحتهم كانت تختلف عن أسلحة الجنود الفرنسيين ، مما دعا القيادة الفرنسية إلى أن توزع عليهم أسلحة فرنسية وأودعت أسلحتهم فى المخازن ، ثم أعادتها إليهم عند رجوعهم إلى مصر .

اختلاف اللغة يدعو لاستخدام الجزائريين :

ولما كان التفاهم مع أفراد الإورطة المصرية ــ السودانية متعذرا فى بادىء الأمر لعدم إلمام جنودها باللغة الفرنسية فقد دعا الأمر إلى استخدام بعض الجنود الجزائريين ــ بواسطة القيادة الفرنسية ــ للقيام بأعمال الترجمة بينهم وبين الفرنسيين ، وبذلك أمكن معرفة احتياجاتهم والاستفادة من كفاءتهم وخبرتهم .

براعة فائقة فى الرماية وصد الغارات :

ولقد أثبتت التقارير الرسمية الفرنسية أن جنود هذه الأورطة قاموا بأعظم الخدمات وأجلها بالنظر إلى شجاعتهم وبراعتهم فى ضرب النار ، وبذلك أمكن الاعتماد عليهم فى المناطق والمعارك التى لم يكن الجنود الفرنسيون يستطيعون خوضها ، كما قامت هذه الأورطة بصد الغارات التى كانت تقوم بها العصابات المكسيكية وتشن الغارات على قوافل المؤونة والذخيرة والمخافر المعادية .

القيادة الفرنسية تنظم الأورطة وفقاً للتنظيم الفرنسى :

وقبيل مباشرة الأورطة لأعمال القتال ــ قامت القيادة الفرنسية بتنظيمها وفقاً للتنظيم الفرنسى ــ حيث أصدر الجنرال الفرنسى قائد الحملة قرارا بذلك ، كما أصدر قراراً آخر بترقية بعض أفرادها لتكملة النقص فى الرتب المطلوبة ، وأرسل بياناً بهذه الترقيات إلى مصر للتصديق عليها ــ وكانت هذه الترقيات كالآتى :

إلى رتبة الصاغ (الرائد) : اليوزباشى محمد الماس .

إلى رتبة اليوزباشى : الملازم أول حسين أحمد .

إلى رتبة الملازم أول : الملازم ثان فرج عزازى .

الباشجاويش محمد سليمان

الباشجاويش صالح حجازى

إلى رتبة الملازم ثان : الجاويشية فرج الزينى ــ خليل فنى ــ الفود محمد ــ محمد على .

إصدار الأوامر إلى الأورطة بتطهير الأراضى من الثوار :

وما كادت الأورطة تستقر فى البلاد حتى صدرت إليها الأوامر من القيادة الفرنسية العليا بتطهير الأراضى المكسيكية من عصابات الثوار التى كانت تعيث فى البلاد فساداً . .

الأورطة المصرية ـ السودانية تحافظ على طرق المواصلات بكفاءة :

فعندما حوصرت مدينة (بويبلا)[1] Powebla ـ فى الفترة من ٢٣ / ٢ إلى ١٨٦٣/٥/١٧ حين سقطت واستسلمت حاميتها المكونة من ٢٦ جنرالا و ٩٠٠ ضابط و ١٢ ألفاً من الجنود ـ كان من اللازم الاحتفاظ بطرق المواصلات بينها وبين الساحل ـ تلك الطرق التى كان المكسيكيون يحاولون بصفة دائمة قطعها ـ فكانت الأورطة المصرية ـ السودانية هى التى تكفلت بحراسة هذا الخط فى منطقة (الأراضى الحارة) ـ حتى قال القائد الفرنسى العام فى (فيراكروز) « إنه يعجز عن التعبير عن مدى امتنانه وشكره لهؤلاء الجنود الذين يستحقون الإطراء والثناء من جميع الوجوه » ؟

وفاة قائد الأورطة :

وفى مايو ١٨٦٣ فجعت الأورطة المصرية ـ السودانية بوفاة قائدها الشجاع البكباشى جبر الله محمد على أثر إصابته بالحمى الصفراء ، فخلفه نائبه الصاغ محمد الماس بعد أن منح رتبة البكباشى .

القيادة الفرنسية تؤبن القائد وتثنى عليه :

ولقد كان لوفاة هذا القائد العظيم رنة أسى عند الجميع ، حيث جاء فى تأبين القيادة الفرنسية له :

« انه كان على جانب كبير من دماثة الخلق والتحلى بصفات عسكرية نادرة وأنه كان محترما من الجميع لسلوكه الحسن وقيامه بالواجب على الوجه الأكمل وتقديره الكامل للمسئوليات الملقاة على عاتقه » .

ولقد بلغ قيمة ما تركه البكباشى جبر الله محمد ٥٦٦٧ فرنكاً أرسلتها السلطات الفرنسية إلى الحكومة المصرية لتسليمها إلى ورثته مع مبلغ ٥٠٠٠ فرنك على سبيل التعويض .

القيادة المصرية تزهو بالأورطة المصرية ـ السودانية :

وفى ١٨٦٣/٦/٢١ أقيم فى (فيراكروز) قداس حضره القائد العام ومثلت فيه جميع السلطات العسكرية والمدنية ، وقد عهد إلى الأورطة المصرية ـ السودانية مهمة القيام بالتشريفات ـ وبعد انتهاء الاحتفال قامت بالاستعراض فى أكبر ميادين المدينة كما أقيمت لها الاحتفالات الباهرة فى كافة المدن الأخرى وعندما وقف القائد العام (الماريشال فوريه Forieh) على ما قامت به هذه الأورطة فى معارك عديدة كافأها على ذلك ، فأمر ـ فى ١٨٦٣/٩/٢٨ بأن تؤلف منهم (كتيبة الجنود الممتازة) ـ كما أمر بمنح كل فرد من أفرادها علاوة نقدية قدرها ٦٥ سنتيما يوميا[2] وأن يميزوا بشارات صفراء توضع على أذرعتهم الأمر الذى أحدث أثراً عظيما فى نفوس جنودها وضباطها ، ودل على عظيم تقدير القيادة الفرنسية لهذه الأورطة وتقديرها لجدارة جنودها واستحقاقهم .

الجنود المصريون والسودانيون لا يبالون بالنار المنصبة عليهم :

ولقد كتب قائد (فيراكروز) فى تقريره الرسمى الذى أرسله إلى القائد العام عن معركة ١٨٦٣/١٠/٢٠ :

---

(١) وهى ثانى مدن المكسيك من حيث الأهمية .

(٢) حوالى ٢٥ مليما مصريا فى ذلك الوقت .

« لقد كلل هذا القتال رؤوس السودانيين والمصريين الذين قاموا بأعبائه بأسمى أكاليل الفخر ، فإنهم لم يبالوا بالنيران المنصبة على رؤوسهم من الأعداد الضخمة من أفراد العدو ، والتي تبلغ تسعة أضعاف عددهم — فردوهم على أعقابهم مدحورين » .

التقرير الرسمي للقائد معركة ١٨٦٣/١٠/٢ :

ويصف القائد العام الفرنسي فى (فيراكروز) — فى تقريره الرسمي إلى الحكومة الفرنسية عن معركة ١٠/٢ ما قام به جنود وضباط الأورطة المصرية — السودانية من أعمال تدل على البسالة والشجاعة بقوله [1]:

« فى ٢ أكتوبر ١٨٦٣ ، وفى الساعة السابعة صباحاً بارح القطار الغادى محطة (فيراكروز) ميمما (السوليداد Solidad) وكان يقوم بحراسة هذا القطار ١٤ جندياً منهم ٧ من السرية الأولى من بحارة جزر (الأنتيل les Antilles) والسبعة الآخرون من الأورطة المصرية — السودانية [2] وكان القطار مؤلفاً من عربات للمسافرين وأخرى للبضاعة ، أما عدد المسافرين من الأهالى فكان ٤٠ ، وكان من بينهم مسيو (ليجيه) رئيس أورطة من آلاى الأجانب ومسيو (شرر) ملازم من بلوك المهندسين ومسيو (ليونز) مدير السكك الحديدية وغيرهم كثير من النساء والأطفال ، وكان القطار متجهاً إلى (تيزاريا) بسرعة ١٦ كم فى الساعة ووصل إلى موضع يقال له (لوما دولا ريفيستا) حيث الطريق عرضه ٤ أمتار تقريباً بين سفوح الجبال المطلة من الجانبين والمليئة بالأحراش والغابات الكثيفة وكان فيها منحنى وعر — وعندئذ لمح سائق القطار بعض القضبان منزوعة من أماكنها — وفى الحال حول قوة البخار محاولا الرجوع للخلف غير أن القطار استمر هنيهة سائراً فى طريقه مندفعاً بقوة سيره فسقطت عندئذ العربات الأمامية ، ولم يستطع أحد أن يمنع حدوث الكارثة وفى هذه اللحظات دوى إطلاق النار بشدة من جانبى الطريق وكان اتجاه الطلقات من أعلى إلى أسفل ولم يكن فى الإمكان رؤية المهاجمين فجرح سائق القاطرة وشخص من المسافرين ، وعلى أثر ذلك أسرع بالرجوع إلى العربات كل من كان نزل منها واتخذ القائد (ليجيه) خطة الدفاع ونزل ليفحص الموقع وينظر فيما إذا كان فى الإمكان الهجوم على العدو من الجنب .

وهنا أظهر الجنود المصريون رباطة جأش جديرة بالثناء والإعجاب :

وفى غضون هذا الاضطراب الشامل وبلبلة الأفكار الناشئة عن خروج القطار عن طريقه من ولولة النساء وصياح الأطفال وحيرة كافة المسافرين ما كان يساور رؤوس السبعة المصريين غير فكرة واحدة ألا وهى القيام بواجب وظيفتهم وأن يستعدوا لإطلاق النيران على الأعداء إذا لاحت أشباحهم وبانت وكانوا ينتظرون وهم متخذون من جوانب العربات واقيا لهم وقاموا بالاشتباك مع العدو فى رباطة جأش جديرة بالثناء العظيم والإعجاب المتناهى ، وعندما وقع نظر رجال الحرس على القائد (ليجيه) وهو نازل من العربة تبعوه ليقوموا بتنفيذ أوامره . ورغم شدة إطلاق النيران أمكن استكشاف مواقع العدو بلا عائق لأن هذه النيران مع شدتها لم تكن قاتلة وما ذلك إلا لأن المكسيكيين كانوا مضطرين للاختباء للوقاية من نيران المصريين . . ولما تحقق القائد أنه ليس فى الاستطاعة الهجوم

---

(١) للمؤلفين الفرنسيين ساكرى وأوتريون فى كتاب (مصر واسماعيل باشا) .

(٢) وهم قائد الفصيلة الجندى الأول (بخيت بدرم) والجندى الثانى (بلال حماد) والجنود (أتوم سودان) ، وابراهيم عبد الرحمن (و) محمد عبد الله (و) عمرو محمد (و) محمد على) .

على العدو من الجنب أراد أن يهاجمه مواجهة فقذف بالأربعة عشر جندياً إلى المرتفعات ولكنها كانت مغطاة بالأشجار الكثيفة فما استطاعوا تسلقها واضطروا إلى الارتداد واتخذوا من العربات مرة أخرى واقيا لهم وفى أثناء ذلك أصيب القائد (ليجيه) بجرح مميت كما جرح جنديان من البحارة فبث هذا العمل الحماس فى نفوس المهاجمين فضاعفوا الطلقات وصار لا مناص من التقهقر ، وفى اللحظة التى كان يصعد فيها القائد (ليجيه) إلى العربة بمساعدة (بلال حماد) أصيب هذا الجندى بطلق نارى فخر صريعاً وقضى نحبه. وعندئذ تطوع الجندى (بخيت بدرم) و (أتوم سودان) وحملا أولا القائد (ليجيه) ووضعاه فى عربة السكة الحديدية ثم رجعاً إلى (بلال حماد) وكانت تحميهما فى تلك الفترة نيران من بقى من الحرس المنتشرين خلف العربات .. ومنذ هذه الساعة تسلم الملازم (شرر) القيادة العامة ورتب رجاله بطريقة تفسد كل محاولة هجوم يقوم بها المكسيكيون لأخذهم عنوة ، ثم أرسل أحد رجال السكة الحديد إلى (تيجريا) وإلى (فيراكروز) ليخبروا الرئاسة بموقفه وبطلب إرسال نجدات — وكانت (تيجريا) فى ذلك الوقت تحتلها فصيلة من المصريين والسودانيين مؤلفة من ضابط واحد و ٤٥ جندياً أمرة الملازم ثان (رازود) من الآلاى الأجنبى ، وكان هذا الضابط قد أخبره جواسيسه منذ الصباح الباكر بأن عدداً كبيراً من المكسيكيين يتألف من ٢٥٠ — ٣٠٠ رجل يضربون فى جوانب القفار ، وعلى ذلك أخذ عدته وتأهب لمقابلة الطوارىء ، فما كاد يبلغه هذا النبأ ، حتى قام مسرعاً وولى وجهه شطر (اللوما دولار يفستا) سالكاً أقصر الطرق ، استمرت رحى الحرب دائرة فى غضون هذه الفترة ، وكان رجال حرس القطار يصوبون باحكام بنادقهم على المكسيكيين ، لابد أن نيرانهم ألحقت بهم أضراراً بالغة ، ويستدل على ذلك من أنهم أرادوا مرارا التخلص من المعركة والهرب من الجبال إلى أسفل لمقابلة رجال الحرس بالقتال المتلاحم ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح ، وقد قام الجندى السودانى (أتوم سودان) بقتل رجلين منهم كانا قد وصلا إلى مكان لا يبعد عنه سوى بضعة أمتار .

قوات العدو تنسحب من المعركة :

وهنا بدأ إطلاق النار من جانب المكسيكيين يبطء إلى أن انقطع تماماً ومع ذلك لم يشأ مسيو (شرر) أن يخرج عن دائرة خطة الدفاع خوفاً من أن يكون انقطاع النيران خدعة مدبرة ، وظل وقتاً ما متربصاً بالعدو ، ثم أرسل رجلين للاستطلاع فعادا وأخبراه بأن المكسيكيين تركوا مواقعهم وعندئذ تسنى لحراس القطار أن يستريحوا ويتنفسوا الصعداء ويحصوا خسائرهم من الجرحى والمصابين حيث أدركت المنية القائد (ليجيه) و (بلال حماد) وسائحاً مكسيكياً ، وقد جرح مسيو (ليونز) مدير مصلحة السكة الحديد والقس (سافللى) كما جرح الملازم (شرر) و (بوتنايل) و ٩ جنود آخرين بجروح أخف من الباقين .

وأبلى المصريون بلاء حسناً :

ولقد أبلى المصريون بلاء حسناً فى هذه الموقعة — رغم عددهم البسيط — وأظهروا من رباطة الجأش ما يندر وقوعه ، وكانوا جميعهم موضع إعجاب الضباط والجنود الذين كانوا يقاتلون إلى جانبهم ، ولم يكن هنالك أدنى شك فى أن النجاح الذى أحرزناه[1] كان يرجع فى معظمه إلى ثباتهم وشدة مقاومتهم — تلك المقاومة الجديرة بالمدح والثناء المستطاب ، خصوصاً أنه اتضح من المعلومات التى وردت بعد.ذلك أن عدد المكسيكيين كان زهاء ٣٠٠ بين مترجل وفارس .

---

(١) ما زال الحديث للقائد الفرنسى العام فى (فيراكروز) .

وعقب هذه المعركة ترقى (بخيت بلدم) العسكرى الأول إلى رتبة الأمباشى و (أتوم سودان) و (إبراهيم عبد الرحمن) و (محمد عبد الله) و (عمر محمد) إلى رتبة عسكرى أول ، وفوق ذلك قدم طلب بمنح (بخيت بلدم) و (أتوم سودان) الوسام العسكرى ، وقد منحا فعلا هذين الوسامين فى أول مارس عام ١٨٦٤ » .

رئيس القـواد

ﻫ : مارشـال

نظر : جنرال اللواء والقومندان السامى فى (أوريزابا)

الإمضـاء

دوموسيـون

تحريراً فى (فيراكروز) ١٨٦٤/٣/٢٤

لم أر فى حياتى جرأة مثل هؤلاء الجنود :

أما فى معركة ١٢ يوليو ١٨٦٤ فقد كتب القائد الفرنسى العام فى تقريره إلى وزارة الحرب الفرنسية — عقب القتال العنيف الذى دارت رحاه فى ذلك اليوم يقول :

« إن هؤلاء الجنود السودانيين والمصريين الذين لا تسمح نفوسهم بالهزيمة يستحقون كل ثناء . . وإنى لم أر فى حياتى مطلقاً قتالا نشب فى سكون عميق وحماسة نادرة فقد كانت أعينهم وحدها هى التى تتكلم ، وكانت جرأتهم تذهل العقول وتحير الألباب ، حتى لكأنهم ما كانوا جنوداً بل أسوداً » .

معركة ١٤ يولية :

أما فى معركة ١٤ يولية ١٨٦٤ ، وأثناء مطاردة فلول العـدو ، يقول القائد العام الفرنسى فى تقريره الرسمى :

« لقد قاتل السودانيون والمصريون قتالا باهرا دام ساعة واحدة ، وليس بين الجنود القدماء من لا يذكر هذا القتال بالإكبار والإعجاب » .

ولقد قام القائد الفرنسى العام بمنح الأمباشى عبد الله حسين باشة وساماً عسكرياً للبسالة التى أبداها فى تلك المعركة والجرح العميق الذى أصيب به وعدد القتلى الذين أجهز عليهم ، ولطعنه بالسونكى جندياً مكسيكياً ، فلما تشبث به رفعه فى الهواء وذراعه غير مثنية وكان عدد هؤلاء الأعداء ستة أمثال عدد جنود الأورطة المصرية — السودانية . .

قائد الأورطة يرفع تقريراً بالمعارك إلى القاهرة :

وقد كتب قائد الأورطة إلى الخديو إسماعيل بالقاهرة — تقريرا بالمعارك العديدة التى خاضت الأورطة غمارها فأرسل إليه الأخير كتابا (فى ١٨٦٤/١٠/٢٤) أظهر فيه رضاه التام عن شجاعتها فيما يلى نصه :

إلى محمد الماس أفندى وكيل الأورطة السودانية — المصرية بالمكسيك « قد عرضت على مسامعنا عريضتكم المحتوية على الأخبار التى حصلت منكم ومن ضباط الأورطة السودانية — المصرية من الثبات والإقدام فى الحرب أمام من قابلكم وما أبديتموه من الشجاعة والمهارة ، وما توجه به الالتفات إليكم من الدولة الفرنسية ولقد ارتحنا غاية

الارتياح لما ظهر منكم ، حيث حافظتم على الشرف الذى حصلتم عليه من الحكومة المصرية واستوجبتم أنتم ومن معكم من الضباط جميع الثناء والحمد على ما بدا منكم ، وأقصى آمالنا حصول ازدياد نشاطكم واجتهادكم مع امتثالكم وانقيادكم للأوامر والتنبيهات التى تصدر من جناب الجنرال قائد الجيش الفرنسى حيث أن حصول سرورنا إنما يكون بحصول سرور الجنرال المشار إليه وسرور الدولة الفرنسية منكم ومن كل أفعالكم وحركاتكم ، فان المودة الأكيدة التى بين الحكومة المصرية والدولة المشار إليها تستوجب حسن المعاملة والمعاونة الصادقة . . وبما أنكم مبعوثون من طرف الحكومة المصرية فيلزمكم بذل كل ما فى وسعكم واقتداركم لحصول على رضاهم ومزيد ارتياحهم . . وإن شاء الله تعالى عند ختام مأموريتكم وعودتكم إلى مصر يكون لدينا لخدماتكم المشكورة حسن الوقع والقبول . ومن سلك مسالك الصدق والاجتهاد يسره بلوغ هذا المأمول . . وقد صدرت أوامرنا على عرائض الضباط الذين ترقوا بدلا من الناقصين ، وها هى مرسلة إليكم لتسلموا كل عريضة إلى صاحبها مع تبليغهم جميعاً شكرنا لحسن صدقهم ، وهذا لزم إصداره » .

قائد الأراضى الحارة : من الصعب العثور على كلام يعبر عن شجاعتهم :

ولقد حدثت خلال أيام ٢١ – ٢٣ – ٢٤ من يناير عام ١٨٦٥ ثلاث معارك كبيرة اشتركت فيها الأورطة المصرية – السودانية ببسالتها المعهودة .

وفيما يلى ما ذكره القائد العام للأراضى الحارة فى تقريره الرسمى عنها :

« من الصعب العثور على كلمات يمكن التعبير بها عن بأس هذه الأورطة البارعة وبسالتها وصبرها على الحرمان واحتمال المشاق وحميتها فى إطلاق النيران وجلدها فى السير فلقد قام كل جندى بواجبه فى هذه المعارك الثلاث بواجبه خير قيام » .

من تقرير القائد المصرى :

أما القائد المصرى للأورطة فيذكر أنه يود لفت النظر إلى ثلاثة من الجنود أصيبوا إصابات شديدة ويستحقون الثناء ، علاوة على ما أبلاه الملازم (فرج الزينى) من البلاء الحسن وكان يقود المؤخرة (فأعاد إلى الذاكرة ما لم تنسه من حماسته وبسالته فى المعارك السابقة) :

كما يضيف القائد المصرى :

« ولقد أصيب الملازم أول (محمد سليمان) بست طلقات نارية فبرهن بذلك على إقدامه ، وهذا الضابط كان قد أنعم عليه بوسام فى ١٢/٢٠ ، وقد أظهر الآن مقدار جدارته واستحقاقه لهذا الإنعام وإنى ألتمس منحه رتبة اليوزباشى » .

الخديو ينعم بوسام على القائد الفرنسى :

ولقد أنعم الخديو إسماعيل بالوسام المجيدى (من الدرجة الرابعة) على الماجور مارشال القائد الفرنسى ،وذلك مكافأة له على عنايته بشئون الأورطة المصرية – السودانية (قبل أن يعلم بوفاته) . .

معركة مارس ١٨٦٥ الطاحنة[1] :

وفى ٢ مارس ١٨٦٥ دارت رحى معركة طاحنة أبلى فيها الجنود المصريون والسودانيون بلاء حسناً مما حدا بالقيادة الفرنسية إلى الإنعام بأوسمة عسكرية مختلفة على كل من : (الأمباشى مرجان كوكو) والجنود (على إدريس وأنجلو سودان وكوكو سودان) .

قائد (الأراضى الحارة) : يا لهم من رجال أبطال يقدسون الواجب :

وكان جنود الأورطة يحتلون منطقة متسعة من الأرض (١٦٠ كم مربعا) – فى سبعة مواقع بعضها ليس به أكثر من ٣٠ جندياً ، مع ذلك فقد استطاعت أن تبعث الخوف والذعر فى قلوب أعدائها ، ويصف قائد الأراضى الحارة هذه الأعمال بقوله :

« يا لها من يقظة ويا لهم من رجال أبطال تملك حب القيام بالواجب أفئدتهم فهم لا ينفكون عن القيام به حتى أنه لم يحدث مطلقاً أن بوغت يوماً جندى منهم فى نوبة حراسته أو وجد غائباً عن مكانه . . وهم من تلقاء أنفسهم يضاعفون الحرس ليلا إلى ثلاثة أمثاله بدون أوامر ليأمنوا أية مباغتة » .

صورة من بطولة الأورطة المصرية السودانية :

فى أغسطس ١٨٦٥ أرسل الملازم صالح حجازى على رأس ٢٠ جندياً من (فيراكروز) لتعزيز أحد المواقع ، وبينما هو وجنوده سائرون انقض عليهم ٢٠٠ مكسيكى – فلم تجزع هذه القوة الصغيرة وأصلت العدو نارا حامية أوقعته فى حيرة وارتباك ثم انتهزت فرصة ارتباك العدو والتجأت إلى احدى المغارات ، ولكن سرعان ما طوقها العدو من كل اتجاه وأخذ فى مهاجمتها ، إلا أنها صدتهم وحالت دون دنوهم منها إلى أن أرسلت إليهم النجدة وفك الحصار عن القوة الصغيرة الباسلة .

الأورطة المصرية السودانية تعاقب الأعداء :

وفى أكتوبر من عام ١٨٦٥ أرسلت سرية (بلوك) لعقاب فرقة من الأعداء يربو عددها على ثلاثة أضعافها ، كانت قد أخرجت قطاراً عن الطريق وذبحت المسافرين به ومن معهم من النساء والأطفال ، فزقتها السرية وولت القوة المعادية الأدبار بعد أن منيت بخسائر فادحة – وقد نوه قائد (الأراضى الحارة) بأسماء كل من الملازم ثان عبد الرحمن مومى ، والأمباشى محمد سليمان والجندى على سليمان لما أبدوه من البسالة والجرأة ، كما نالوا على أثر ذلك أوسمة عسكرية .

القيادة الفرنسية تنشىء فرقة راكبة لحراسة خطوط السكك الحديدية من الأورطة المصرية السودانية :

وقد قررت القيادة الفرنسية – على أثر ذلك – إنشاء كوكبة راكبة مؤلفة من ٥٠ فارساً من جنود الأورطة المصرية – السودانية للقيام بالاستكشاف وحراسة خطوط السكك الحديدية بوجه خاص على أن تعامل معاملة المساعدين من حيث المرتب فيستولى أفرادها على مكافأة إضافية من بلدية (فيراكروز) نظير معاونتهم لشرطة المدينة .

---

(١) قتل القائد الفرنسى العام خلال هذه المعركة .

ولقد ظهرت بعد زمن يسير أصالة هذه الفكرة والفائدة التى أمكن تحقيقها بها ، حيث كان السودانى والمصرى بطبيعتهما — يحبان الفروسية والإقدام ، فأبديا حماسة وجدية وأظهرا كل المؤهلات التى جعلت منهما مثلا حسناً للجنود والفرسان .

الأورطة المصرية السودانية تقوم بحراسة إمبراطورة المكسيك :

وفى غضون شهر ديسمبر ١٨٦٥ أبلغ قائد (فيراكروز) أن إمبراطورة المكسيك ستمر بالمدينة أثناء ذهابها إلى إحدى ولايات المكسيك (ولاية اليقطان) فاتخذ الاحتياطات اللازمة لاستتباب النظام وتأدية المراسم الرسمية لدى وصولها إلى (الأراضى الحارة) .

وفى صبيحة ١٤ ديسمبر من العام المذكور سافر حرس مؤلف من ٣٠ جندياً من الأورطة بالقطار المخصوص الذى ركبه الحاكم والأعيان الذين وفدوا لمقابلة جلالتها .

المدفعية المصرية السودانية تحيى الإمبراطورة :

ولما وصلت الإمبراطورة إلى (فيراكروز) أطلق رجال مدفعية الأورطة بقيادة أحد ضباطها ١٠١ طلقة مدفع إكراماً لجلالتها ، وتألف من الحامية المؤلفة من جنود الأورطة ، وجنود آخرين، صفان من المحطة إلى القصر وأقيم حرس شرف من ٥٠ جندياً من جنود الأورطة فى القصر بقيادة يوزباشى وملازم .

الإمبراطورة تعلن إعجابها بجنود الأورطة :

ولما كانت الإمبراطورة قد عزمت على مبارحة (فيراكروز) فى صباح اليوم التالى فقد سافرت قبلها كوكبة من الفرسان المصريين والسودانيين لاستكشاف وتأمين الطريق ، وعندما عادت إلى مكسيكو أعربت للامبراطور (مكسيمليان) عن رضائها التام وارتياحها لشجاعة الجنود المصريين والسودانيين ومؤهلاتهم العسكرية التى حازت إعجاب جميع رجال البلاط .

الامبراطور (مكسيمليان) يمنح جنود الأورطة راتباً إضافياً :

وهنا أعلن الإمبراطور إعجابه بجنود الأورطة المصرية السودانية — كما أصدر قراراً يقضى بمنح كل جندى من جنود الأورطة يومياً علاوة على راتبه الأصلى قدرها ٣٣,٥ سنتيم كما أنعم على الضباط ببعض الأوسمة المكسيكية .

معركة ٢٥ يولية ١٨٦٦ مفخرة للأورطة المصرية — السودانية :

فى ليلة ٢٥ يولية ١٨٦٦ هاجمت فرقة مؤلفة من ٢٠٠ مكسيكى نقطة يحتلها ٢٦ جندياً من جنود الأورطة المصرية — السودانية ، ورغم أن الهجوم كان مفاجئاً ورغم قلة عددهم بالمقارنة بضخامة أعداد العدو المهاجم ، فقد قامت معركة ضارية استمرت حتى الساعة الخامسة والنصف صباحاً حيث انسحب العدو تاركاً فى المكان تسعة من القتلى وعدداً كبيراً من الجرحى .

ويعلق قائد (الأراضى الحارة) على هذه المعركة بقوله :

ولقد استحقت هذه الأورطة السودانية — المصرية جزيل المدح والثناء لسلوكها العجيب .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٦٦ أقيم استعراض بمناسبة عيد الإمبراطور نابليون الثالث فانتهزت هذه الفرصة للاحتفال بتسليم جنود الأورطة السودانية — المصرية — الأوسمة الفرنسية التى اكتسبتها ببطولتها فى معارك هذه الحرب .

قرار جلاء الجيوش الفرنسية عن المكسيك :

وبحلول عام ١٨٦٧ كان قد تقرر جلاء الجيوش الفرنسية بالمكسيك فأخذت الأورطة فى الانسحاب اعتباراً من ١٨٦٧/١/١٣ وتم جلاؤها فى ٣/١٢ من نفس العام .

الأورطة المصرية السودانية خاضت ٤٨ معركة حربية كبرى :

لقد تم للأورطة المصرية — السودانية خلال الفترة التى قضتها فى المكسيك (من ٢٣ فبراير ١٨٦٣ إلى ١٨٦٧/٣/١٢) أى أربع سنوات وسبعة عشر يوماً خوض ٤٨ معركة حربية كبرى ولم تهزم فى أى معركة على الإطلاق رغم أنها فى جميع المعارك قابلت أعداداً مضاعفة لعدد أفرادها .

أما المدح والثناء الذى وجه إليها من قبل القيادة والحكومة الفرنسية عقب كل معركة فهى كثيرة جداً ويصعب حصرها ، ولقد أوردت (بعض) ما تم على سبيل المثال فحسب — مما يشرف الجندى المصرى والسودانى إلى أقصى درجات التشريف .

الإمبراطور نابليون الثالث يستقبل الأورطة بعد عودتها من المكسيك :

ولقد أبحرت الأورطة من (فيراكروز) فى ١٢-٣-١٨٦٧ حيث وصلت (باريس) فى نهاية أبريل ١٨٦٧ — وكانت فى مدة إقامتها فى باريس تحت قيادة الماريشال قائد الحرس الإمبراطورى الذى قدمها بنفسه إلى الإمبراطور نابليون الثالث ، وعندما استعرضها جلالته فى ١٨٦٧/٥/٢ — فى الثالثة بعد الظهر — كان يرافقه جاهين باشا وزير الحربية المصرى ، وكان يزين صدور عدد كبير من ضباطها وجنودها وسام (لاكرو دى لاليجيون دونير) أو وسام الحرب (وكان هندامهم أنيقا جميلا لا عيب فيه) على حد تعبير الإمبراطور .

الإمبراطور يهنىء قائد الأورطة ببسالة رجاله :

وقبل انصرافهم هنأ الإمبراطور قائد الأورطة (البكباشى الماس) بمقدرة جنوده وعلو همتهم ووزع بيده المكافآت على الجرحى . . أما البكباشى الماس الذى كان قد أنعم عليه برتبة (شيفالييه دى لاليجون دونير) منذ ١٨٦٥/٤/٢٠ فقد منح فى هذا اليوم وسام (لاكرو دوفيسييه) .

ثم غادرت الأورطة فرنسا ووصلت إلى مصر وعددها ٣١٣ بعد أن كانت ٤٥٣ يوم مغادرتها للأراضى المصرية ، وبذلك تكون قد خسرت ١٤٠ شهيداً .

وفى يوم ٢٨ مايو ١٨٦٧ استعرضها الخديو إسماعيل فى فناء قصر رأس التين بالاسكندرية وفى مساء نفس اليوم أقام لها (لطيف باشا) وزير البحرية حفلة خاصة رأسها (شريف باشا) جمعت ضباط الأورطة والضباط الفرنسيين المقيمين بالاسكندرية وحضرها قنصل فرنسا العام وموظفو القنصلية وقائد الأسطول الفرنسى وكثير من عظام الضباط المصريين .

السلطات المصرية تصدر تصديقات بترقية ضباط وجنود الأورطة تقديراً لبسالتهم :

وفى ٢٩-٥-١٨٦٧ أرسل الخديو إسماعيل إلى وزير الحربية أمرا بنفس التاريخ متضمناً الترقيات التى أنعم بها على الضباط والصف والجنود (بمناسبة الخدمات الجليلة القيمة التى قاموا بأعبائها فى المكسيك – تلك الخدمات التى ترفع مجد مصر وشرف جيشها) .

وتقضى هذه الترقيات بترقية الضباط والصف إلى الرتب الأعلى حيث تم ترقية البكباشى محمد الماس قائد الأورطة إلى رتبة الأميرالاى واليوزباشى حسين أحمد إلى رتبة البكباشى والملازم أول فرج عزازى إلى رتبة صاغ قول أغاسى (صاغ) والملازم ثان فضل الله حبيب إلى رتبة اليوزباشى والباشجاويش عبد الله سودان إلى رتبة الملازم أول والجاويش حديد فرحات وحسن أحمد ومرجان سليمان ومسعود طاووس إلى رتبة الملازم ثان .

أما اليوزباشى محمد سليمان (الذى بقى بفرنسا) فقد ترقى إلى رتبة البكباشى ، كما تمت ترقية الملازم أول خليل فنى إلى رتبة (صاغ قول أغاسى) والملازم ثان الفود محمد إلى رتبة اليوزباشى والباشجاويش بخيت براكى إلى رتبة الملازم أول والجاويش فرج أحمد هاشم وفرج بدوى والحاج عبد الله حسين وبشير محمد قبطان إلى رتبة الملازم ثان كما رقى الملازم أول فرج محمد الزينى إلى رتبة صاغ قول أغاسى والملازم ثان محمد على إلى رتبة اليوزباشى والباشجاويش عبده راضى سودان إلى رتبة الملازم أول والجاويش مرجان محمد الجمال وسليمان على الخضرى وبخيت أحمد مرجان شريف وسرور بهجت إلى رتبة الملازم ثان والملازم أول صالح حجازى إلى رتبة الصاغ قول أغاسى والملازم ثان عبد الرحمن موسى إلى رتبة اليوزباشى والباشجاويش عبد الله سالم إلى رتبة الملازم أول والجاويش مرجان سليمان شريف ومرجان على الدناصورى وأبو بكر الحاج محمد وسليم سيد أحمد والبلوك أمين مبروك عبد الله إلى رتبة الملازم ثان[1] .

وفيما يلى نموذج لبراءة الترقية الذى أصدره الخديو إسماعيل بترقية قائد الأورطة :

« افتخار الأكابر المكارم محمد الماس بك الذى كان بكباشى الأورطة المصرية – السودانية التى كانت بمكسيكا ورقى إلى رتبة أميرالاى زيد علوة :

بما أنه من عادتنا المألوفة وسجيتنا المعروفة مكافأة ذوى الاجتهاد وأرباب الصداقة والرشاد وتبليغهم المراد ، وقد سرنى ما بدا فى جهات مكسيكا من الفرقة المصرية التى قت بحسن إدارتها ، وما شهدت به لها الألسن فى ميادين القتال من براعتها فى فنون الحرب ومهارتها فى إعلاء لشأن الراية العسكرية وإعلانا لشرف العساكر المصرية مع غربة الأوطان وتباعد المكان ، وسرنى أيضاً ما ثبت لها من الأخلاق البهية والسيرة المرضية والاستقامة الكلية ، كما سرنى الآن عودة هذه الفرقة للديار رافعة أعلام الفخر والمسرة والاستبشار فشرفتك برتبة أمير الاى تكريماً لشأنك وإعلاء لقدرك بين إخوانك وخلانك وتحسيناً لخدمتك التى أديتها ومكافأة لك لحسن همتك التى أبديتها وإعلاماً بمزيد التفانى إليك وترادف حسن إنتظارى عليك ، فاعرف لهذه النعمة حق قدرها ودم على ما عهد فيك من الصداقة والاستقامة قياماً بشكرها واجتهد فيما يزداد به حسن حالك ومآلك وترقيك فى بلوغ آمالك إلى غاية كمالك » .

---

(١) وفى ٢/٩/١٨٦٧ وصل إلى الإسكندرية الجنديان (ادريس محمد ورزق الله أحمد) اللذان كانا أسيرين لدى العصابات المكسيكية وأطلق سراحهما ، وقد تمت ترقيتهما إلى رتبة الجاويش – كما عاد فى ٢٥/٦/١٨٦٧ – (من فرنسا) الجندى نسيم سليمان الذى كان يعالج بمستشفى باريس .



الباب الخامس

معـارك الثورة العرابية

المؤرخ العسكرى : محمد فيصل عبد المنعم[1]

---

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العرابية » دار التعاون – القاهرة ١٩٨٤ .

الفصل الأول

احمد عرابى فى دائرة الضوء

تمهيــد سياسى لابد منه :

قبل أن نتناول أحداث الحرب العرابية بالتحليل والتعليق . نرى لزاما علينا أن نبدأ بهذه المقدمة التى لابد منها . لنلقى ضوءاً مركزاً على الأحداث السياسية التى سبقت اندلاع الحرب بين العرابيين وبين الجيوش البريطانية والتى انفجرت شرارتها صبيحة يوم الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٨٨٢ .

فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ ، تقلد « محمد توفيق » منصب الخديوية فى فترة مظلمة من تاريخ مصر ، بعد أن أقصى أباه اسماعيل عن الحكم بسبب فتحه باب التدخل الأجنبى لبريطانيا وفرنسا فى الشئون المصرية على مصراعيه . . وبذلك هيأ للانجليز الإعداد لخطتهم المبيتة من قبل لاحتلال البلاد .

ولمــا كان الخديو (توفيق) رجلا مستبداً ضعيف الشخصية فقد كان أول الأعمال التى قام بها عقب توليه السلطة أن انتزع رئاسة الوزارة لنفسه بعد أن دفع « شريف باشا » إلى الاستقالة ثم أعقب ذلك بإصدار مرسوم فى ٤-٩-١٨٧٩ بإعادة الرقابة الثنائية وتعيين اللورد « كرومر » مفتشا للإيرادات ، والمسيو « دى بليتيير » رقيبا على الحسابات والدين العمومى .

ولم يترك الخديو رئاسة الوزارة إلا بعد أن أسندها إلى الرجل الذى يطمئن إليه وهو « مصطفى رياض » . وذلك فى ١٨٧٩/٩/٢١ الذى زاد بدوره من سلطة الرقيبين وهيأ لها مناخ التدخل فى كافة شئون مصر الداخلية .

بداية ظهور الحــركة العرابيــة :

وهكذا مهدت الأحداث والمظالم لظهور الحركة العرابية ، وذلك بالإضافة إلى ما انتهجته وزارة « رياض » من ممارسة التفرقة فى المعاملة بين الضباط المصريين والأتراك والشراكسة وتفضيلهم ومحاباة « عثمان باشا رفقى » — وزير الحربية آنذاك — لهم وتقليدهم أعلى المناصب وغير ذلك من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وانعدام العدل والقانون ، إلى جانب الاستخفاف بحقوق الشعب .

وقفــة عابدين :

لقد بلغت الثورة الشعبية والتى عبر عنها أحمد عرابى بمطالب الشعب والجيش فى وقفة عابدين الشهيرة ، والتى سيأتى ذكرها تفصيلا فى غير هذا المكان — بلغت الثورة الشعبية أوجها ، الأمر الذى نتج عنه سقوط وزارة « رياض باشا » وتأليف تلك الوزارة التى بادرت إلى وضع اللائحة الأساسية أو (الدستور) المصرى .

وهل يرضى ذلك دول الاستعمار ؟! :

وهنا بدأت الدولتان فى التحرك ، حين توجه السير (أدوارد ماليت) — معتمد بريطانيا — والمسيو سنكفكس — المعتمد الفرنسى إلى سراى عابدين ليقدما سوياً مذكرة مشتركة من دولتيهما إلى شريف باشا ، مؤرخة بتاريخ ٧ يناير ١٨٨٢ وجاء فيها :

« كلفتم غير مرة أن تنهوا إلى علم الخديو وحكومته إرادة فرنسا وانجلترا وعملهما على تأييده للتغلب على الصعوبات المختلفة التى قد تعترض انتظام الشئون العامة فى مصر .

إن الحكومتين على تمام الاتفاق فى هذا الصدد وان الحوادث الأخيرة ، وبخاصة الأمر الصادر عن الخديو بإجتماع مجلس النواب ، قد هيأت الفرصة لزيادة تلك الصعوبات .

فالمرجو أن تبلغوا الخديوى توفيق باشا بالاشتراك مع السير « أدوارد ماليت » الذى كلف بمثل ما كلفتم به ، بأن الحكومتين الفرنسية والبريطانية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقاً لأحكام الفرمانات التى قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد فى الوقت الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام والتقدم وسعادة مصر ورفاهيتها التى يهم انجلترا وفرنسا أمرها .

والحكومتان متفقتان اتفاقاً وطيداً على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر ولايخامرهما شك فى أن الجهر بعزمهما فى هذا الصدد سيكون له أثر فى اتقاء الأخطار التى يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو ، ومن المحقق أن هذه الأخطار التى يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحاداً وثيقاً للتغلب عليها ، وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو سيجد فى هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة إليها لإدارة شئون الشعب المصرى والبلاد المصرية .

محمود سامى البـــارودى يؤلف الوزارة :

وهكذا ظهرت نية الدولتين الاستعماريتين وكشفتا النقاب — ببساطة ووضوح — عن رغبتهما فى منع قيام نظام برلمـــانى يجسد إرادة شعب مصر ، فى ذات الوقت إشعار الخديو « توفيق » بأنه مؤيد من قبل الدولتين الكبيرتين فى وقوفه ضد الجيش المصرى والحركة الشعبية والوطنية . وكان طبيعيا أن يستقيل شريف باشا فى ٢ فبراير ١٨٨٢ ووقع الاختيار على محمود سامى البارودى رئيساً للوزارة وكان هذا فى حد ذاته انتصارا حاسما للجيش المصرى وإقصاء تاما لسلطة الخديو ، فقد أصبح « عرابى » وزيرا للحربية وصدر المرسوم الخديو بالدستور فى ٧ فبراير والذى زاد بدوره من سخط بريطانيا وفرنسا ، وهنا بدأت الأولى تدبير مخططاتها العدوانية ضد مصر .

لمـــاذا فقد الاستعمار صـــوابه ؟! :

فى شهر أبريل ١٨٨٢ . حدثت مؤامرة الضباط الشراكسة التى هدفت إلى اغتيال « عرابى » والتى صدر فيها الحكم العسكرى بنفى ٤٠ ضابطا إلى السودان وامتناع الخديو عن التصديق على الحكم بناء على رأى قنصلى انجلترا وفرنسا ، وقد أدى هذا الحادث إلى وقوع خلاف بين الوزارة والخديو ، حيث رأى الوزراء أن الخديو قد نزل على إرادة قناصل الدول وأهمل رأى الوزراء فقرر مجلس الوزراء دعوة النواب متحديا فى ذلك الخديو ،

ومتخذا الخطوات التي قد يترتب عليها خلع الخديو إذا ظل متمسكا بموقفه ولقد أشار مسيو « سنكفكس » في برقية له إلى وزارة الخارجية في ١٠ مايو ١٨٨٢ قائلا : « عندما تكلم بعضهم مع عرابي عن الأمير حليم باشا صاح غاضبا بأنه من الواجب التخلص من أسرة محمد علي كلها » .

بوارج الدولتين في ميـــاه الإسكندرية :

وكانت الأنباء قد تواترت — في أثناء تفاقم الخلاف بين الخديو والوزارة — عن اعتزام انجلترا وفرنسا إرسال أسطوليهما إلى الإسكندرية ، واستغلت الدولتان هذه الخلافات وتذرعتا بحجة حماية رعاياهما من الأخطار التي قد يستهدفون لها — والذين يمثلون أغلبية الجالية الأجنبية (٩٠ ألفا) — واتفقتا على أن ترسل كل منهما ست بوارج إلى المياه المصرية ، وذلك على الرغم من انتهاء الخلاف بين الوزارة والخديو في ١٥ مايو ١٨٨٢ .

وتحولت لغة الدولتين إلى التهديد والوعيد على أثر وصول الأسطولين ، وبدأتا بطلب استقالة وزارة البارودي وخروج « عرابي » من القطر المصري في بلاغ مشترك نهائي تقدمت به الدولتان إلى الحكومة المصرية في ٢٥ مايو ١٨٨٢ .

وانه لمن الأمور المثيرة للسخرية . . أن يوافق الخديو « توفيق » على مطالب الدولتين في سعادة وغبطة ، في حين رفضت الحكومة المصرية إجابة هذا البلاغ ، لتعلن حكومة البارودي استقالتها يوم ٢٦ مايو احتجاجا على هذه المطالب الجائرة ، وعندما تكفهر الأمور ، يقوم الخديو — مضطرا — بإعادة « أحمد عرابي » إلى وزارة الحربية رئيسا للجيش ، ليصبح بذلك المسيطر الأول على مقاليد الأمور في مصر .

ويتضح للمسيو « فريسنيه » — رئيس وزراء فرنسا — أن بريطانيا تبغي الانفراد بالعمل في مصر لتنفيذ حلمها القديم في احتلال البلاد ، فيدعو إلى عقد مؤتمر دولي لبحث ما أسمي آنذاك بالمسألة المصرية ، وهنا لا يجد اللورد « جرانفيل » — وزير خارجية بريطانيا — مفراً من قبول تلك الدعوة الإجبارية .

وفي السابع من يونيو . . بينما الأحداث تتدافع في اتجاه الأزمة الوشيكة . . وصل « درويش باشا » المعتمد العثماني السامي إلى مصر سعيا من الحكومة التركية لإعادة الأمور إلى نصابها في مصر ولمنع تدخل بريطانيا في أمورها الداخلية .

لمـــاذا انضم « درويش » إلى الخديو ؟! :

وجاء درويش باشا إلى مصر ليرى بعيني رأسه المياه المصرية وهي تعج ببوارج الأسطولين البريطاني والفرنسي ، ولكن الجنيهات الذهبية (التي بلغت خمسين الفا) والتي منحها له الخديو « توفيق » أثرت على آرائه وطمست بصيرته ، فانضم إلى جانب الخديو ، ووجه النصح إلى « عرابي » بالذهاب إلى الآستانة لمقابلة السلطان .

مذبحـــة الإسكندرية :

وسرعان ما تتطور الأحداث بعد ذلك . . إذ لم يكد يمضي على حضور درويش باشا إلى مصر بضعة أيام ، حتى حدثت مذبحة الإسكندرية في ١١ يونية ١٨٨٢[1] وكانت نذيرا بإخفاق مهمته وعودته إلى الآستانة في ١٩ يولية ١٨٨٢.

---

(١) بدأت المذبحة في صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين وبين مالطي من سكان الثغر من رعايا الانجليز وانتهت بقتل الوطني ، مما ترتب عليه اصطدام الوطنيين بالأجانب ليسقط الكثير من الجانبين .

وجدير بالذكر أن تلك المذبحة المشئومة حدثت لأسباب عديدة ليس هنا مجال إثباتها ، وان كنا نرى أن وجود الأساطيل البريطانية والفرنسية فى مياه الإسكندرية وما نتج عن ذلك من تكدس الجاليات الأجنبية فى الإسكندرية بالقرب من الأساطيل التماسا لحمايتها قد ساعد على إثارة مشاعر المصريين ضد الأجانب ، خاصة بعد أن قرر قناصل الدول الأجنبية فى الثغر البدء فى إقامة قوة دفاع أوروبية فى الإسكندرية وإمدادها بالذخائر والأعتدة من أوروبا استعدادا لخوض غمار الحرب ضد الأهالى والوطنيين .

ووسط هذا الجو المكفهر والمشاعر المضطربة ، حدثت مذبحة الإسكندرية التى قتل فيها أكثر من خمسين شخصا أجنبيا ومصريا ، والتى أعقبها تدعيم قوات الجيش فى الإسكندرية ، حين أرسل إليها أحمد عرابى الآلاى الثانى والرابع بقيادة طلبة باشا عصمت الذى تولى منذ ذلك الحين قيادة قوات الإسكندرية الدفاعية .

الخـــديو بعيداً عن شعبه ! :

من عجب أن يقوم الخديو « توفيق » بالتوجه إلى الإسكندرية يوم ١٣ يونية أى بعد المذبحة بيومين فحسب — ليكون على مقربة من الأساطيل الأجنبية والتمـاسا لحمايتها — ولست أجد خيرا مما كتبه « مسيو فريسنييه » وقتذاك بهذا الخصوص ، يقول :

« كانت رغبة الخديو متجهة منذ وصول الأساطيل الإنجليزية والفرنسية إلى الاتجاه للاسكندرية ليكون على رأس حكومته قريبا من وزرائه ليتسنى له توجيه أفكارهم وملاحظتهم ، ولكن مذبحة الإسكندرية مثلت له فرصة يحقق فيها رغبته ، وقد زعم أنه قصد لها بحجة تدارك الخطر على الرغم من أن النظام والهدوء كانا قد عادا إلى حالتهما الطبيعية » .

صـــورة النفاق البريطـــانى :

ظلت البلاد بلا وزارة — منذ استقالة وزارة البارودى فى ٥/٢٦ مما اضطر الخديو إلى تأليف حكومة جديدة برئاسة « اسماعيل راغب باشا » الذى لم يعرف عنه الولاء للخديو ، وتألفت هذه الوزارة بالفعل فى ٦/٢٠ وبقى فيها « عرابى » وزيرا للحربية والبحرية .

وفى ٦/٢٣ انعقد بالآستانة مؤتمر يضم سفراء الدول العظمى الست (انجلترا — فرنسا — ألمـــانيا — النمسا — روسيا إيطاليا) لبحث المسألة المصرية وفى ٦/٢٥ تم توقيع (ميثاق النزاهة) الذى جاء فيه :

« تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحدث بشأن تسوية المسألة المصرية ، لا تبحث عن احتلال أى جزء من أرض مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى » .

ومن الغريب أن انجلترا فى ذات الوقت الذى وقعت فيه على هذا الميثاق ، كانت تعد العدة لاحتلال مصر غارقة — حتى أذنيها — فى اتخاذ الاجراءات الحربية لحشد أساطيلها المدرعة للابحار إلى مياه الإسكندرية ، وجدير بالذكر أنه لم يمض على توقيع « ميثاق النزاهة » هذا أكثر من ستة عشر يوما حتى كانت مدافع الأميرال (بوشوب سيمور » تقصف مدينة الإسكندرية فى قسوة ووحشية بالغة .

الفصل الثانى (*)

انظار بريطانيا على مصر !

وتتساءل هنا . . عن الأسباب الحقيقية التى دعت الدولتين . . بريطانيا وفرنسا إلى إرسال أساطيلهما إلى مياه الإسكندرية فى هذا الوقت بالذات . . ونحاول فى الوقت ذاته تقديم إجابة موجزة بقدر ما يمكن قبل أن نبدأ التعرض للجانب العسكرى .

خوف بريطانيا من يقظة مصر :

لم تكن بريطانيا قد نسيت بعد ما قامت به القوات المسلحة المصرية قبل ٤٠ عاما - فى عهد محمد على - من تسجيل انتصارات مدوية أذهلت أوروبا ولفتت الأنظار بشدة إلى هذه الدولة الفتية التى اقتحمت مسرح الأحداث فى آسيا الصغرى بجرأة وكفاءة شهد بها الجميع ، لقد أيقنت أوروبا آنذاك أن هذه الدولة الفتية - مصر - يمكن أن تكون ذات تأثير بالغ فى [illegible] الأمور والسياسة الدولية بأسرها فيما لو أحسن قيادتها واستغلت قواتها المقاتلة لخدمة قضايا الحرية والاستقلال .

ولكن بعد أن أمكن لبريطانيا تحطيم الأسطول المصرى الحديث فى موقعة « نفارين » البحرية فى محاولة لقص أجنحة مصر ، تعاقب على حكم البلاد أبناء محمد على الذين أشاعوا فيها الفساد والاضمحلال وما تبع ذلك من تفكك فى كافة شئون البلاد ومن ضمنها الحياة النيابية وشئون الدفاع .

لهذا لم يكن غريبا أن بدأت نذر العاصفة تتجمع - اعتبارا من عام ١٨٨٢ حينما بدأت الجماهير المصرية تتطلع إلى الحرية والاستقلال وتحقيق نوع من الحياة النيابية مع الرغبة فى زيادة عدد الجيش والعناية بأمره وتقويته ، إلى جانب التخلص من نفوذ الأجانب فى مصر - ذلك النفوذ الذى كان قد تزايد بصورة خطيرة فى أعقاب عزل « اسماعيل » عن العرش وتعيين مندوبين أحدهما بريطانى والآخر فرنسى لمراقبة الخزانة المصرية المفلسة .

وحقاً . كانت التركة التى خلفها « اسماعيل » مثقلة . . فالخزانة خاوية ، ونظام الجيش مضطربا تماماً ، وطبقات المجتمع غير مستقرة من جراء ما يعانيه الفقراء من ظلم الحكام ، علاوة على كساد التجارة وسط هذا الخضم المضطرب .

« كرومر » يكشف عن مخاوف بلاده :

ان اللورد « كرومر »[1] يكشف عن مخاوف بلاده منذ بداية اليقظة السياسية والعسكرية فى مصر ، فكتب :

« إن عادة الطاعة التى ورثها المصريون عن آبائهم الأولين كانت قد تغيرت تماماً حتى صار من الصعب تهدئة

(*) محمد فيصل عبد المنعم « معارك الثورة العرابية » - دار التعاون - القاهرة ١٩٨٤ .

(١) فى كتاب (مصر المعاصرة) « Modren Egypt » .

الغليان الذى فى نفوسهم وحتى أصبحت الحالة عام ١٨٨١ — تنذر بوقوع انهيار سريع وأصبح من المتوقع قيام ثورة فى البلاد حيث أصبح المصريون فى ذلك الوقت فى مفترق الطرق . وحان الوقت لأن ينظروا فيما إذا كانوا يصبحون أحسن حالا إذا أشعلوا هذه الثورة لتحقيق ما تعذر عليهم تحقيقه من مطالبهم التى تشتمل على أمان وطنيه » .

سليل الفلاحين يتبنى مطالب الشعب والجيش :

يكتب اللورد كرومر :

إن أحمد عرابى المصرى سليل الفلاحين وقائمقام الآلاى الرابع بالجيش هو الذى سارع إلى قيادة هذه الحركة التى بدأت بتقديم عريضة المطالب إلى « رياض باشا » — رئيس الوزراء — والتى اتهمت « عثمان رفقى باشا » — وزير الحربية — بظلم المصريين المستحقين الترقية ومعاملتهم كأعداء له (حتى كأن الله قد أرسله ليصب نقمته عليهم) ، إلى جانب فصلهم من الجيش دون تحقيق قانونى ، وهكذا ختم الشاكون العريضة بالتماس مطلبين : أولهما : عزل وزير الحربية (لعدم صلاحيته لتبوأ مركزه الكبير) . والثانى : اجراء تحقيق للتثبت من أهلية الذين تمت ترقيتهم واستحقاقهم لها قائلين : « ان مناط الترقية هو الكفاءة والمعرفة . . وكفتنا فى هذه الناحية ترجح كثيرا كفة الذين ظفروا بها دوننا » :

ونقترب رويداً من الإجابة على التســاؤل :

ما زلنا نتابع أقوال اللورد « كرومر » الذى يقول :

فى ١٨٨١/٩/٩ صدرت الأوامر بنقل آلاى البيادة (المشاة) الثالث من القاهرة إلى الإسكندرية ، فأدت هذه الأوامر إلى العصيان وسار « عرابى » فى ألفين وخمسمائة جندى و ١٨ مدفعا إلى ميدان « عابدين » ولجأ الخديو وكان وقتذاك فى سراى الإسماعيلية — التى تبعد ربع ميل عن قصر عابدين — إلى أفضل الحلول فى ذلك الظرف العصيب وهو استدعاء السير « أوكلند كولفين » ليقف إلى جانبه — ذلك الانجليزى الذى يدين فى عمله بالمبدأ القائل (ان المــاء الهادىء لا يوجد إلا فى الأعماق) ان روح هذا الإنجليزى سمت عالية فى ساعة الخطر خاصة وانها ليست المرة الأولى التى يسمع فيها عن تمرد أو عصيان .

وكانت مهمته واضحة . . إذ يجب عليه أن يخاطر بروحه ويقف إلى جانب الخديو فى مأزقه ليضفى عليه شيئاً من هذه الروح الإنجليزية التى كونت — على الزمن — عنصره المتسلط الممتاز .

ويصف لنا « كولفين »[1] ما حدث فى وقفة عابدين الشهيرة قائلا :

« لقد طلب الخديو مشورتى ، فنصحته بأن يسبق خصومه فى العمل . . وبأن يستدعى الآلايين الموالين له (أى الخديو) مع من يمكن جمعهم من رجال البوليس المسلحين ويقف على رأس هذه القوة ثم يقبض على « عرابى » فور حضوره ، ولكن الخديو أجابنى بأن رجال المدفعية والسوارى (الفرسان) مع « عرابى » قد يطلقون النيران . .

---

(١) المستشار البريطانى للمالية المصرية فى عهد الخديو ، عين بهدف السيطرة التامة على شئون مصر المــالية بحسب أهواء الاحتلال البريطانى وأغراضه دون مراعاة لمصالح البلاد .

فرددت عليه بأنهم لن يجرؤوا على هذا وأنه يجب عليه امتلاك زمام المبادرة ليتجح فى قهر العصاة وإلا فهو ضائع لا محالة وقد أيدنى « ستون باشا » الأمريكى بحرارة ووصل السير « تشارلز كوكسن » أثناء قدوم الخديو بعربته وعبر هو الآخر عن موافقته على آرائى ثم عاد إلى الوكالة البريطانية ليبرق إلى لندن بما حدث .

ركبت عربة خلف الخديو وركب الوزراء أيضاً . كما ركب خمسة أو ستة ضباط مصريين فى عربة « ستون باشا » وذهبنا أولا إلى معسكر عابدين حيث خرج آلاى الحرس هاتفا بأحر عبارات الولاء للخديو ، ثم استأنفنا السير إلى القلعة وهناك رحب بنا الآلاى الموجود بها ترحاب آلاى الحرس ، وكانت الساعة وقتذاك قد بلغت الثالثة والنصف بعد الظهر ، فألححت على الخديو بالعودة إلى القصر مستصحبا آلاى القلعة على أن يرأس هذه القوة بعد ضم آلاى الحرس والبوليس الحربى إليها ، ولكنه سار قدما إلى العباسية حيث عرفنا أن « عرابى » قد سار بآلايه إلى عابدين ، فرجعنا إلى المدينة ودخل الخديو القصر من أحد أبوابه الخلفية ، حيث قفزت من العربة ورجوته عدم البقاء فيه والخروج تواً إلى الساحة فخرجنا إليها معاً وجاء فى أثرنا خمسة من الضباط المصريين و « ستون باشا » وضابط أو اثنان من الضباط الأوروبيين .

يقـــول « كولفين » :

« كانت الساحة مكتظة بالجنود المصطفين حتى أطرافها ليذودوا عنها الجماهير ، ودلف الخديو فى شىء من الثبات متجها إلى الضباط فى وسط الساحة . وكان بعضهم مترجلا والبعض الآخر راكبين . فقلت له (إذا وفد « عرابى » عليك فاطلب منه سيفه واعط الأمر إلى من معه بالتفرق والانصراف ، ثم در حول الساحة وكلف كل آلاى بالانصراف على حدة) .

ووصــــل عرابى على صهوة جواده :

« وهنا تقدم « عرابى » على صهوة جواده ، فأمره الخديو بالترجل ، ففعل وتقدم لتأدية التحية العسكرية ومن خلفه عدد من الضباط وحارس شرع السونكى على طرف بندقيته ، وفى تلك الآونة همست فى أذن الخديو : (هذه لحظتك) . فأجابنى : (نحن بين أربعة جدران) . فقلت له : (تشجع) ولكنه مال على ضابط مصرى ليأخذ رأيه ، وإذا به يكرر عبارته السابقة قائلا : « ماذا يمكننى عمله ؟ نحن بين أربعة جدران ، ولا شك أننا مقتولون » .

الخديو يطلب من عرابى إغماد سيفه :

ثم التفت الخديوى إلى (عرابى) وطلب منه إغماد سيفه فأغمده ثم سأله عن معنى حركته . فأجابه (عرابى) بأن الجيش قد جاء إلى هذه الساحة باسم الشعب الذى يمثله ، لذا فهو باسم الشعب المصرى يصر على تحقيق مطالب ثلاثة لن ينصرف بقواته قبل اجابتها .

وهنا نظر إلى الخديو قائلا : (هل سمعت ما يقول ؟!) . فنصحته بالعدول عن مناقشة مثل هذه المسائل مع قائمقامات جيشه ، واقترحت عليه أن يرجع إلى القصر ويتركنى لمعالجة الموقف فرضخ لرأيى .

وناقشت « أحمد عرابى » :

يقول « كولفن » :

وبقيت أناقش « أحمد عرابى » محذراً إياه من خطورة الموقف بالنسبة له ولأعوانه موضحاضرورة انصراف الجنود قبل فوات الأوان . . وبعد ساعة تقريبا حضر المستر « تشارلز كوكسن » ووقف إلى جانبى أثناء المناقشة .

أما مطالب « عرابى » الثلاثة التى أشار إليها فى حديثه مع الخديو فكانت : — اسقاط وزارة « رياض » بأكملها ودعوة البرلـــان للانعقاد وأخيراً زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندى .

وبعد انتهاء المناقشة استأنفها « السير تشارلز » مع « عرابى » و (العصاة) بعض الوقت وانتهى الأمر بموافقة الخديو على عزل الوزارة بشرط تأجيل المطلبين الباقيين إلى ما بعد الرجوع بشأنهما إلى الباب العالى ، فوافق « عرابى » على ذلك .

مشـــكلة جـــديدة :

« غير انه قامت مشكلة أخرى حول الرجل الذى يرشح لرئاسة الوزارة وذلك لأن « عرابى » وأتباعه رفضوا اسما أو اسمين عرضهما الخديو عليهم ، ومع ذلك لم يكد هذا يبدى استعداده لدعوة « شريف باشا » لتأليف الوزارة ، حتى قوبل تصريحه بالهتاف لحياته ، وسارع « عرابى » وزميلاه إلى التماس مقابلة الخديو لتجديد ولاءهم له ، فأذن بذلك ، وانصرف الجيش عقب ذلك إلى معسكراته فى هدوء » .

إلى هنا تنتهى « وقفة عابدين » من وجهة نظر الدبلوماسيين البريطانيين « لورد كرومر » و « أوكلند كولفن » .

وقامت قيـــامة الاستعمار ! :

ولكن على الرغم من أن « كولفن » يقول فيما كتبه : أن الجيش قد انصرف من ميدان عابدين فى هدوء ، إلا أن المطالب التى عرضها « أحمد عرابى » هى التى أقضت مضجع بريطانيا العظمى — ومعها فرنسا — وهكذا وجدت بريطانيا أنه لكى تمنع تلك الانتفاضة الشعبية المدعمة بالجيش وقائده ، فلاسبيل أمامها إلا بالاتفاق — على مضض — مع فرنسا لإرسال أسطوليهما إلى مياه الإسكندرية . وبذلك تظهر « العين الحمراء » لعرابى ورفاقه ممن أسمتهم منذ تلك اللحظة (العصاة) .

« كولفن » : فرصـــة لالتقاط الأنفاس :

وتوضح كلمات « أوكلند كولفن » نوايا بريطانيا التى كان من المستحيل عليه اخفاؤها فى تلك المرحلة التى بدا له فيها نمو وتعاظم القوى الشعبية فى مصر والتى بدأت تحركها وتساندها قواتها المسلحة وعلى رأسها الزعيم « أحمد عرابى » الذى بدأ المصريون ينظرون إليه منذ تلك الآونة نظرة ملؤها الرجاء والأمل فى مستقبل أفضل بعيداً عن الاستعمار ومخالبه الحادة .

يكتب (كولفن) قائلا :

« إن رأيي في الموقف كان يتلخص في أنه أصبحت أمامنا مجرد « هدنة » مؤقتة ، تسمح لنا بالتقاط الأنفاس واستكشاف ما يحيط بنا في أعقاب ذلك الاتفاق الهش الذي تم بين الخديو وبين « عرابي » ، أما رأيي الشخصي فكان يتركز في أن التوصل إلى تسوية نهائية لن تتحقق إلا بالإستناد إلى ما يلي :

– تشتيت الجيش المصري بنقل وحداته إلى مناطق نائية .

– حمل الأعضاء الأعيان على الاعتدال في مطالبهم .

– حزم الوزراء في تعاملهم مع الجيش والأعيان على السواء .

وفي يوم ١٨٨١/١٢/٢٦ ، يرسل السير « أوكلند كولفن » مذكرة إلى حكومته يبدي فيها تخوفه من قيام حركة نيابية في مصر قائلا : انه إذا ظفر مجلس النواب المصري بحق التصويت على الميزانية أو بمعنى آخر ، بحق الرقابة على مالية البلاد ، فإن مركز رقابة الدولتين (إنجلترا وفرنسا) سيضعف كثيراً وأن من واجبه (أي كولفن) أن يجعل « شريف باشا » – رئيس الوزراء آنذاك – يدرك تماماً بأن واجبه هو عدم تشجيع أي (عدوان)من الوطنيين (المصريين) على الإدارات الأوروبية ، بل ومقاومة مثل هذا التدخل المصري إذا وقع ، حيث أن الدولتين لن تقفا جامدتين حيال أي نوع من العدوان .

السيطرة على قنـــاة السويس ! :

كذلك لا يمكننا إغفال أطماع بريطانيا في تلك الحقبة التاريخية في السيطرة على الضفة الشرقية لقناة السويس ، بعد أن تحكم السيادة على الضفة الغربية لها في مصر ، للدرجة التي اقترح فيها الكولونيل « مايتز تشاجن » – سكرتير اللورد اللنبي في فلسطين – ضمن رسالة منه إلى « لويد جورج » عام ١٩١٧ ضرورة السيطرة على سيناء المصرية وضمها إلى فلسطين حتى تصبح القناة تجري « في أرض بريطانيا على كلا الجانبين الشرقي والغربي » ، باعتبار أن ذلك يعطي بريطانيا مركزاً قوياً في منطقة الشرق الأوسط مع وجود اتصال سهل بين البحرين الأبيض والأحمر ، ولم ينس « تشاجن » أن يؤكد في ختام تقريره الذي أرسله بناء على طلب رئيس الوزراء البريطانية ، على أن هـــذا الضم من شأنه العمل على إحباط أية محاولة مصرية ترمي إلى إغلاق قناة السويس في وجه الملاحة البريطانية إلى الهند – درة التاج البريطاني وأكبر مستعمراتها في الشرق .

الفصل الثالث

ضرب الاسكندرية (*)
١١ يولية ١٨٨٢

حالة الدفاع عن مدينة الإسكندرية

اثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨) على مصر شيد الفرنسيون الحصون المختلفة على ساحل مدينة الاسكندرية لحمايتها من الاعتداءات الخارجية وفيما يلي بيانها :

الحصون :

١ ــ حصن « كوم الدكة » :

وكان قائماً إلى عهد قريب بجوار محطة السكة الحديد ، وسماه الفرنسيون « حصن كريتان » تخليداً لذكرى المهندس الحربي الفرنسي القائمقام « كريتان » الذى أشرف على بنائه ثم قتل فى معركة أبي قير .

٢ ــ حصن « كوم الناضورة » :

ولايزال باقياً حتى اليوم وقد أطلق عليه الفرنسيون حصن كافاريللي وذلك نسبة إلى الجنرال «كافاريللي» الذى كان مشرفاً على الأعمال الحربية الهندسية ، وفقد إحدى ساقيه قبل حضوره إلى مصر ولذلك سماه المصريون « أبو خشبة » :

٣ ــ حصن « لوتورك » :

وأقيم غربي الحصن السابق على شاطىء البحر (مكان طابية صالح فيما بعد) .

٤ ــ حصن كليوباترا :

وكان يقوم على المرتفعات التى يقوم عليها المستشفى الأميرى حالياً .

المدافــــع :

علاوة على تلك الحصون ، فقد أقام الفرنسيون ابان الحملة الفرنسية صفوفاً من المدافع (البطاريات) وذلك فى المواقع التالية :

١ ــ بطارية رأس التين (مكان طابية الفنار فيما بعد) .

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العرابية » ــ دار التعاون ــ القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢ — بطارية شمال رأس التين (مكان طابية سراى رأس التين فيما بعد) .

٣ — بطارية « منهد » :

٤ — بطارية فى موقع (الأطة) الحالية .

حالة الدفاع عن الإسكندرية فى عهد محمد على :

وكان محمد على والى مصر بعد ذلك قد عهد إلى « جاليس بك » مهمة القيام بتحصين المدينة ، ويمكن بالرجوع إلى وثائق الملازم « نجنت Nugent » (من رجال البحرية البريطانية) أن تتبين حالة الدفاع عن المدينة فى عهد محمد على — عام ١٨٤٠ — وذلك على النحو التالى :

مسلسل	الحصـــن	مدافع	هاونات	الجملة
١	طابيـــة السلســـلة	٦	—	٦
٢	طابيـــة قبـــور اليهـــود	١٠	—	١٠
٣	طابيـــة كـــوم الدكـــة	٦	٣	٩
٤	طابيـــة كـــوم الناضـــورة	١٢	٤	١٦
٥	طابيـــة قايتبـــاى	٢٠	١٢	٣٢
٦	طابيـــة الأطـــة	١٠	١	١١
٧	طابيـــة رأس التـــين	٤٦	١٧	٦٣
٨	طابيـــة فنـــار رأس التـــين	٣٣	١٠	٤٣
٩	طابيـــة صـــالح أغـــا	١٥	٣	١٨
١٠	طابيـــة أم قبيبـــة	٣٠	—	٣٠
١١	طابيـــة القمـــرية	١٠	٣	١٣
١٢	طابيـــة الملاحة القديمـــة	١٠	—	١٠
١٣	طابيـــة الملاحة الجديدة	٣٤	—	٣٤
١٤	طابيـــة الدخيـــلة	١٠	٣	١٠٣
١٥	طابيـــة جزيرة العجمى (المرابط)	٨	٣	١١
١٦	طـــوابى دائـــرة الســـور	٧٠	—	٧٠
	الجمـــلة	٣٣٠	٥٩	٤٧٩

حسن باشا الإسكندرانى يدعم طوابى الاسكندرية :

وبعد عام ١٨٤٠ ، إزداد عدد تلك الحصون والطوابى الساحلية كما يتبين لنا من الاطلاع على القائمة المؤرخة فى عام ١٨٤٨ والتى قام بوضعها « حسن باشا الاسكندرانى » ناظر (وزير) البحرية المصرية ، والتى أيدها

« اسماعيل سرهنك »[1] في كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار » لتصبح على النحو التالي :

مسلسل	الحصن	مدافع	هاونات	الجملة
١	طابية القنار	٥٧	٦	٦٣
٢	طابية القنار الصغيرة	١	—	١
٣	طابية التراب	٦١	١٠	٧٢
٤	الاسبتالية الجديدة	٢٣	١٢	٣٣
٥	الاسبتالية القديمة	٢٥	—	٢٥
٦	الأطة	٥٧	٧	٦٤
٧	برج الظفر	١٠	٦	١٦
٨	ظهر منزل الفرنسيس[2]	٦	٦	١٢
٩	الملحمة[3]	٨	—	٨
١٠	مسلة فرعون[4]	٩	—	٩
١١	قبور اليهود القديمة[5]	١٠	—	١٠
١٢	قبور اليهود الجديدة[6]	٢٠	—	٢٠
١٣	برج السلسلة (اللسان)	١٨	١	١٩
١٤	باب شرق	٦	—	٦
١٥	كوم الناضورة	١٠	١	١١
١٦	الدخيلة	٣	—	٢
١٧	السلمية	٢٠	٢	٢٢
١٨	المكس	٤٠	٩	٤٩
١٩	القمرية	٩	١	١٠
٢٠	أم قبية	٥٦	٤	٦٠
٢١	الملاحة القديمة	١٤	١	١٥
٢٢	الملاحة الجديدة	٣٤	١	٣٥
٢٣	قلعة صالح أغا	١٣	—	١٣
٢٤	باب سدرة	٨	—	٨
٢٥	كوم الدكة	٩	٢	١١
الجملة		٥٢٧	٦٩	٦٠٤

(١) اسماعيل باشا سرهنك : (حقائق الأخبار عن دول البحار) – ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٢) كانت تقع على البحر خلف قنصلية فرنسا القديمة (محل ميدان سعد زغلول حاليا) ، ودمرتها نيران الأسطول البريطاني يوم ١١ يولية ١٨٨٢ أثناء ضرب الاسكندرية .

(٣) كانت قائمة على شاطىء البحر شرق الطابية السابقة عند نهاية شارع البورصة القديمة حاليا .

(٤) قرب مسلة فرعون بجوار محطة الرمل الحالية .

(٥) طابية قبور اليهود القديمة . كانت محل المستشفى الأميرى حاليا .

(٦) طابية قبور اليهود الجديدة – كانت بين شارعي يوسف عز الدين ورأس المسلة .

«علي باشا مبارك» يصف حالة الدفاع عن الإسكندرية :

ويصف «علي باشا مبارك» حالة الدفاع عن مدينة الاسكندرية بعد هذه الفترة ، فيقول في خططه (ج ٧ – ص ٦٠) :

« . . وقد اشتغل إبراهيم باشا بمجرد استيلائه بأمور مهمة في الاسكندرية وغيرها ذات منافع عمومية من ضمنها تكميل طوابي الإسكندرية واستحكاماتها على الوجه الذي أسست في عهد والده وشحنها بالعسكر والأسلحة والآلايات، ومر بالساحل من اسكندرية إلى رشيد ثم إلى دمياط واستكشفه بنفسه ، ثم أمر في ثغر اسكندرية بإنشاء ٥٠ شلوبة طوبجية كل واحدة تحمل مدفعين لحفظ البوغازات والملاحات . وكان مما وجه همه إليه «عباس الأول» زيادة تتميم الاستحكامات والطوابي والقلاع طبق ما رسمه رئيس هندسة الاستحكامات «جاليس بك» ، فأقام معظم حصونها وأضاف إليها بعضاً من الحصون رأى أهميتها فأدخلها في النقط المهمة ، ومن ذلك قلعة مقابر اليهود وقلعة «أبي قير» و «العجمي» ، مع إنشاء مبان ملحقة بتلك القلاع للوازمها فأنشأ في قلعة «مقابر اليهود» جبخانة (ذخيرة) جسيمة تسع ٩٠٠ قنطاراً من البارود وعمل في قلعة «أبي قير» مخبزاً وطواحين تدار بالهواء واسبتالية لمرضى العساكر المقيمين بهذه القلعة وما جاورها من القلاع ، فكانت العساكر المقيمة في تلك الجهات لاتحتاج لشيء يأتي من الخارج وبنى ورشة الطوبجية في وسط المدينة في شرق «كوم الناضورة» طولها مائتا متر ومثلها عرضاً تشتمل على جميع عملات النجارة والحدادة والبرادة والسباكة وغيرها كالمخازن ، وجلب لها جميع آلات التشغيل والعمل والمعلمين فصارت من أحسن ما يعمل من هذا القبيل ، وعمل بها عدة بطاريات يعمر بها كثير من آلات السواحل وغيرها ، ثم أبطل سعيد باشا كل ذلك وأمر ببيع أرضها للأهالي فبنيت المنازل وغير ذلك محلها . .

إدخـــال المدفعية ذات الششخنة :

وتم بعد ذلك – في عهد الخديو اسماعيل – تعزيز حصون المدينة بمدافع أحدث طراز حيث كانت المدافع السابق تركيبها بدون (ششخنة) – فكان من اللازم التفكير في إعادة تسليح هذه الطوابي والحصون بمدافع مششخنة لضمان سلامتها من الغارات الأجنبية .

شراء ٢٠٠ مدفع من طراز (أرمسترونج) من بريطانيا :

وهكذا تم – بين عامي ١٨٦٩ – ١٨٧٣ – شراء ٢٠٠ مدفع من طراز «أرمسترونج» البريطاني «عيار ٧ بوصات» زنة ٧ أطنان وعيار ٨ بوصات وزن ٩ أطنان وعيار ٩ بوصات وزن ١٢ طناً وعيار ١٠ بوصات وزن ١٨ طنا – وكانت هذه المدافع يتم تعميرها من الأمام – كما تم استيراد ٤ مدافع عيار ٤٠ رطلا من الطراز نفسه ولكنها تعمر من الخلف ، وقد تم نصب هذه المدافع الأربعة ، علاوة على ٤٦ مدفعاً عاديا في طوابي الاسكندرية بينما نصبت باقي المدافع (من طراز أرمسترونج) في بقية الحصون بالسواحل المصرية حتى (بورسعيد) .

الحصـــــون :

حين نلقى نظرة على ساحل الإسكندرية فإنه يسترعى انتباهنا للوهلة الأولى أنه يمثل سهلا منبسطا ليس به هضاب أو جبال عدا بعض التلال الصناعية – ولهذا السبب نفسه فإنه لا يصلح لإقامة القلاع الحصينة عليه .

حصن أم قبيبـة :

وكان حصن (أم قبية) هو الحصن الوحيد المقام على مرتفع من الأرض، بينما كانت حصون الإسكندرية عام ١٨٨٢ هي ذات الحصون التى كانت موجودة فى عهد محمد على (١٨٤٠) مع فارق بسيط – وهو انه عندما تم تسليحها بمدافع الأرمسترونج ، رفع ساترها وزاد سمكها وفتح فيها (كوات)– طاقات – جديدة تتناسب مع هذا التسليح الحديث ولكن جميع المدافع كانت موضوعة فى العراء دون ساتر للرأس . علاوة على وجودها فى أراض سهلية منخفضة مما يعرضها لأشد الأضرار بسبب تأثير الشظايا للأسطول المعادى وعلى الأخص بالنسبة لمدافع (السربند) – الرشاشات المنصوبة على ساريات السفن والتى بواسطتها يمكن اسكات مدافع هذه الحصون بقتل أطقمها وبغير حاجة إلى اتلاف المدافع ذاتها .

حصن قايتبـــــاى :

وكان هو الحصن الوحيد الذى يمكننا استثناؤه من هذه الحالة حيث كان فى طبقته السفلى المسقوفة مدفعية مستورة بطبقته العليـــا ولكن حوائطه لم تكن متينة بحيث تصمد لمدفعية الأسطول البريطانى الثقيلة مما أدى إلى حدوث الكثير من الخسائر بين أطقم المدافع أثناء المعركة .

دهليز إلى الموت :

ولقد دفع هذا الوضع القائد الأمريكى (جودريتش)[1] إلى أن يقول فى تقريره – ص ٤٨ – : « ان هذه الحرب (يقصد بين الأسطول البريطانى والحصون المصرية) لم تكن إلا دهليز يؤدى إلى مهاوى الموت السحيقة » .

المواقـــع نصبت لتكون هدفاً للضرب :

وقد كان فى كل الحصون – دون استثناء – مبان عديدة مرتفعة عن ستائرها تستخدم كمستودعات للقنابل وثكنات ومخازن . . الخ . وكانت هذه المبانى المرتفعة بهذه الكيفية كأنما نصبت لتكون هدفاً مباشراً لا تخطئه نيران مدافع الأسطول . كما كانت مستودعات البارود على الأخص غير جيدة « الإخفاء » الكافى ولعل أكبر ما يؤيد ذلك انفجار مستودعى الذخيرة فى طابيتى (الأطة) والدخيلة خلال المعركة يوم ١٨٨٢/٧/١١ .

---

(١) كان هذا القائد موجوداً على ظهر السفينة الأمريكية (لانكاستر) أثناء ضرب الاسكندرية يوم ١٨٨٢/٧/١١ وشاهد وعاين الحصون المصرية بعد الضرب كما تتبع تحركات الجيش البريطانى حتى التل الكبير وقدم بذلك تقريراً لحكومته .

حذف المدافع غير المششخنة والهاونات من الحساب :

وبنظرة موضوعية – وقبل أن نصل إلى يوم القتال الفعلى – يوم ١١ يولية ١٨٨٢ – بين الأسطول البريطانى والحصون المصرية – يجدر بنا أن نحذف من احتمالاتنا جميع المدافع غير المششخنة والهاونات لعدم جدواها وقدم طرزها (ترجع معظمها إلى عام ١٨٤٠) – وقصر مرماها وعدم إمكان تدقيق التصويب بها كما لم تكن لمقذوفاتها قوة الاختراق المطلوبة لاختراق مدرعات (بوارج) الأسطول البريطانى حيث كانت القذيفة تخرج من المدفع منخفضة السرعة ولذلك لا تحدث أى ضرر لخصم قوى كدولة كانت ملكة البحار فى ذاك الوقت .

والدليــل : سفينة بريطانية تصاب بـ ٦٠ قنبلة مصرية :

ولا يمكننى أن أقدم برهانا على صحة هذا القول أسطع مما وقع لسفينة القيادة البريطانية (الكسندرا) . فقد أصيبت هذه السفينة بستين طلقة من القذائف المصرية (وهذا يدل بلا شك على دقة التصويب والبسالة) ، ولكن نظراً لضعف التسليح وما سبق ذكره كانت النتيجة قتل جندى واحد وجرح ثلاثة من الجنود البريطانيين ، ويمكننا أن نتخيل النتيجة لو أن هذه المدافع كانت أحدث طرازاً وأبعد مدى .

المدافع العتيقة ينقلب بعضها أثنــاء الضرب :

ومن ناحية أخرى كانت عجلات هذه المدافع فى حالة سيئة فبعضها كان يتحطم عند انطلاق القذائف والبعض الآخر كان ينقلب من فوقها المدافع عند رجوعها للخلف أثر الإطلاق ، كما يجب أن نحذف أيضا من اعتبارنا المدافع (الأرمسترونج) الأربعة التى كانت تعمر من الخلف لصغر عيارها بحيث لم يكن فى إمكانها التأثير على الإطلاق فى المدرعات البريطانية .

قــوة الجيش المصرى قبيل ضرب الإسكندرية :

كان الجيش المصرى عام ١٨٨١ – مكوناً من ٦ آلايات مشاة وآلايين من الفرسان وآلاى من المدفعية البرية و ٣ آلايات من مدفعية السواحل وكان مجموع هذه القوة (٢٢٢٣٤) ضابطا وجنديا[1] وعندما تولى (محمود باشا سامى البارودى) رئاسة الحكومة – فى ٤ فبراير ١٨٨٢ – واستولى العرابيون على الحكم زادوا آلايات المشاة آلايين لتكون ثمانية أى فرقتين ، كما زادوا المدفعية البرية آلايا لتكون لواء .

كما تقرر أيضا جمع جنود الاحتياط (١) و (٢) و (٣) لزيادة الآلايات جميعها ولكن لم يجمع منها فى عهد هذه الوزارة إلا الجنود رقم (١) ، فبلغت قوة الجيش فى ذلك الوقت زهاء ٣٥ ألف جندى، وفى ٢٦ مايو ١٨٨٢ – استقال (محمود سامى البارودى باشا) من رئاسة الوزارة – وبعد ذلك بأيام قلائل رفع (عرابى باشا) إلى الخديو (توفيق) طلبا بتنفيذ الأوامر الصادرة فى عهد الوزارة المذكورة بجمع باقى جنود الاحتياط رقمى (٢) و (٣) . فأجابه الخديو إلى ذلك لتبلغ قوة الجيش قبل يوم ١٠ يولية ١٨٨٢ زهاء (٤٥٠٠٠) من الجنود ، وتقرر فى الجلسة التى انعقدت فى هذا اليوم جمع (٢٥٠٠٠) جندى آخرين ، وقد تم ذلك بالفعل .

---

(١) الجيش المصرى فى يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ – القائمقام عبد الرحمن زكى – مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – المجلد الرابع – العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢.

الموقف بعد اندلاع القتال مع الانجليز :

وبعد وقوع الحرب مع الانجليز ، قرر المجلس العرفى – يوم ١٢ أغسطس ١٨٨٢ – جمع ٢٥٠٠٠ نفر من خفراء البلد لتجنيدهم وقد نفذ ذلك أيضا . . وفى يوم ٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، قررت نظارة الجهادية جمع ١٥٠٠٠ نفر آخرين ، فبلغت القوة المستجدة بذلك ٤٠,٠٠٠ نفر ، لتصبح القوة كالآتى :

٤٥,٠٠٠	قوة الجيش قبيل يوم ١ يولية ١٨٨٢ .
٢٥,٠٠٠	تقرر جمعهم فى جلسة يوم ١ يولية ١٨٨٢ .
٢٥,٠٠٠	تقرر جمعهم بقرار من المجلس العرفى فى جلسة ١٢/٨/١٨٨٢ .
١٥,٠٠٠	تقرر جمعهم بقرار من نظارة الجهادية فى ٣/٩/١٨٨٢ .
١١٠,٠٠٠	الجملة[1] .

برقية وكيل الجهادية تؤكد تلك الأرقـــام :

وانه لكى نتثبت من صحة تلك الأرقام التى أوردناها ، نسوق للقارىء فيما يلى صورة برقية أرسلها « يعقوب سامى » – وكيل نظارة الجهادية بمصر آنذاك – إلى اللواء « على باشا الروبى » – قائد فرقة مريوط – ذكر فيها أن عدد هذا الجيش قد زاد على المـــائة ألف ، وفيما يلى نص البرقية :

« صورة تلغراف من وكيل الجهادية بمصر إلى قائد « مريوط » بتاريخ ٧ سبتمبر ١٨٨٢ إلى سعادة قومندان « مريوط » على الروبى باشا :

لا يخفى على سعادتكم عدم وجود العبى بالكبابيد (البلاطى) بالمخازن حالة ما كانت القوة أحد عشر الف نفر ، وفى الزمن القريب بلغت قواتنا المصرية بعناية الله الملك المعين زيادة عن المـائة ألف . . فيا أخى أعذرونى نظرا لبرودة مريوط التى نعرفها نحن وخلافنا . وقد جمعنا كافة الأحرمة الموجودة بسوق المغاربة بمصر . فبكل اجتّهاد حصلنا على ١٩٠٠ حرام ، وها هى مرسلة صباح باكر لإدارة « كفر الدوار » – يعين من طرف سعادتكم من يلزم لاستلامها من هناك أفندم .

حاميـــة الاســـكندرية

قبيل مذبحة الاســـكندرية :

كانت حامية الاسكندرية البرية مؤلفة من الآلايين المشاة (البيادة) الخامس والسادس ، جى بيادة و ٦ جى بيادة كما كان يطلق عليهما آنذاك ، وهما الآلايان اللذان يتألف منهما اللواء الثالث المشاة تحت قيادة اللواء « خورشيد باشا طاهر » ، وكانت كل قوات المدفعية والقوات البرية موضوعة تحت قيادة الفريق « اسماعيل باشا كامل » .

---

(١) كانت معظم قوات آلايات الفرسان التى استدعيت عقب الحرب مع الانجليز تفتقر إلى الجياد .

بعد مذبحـــة الاســـكندرية :

وبعد حدوث مذبحة الاسكندرية وما جرى من حضور « يعقوب باشا سامى » — وكيل نظارة الجهادية — وقدوم الأساطيل الفرنسـية والبريطانية إلى مياه الإسكندرية — كتب إلى نظارة الجهادية لتعزيز هذه الحامية ، وفعلا تم تعزيزها علاوة على القوات التى أتينا عليها بإرسال كتيبة مشاة (٢ جى بيادة) والكتيبة (٤ جى بيادة) بقيادة اللواء (طلبة باشا عصمت) . ومنذ ذلك الحين أصبحت جميع القوات المصرية فى الإسكندرية من مدفعية (طوبجية) ومشاة (بيادة) تحت قيادة « طلبة باشا عصمت » بعد أن تنحى الفريق « اسماعيل باشا كامل » عن القيادة تحت ستار المرض .

وهكذا نقترب إلى تقرير بيان جميع القوات المصرية التى كانت فى الإسكندرية صبيحة يوم ١١ يولية ١٨٨٢ — وهو يوم المعركة التى تسببت نتائجها فى الاحتلال البريطانى لمصر .

الآلاى الثـــانى بيـــادة (مشاة) :

القائد : أميرالاى خليل بك كامل .

وكيل القائد : القائمقام أحمد بك عفت .

بكباشى (قائد) الأورطة (الكتيبة) الأولى : محمد عارف .

بكباشى الأورطة الثانية : محمد فـــودة .

بكباشى الأورطة الثالثة : محروس شلش .

الآلاى الرابع المشـــــاة :

القائد : أميرالاى عيد بك حمـــد .

وكيل القائد : القائمقام فودة بك حسين .

بكباشى الأورطة الأولى : أحمد عبد الرحمن .

بكباشى الأورطة الثانية : رزق حجـــازى .

بكباشى الأورطة الثالثة : حسن عاصم .

مجموع القـــوة من ضباط وجنود ١٨٨٥

الآلاى الخامس المشـــــاة :

القائد : أميرلاى مصطفى بك عبد الرحيم .

وكيل القائد : القائمقام فـــرج بك عبد العال .

بكباشى الأورطة الأولى : يوسف الســـيد .

بكباشى الأورطة الثانية : عبد الرحمن سليم .

بكباشى الأورطة الثالثة : سليمان تعليب .

الآلاى السادس المشاة :

القائد · أميرالاى سليمان بك سامى .

وكيل القائد : القائمقام على بك عيسى .

بكباشى الأورطة الأولى : على رمزى .

بكباشى الأورطة الثانية : فرج يوسف .

بكباشى الأورطة الثالثة : أحمد راغب .

مجموع القوة من ضباط وجنود ١٨٩١

وهكذا يمكن أن نخلص من ذلك إلى أن مجموع القوات المصرية من المشاة (البيادة) التى كانت فى الإسكندرية يوم المعركة ١١ يولية ١٨٨٢ — كان يبلغ تعدادها ٧٤٦٣ بين ضابط وضابط صف وجندى على النحو التفصيلى الذى أوردناه .

قوات مدفعية السواحل :

كانت قوات المدفعية الساحلية التى اشتركت فى المعركة بالإسكندرية تتألف من الكتيبة الأولى مدفعية سواحل (١ برنجى طوبجية سواحل) تحت قيادة الأميرالاى اسماعيل بك صبرى فى حين وضعت الكتيبة الأولى تحت قيادة البكباشى عبد العال أبو العلا ، والثانية تحت قيادة البكباشى سيف النصر، والثالثة تحت قيادة البكباشى محمد شيرى بمجموع القوات التى بلغت ١٧٦٢ ضابطا وصف ضابط وجندى .

قوات الفرسان :

خصصت الأورطتان من السوارى (الخيالة) من الآلاى سوارى تحت قيادة البكباشى محمد منيب ، وبلغت الأورطتان من الضباط وضباط الصف والجنود ٢٦٢ رجلا ، وبذلك تكون جملة القوات المصرية النظامية التى اشتركت فى معركة ضرب الإسكندرية يوم ١١ يولية ١٨٨٢ من مشاة (بيادة) ومدفعية (طوبجية) وفرسان (سوارى) وطوبجية سواحل ٩٣٨٧ ضابطا وضابط صف وجندى .

توزيع الطوابى المصرية الساحلية :

كانت الحصون والطوابى المصرية القائمة على طول شاطىء الإسكندرية تنقسم إلى ٣ مناطق بالنسبة لتعرضها لضرب الأسطول البريطانى وذلك على النحو التالى :

المنطقة الأولى :

وهى الواقعة شرقى المدينة وليس بها غير حصن (السلسلة) الذى لم يشترك فى القتال لعدم استكمال استعداداته قبل المعركة وإن كان قد قام بإطلاق بعض الطلقات غير المؤثرة خلال القتال على السفن البريطانية التى كانت تهاجم طابية « قايتباى » .

المنطقة الثانية :

وهي المنطقة الواقعة شمالي المدينة وكان بها حصون « قايتباى » و« الهلالية » و«الأطة » و « الاسبتالية » و « ورأس التين » و « الفنار » :

المنطقة الثالثة :

وهي المنطقة الواقعة غربي المدينة وكان بها الحصون « صالح أغا » و « البرج رقم ١٥ » و « أم قبيبة» و « العجمى » و « المرابط » وكان حصن « العجمى » لم يستكمل انشاؤه بعد .

حالة الطوابى المصرية يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ (يوم المعركة)

	مدافـع أرمسترونج مششخنة					المجموع	المدافع غير مششخنة	هاونات	الجملة
	تعمـر من الأمام				تعمر من الخلف				
	٧ بوصة	٨ بوصة	٩ بوصة	١٠ بوصة					
طابية السلسلة	—	١	١	—	—	٢	٢	١	٥
قلعة قايتبـاى	—	٢	٣	١	٢	٨	٣٨	٤	٥٠
طابية الهـلالية							٤٠	—	٤
طابية الأطـة	—	١	٣	١	—	٥	١٤	٥	٢٤
الاسـبتالية	٢					٢	١٠	٥	١٧
رأس التين	—	٢	٢	١	١	٦	٢١	٥	٣٢
الفنـار	—	١	٤	١	—	٦	٢٨	٣	٧
صالح أغـا							٢٩	١	٢٢
برج رقم ١٥	—	—	—	—	—	—	٤	—	٤
أم قبيبـة	—	٣				٢	١٦	٣	٢١
القمـرية							٥	—	٥
المكس	—	٣	١	١	١	٦	٣٦	١٠	٥٢
الدخيلة							٤	—	٤
العجمى	١	—	٥	٣	—	٩			٩
المرابـط			٣			٣	٢٦	٣	٣٢
الجملة	٣	١٢	٢٢	٨	٤	٤٩	٢٢٩	٤٠	٣١٨

ثانيا : الجانب البريطـــانى :

وفيما يلى نلقى نظرة فاحصة على الجانب الآخر — وأعنى به القوات البريطانية التى قامت بالهجوم على الإسكندرية وضربها يوم ١١ يولية ١٨٨٢ ، ذلك الهجوم الذى كان بداية للاحتلال البريطانى لمصر والذى استمر نيفا وسبعين سنة حتى تحررت منه البلاد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتوقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤/١٠/٢٤ وبطبيعة الحال فإن القوات البريطانية المهاجمة تركزت فى قطع الأسطول المدرعة والتى اعتبرت آنذاك أحدث القطع البحرية من حيث التسليح والتدريب وشدة البأس .

المدرعـــات الثقيلة :

كان الاسطول البريطانى يوم ١١ يولية ١٨٨٢ مشكلا من ثمانى بوارج ثقيلة تحت قيادة الامبرال « بوشامب سيمور » وذلك على النحـــو التـــالى :

- البارجة (الكسندرا) .
- البارجة (انفلكسيبل) .
- البارجة (سلطان) .
- البارجة (سوبرب) .
- البارجة (تمرير) .
- البارجة (انفسيبل) .
- البارجة (مونارك) .
- البارجة (بنلوب) .

سفن المدفعيـــة :

- (بترن)
- (كنـــدور)
- (بيكون)
- (سيجنت)
- (ديكورى)

ويلاحظ أنه عند المقارنة بين الأسلحة المضادة لكل من الجانبين البريطانى والمصرى ، سنقوم بحذف واستبعاد مدافع الأسطول البريطانى التى يقل عيارها عن عيار مدافع الطوابى (الحصون) المصرية كذا مدافع السفن الصغيرة الخمس (سفن المدفعية) وذلك فى مقابل المدافع العتيقة والهاونات المصرية التى استبعدتها من حساب الطوابى المصرية وأعتقد أن هذا الاستبعاد يعد فى صالح الأسطول البريطانى .

الاسطول البريطانى فى مواجهة الحصون المصرية :

القسم الأول ويطلق عليه (الاسطول الخارجى) :

وكان مؤلفا من المدرعات الخمس (الكسندرا – انفلكسيبل – سلطان – سوبرب – تمرير) .

وكان هذا القسم تحت قيادة الكابتن (هنت جرب) قائد المدرعة (سلطان) وكلف بالوقوف خارج الميناء فى عرض البحر لمهاجمة حصون المنطقة الثانية المصرية التى سبق الإشارة إليها .

أما القسم الثـــانى ويسمى بالاسطول الداخلى :

فقد تألف من المدرعات الثلاث (انفسيبل – بنلوب – مونارك) تحت قيادة القائد الأعلى الاميرال « بوشامب – سيمور » نفسه وكانت مهمته الوقوف فى الجزء المتقدم من الميناء وبها حصون المنطقة المصرية الثالثة . وبناء على ذلك انتقل الاميرال (سيمور) ليلة المعركة إلى المدرعة انفسيبل لقيادة المعركة منها .

أما مهمة السفن الخمس الأصغر حجما :

(سفن المدفعية) وهى غير مدرعة ، فقد كلفت بالوقوف خارج مرمى الضرب للمدافع المصرية إلى أن تحين الفرصة المناسبة التى تسمح لها بالاشتراك فى مهاجمة حصون المنطقة الثالثة ، وذلك بالنظر إلى قصر عمق غاطس تلك السفن الخمس .

وقد تلخصت الخطة العامة للاميرال « بوشامب سيمور » والتى عرضها على قادته ليلة المعركة فى أن تقوم جميع البوارج المدرعة المشتركة فى القتال بعد اعطاء الإشارة لهـــا بتصويب نيران مدافعها الثقيلة سوياً وعلى حصن واحد حتى يتم تدميره تدميراً تاماً وبعد ذلك – وليس قبله – تصوب مدافعها إلى الحصن التالى حسب الخطة التفصيلية للقيام بنفس العمل وهـــكذا . .

الفارق بين حروب الحركة وحروب الثبـــات :

إننا عند القيام بمقارنة القوى المتضادة – البريطانية والمصرية – قبيل المعركة التى سرعان ما نشبت فى صباح يوم ١١ يولية كما سنرى بعد قليل ، فإنه لابد من الإشارة إلى عامل عسكرى هام وحاسم من شأنه التأثير بشدة على مواقف أحد الطرفين ونعنى به عامل الثبات الذى فرض نفسه على بطاريات المدفعية الساحلية المصرية الملتصقة بالأرض وهو نفسه العامل الذى وقف إلى جانب القوات البريطانية التى كانت فى موقف يسمح لها بحرية الحركة والمناورة والانتقال من موقع إلى موقع حسبما يقتضيه الموقف القتالى ، ان هذا الفارق وحده كان كفيلا فى كافة الظروف بترجيح كفة الجانب البريطانى المهاجم الذى سرعان ما بدأ بعد المعركة يتبجح بهذا النصر المؤزر الذى أحرزه على بطاريات المدفعية الساحلية المصرية الثابتة والتى كانت مدافعها من طرز قديمة وبالية من حيث قصر المدى أو قوة القذيفة ذاتهـــا .

كذلك كانت مدافع « الأرمسترونج » المصرية الحديثة إلى حد ما والتى زودت بها بعض الطوابى مؤخرا وقبل القتال مباشرة تنقصها آلات التنشين (آلات تقدير المسافة) عدا آلة واحدة كانت فى مدرسة المدفعية بالعباسية

فى (البوليجون) واستحضرت ليلة ١١ يولية وسلمت إلى سيف النصر بك قائد طابية الفنار ويتضح من ذلك بطبيعة الحال تعذر العمل على التصويب الدقيق بدون وجود هذه الآلات التكميلية .

« جود ريتش » : تفوق نوعى لصالحنا :

ويذكر القائد البريطانى جود ريتش — بعد القتال — أن الحسابات كانت دون شك فى صالح البريطانيين وبخاصة من حيث تفوق عيارات المدافع البريطانية على المدافع المصرية ذات العيار الأقل ، بالإضافة إلى التفوق النوعى بالنسبة لرجال المدفعية الإنجليز والمدربين على أرقى المستويات الأوروبية ، من حيث العمل على مدافع « الأرمسترونج » الحديثة ذات الشخشخة والتى تعمر من الفوهة .

النسبة بين قوة الحصون المصرية وقوة الاسطول البريطانى :

كذلك كانت النسبة بين قوة البوارج المدرعة البريطانية التى هاجمت الطوابى والحصون المصرية صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ لصالح القوات البريطانية تماما وذلك بسبب ما ذكرناه من حشد كافة البوارج المدرعة المتحركة للضرب على هدف ثابت واحد لا يمكنه تغيير مكانه أو المناورة بأية حال ، ويبين لنا الجدول التـالى هذه النسبة بالأرقـام :

قـوة حصن « قايتبـاى » بالنسبة للاسطول البريطانى الذى هاجمه

٤ : ٣٣

قـوة حصن « الأطة » بالنسبة للاسطول البريطانى الذى هاجمه

٥ : ٣٣

قـوة حصن « رأس التين » بالنسبة للاسطول البريطانى الذى هاجمه

٧ : ٢٦

قـوة حصن « الفنـار » بالنسبة للاسطول البريطانى الذى هاجمه

٤ : ٢٦

قـوة حصن « المكس » بالنسبة للاسطول البريطانى الذى هاجمه

٥ : ١٦

ويبين الجدول التـــالى التسليح التفصيلى للبوارج البريطانية التى اشتركت فى ضرب الإسكندرية – ١١ يولية ١٨٨٢

البوارج المدرعة	المدافـــــــع						
	بوصة ٧	بوصة ٨	بوصة ٩	بوصة ١٠	بوصة ١٢	بوصة ١٦[1]	
الـكسندرا				١٠	٢		١٢
انفلكسيبل			٥			٤	٤
سلطان			٤	٨			١٢
سوبرب				١٦	—		١٦
تمـــرير				٤	٤		٨
امنسيبل			١٠				٩
مونـــارك	١		٢		٤		٧
بنـــلوب		٨					٨
الجملة	١	٨	١٦	٣٨	١٠	٤	٧٧

وفيما يلى نستعرض « البطاقات الشخصية » للبوارج البريطانية المدرعة التى قامت بالهجوم على الإسكندرية فى صباح ١١ يولية من عام ١٨٨٢ .

البـــارجة المدرعة « انفلكسيبل » :

تم صناعتها قبل ٦ سنوات فى عام ١٨٧٦ وتعد من أهم وأقوى قطع الاسطول البريطانى المسلح ، غاطسها تحت المـــاء ١,٧٦ متر وجميع اجزائها مدرعة – تحتوى على ١٣٥ حجرة – برجاها معززان بمدفعين قطر كل منهما ١٦ بوصة (وزن المدفع ٨٠ طنا) – مبنيان على خط منحرف الزاوية بحيث يمكن اطلاقهما مرة واحدة بإحكام أو كل واحد منهما على انفراد ، قوة الطاقم ٣٤٩ رجلا ، الحمولة ١١,٤٠٠ طن .

البـــارجة المدرعة (مونارك) :

صنعت فى عام ١٨٦٨ – فى وسطها برجان فى كل منهما مدفعان من عيار ١٢ بوصة (وزن المدفع ٢٥ طنا) فى مقدمتها بطارية مؤلفة من مدفعين عيار ٩ بوصات وزن ١٢ طنا ، وفى مؤخرتها مدفع قطره ٧ بوصات (ووزنه ٦,٥ طن) – الطاقم ٥١٥ رجلا – الحمولة الكلية ٨٣٣٠ طنا .

البـــارجة المدرعة (تمـــرير) :

صنعت عام ١٨٧٦ – قلعة قائمة فى وسطها معززة بستة مدافع بأجنابها طاقات لأفواه المدافع ، فى كل طاقة

(١) بلغ وزن المدفع من عيار ١٦ بوصة ٨٠ طنا وقذيفته تزن ١٧٠٠ رطل أى ما يوازى ٧٦٥ كيلوجراما .

مدفعان من عيار ١١ بوصة (وزن الواحد ٢٥ طنا) على سطحها مدفعان من عيار ١١ بوصة (ووزن ٢٥ طنا) — الطاقم ٣٥٤ رجلا — الحمولة الكلية ٨٤٥٠ طنا .

البـــارجة المدرعة (الكسندرا) :

صنعت عام ١٨٦٩ — مدرعة قوية ذات بطارية من طبقتين، العليا بستة مدافع من عيار ٩ بوصات (وزن ١٢ طنا) — السفلى معززة بأربعة مدافع مرتكزة فى طاقات تنطلق منها — الطاقم ٤٥٠ رجلا — الحمولة الكلية ٦٠١٠ أطنان .

البـــارجة المدرعة (سوبرب) :

صنعت عام ١٨٧٥ — فى وسطها بطارية مؤلفة من ١٢ مدفعا من عيار ١٠ بوصات (وزن المدفع ١٨ طنا) بها ٣ مدافع من عيار ٦ بوصات (وزن ٧ أطنان) منها اثنان يطلقان آليا ، أما الثالث فيدار وينقل ويطلق من طاقة يرتكز عليها — الطاقم ٦٢٠ رجلا — الحمولة الكلية ٩٠٠٠ طن .

البـــارجة المدرعة (بتلوب) :

صنعت عام ١٨٦٧ — فى وسطها بطارية مؤلفة من ٨ مدافع (من عيار ٨ بوصات) يرتكز كل أربعة مدافع منها على طرف من طرفيها — علاوة على ٣ مدافع من عيار ٤٠ ليبرة (زنة ٣٥ طنا) الطاقم ٢٢٣ رجلا — الحمولة الكلية ٤٤٧٠ طنا .

سفن المدفعية (غير المدرعـــة) :

— السفينة (كونـــدور) :

بها ٣ مدافع (منها واحد زنة ٧ أطنان — ٢ عيار ٦٤ ليبرة) الطاقم ١٠٠ رجل — الحمولة الكلية ٧٨٠ طنا) .

— السفينة (بيترن) :

بها ٣ مدافع (زنة الأول ٧ أطنان — و ٢ من طراز أرمسترونج ٤٠ ليبرة (— الطاقم ٨٠ رجلا — الحمولة الكلية ٨٠٥ أطنان .

— السفينة بيـــكون :

بها ٤ مدافع — الطاقم ٧٥ رجلا — الحمولة الكلية ٤٣٠ طنا .

— السفينة (ديـــكوى) :

بها ٤ مدافع — الطاقم ٥٩ رجلا — الحمولة الكلية ٤٥٥ طنا .

مقارنة بين مدفعية الحصون المصرية ومدفعية الأسطول البريطانى يوم ١١ يولية ١٨٨٢

مدفعية الحصون المصرية المدافعة					مدفعية الأسطول البريطانى المهاجمة					
المدافع	عيار المدفع بالبوصة	وزن المدفع بالطن	جملة العيار بالبوصة	جملة الوزن بالطن	المدافع	عيار المدفع بالبوصة	وزن المدفع بالطن	جملة العيار بالبوصة	جملة الوزن بالطن	ملاحظات
٢	٧	٢١	٢١	٢١	١	٢	٧	٧	٧	
١٢	٨	٩	٩٦	١٠٨	٨	٨	٩	٦٤	٧٢	
٢٢	٩	١٢	١٩٨	١٠٨	١٦	٩	١٢	١٤٤	١٩٢	
٨	١٠	١٨	٨٠	١٤	٣٨	١٠	١٨	٣٨٠	٦٨٤	
					١٠	١٢	٢٥	١٢٠	٢٥٠	
					٤	١٦	٨٠	·٦٤	٣٢٠	
٤٤			٣٩٥	٢٥١	٧٧			٧٧٩	١٤٢٥	

البحث عن ذريعة الحــــرب

شرع الاميرال « بوشامب سيمور » اعتبارا من أول يولية عام ١٨٨٢ — يلتمس الأسباب والذرائع التى تدعوه لبدء القتال وتحطيم تلك الروح المصرية الجديدة المتطلعة إلى الحرية والاستقلال والتى مثلها الزعيم أحمد عرابى[1] .

وفى هــــذا يكتب اللورد « كرومر » فيما بعد :

« كان صبر بريطانيا — حكومة وشعباً — قد نفد تماما . . فطوال عام ونصف كان كل انسان يرى أن شيئا ما يجب عمله بسرعة للقضاء على عرابى باشا .

فى يوم ٥ يولية انعقد مجلس الوزراء المصرى الذى حمل فيه عرابى باشا حملة شعواء على سلطان تركيا وأصدر أوامره إلى جميع ضباط الجيش بالكف عن الاتصال بدرويش باشا ، وقبل ذلك وفى يوم ٣ يولية . . كان اللورد الستر (الاميرال بوشامب سيمور) قد كلف بالعمل على وقف أعمال التحصينات المصرية . . فإن لم تتوقف فإن عليه تدميرها وإسكات البطاريات إذا اطلقت النيران . لقد ابلغ هذا الاتفاق إلى فرنسا ودعيناها إلى الاشتراك فى العمل كما أبلغت بقية دول أوروبا به. وفى ٥ يولية صرح المسيو « فريسينيه » للورد « لونز » بأن حكومته لا تستطيع إصدار تعليماتها إلى الاميرال « كونراد » للاشتراك مع الاسطول البريطانى فى وقف إقامة البطاريات ونصب المدافع

---

(١) يذكر بعض المؤرخين أن الاميرال « سيمور » كان لديه سببا شخصيا يدفعه إلى الإسراع فى البدء بالقتال بقدر ما يمكن . . ذلك أن أسطول بحر المــانش كان قد تلقى الأوامر بالاقلاع إلى البحر المتوسط للانضمام إلى أسطول سيمور للمعاونة فى ضرب الاسكندرية ، ولــما كان الاميرال دويل — قائد اسطول المــانش — أرقى رتبة من سيمور ، فقد خشى الاخير من اشتراكه معه وبذلك تؤول اليه القيادة العامة للاساطيل وينسب إليه (شرف) الانتصار المرتقب .

بالقوة المسلحة لأنها تعتبر هذا الاجراء عملا عدائيا لمصر وهو ما لا تستطيع الحكومة الفرنسية الإقدام عليه بغير مخالفة الدستور الفرنسي الذى يحرم القيام بالحرب بغير موافقة البرلمـــان .

يقـــول اللورد « كرومر » :

« ولمـــا كان الرأى العام البريطاني والحكومة البريطانية قد اتفقت وجهة نظرهما قبل ذلك على الكف عن الخطط السياسية التي تشبه نسيج العنكبوت ، والتي كانت تقف دائماً عقبة فى طريق أى عمل مثمر ومكنت عرابى باشا من تحدى أوروبا ، فإن الفرصة قد سنحت لنا من تلقاء نفسها للقضاء عليه .. فى تاريخ سابق هو ٢٣ يوليو ١٨٨٢ . وصل إلى علم الاميرالية البريطانية بأن بطاريات السواحل المصرية يتم تجهيزها فى الإسكندرية لاستخدامها ضد الاسطول البريطاني ، وأن السلطان (سلطان تركيا) قد أمر بوقف هذه الأعمال فنفذ المصريون أوامره لبعض الوقت فقط ثم استأنفوا تجهيزها بعد شهر واحد ، إلى جانب العمل على حشد حامية الإسكندرية وقيام عرابى باشا بتحريض زملائه على إثارة شعور الجماهير — انتهى ما كتبه كرومر .

وثائق الكتاب الأزرق البريطاني لعام ١٨٨٢ تثبت نيـــة العدوان والتحرش من الجانب البريطاني :

وليسمح لى القارىء — دون أن أتدخل بالتعليق إلا فيما ندر — أن أورد فيما يلى بعض ما أثبتته الوثائق الرسمية التى أصدرتها الحكومة البريطانية فى كتابها الأزرق لعام ١٨٨٢ والتى تثبت بجلاء الغدر البريطاني الذى تمثل فى العمل بكل السبل للتحرش بالمصريين وضرب أحمد عرابى مثل الاتجاه المصرى الجديد نحو الحرية والتخلص من النفوذ الأجنبى .

« سيمور » : الاساطيل فى فخ عرابى :

فى الأول من يولية — وحسب الخطة المتفق عليها مع الاميرالية البريطانية والحكومة بدأ الاميرال بوشامب سيمور فى تنفيذ التمثيلية التى يمكن تشبيهها بقصة الذئب والحمل من أجل البحث عن الذريعة المناسبة للتدخل واحتلال الاسكندرية .

وهكذا أرسل الاميرال « سيمور » فى يوم ١١ يولية ١٨٨٢ البرقية التالية إلى الاميرالية البريطانية من الإسكندرية ويقـــول فيها :

« لقد شوهدت مراكب مشحونة بالمواد المفرقعة على مسافة قريبة من الجسر (يقصد قناة السويس) وفى هذا الموقع معسكر كبير للبدو . ومعسكر الزقازيق تلقى أوامره بحشد ٣٠ ألف رجل مزودين بالفئوس والأجولة (مما يعنى أن النية معقودة على سد قناة السويس) وتلقى الأهالى تعليمات بالتزود بالأسلحة ، وفى الإسكندرية وحصونها ما يربو على عشرة آلاف جندى ، وعربات الإمداد بالمعسكر الاحتياطية تدور باستمرار . ويقول « عرابى رأى أن النبى يزوره كل ليلة ، ويأمل أن تقع الاساطيل المتحدة فى فخ ينصبه . وذلك بأن يغرق مراكب محملة بالأحجار فى القناة » .

الأميرالية البريطانية : دمروا الحصـــون ! :

وتأتيه إجابة الاميرالية البريطانية والتى يمكن معرفة فحواها من البرقية الصادرة من مجلس الاميرالية البريطانية إلى الاميرال « سيمور » والمؤرخة فى ٣ يولية ١٨٨٢ وتقول فيها :

« امنعوا كل محاولة يراد بها غلق مدخل البوغاز الموصل للميناء (قناة السويس) ، وإذا بوشر إعادة العمل فى الحصون أو نصبت فيها مدافع جديدة فأخبروا قائدها الحربى بأن لديكم أوامر بالحيلولة دون ذلك ، وإذا لم يوقف العمل فى الحال ، فدمروا الحصون وأسكتوا المدافع إذا اطلقت النيران ، وذلك بعد أن تعطوا الأهالى والسفن التجارية أو الحربية الأجنبية المهلة الكافية » .

« سيمور » مهلة للاوروبيين للهجـــرة :

ويعاود الاميرال سيمور فى اليوم التالى — ٤ يولية — إرسال برقية جديدة إلى الاميرالية يقول فيها :

« نصب مدفعان جديدان فى قصر (قلعة قايتباى) فى الليلة الماضية كما قوى حائطه المواجه للبحر أيضا ، ويفضل القنصل الجنرال أن أؤجل توجيه الإنذار إلى صباح يوم الخميس لكى يجد الأوروبيين فرصة للهجرة من القاهرة ولم يحدث أى تغيير فى الواجهات المشرفة على البحر . وطلب منى الاميرال الفرنسى معلومات فوردت له الإجابة من القائد الحربى « بومى» و « عرابى » اللذين أرسلا الاميرال المصرى ليؤكد أنه ليس هناك أية فكرة بعمل سد ما فى مدخل القناة » .

انســحاب الاســطول الفرنسى :

وفى يوم الخامس من يولية ١٨٨٢ ، اخبر مسيو « فريسنيه » رئيس مجلس وزراء فرنسا لورد ليونز سفير انجلترا فى باريس الذى أبلغ بدوره لورد جرانفيل أنه قد وردت إليه فى الصباح برقية من الاميرال كونراد قائد الاسطول بمياه الإسكندرية عن التعليمات التى تلقاها الاميرال سيمور من أجل النيات التى نسبت للحكومة المصرية وقيل عنها أنها موجهة ضد الاسطولين الفرنسى والبريطانى ، ثم قال الوزير الفرنسى للسفير البريطانى أنه قد جمع مجلس الوزراء لبحث المسألة فقرر أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تعطى تعليمات للاميرال كونراد بأن ينضم للاميرال « سيمور » إذا وجه الاخير إنذارا نهائيا للمصريين فيما يختص بتحصيناتهم وأن يتراجع إذا صمم الاميرال البريطانى « سيمور » على القتال .

وهكذا أصبحت بريطانيا — بعد انسحاب الاسطول الفرنسى من مياه الإسكندرية — مطلقة اليدين أمام مصر ، وهو ما كانت بريطانيا — فى واقع الأمر — ترنو إليه من قبل لغزو مصر والقضاء على (أحمد عرابى) .

« سيمور » لم يوضـــع أى مدفـــع جديد :

وفى السادس من يولية ١٨٨٢ ، يكتب « سيمور » من جديد إلى الاميرالية البريطانية برقية يقول فيها :

« لقد أكد لى القائد العسكرى رداً على مذكرتى المؤرخة بتاريخ اليوم بأنه لم يوضع أى مدفع جديد فى الحصون المصرية ولم ينجز عمل ما ، وصادق « درويش باشا » على صحة ذلك ، ولم تحدث أية إشارة تدل على القيام بأعمال جديدة من بعد ظهر أمس : . ويجوز أن ذلك إنما كان امتثالا لأمر السلطان ، ولسوف لا أتردد فى الضرب إذا واصلوا هذه الأعمال : وقد تلقى الاميرال الفرنسى الأوامر من حكومته بالتراجع هو وبوارجه إذا بدأ العدوان » .

قناصل الدول الكبرى يناشـدون « سيمور » :

وفى السابع من يولية ١٨٨٢ ، كان واضحا تماماً لقناصل الدول الكبرى بالاسكندرية أن الاسطول البريطانى ما أتى إلى مياه اسكندرية إلا لكى يدمرها ويحتل مصر ، وبخاصة بعد أن تسرب إليها ومنها بعض المعلومات التى تؤكد نية بريطانيا العظمى فى ضرب مصر والقضاء على نفوذ « أحمد عرابى » والقوة العسكرية المصرية الجديدة .

وهكذا أرسل قناصل الدول الأجنبية بالاسكندرية هذه المذكرة الجماعية التى وقعوها رسميا وجاء فيها :

« إن وفرة مصالح رعايانا الكثيرة العدد بالإسكندرية الآن والذين لهم أملاك كثيرة جدا تضطرنا إلى أن نستطلع من جنابكم عما إذا كنتم تعتبرون إجابة الحكومة المصرية الخاصة بالتحصينات مرضية . . ونحن نرى أنه فى مقدورنا أن نحصل على تأكيدات منها ترضيكم الرضا التـام إذا كان لم يزل يتراءى لكم أن الإجابة المذكورة غير وافية . وسنكون شاكرين غاية الشكر إذا عرفتمونا أن هذه المسألة قد سويت وانتهت ، أما اذا كان الأمر على غير ذلك فأفيدونا عمن نعتمد عليه فى ترحيل رعايانا ، وعلى أية حال لا يمكن أن يتم ضرب الإسكندرية بدون أن يجر ذلك اخطارا جمة على المسيحيين والأهالى معاً ، ولا بدون تدمير ما لا يحصى من أملاك الأوروبيين ، وسنستقبل بمزيد السرور تكرمكم برفع هذه المذكرة إلى حكومتكم قبل أن تنفذ أوامرها التى صدرت بشأن هذه المسألة » .

« سيمور » : هدفى هو عـرابى فقط ! :

ولا يجد الاميرال « سيمور » مفرا من الاعتراف لهؤلاء القناصل بهدفه الحقيقى وهدف حكومته ، فيكتب من على ظهر سفينة القيادة رسالة إلى قناصل الدول الأجنبية يرد فيها على مخاوفهم التى أبلغوها له فى ذات اليوم يقول فيهـا :

سـادتى . .

اتشرف بإبلاغكم بوصول مذكرتكم الاجماعية التى بعثتم بها إلى اليوم تسألوننى فيها عما إذا كنت مرتاحا من إجابة القائد العسكرى المصرى على خطابى الذى أرسلته إليه بالأمس . . وإنى أشكركم كثيرا على ما عرضتموه على بشأن الحصول من القائد العسكرى المصرى على إجابة مرضية إذ كنت أرغب فى تأكيدات منه أوفى من الأولى ، كما أرجو أن تقبلوا وافر شكرى على الاقتراح الذى تلطفتم بتقديمه إلى ، فإذا كان نفوذكم لدى القائد العسكرى المصرى يمكن أن يحمله على التصرف بإخلاص ويحول دون استمراره فى أعمال التحصينات ، فإنكم بذلك تصيبون الهدف المقصود لأن التأكيدات المكتوبة مهما تكن عباراتها فهى قليلة القيمة بالنسبة للمصالح التى أؤتمنت عليها .

يلزمنى أن أؤكد لكم إنى لا أنوى ولا قلت مطلقا إننى أقصد أن أضرب الإسكندرية ، فإن أعمالى الحربية إذا أمست ضرورية فستوجه إلى الحصون ولا أرى سببا للخوف من وقوع تلف يصيب الاملاك الخصوصية التى أنتم فى وجل من أجلها .

وسأبلغ حكومة جلالة الملكة الملاحظة التى لفتم نظرى إليها فى الفقرة الاخيرة من خطابكم ويجب أن أحرص مع التدقيق على نص بلاغى الذى أرسلته إلى القائد الحربى المصرى .

وعلى أية حال فسيعطى إنذار نهائى مدته ٢٤ ساعة فقط . . واتشرف بإبلاغكم تحياتى . . . » .

كارترايت : ترحيل الرعايا الانجليز :

ويرسل المستر كارترايت من ظهر البارجة هيلكن الراسية فى مياه الإسكندرية برقية إلى وزير الخارجية البريطانية فى نفس اليوم – ٩ يوليو ١٨٨٢ يقول له فيها :

. . سيدى اللورد

اتشرف بإخباركم أنه اتصل بالاميرال سيمور أن مدفعين جديدين قد نصبا صباح اليوم بحصن السلسلة القائم تجاه الميناء الجديدة .

ولا يستطيع الاميرال أن يلزم الصمت حيال هذا العمل العدوانى (!!) فقرر أن يطلق النار عند شروق يوم الثلاثاء الجارى . ولقد اخطرت فى هذا المساء القناصل الجنرالية (العامة) والخديو ودرويش باشا – وسأعمل الترتيبات اللازمة لترحيل الرعايا الانجليز على البواخر فى هذا المساء أو صباح غد .

وفى ذات اليوم – ٩ يولية ١٨٨٢ – وجه قنصل انجلترا فى مصر برقية إلى رعايا الإنجليز للتوجه إلى السفن البريطانية الراسية بمياه الإسكندرية جاء فيها :

إلى قناصل الدول :

اتشرف بإخباركم أنه من المرغوب فيه إعلان كافة الاشخاص التابعين لحكومتكم بأن يكونوا فى البواخر الراسية فى الميناء خلال ٢٤ ساعة تمر من تاريخ هذا الإعلان .

قنصـــل بريطانيا : قطع العلاقات مع مصر :

وفى صباح يوم ١٠ يولية ١٨٨٢ ، كانت الاحداث تتدافع فى اتجاه الحرب بعد أن قام الاميرال « بوشامب سيمور » بتعليمات حكومته فى لندن بإعداد ساحة القتال وتنفيذ التمثيلية بدقة . يرسل قنصل بريطانيا فى مصر برقية عاجلة إلى « درويش باشا » – مندوب السلطان العثمانى فى مصر يقول له فيها :

. . إلى صاحب السعادة درويش باشا :

بناء على بلاغ الاميرال « بوشامب سيمور » الذى وجهه إلى قائد الإسكندرية الحربى فى صباح هذا اليوم أرانى – بصفتى وكيل قنصل جنرال حكومة صاحبة الجلالة الملكة – مضطرا إلى أن اخلى وكالة جلالتها بالإسكندرية وأن أقطع – مؤقتا – العلاقات التى كانت إلى الآن بينى وبين نظارة الخارجية المصرية ، ثم أخبركم بإننى مكلف بأن أعلن سعادتكم بالضرورة الماسة لكفالة سلامة سمو الخديو فى كل الظروف وأن حكومة جلالة الملكة تأمل من سعادتكم أن تشملوا وقاية سموه وأسرته بكل أنواع الاحتياطات التى تستدعيها الأحوال باستعمال نفوذكم المستمد من نيابتكم عن جلالة السلطان ، وانكم لتعلمون أن سموه لا ينكص أمام الاخطار الجسيمة التى يعرض لها موقفه الحالى بسبب تحمله أوفر نصيب مما تفرضه عليه الواجبات ، فحكومة صاحبة الجلالة البريطانية كلفتنى بأن أعلم دولتكم بأن عليكم – بحسب رأيها – مسئولية وقاية سموه من كل خطر ودرء الاخطار التى يمكن أن تحيط بسموه فى أثناء هذه الحوادث .

هل بدأ صبر « سيمور » ينفد ؟ :

فى يوم ٧ يولية ١٨٨٢ ، بدأ صبر الاميرال « سيمور » فى النفاد . . نراه يرسل البرقية التالية من ظهر البارجة « انفنسيبل » إلى القائد الحربى المصرى يقول فيها :

« اتشرف بإبلاغكم إنى علمت عن طريق رسمى أن مدفعين جديدين قد نصبا أمس ٧/٦ فى خطوط الدفاع المشرفة على البحر وأن بعض استعدادات حربية على وشك الانجاز فى مواجهة الإسكندرية الشمالية الغرض منها تهديد الاسطول الذى تحت قيادتى فيجب على والحالة كذلك أن أعلنكم إن لم تأمروا بالإقلاع عن هذه الأعمال أو تكونوا قد أمرتم بالإقلاع عنها ، يكون من واجبى ضرب الحصون الجارى فيها البناء .

واتشرف بأن أكون فى خدمتكم » .

القائد المصرى : اثق فى شريف عواطفكم :

ويرد اللواء « طلبة باشا عصمت » — القائد الحربى المصرى لمدينة الإسكندرية — على برقية الاميرال المتعطش إلى الحرب رداً يحاول فيه تفويت غرضه ، يقول له فيها :

الإسكندرية فى ٧ يولية :

عزيزى الاميرال الانجليزى :

اتشرف بأن اخبركم بوصول خطابكم المؤرخ فى ٧ يولية والذى تذكرون فيه آنه اتصل بكم تركيب مدفعين وأن أعمالا أخرى على وشك أن تقام على شاطىء البحر ، فردا على ذلك أريد أن أؤكد لكم أن الاخبار المذكورة عارية من الصحة ،وأن هذه الاخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم من كذبه .

هذا وانى لواثق من شريف عواطفكم المتشبعة بروح الإنسانية وأرجو قبول احتراماتى .

الامضاء

طلبة عصمت

لواء — قائد القوة

« سيمور » يستعد القتال :

بعد ٤٨ ساعة ، وفى يوم ١٨٨٢/٧/٩ يرسل الأميرال بوشامب سيمور البرقية التالية إلى الأميرالية البريطانية والتى يكشف فيها عن عزمه على تنفيذ المخطط المعد من قبل ويقول فيها :

« إلحاء إلى برقيتى المؤرخة فى ١٨٨٢/٧/٤ أقول أنه ليس هناك أدنى ريب فيما يتعلق بالتسليح ، وإنى سأخطر قناصل الدول الأجنبية غدا عند شروق الشمس وأشرع فى الضرب بعد ٢٤ ساعة إن لم تسلم إلى الحصون القائمة على البوغاز والتى تشرف على مدخل الميناء » .

إجابة متزنة من درويش باشا :

وفى نفس التاريخ – العاشر من يولية – يرسل « درويش باشا » – نائب السلطان بمصر – برقية متزنة إلى القنصل البريطانى بمصر رداً على برقيته السابقة ، يقول له :

عزيزى نائب القنصل البريطانى :

. تسلمت خطابكم المؤرخ فى ١٠ الجارى والذى شرفتمونى بارساله إلى ويمكننى أن أؤكد لكم أنى بذلت غاية جهدى فى القيام بالمهمة التى تفضل جلالة السلطان وعهد بها إلى . ولقد عز على أن أدرك السبب الذى من أجله انساق الأسطول البريطانى فجأة منذ أمس إلى إبداء هذه النيات العدائية بعد أن لبث مدة طويلة ملقياً مراسيه فى ميناء الاسكندرية لم يظهر فيها إلا ميولا سلمية .

إن العلائق الودية بين السلطنة العثمانية وبريطانيا العظمى ما زالت باقية ، وحيث أن مصر هى إحدى ولايات السلطنة فكان فى استطاعة جناب الأميرال أن يعرض أولا وجوه شكايته التى استوجبت التدابير التى اتخذها بطريقة ودية .. وكان فى استطاعته مراجعتها والنظر فى وسيلة لملاقاة الشر . ومتى ظهر مرتكبو الأعمال التى أوجبت الشكوى يكن فى الاستطاعة إنزال العقاب بهم – ويبدو لى أننا لو تصرفنا بهذه الطريقة لكان الأمر قد آل إلى توطيد العلائق الودية بين المملكتين عوضاً عن الانسياق فى تيار العدوان .

ولقد أتاحت الفرصة لسعادة (راغب باشا) ولوكيل نظارة البحرية أن يؤكد لكم وللأميرال أنه لم يخطر ببال الحكومة المصرية أن تعمل أى عمل يكدر صفو هذه العلائق الحسنة .

ومن المهم البحث عمن تقع عليه المسئولية إذا كان جواب تصريحات حكومة مشبعة بروح المحبة وحسن النية قد قدمت كل الوعود والتأكيدات الضرورية هو القيام بأعمال عدوانية لا تستند إلى المبادىء التى تسود العلائق بين دولتين متحابتين – أما التنبيه الذى وجهتموه إلى أن أكفل بكل ما لدى من الوسائل سلامة الخديو ، فيجب أن ألفت أنظاركم أنه ليس من الصواب إيجاد تمييز بين شخصية الخديو توفيق باشا السامية وحكومته وإنه لمن الطبيعى جداً أن سموه ما زال يعنى بسلامة وهناء البلاد التى يحكمها أكثر مما يعنى بسلامة شخصه .

« سيمور » يقدم إنذاره النهائى :

أخيراً .. يبلغ الأميرال سير « بوشامب سيمور » الإنذار النهائى الذى كان يتحرق شوقاً إلى تقديمه لبدء المذبحة المروعة التى سرعان ما بدأت بعد قليل فنى يوم ١٠ يوليو ١٨٨٢ ، أرسل الأميرال البريطانى الإنذار التالى الذى وجهه إلى قائد الاسكندرية الحربى وجاء فيه :

من ظهر البارجة « أنفنسيبل » بالاسكندرية فى ١٨٨٢/٧/١٠ .

صاحب السعادة :

أتشرف باخبار سعادتكم أنه نظراً لحدوث استعدادات حربية آخذة فى الازدياد منذ يوم أمس فى حصون (السلسلة) و (فاروس) – قايتباى – و (صالح) ، وهذه الاستعدادات موجهة بالطبع إلى الأسطول الذى تحت

قيادتى فقد عقدت العزم على أن أنفذ غدا ــ ١١ الجارى - عند شروق الشمس العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابى المؤرخ يوم ٦ الجارى إن لم تسلموا لى خلال هذه الساعة البطارية المنصوبة على برزخ (ميناء) رأس التين وعلى شط ميناء الاسكندرية الجنوبى لمنع التسليح بها .

ولى الشرف أن أكون خادمكم المخلص . .

القنصل البريطانى : إخلاء القنصلية :

وفى يوم العاشر من يولية ١٨٨٢ ، يوجه القنصل البريطانى برقية عاجلة إلى « راغب باشا » ــ رئيس وزراء مصر ــ من على ظهر البارجة تنجور يقول فيها :

. . سيدى العزيز :

بناء على البلاغ الذى قدمه الأميرال السير « بوشامب سيمور » فى هذا الصباح إلى القائد الحربى بالاسكندرية أرانى مضطراً إلى أن أخلى قنصلية صاحبة الجلالة البريطانية وأن أقطع منذ الآن العلاقات التى كانت بين سعادتكم وبين شخصى بصفتى وكيل وقنصل جنرال بالنيابة عن جلالتها فى مصر .

ولى الشرف أن اكون فى خدمتكم . .

رئيس وزراء مصر يقابل الأميرال « سيمور » :

عند وصول هذه الرسالة إلى « راغب باشا » توجه برفقة « عبد الرحمن بك رشدى » ــ ناظر المالية و« أتيجران بك » ــ سكرتير مجلس « النظار ــ إلى البارجة ، انفنسيبل ، حيث دارت مناقشة طويلة مع الأميرال « سيمور » كان من نتيجتها أن الأخير عدل عن إنذاره لينحصر فى إزال المدافع التى فى الحصون المشرفة على البحر ، على أن يقوم بهذه العملية الجنود المصريون تحت إشراف الضباط الإنجليز .

وهكذا غادر « راغب باشا » ورفيقاه البارجة بعد أن وعد بارسال الإجابة فى المساء ، وتوجهوا فى الحال إلى قصر « رأس التين » وعرضوا الأمر على الخديو « درويش باشا » مندوب السلطان العثمانى .

الخديو يدعو إلى جلسة غير عادية :

وهنا طلب الخديو توفيق ، عقد جلسة « غير عادية » لفحص الموقف وتمحيصه[1] وكانت الجلسة حامية ودارت المناقشات الحادة جداً والتى سادت فيها الآراء المتضاربة إلى حد بعيد .

---

(١) حضر هذه الجلسة كل من الخديو « توفيق » و « المشير » « درويش » باشا - قدرى بك سكرتيره - أحمد أسعد عضو الوفد العثمانى ــ اسماعيل باشا رئيس النظار ــ أحمد باشا راشد ناظر الداخلية - عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية ــ أحمد باشا عرابى ناظر الجهادية والبحرية - على باشا ابراهيم ناظر الحقانية - سليمان اباظة باشا ناظر المعارف - محمود باشا الفلكى ناظر الاشغال - حسن باشا الشريعى ناظر الأوقاف - لطيف باشا من نظار البحرية السابقين ــ حافظ باشا من نظار المالية السابقين - محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب - اسماعيل باشا أبو جبل عضو مجلس الشيوخ - محمد باشا سعيد عضو مجلس الشيوخ - محمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية - قاسم باشا من وكلاء نظارة البحرية السابقين - محمد باشا المرعشلى مدير التحصينات العام السابق - محمود باشا فهمى مفتش التحصينات العام - طلبة باشا عصمت القائد الحربى لمدينة الإسكندرية « تيجران بك » سكرتير مجلس النظار .

«درويش باشا» : مقاومة الحصون :

يقول أحمد باشا شفيق فى مذكراته :

إن درويش باشا قد توجه إلى طابية الفنار مع محمد باور من ضباط الحرس الخديو لاختبارها واختبار المدافع المنصوبة فيها ، وقرر بعدئذ أنه بصفته من ضباط المدفعية يقرر أن الحصون والمدافع التى بها لا تستطيع مطلقاً أن تقاوم المدرعات البريطانية ، وقال أيضاً انه لو كان واثقاً من أن مصر تستطيع المقاومة لتولى بنفسه قيادة جيشها ، ولذلك نصح «عرابى باشا» بقبول طلبات الأميرال «سيمور» .

أما مرعشلى باشا - مدير التحصينات العام السابق - والذى حضر هذا الاجتماع الحافل ، فقد كان له رأى آخر فى موضوع الإنذار البريطانى ، ولنستمع إليه ليعطينا صورة لما حدث فى ذلك الاجتماع ، يقول «المرعشلى باشا» .

« . . وسألنى حضرة الخديو عن موضوع الطوابى والإنذار ومدى تحمل هذه الطوابى لضرب الإنجليز . . فقلت له : أن صاحب الوظيفة الآن (محمود باشا فهمى) هو الذى يوجه إليه مثل هذا السؤال .

وبتوجيه السؤال إليه أجاب : طوابى الاسكندرية تقاوم مقذوفات الأسطول البريطانى لمدة ثلاثة شهور . وهنا فهمت من إجابته أنها إما أن تكون على جهل منه أو لغرض تقوية عزم العصاة (يقصد العرابيين) .

أما أنا فأجبت أن الطوابى لا تتحمل أكثر من ٢٤ ساعة :

. . وعندما سألنى الخديو عن رأيى ، أجبت أن الطوابى لا تتحمل أكثر من ٢٤ ساعة إذا كان الضرب مستمرا و ٤ - ٥ ساعات كافية لتخريب الطوابى وأغلب المدافع تلقى على الأرض من إصابة المقذوفات لكونها مكشوفة ويكون بداخل الطوابى مجزرة من العساكر القتلى والمصابين من الشرابنلات (القنابل) ومن انتشار قطع الأحجار التى تتناثر فى الأبنية العالية ، وهذا لكون الطوابى المذكورة مبنية منذ زمن بعيد بالنسبة لمقاومة الأسلحة القديمة . والأسلحة الجديدة لها تأثير كبير عن القديمة والمراكب الخشبية تغيرت بمراكب مدرعة ، وأما تلك الطوابى فإنه لم يحصل فيها تغيير .

اقترحت خطة لحقن الدماء :

« . . يستطرد مرعشلى باشا - مدير التحصينات العام يقول عن تلك الجلسة :

« . . فإذا كان التصميم على الضرب ، فالأحسن لأجل حقن دماء العساكر لا يلزم دخولها الصوابى وقت الضرب حيث أن المدافع فى طوابينا من الطراز القديم ، ولا يكون لها أدنى تأثير فى المراكب الإنجليزية ، وفضلا عن ذلك فان مدافع الإنجليز وعساكرهم فى غرف من الحديد . أما عساكرنا ومدافعنا فأنهم مكشوفون تنزل عليهم الشظايا الكثيرة مثل المطر وتتلفهم فى أقرب زمن ، وكان رأيى أن يختفى الجنود من الطوابى حتى يتم تدميرها بواسطة الأسطول البريطانى ثم نقاومهم أثناء النزول على السواحل بعساكرنا « بما أنهم ليسوا من الطير حتى يمكنهم أن يطيروا مسافة تبلغ نحو الألف وخمسمائة متر ويدخلوا الطوابى ، لأنهم متى أرادوا أن يتوجهوا إلى الطوابى يلزمهم تنزيل عساكرهم فى صنادل لأجل طلوعهم على الساحل ، وهنا يلزم على عساكرنا التى فى البر أن يستعدوا للمدافعة وعدم ترك الإنجليز

لأن يطلعوا على البر وفى ذلك صعوبة جداً للمهاجمين بالنسبة لفن الحرب . فلم يقبل قولنا وطعن فى حقنا، ونحن كذلك جاوبناه بما يلزم ، وترتب على ذلك أن اكتسبنا زيادة عداوة مع المذكورين علاوة على العداوة الأصلية وكانت مجاوبتنا لهم بما ذكر لأجل تخويف العصاة وارتجاعهم عن المقاومة وتنزيل المدافع بها . إن ذلك أخف الضررين » .

« مرعشلى باشا » : محمود فهمى يعارضنى :

يقول « مرعشلى باشا » :

وكانت معارضة « محمود باشا فهمى » لى شديدة حيث قال انه حضر حرب الصوب وأنه نظر تأثير الشرابنلات (القذائف) بكثرة وما كان يخاف منها .

كذلك عارضنى « طلبة باشا عصمت » بقوله :

« نحن يلزمنا أن نذبح بقنابل الإنجليز تحت المدافع ولا نتركها بدون عساكر » .

أما « عرابى باشا » فقد عارضنى كذلك بقوله :

« انه لو تركنا الطوابى بدون عساكر فان الإنجليز بعد أن يخربوها فى الحال توضع بها بنديراتهم (أعلامهم) وقال أيضاً « هل قنابل الإنجليز تؤثر بطوابينا وقنابلنا لا تؤثر فى السفن ولم يقتنع هو أو غيره بحجتى التى سقتها عاليه .

وإلى هنا تنتهى رواية « مرعشلى باشا » مدير التحصينات السابق عن الاجتماع العاصف الذى جرى فى أعقاب تسلم الحكومة المصرية الإنذار البريطانى الذى وجهه الأميرال « سيمور » إلى اللواء (طلبة باشا عصمت) قائد الاسكندرية الحربى .

رواية أخرى عن اجتماع الحكومة :

رواية أخرى عن هذا الاجتماع يرويها المسيو « بيوفيس » فى كتابه (الفرنسيون والإنجليز فى مصر) يقول فيها :

« لقد كان الخديو » يرغب فى عقد اتفاقية صلح مع الإنجليز ولكن هذه الرغبة أثارت غضب المثير درويش باشا الذى ضرب المائدة بقبضة يده صائحاً :

« لا تنسوا أنكم جميعاً عبيد السلطان الذى مقره الآستانة . . وليس هنا محل المداولة . . وتسليم الحصون المصرية أمر يكسو المسلمين ثوب الخزى والعار» . . .

مصر ترفض الإنذار البريطانى :

على أية حال . . فقد رفضت الحكومة المصرية بعد هذا الاجتماع ، الإنذار الذى وجهه الأميرال « بوشامب سيمور » والذى أصر فيه على ضرورة تسليم الحصون المصرية . وأرسلت ردها فى يوم العاشر من يولية ١٨٨٢ . وفيما يلى نص المذكرة المصرية .

لم تعمل مصر شيئاً يقضى بارسال هذه الأساطيل المتجمعة . . ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات ضرورية فى أبنية قديمة . . والطوابى الآن على الحالة التى كانت

عليها عند وصول الأساطيل . ونحن هنا في وطننا وبيتنا . . فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الإنجليزية أنها باقية علينا .

ومصر الحريصة على حقوقها ، الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أي مدفع ولا أي طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح : . فهي للذلك تحتج على بلاغكم الذي وجهتموه اليوم . . وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التي تنجم عن مثل هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدافع على الأمة التي تقذف في وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الإنسان ولقوانين الحرب .

« عرابي » يتحرك :

بفشل كافة الجهود التي بذلت ابتغاء التوصل إلى حل سلمي يمكن فيه تجنب القتال والذي تسبب فيه عناد الأميرال « سيمور » لم يبق إلا تفويض الأمر للحديد والنار .

وفي ليلة ١١ يولية ١٨٨٢ أرسل « أحمد عرابي » أمراء الآلايات « عبده بك محمد » و « مصطفى عبد الرحيم » و « سليمان بك سامي » قادة برنجي طوبجية سواحل وقومندان حصون إسكندرية ، وكان « عرابي » وقتذاك بالترسانة برفقة « محمود باشا فهمي » و « طلبة باشا عصمت » قائد حامية الاسكندرية و « محمد باشا كامل » وكيل نظارة الحربية .

فلما جاء إسماعيل بك صبري أخبره عرابي بأن الأسطول البريطاني سيضرب حصون الاسكندرية في صبيحة اليوم التالي وأن المجلس في رأس التين قرر عدم مجاوبة الأسطول إلا بعد الطلقة الخامسة وأضاف « عرابي » : « ومن اللازم أن نصدر أمراً بأن المجاوبة لا تكون إلا بعد الطلقة العاشرة » .

« عرابي » يصدر أوامر العمليات :

في ذات الوقت أصدر أحمد عرابي الأوامر التالية استعداداً للقتال :

الآلاي الخامس مشاة (٥ جي بيادة) بقيادة أمير الآلاي « مصطفى بك عبد الرحيم » تتفرق خلف حصون المنطقة الثانية أي من قلعة قايتباي إلى حصن الفنار مع الآلاي الرابع المشاة بقيادة الأميرالاي « عبد بك محمد » وعلى الآلاي الأخير أن يقيم بباب شرق بصفة احتياطي .

مكان خريطة لمواقع الحصون :

الآلاي السادس المشاة بقيادة أمير الآلاي ، « سليمان باشا سامي » تتفرق خلف الحصون بالمنطقة الثالثة (أي من حصن طابية صالح إلى حصن العجمي) ومعه الآلاي الثاني المشاة بقيادة أمير الآلاي (خليل بك كامل) وعلى هذا الآلاي الأخير أن يقيم بالقباري بصفة احتياطي .

الأورطتين من ١ جي سواري (برنجي) تقومان بواجب الخدمة بصفة مراسلة بين مختلف الحصون والمراكز (كوسائل اتصال) .

الأميرال (سيمور) يصدر تعليمات القتال :

على الجانب الآخر – وجه الأميرال (بوشامب سيمور) – بتاريخ ١٨٨٢/٧/١٠ – إلى قادة وضباط البوارج البريطانية التابعة لصاحبة الجلالة الملكة بالاسكندرية الأوامر التالية :

من البارجة (انفنسيبل) فى ١٨٨٢/٧/١٠ :

انه فى حالة ما إذا لم أتلق جواباً مرضياً على الإنذار الذى أرسلته إلى قائد الاسكندرية الحربى أطلب منه فيه أن يسلمنى مؤقتاً[1] الحصون على ساحل الميناء الجنوبى (حصون المنطقة الثالثة من حصن صالح إلى حصن العجمى) – وحصون (رأس التين) – إذا لم أتلق جواباً مرضياً يغير الأسطول بقيادتى على الحصون عقب انتهاء الأربع والعشرين ساعة وهى المهلة التى أمهلت بها المحايدين ليبارحوا المدينة خلالها – وهذه المدة تنقضى فى الساعة الخامسة صباح يوم ١١ يولية :

وسيكون الهجوم من ناحيتين :

١ – الناحية الأولى : داخل الميناء وتشترك فيه (أنفنسيبل) و (مونارك) و (بنلوب) .

٢ – الناحية الثانية : خارج حاجز الأمواج ، وتشترك فيه (سوبرب – تمرير – السكندرا – انفلكسيبل) ويبدأ القتال عند صدور إشارة منى ، وفى هذه الحالة على السفينة الأكثر دنوا من ساتر التراب الذى أقيم أخيراً فى طابية (الاسبتالية) التى بجوار الحصن (الأطة) أن تصوب قذيفة إلى هذا الساتر وعندما تجاوب الحصون الأسطول الخارجى باطلاق النار يجب على السفن بذل كل مجهودها وتدمير البطاريات القائمة على شبه جزيرة (رأس التين) خصوصاً حصن الفنار المطل على الميناء ، ومتى تم ذلك تتجه (سلطان – سوبرب – والكسندرا) إلى الشرق لتهاجم حصن (فاروس – قايتباى) وتهاجم حصن (السلسلة) إذا كانت مهاجمته فى الإمكان .

وتتجه (أنفلسيبل) فى عصر هذا النهار نحو الموقع الذى يقرب من البوغاز الصغير الذى عين لها أمس وتستعد لضرب مدافع خط (المكس) ومساعدة الأسطول الداخلى عندما تعطى الإشارة بالضرب وتأخذ (تميرير) و (سلطان) و (الكسندرا) فى ضرب حصون رأس التين من الجنب . أما السفن الصغيرة فتبقى فى الخارج بعيدة عن منطقة القتال إلى أن تجد الفرصة المناسبة للهجوم على (المكس) .

ويجب على السفن أن تراعى فى تنفيذ هذه المهام كلها دواعى الظروف مراعاة كبيرة بمراعاة الحالة التى يجب أن تقاتل وهى فيها ، فاما أن تقاتل وهى راسية فى مراسيها أو تقاتل وهى متحركة ، وإذا كانت الحالة تدعو إلى قتالها وهى ملقية مراسيها يجب حينئذ أن يزداد حبل من الفولاذ ، وعلى الجنود أن يتناولوا إفطارهم فى منتصف الساعة الخامسة صباحاً . وأن يرتدوا ملابس العمل الزرقاء ، وسيكون الأسطول الداخلى تحت قيادتى الشخصية والأسطول الخارجى تحت قيادة الكابتن (هنت جرب) قائد البارجة (سلطان) .

---

(١) الفت النظر هنا إلى لفظ (مؤقتا) – وهذا يؤيد أن «سيمور» ما كان سيكتفى بذلك حتى لو وافقت الحكومة المصرية على إجابة طلباته إذ كان سيتمادى فى طلبات أخرى حتى يرفض المصريون فى نهاية الأمر ، فيقوم بالهجــوم على الإسكندرية واحتلالها حسب الخطة المبيتة مسبقاً .

وتقوم السفينتان (هلكن) و (كندور) بوظيفة سفن الإعادة وبالجملة ينحصر الغرض من الهجوم فى تخريب الحصون وتدمير البطاريات المنصوبة على واجهة بحر الاسكندرية .

ومن المحتمل أن هذا العمل لا يمكن إتمامه فى أقل من يومين أو ثلاثة ، فيجب استعمال المقذوفات مع الحرص ، وعلى كل حال من المرتقب قدوم الباخرة همبر HUMBER إلى هنا فى ٧/١٢ وعليها مقدار كبير من الذخيرة .

وإذا وصلت البارجة (اتشلز) فى الوقت المناسب – يجب عليها أن تهاجم حصن فاروس (قايتباى) والوقوف فى الموقف الذى يأمرها قائد الأسطول الخارجى أن تتخذه .

وتقف (سلطان) على بعد ١٧٥٠ ياردة تجاه منتصف المسافة بين حصنى (الفنار) و (رأس التين) بينما تقف (سوبرب) على بعد ١٩٥٠ ياردة تجاه حصن (الفنار) :

أما (بنلوب) و (مونارك) فتقفان على بعد يتراوح بين ١٠٠٠ – ٣٠٠٠ ياردة فى الشمال الغربى من المكس .

الإمضاء

« أميرال وقومندان القيادة »

« بوشامب سيمور »

أدلة دامغة على سوء نية الأميرال سيمور :

وبنظرة مدققة وموضوعية – يمكننا إثبات سوء نية بريطانيا وأداتها (الأميرال سيمور) – وإن كنت أعتقد أنها ليست بحاجة إلى إثبات – وذلك فيما يلى :

أولا : سيمور يرفض إبداء حسن النية من قبل الحكومة المصرية :

فى محاولة لحقن الدماء – قامت الحكومة المصرية بوساطة رئيس نظارها (راغب باشا) بارسال برقية إلى الأميرال (سيمور) فى ١٨٨٢/٧/١٠ – تخبره فيها بأن الحكومة المصرية لا يمكنها قبول تسليم الطوابى للانجليز – ولكنها حقناً للدماء – يمكنها أن تقوم بانزال ٣ مدافع من البطاريات التى أشار إليها (سيمور) فى إنذاره « للبرهنة على ميولنا السلمية ورغبتنا فى تلبية طلبكم على قدر الإمكان على حد تعبير (راغب باشا) الذى أضاف فى نفس البرقية يقول :

وإذا كنتم تصرون – رغم هذه التقدمة – على إطلاق النار فالحكومة المصرية تحفظ لنفسها الحق وتلقى مسئولية هذا العمل العدائى على عاتقكم .

ولكن (سيمور) رد على هذه الدعوة إلى السلام رداً فاترا سلبياً جاء فيه :

« أتشرف باخباركم بوصول المؤرخ فى ٧/١٠ وإنى آسف أن أخبركم أنه ليس فى استطاعتى أن أقبل ما عرضتموه فى هذا البلاغ » :

ثانياً : ترتيب وضع البوارج :

ومن تعليمات القتال التي أصدرها (سيمور) إلى بوارجه يوم ٧/١٠ يؤخذ في ترتيب هذه البوارج (عدا البارجتين أنفنسيبل وتمرير) ووضعها في هذه المواقف أن الأميرال (سيمور) أراد أن تكون المسافة التي يطلق منها هذا الأسطول قذائفه (وخصوصاً الأسطول الداخلي) قصيرة وقريبة من الحصون — على الرغم من بعد مرمى مدافع سفنه الضخمة ، وهذا يعني أن المخاوف التي كان يرددها الأميرال (أو التي يتظاهر بأنه يخشى منها) كانت في حقيقة الأمر مخاوف مختلقة لا أساس لها من الصحة — فقط أراد بها تبرير عمله الإجرامي .

ثالثاً : ان هذا الأميرال لم يكن يخشى ضررا كبيراً من المدفعية المصرية التي توجد بالحصون ، ولذا اقترب منها هذا الاقتراب الكبير لمعرفته التامة بقصر مرمى المدافع المصرية وضعف تأثير مقذوفاتها .

رابعاً : علم الأميرال (سيمور) التام بأن هذه الحصون كلها (عدا قلعة قايتباي) كانت مدافعها في العراء بلا وقاية تقي جنودها ، والدليل على ذلك أنه أمر باستعمال مدافع أسلحته الصغيرة (الرشاشات) المنصوبة في الطبقات العليا من البوارج بغرض القتل بأطقم الجنود الطوبجية — وهذا ما حدث فعلا بالنسبة لجميع الحصون عدا الطابية المذكورة .

المعركة

الأميرال « سيمور » يعطي إشارة البدء بالضرب :

في الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يولية عام ١٨٨٢ أعطى الأميرال (سيمور) إشارة بدء القتال ، وبذلك دخل التاريخ بوصفه أحد مجرمي الحرب غير مبال بحقوق الشعب أو سيادة الدول واستقلالها .

البارجة (الكسندرا) تطلق القذيفة الأولى :

وتنفيذا لتعليمات الأميرال السابق الإشارة إليها ، أطلقت (الكسندرا) التي كانت أقرب البوارج إلى حصن (الاسبتالية) القذيفة الأولى على ذلك الحصن واقتدت بها بقية البوارج فأطلقت مدافعها .

الطوابي المصرية تجيب على النيران بعد الطلقة الخامسة :

وقد بدأت البوارج الإنجليزية في ضرب الحصون حسب الخطة الموضوعة من قبل ، فضربت أولا حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية وكانت ثلاث منهن متحركة وهي (سلطان — سوبرب — الكسندرا) أما البارجة (انفسيبل) فكانت ملقية مراسيها في الممر الصغير لتعاون الأسطول الداخلي مصوبة مدفعين من مدافعها (زنة المدفع ٨٠ طنا) لضرب الحصون سالفة الذكر ، ومدفعين في برجها الخلفي لضرب حصون المكس .

البارجة (تمرير) تشحط في الرمال :

أما البارجة (تمرير) فقد شحطت (غرزت) في الرمال أثناء المناورة ولكنها واصلت الضرب وهي مكانها إلى أن جاءت البارجة (كندور) لتعويمها .

وقد قاومت الحصون المصرية — رغم الحالة التى كانت عليها مقاومة فاقت كل ما كان يتوقعه الإنجليز ، وأبدى جنود المدفعية المصريون مهارة فى إطلاق القذائف تأذهلت البريطانيين مما دفع بالبوارج إلى إلقاء مراسيها لأنها وجدت أن ضربها غير محكم وهى تتحرك وبذلك حققت المسافة المضبوطة التى تفصلها عن الحصون وأخذ ضربها يزداد أثره تبعاً لذلك .

إسكات حصون رأس التين والفنار والاسبتالية بعد ست ساعات ونصف ساعة :

وبانضمام البارجتين (انفسيل) و (تمرير) إلى هذه البوارج الثلاث أمكنها إسكات الحصون سالفة الذكر فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر بعد قتال جهنمى دام ست ساعات ونصفاً — ولقد ظل أحد المدافع فى حصن (الاسبتالية) يطلق قذائفه حتى الساعة الخامسة مساء رغم إصابة أفراد أطقمه .

القائد البريطانى (جودرينش) : جنود المدفعية المصرية أظهروا بسالة عجيبة :

يعلق القائد البريطانى (جودرينش) على المعركة — غير المتكافئة — فيقول :

ان جنود المدفعية المصريين جاوبوا على نيران الأسطول الإنجليزى الجهنمية مجاوبة مدهشة لم تكن متوقعة تماماً ، وأظهروا بسالة عجيبة رغم التفاوت الجسيم من حيث أعداد المدافع وأعيرتها . . ولقد كانت البارجة (انفسيل) عندما تطلق مقذوفاتها التى تزن القذيفة منها ١٧٠٠٠ رطل على حصن الفنار وتصطدم بساتره الضخم تثير الأتربة والشظايا إلى ارتفاع الفنار نفسه ويتخيل المرء عندما يرى ذلك أنه ليس فى استطاعة البشر أن يعيش تحت هذه النيران ، ولكن عندما ينقشع التراب والدخان بعد بضعة دقائق — يرى جنود المدفعية المصريين فى مواقعهم يطلقون النيران من مدافعهم على خصمهم الرهيب .

البوارج البريطانية تتحول إلى حصن (الأطة) :

فى منتصف الواحدة بعد الظهر ، وبعد إسكات الحصون الثلاثة المذكورة اتجهت البوارج الثلاث نحو حصن (الأطة) بعد أن انضمت إليها البارجة (انفلكسيبل) و (تمرير) للمشاركة فى القتال ، وهكذا ظلت البوارج الخمس تصوب نيرانها دفعة واحدة إلى الحصن المنكود الذى دافع عن نفسه دفاعاً عجيباً أمام أقوى قطع الأسطول البريطانى .

الكابتن (وولتر جود سول) : لقد عجبت لهذه البطولة الرائعة :

ولقد سلك هذا الحصن مسلكاً باهراً غاية فى البسالة والإقدام جعلا شاهد العيان الكابتن البريطانى وولتر جود سول (قائد الباخرة تشتلرن) والذى شاهد المعركة يومئذ يقول :

لقد عجبت من هذه البطولة التى لا يمكننى أن أدرك كنهها والتى كانت تسيطر على هؤلاء الجنود المصريين الذين كانوا يطلقون مدافع (الأطة) ، كما عجبت أشد العجب من الموقف الذى وقفه قائد هذا الحصن قرب سارية علمه وهو بمفرده والمنظار فى يده ينظر من خلاله الأثر الذى تحدثه المقذوفات التى كان يأمر باطلاقها .

كان القائد المصرى حقاً رجلا شجاعاً :

لقد كان حقاً رجلا شجاعاً مزدرياً عدد المقذوفات التى كانت تلقى على حصنه — ذلك الحصن الذى كان يجاوب هذه المقذوفات باطلاق مقذوفاته كلما مرت عشر دقائق ، ثم رفعت البارجة (انفلكسيبل) مرساتها وشرعت تصوب قنابل مدافعها الضخمة إلى هذا الحصن ، ويظهر أنها دكت أساسه ودمرته تدميراً — وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر سددت قذيفة إلى مخزن ذخيرته ولابد أنها أصابته لأنه انفجر فى منتصف الساعة الثالثة ونصف تماماً ولابد أيضاً أنه قد قتل جنود كثيرون فى هذا الحصن لأن عدداً كبيراً منهم طار أما القائد المصرى الذى كان واقفاً فيه وقفة الأسد فى عرينه ، فقد طار هو الآخر فى الفضاء هو وصارى علمه .

البوارج تتحول إلى حصن قايتباى :

وعقب ذلك اتجهت البوارج الخمس إلى قلعة (فاروس) ، قايتباى ، وظلت تصليها ناراً حامية إلى الساعة الخامسة مساء — وهى الساعة التى أعطى فيها الأميرال (سيمور) إشارة إيقاف الضرب .

القلعة المصرية تستمر فى القتال رغم تدميرها :

ولقد أصيبت هذه القلعة إصابات جسيمة ، ولكنها رغم ذلك — ظلت تطلق النيران على البوارج البريطانية إلى أن نفدت جميع الذخائر الموجودة بها .

الهجوم على حصون (أم قبيبة — مكس — الدخيلة) :

أما بالنسبة لمنطقة المكس والدخيلة ، فقد عينت للتعامل معها البوارج الثلاث (انفسيبل — بنلوب — مونارك) تحت قيادة الأميرال سيمور مباشرة وقد تمكنت البوارج المذكورة من إصابة مخزن الذخيرة الذى يقع خلف حصن الدخيلة ، وذلك أثر قذيفة من قذائف البارجة (مونارك) فدمر عن آخره .

الأميرال يأمر بالاقتراب من الشاطىء ومحق رجال المدفعية :

وعقب ذلك مباشرة أشار الأميرال (سيمور) إلى البارجة (مونارك) للاقتراب من الشاطىء بقدر ما يسمح به غاطسها لتقوم — بواسطة الرشاشات الموجودة بها — بقتل من تبقى من الجنود فبدأت فى مباشرة هذه المهمة الجهنمية على الفور .

القائد البريطانى : لقد أجلت العمل أيها الجندى المصرى :

ولقد كان من ضمن القادة البريطانيين خلال هذا اليوم الطويل الماجور (تلك Tullok) أحد رجال قلم المخابرات — على ظهر البارجة (انفسيبل) أمام حصن المكس — يقول هذا القائد[1] :

لقد كان حقاً من العجب أن أرى هؤلاء الجنود — رغم شدة الضرب — واقفين فى أماكنهم ملازمين لمدافعهم ، وقد رأيت أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا تدخل فى إحدى فتحات مدافعهم فأقول فى نفسى لقد قضى على هذا

---

(١) فى كتابه « ذكريات أربعين عاماً فى الخدمة » : ص ٢٧٧

المدفع وأمسى فى حيز العدم ، ولكنى لا ألبث بعد ذلك حتى أقول كلا ثم كلا . . فقد كان الضرب من هذا المدفع يستمر فى الوقت المناسب ، وقد أتى مرة من المرات بسرعة فائقة جداً ، حتى لم أتمالك نفسى ووثبت إلى حافة البارجة ورفعت يدى صائحاً : لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى .

تدمير حصن المرابط :

ولقد رأت البارجة (كندور) أن حصن المرابط يطلق مدافعه على البوارج البريطانية باحكام فاقتربت منه وبدأت تهاجمه لتدميره وحينئذ أمر الأميرال (سيمور) السفن الأربع الصغيرة (سفن المدفعية) بمعاونة (كندور) فى الهجوم ففعلت وتم تدمير الحصن تماماً .

حصنا (القمرية والمكس) يتأهبان مرة أخرى :

وفى منتصف الساعة الرابعة أمرت البارجة بتلوب الأميرال سيمور كما أبلغته البارجة (مونارك) بعودة جنود حصن (المكس) تأهباً للضرب فأمر بتدميرهما تماماً — وهكذا بدأت البارجتان الضرب على الحصنين المذكورين حتى الساعة السادسة والنصف مساء حيث توقف الضرب .

القائد العام لا يستطيع إخفاء إعجابه من شجاعة « هؤلاء المصريين » :

ويصف الماجور (تلك Tullok) فى كتابه المشار إليه (ذكريات أربعين عاماً فى الخدمة) انطباعه عقب المعركة فيقول — ص ٢٨٦ :

« وبعد أن نزلت إلى البر بوقت يسير طفت حول البطاريات القريبة من رأس التين ، فوجدت مشاهد البعض منها يتفطر منه الفؤاد — كما سمعت فيما بعد من مصدر وثيق أن الخسائر فى الأرواح بالنسبة لجنود المدفعية والمشاة الذين كانوا بالحصون تزيد عن ٨٠٠ قتيل وقد أوثقت القتلى بالعربات فى أثناء القتال ولكن لما كان عدد القتلى فى نهاية المعركة كبيرا جداً ، فقد فتحت لهم حفرة واسعة فى رأس التين وألقيت أجسادهم فيها ثم ووريت التراب ، ومع هذه المواراة يستطيع الإنسان فى عدة مواضع من هذه المقبرة أن يرى الطبقة العليا من الأجساد ظاهرة على وجه الأرض : . وقد سقط ساتر الحصن على بعض الجنود فأزهق أرواحهم وبقيت أجسادهم تحت الأنقاض دون أن يستطيع أحد إخراجها ، ووجدت جثة ضابط مصرى وجثث ستة من الجنود البواسل تحت مدفع انقلب بقذيفة بريطانية . . وفى رأيى أنه لا يستطيع إلا القليل من الناس أن يؤدوا واجبهم بمثل ما أداه أولئك الجنود الذين كانوا فى الحصون فى ذلك اليوم ، وليس فى مقدور الإنسان أن يخفى دهشته وإعجابه من أن هؤلاء الجنود فى الحالة التى كانوا فيها تحت النيران المنصبة عليهم من جانب أرادوا أن يرفعوا المدفع من سقطته التى سقطها . . وفى حالة أخرى وهم فى معمعة القتال — حاولوا أن يرفعوا مدفعاً آخر إلى مكانه وهم تحت وابل من النيران .

وفى المكس كان يوجد ساتر سميك من الرمال يتوارى خلفه جنود المدفعية ، ولكن على طول امتداد البطاريات الشرقية لم يكن يوجد إلا ستائر عنيفة من الأحجار فى قليل من المواضع ، وأن الأنقاض التى انهارت منها لابد أن تكون قد أحدثت خسائر جسيمة فى الأرواح .

وكيل الجمارك البريطانى : لقد ثبت المصريون ثبات الأبطال :

كما يقول البارون (دى كيوزل De Kusel) وكيل الجمارك المصرية والذى كان على السفينة (تنجور) تجاه الاسكندرية[1] :

لقد ثبت جنود المدفعية المصرية فى مواقعهم أمام نيران البوارج البريطانية الهائلة الفتاكة ثباتاً دل على بسالتهم وبطولتهم ، وظلوا يطلقون قنابلهم باستمرار فتصيب أهدافهم ، وليس هناك أدنى شك فى بطولة الجنود المصريين فقد قاتلوا مستبسلين . . ولم ينته الضرب إلا فى منتصف الساعة الثانية من صباح يوم ١٢ يوليو لأن المصريين إذا كان لديهم مدفع فى أى موضع لم يكن قد سقط استعملوه إلى أن يكره هذا المدفع على السكوت إكراها .

وكيل قنصل اليونان : هؤلاء الشجعان يمثلون الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة .

ويقول مسيو (سكوفيدس Skofidia)[2] وكيل قنصل اليونان فى الاسكندرية :

وعند الطلقة الخامسة جاوبت بطاريات البر بنشاط وإحكام أدهشا الإنجليز ، وتقدمت البوارج البريطانية الضخمة ببطء واتخذت لها موقعاً أمام الحصون وصوبت إليها نيران مدافعها فى مركز واحد وقد كانت قذائفها الهائلة تدعو إلى الظن بأنها ستدمر تدميرا ، ولقد كانت هذه القذائف تحطم المدافع الضخمة وتقلب قواعدها وتنسف مستودعات الذخيرة وتحفر حفراً يقع فيها المصريون التعساء وعندئذ تقترب شيئاً فشيئاً لتضعف قوة هؤلاء المصريين بغمر حصونهم بطوفان من القذائف مدافع (السربند) المقامة على ساريات السفن ، وكانت قذائف المدفعية المصرية تسقط فى البحر وهى فى منتصف المسافة[3] فتثير عجاج المـــاء ، والبعض الآخر يصطدم بمدرعات الإنجليز الضخمة فترتد عنها وكأنها جسم من المطاط وتغوص فى البحر .

ومع ذلك فلا ينبغى إلا الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من بطولة وبسالة وثبات فى مواقعهم ، ولقد كنت أشعر برثاء لأولئك الضحايا الذين راحوا طعمة للنار حيث كان معظم الحصون بلا ساتر فقلبت القنابل مدافعها مما كان له أكبر الأثر فى حدوث الخسائر فأحاطها بمئات من جثث القتلى ، ومن خلال الدخان الكثيف الذى كان يبعده الهواء فى بعض الأوقات كنت أرى هؤلاء الجنود الشجعان الذين كانوا يستطيعون أن يخدموا وطنهم فى ظروف أخرى — والذين كانوا يمثلون — بحق الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة .

شاهد عيان يصف المعركة :

ويصف « سليم خليل النقاش »[4] المعركة ومقدماتها ، فيقول :

كان الجهادية (الجيش) قد جعلوا على أسطح المنازل العالية ديادبة (مراقبين) من ضباطهم يرقبون حركات الأسطول الإنجليزى ، وعند الساعة السابعة من الصباح أطلقت السفينة « انفلكسيبل » المدفع الأول ، ثم تلتها السفن

(١) فى كتابه ذكريات رجل انجليزى عن مصر — ص ٢٠٠

(٢) فى كتابه (مصر المعاصرة وعرابى باشا) — ص ١٦٨ — ١٦٩

(٣) نظراً لقدم طرازتها وصغر اعيرتها وبالتالى قصر مراميها .

(٤) فى كتابه (مصر للمصريين) — الجزء الخامس — طبعة عام ١٨٨٣

الأخرى فأجابتها القلاع والحصون المصرية فاشتبك القتال وحمي الوطيس فكان يوماً عظيما ضارعت فيه لعلعت المدافع قصف الرعود وحاكى لمعان السلاح وميض البروق ، وكانت السفن البريطانية تمخر عباب البحر كأنها براكين تقذف من فوهاتها ناراً تصب على الناس موتاً أحمر . . ودامت هذه الحال إلى أن كانت الساعة الحادية عشرة حيث عجزت بعض الحصون عن المقاومة ، فان السفن كانت تطلق قنبلة المدفع فتصيب بها مدافع القلاع فتعطلها واستمر الأمر على هذا المنوال فى مدة القتال إلى أن أبطلت السفن عمل مدافع الحصون فتغلبت عليها — وكان على كل سفينة شبكة من الفولاذ مدلاة من أعلاها إلى أسفلها تحمى جوانبها وتميت تأثير المدافع المصرية فان القنبلة كانت قبل أن تصل السفينة تصيب تلك الشبكة المدلاة فتضعف قوتها ولا تؤثر فى الدارعة (البارجة) .

وكانت المدافع أثناء دورانها تحشى بالقنابل حشوا لا يبقى ولا يذر ، فاذا أطلقت تصاعد من السفينة دخان كثيف يحجبها عن أعين الراصدين . . وكثيرا ما انطلق من الحصون قنابل لم تصل إلى السفن لبعد المسافة .

وعلى الرغم من شدة نيران المدفعية المصرية فان مقذوفاتها كانت تسقط فى الماء قبل أن تقطع ثلث المسافة ، وكان الدخان يخيم على الحصون بحيث أصبح الإنجليز لا يعرفون كيف يقذفون كراتهم وإلى أية جهة يطلقونها ، وهو ما أوقعهم حينا فى الارتباك .

أما مدافع الأسطول فكانت تطلق قنابل كثيراً ما تجاوزت القلاع بمراحل لقوتها وشدة اندفاعها . وفى أثناء إطلاق المدافع على الاسكندرية ، أى فى نحو الساعة الثامنة — ركب « عرابى » عربته وإلى جواره « طلبة باشا عصمت » وتجولا فى شوارع المدينة يتفقدان أحياءها ويرسلان بعض الضباط والجنود إلى منازل الأجانب مستطلعين خشية أن يكون فيهم من يخابر السفن الإنجليزية بالتلغراف أو التليفون أو باشارات متعارفة بينهم ، وكان بعض العساكر يصعدون إلى السطوح ويقطعون الأسلاك التليفونية والتلغرافية خصوصاً أنهم كانوا قد علموا أن الأميرال (سيمور) وصل الأسلاك التلغرافية البحرية باحدى سفنه قبل انتشاب الحرب بنحو ٢٠ يوما ورسا بالسفينة التى وصل بها الأسلاك خارج البوغاز وجعلها مثل محطة التلغراف يخابر منها قبرص ولوندرة (لندن) مخابرة تلغرافية بالأسلاك الممدودة تحت المياه وأنه وصل أيضاً أسلاك التليفون بتلك السفينة بحيث صار فى الإمكان أن يخابر الاسكندرية مخابرات شفهية ، وان له — عدا ذلك — جواسيس من الأجانب فى البر أقاموا فى المدينة أثناء القتال ليبلغوه الأخبار باشارات اصطلح عليها الفريقان .

القتال فى غاية الشدة :

لازلنا نتابع ما كتبه « سليم خليل النقاش » فى كتابه « مصر للمصريين » عن شهوده للمعركة التى نشبت بالإسكندرية صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ .

واستمر إطلاق المدافع إلى الساعة العاشرة صباحاً بغاية ما يكون من الشدة والتعجيل حتى تعطلت القلاع والحصون — عدا قلعتى العجمى والأطة — فانهما ثبتتا ثم انخفضت حدة النيران وقل إطلاق المدافع بعد أن تحطمت القلاع والحصون وقتل عدد كبير من طوبجيتها .

أما حصن (المكس) فقد أصلته البارجة « تمرير » نارا حامية لوجود أربعة مدافع فيه من عيار كبير وقد رد بدوره بضرب البارجة القائدة (انفيسيل) وأحكم إيصال مقذوفاته إليها مرات متعددة ، ولكن فى الساعة العاشرة والنصف أطلقت البارجة (مونارك) قنبلة دمرت مخزن الحصن المذكور فكان لصوته دوى هائل .

عرابى يعلن الحرب على بريطانيا :

وأخبر بعض الثقاة أن « عرابى » وجماعته كانوا أثناء إطلاق المدافع – أى قبل الظهر بساعتين – مجتمعين فى قلعة « كافاربالى » بمحرم بك ، وهناك نظموا منشورا قرروا إرساله بالتلغراف إلى جميع المديرين فى داخلية البلاد – ومآل هذا المنشور أن الحرب انتشبت بين إنجلترا ومصر ، وأن على الحكام جميعاً أن يمتثلوا لأوامر ناظر الجهادية والبحرية وأن يلبوه فيما يطلبه من إرسال الجنود والنقود والميرة (الأطعمة) وغير ذلك مما يرى لزوماً لاستخدامه .

الخديو يتنقل من قصره رافعاً العلم الأبيض :

وفى الساعة الرابعة والدقيقة ٥٠ يوم الخميس ١٣ يولية مر الخديو – فى عربة مكشوفة – وإلى جانبه « درويش باشا » ووراء عربتهما عربة فى مقدمتها ثلاثة من الغلمان ، وعربة نقل عليها بعض الأمتعة الخاصة بالخديو – وكان موكب الخديو مؤلفاً هذه المرة من (٦٠ – ٧٠) فارساً تتقدمها طائفة الحرس بسيوف تعلو رؤوسها أعلام بيضاء إشارة إلى المسالمة .

إلى هنا ينتهى ما كتبه « سليم خليل النقاش » عن معركة ١١ يولية ١٨٨٢

القس « لويس » يصف شجاعة المصريين :

أما القس « لويس صابونجى » فيكتب إلى صديقه (ولفرد بلنت) رسالة بعد القتال يصف فيها واقعة ضرب الاسكندرية وقد كان خلال القتال مستقلا سفينة فى موقع يمكنه من رؤية المعركة .

يقول القس :

« فى صباح الثلاثاء وفى الساعة السابعة صباحاً انبعثت أول طلقة على الحصون . وقد كنت على ظهر السفينة (سعيد) على مقربة من الأسطول البريطانى . لقد غادر درويش باشا الاسكندرية بمجرد أن بدأ الضرب وأبحر إلى حيث لا يدرى أحد مكانه ومن بين ١١٧٠ شخصاً كانوا معى هذا الصباح وشهدوا الضرب ، كنت أنا وحدى الذى رجوت الله حظاً سعيداً لعرابى وأنصاره ، وعندما انبعثت أول طلقة تموجت فى الهواء القبعات والمناديل والأيدى مشفوعة بالهتافات وعلامات الرضاء .

وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف درجاتهم فرحين يتنبأون بسقوط الحصون خلال ساعتين .. ولكن شعورهم بالخيبة ما لبث أن ظهر . . فالساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تتوقف النيران من الجانبين. والدفاع المصرى لا يزال حتى الآن فائقاً ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بما عسى أن تكون النتيجة .

أكتب إليك من فوق ظهر السفينة وأنا أشاهد الضرب وأثبت ما أستطيع أن أراه . . ولكن ماذا عسى المرء أن يرى خلال سحب كثيفة الدخان سوى الرعد والبرق من المدافع ؟ ولم يكن أصدقاؤنا وكذلك لم يكن حتى القناصل واثقين من عزم إنجلترا على الحرب ، وكذلك لم أكن أنا واثقاً من ذلك » .

جون نينه : أدهش المصريون خصومهم :

أما «جون نينه» – عميد الجالية السويسرية بمصر – فيصف ما شاهده بعيني رأسه يوم القتال فى كتابه : «عرابى باشا» فيقول :

«.. وكان رجال المدفعية المصرية يطلقون قذائفهم بإحكام وحماسة أدهشا خصومهم الذين استمر عملهم الجهنمى متصلا عشر ساعات ونصف الساعة دون أن يستطيعوا المباهاة بنصر حاسم .. وكانت تغطى المدينة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان ، كما كان قصف المدافع يصم الآذان ، وكنا حين تتبدد الرياح والسحب من الدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط فى البحر فى منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول البريطانى .. لقد أدى رماة المدافع المصريين عملهم على خير ما يرام على الرغم من أن مدافعهم كانت أقل من مثيلاتها البريطانية فقد أصابوا سبع بوارج بريطانية إصابات بعضها خطير .

وكانت القذائف البريطانية تزيد عن المتر طولا ، وسقطت أولاها فى قلعة (رأس التين) دون أن تتفجر فنظر إليها المصريون وقال أحد الضباط مشيراً إليها : «هلم أيها الإخوان لتشهدوا مثلا من إنسانية إنجلترا» .... وقد قال عبارته بلهجة تنم عن الذكاء والسخرية .. فضحك إخوانه جميعاً وظلوا يواجهون ما يلقى عليهم باسمين .. !

مجزرة وحشية متعطشة للدماء :

ولا يسعنا إلا أن نعترف بأنها كانت مجزرة وحشية لا موجب لها ولا مسوغ ، ولم يكن الباعث عليها إلا الشهوة الوحشية المتعطشة للدماء ..

وكنت أتوق إلى أن أسأل أولئك الذين يطلقون نيرانهم على الحصون المصرية : «هل يستطيع الإنجليز عندما يعودون إلى بلادهم ويجتمعون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عما فعلته تلك المجازر البشرية بالفتك والتخريب ؟ !

إنى لفى شك من هذا .. فأية إهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثأر من مصر على هذه الصورة البشعة ؟ !

ومع هذا فما كان أروع منظر أولئك الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة كأنما هم فى استعراض حربى لا يخافون الموت الذى يحيط بهم .. وكانت معظم الحصون بلا سواتر أو متاريس ، ومع هذا كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء وادى النيل خلال الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى ساحة الوغى ، وقد بعثوا ليناضلوا العدو وليواجهوا نيران مدافعه وكان القادة يمرون على الحصون يستحثون الرجال وهكذا أدى الجميع واجبهم – رجالا ونساء – كبارا وصغاراً» .

لا أوسمة أو نياشين :

يقول «نينه» فى رسالته :

«ولم تكن ثمة أوسمة أو نياشين تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم . وإنما كانت تثير الحماس فى نفوسهم

عاطفة الوطنية والثورة على ما تعرضوا له من فظائع وهم فى مواقعهم يمثلون الناس المجهولين الذين لم يفكر أحد فيما تحملوا من آلام .

وقد بدأ نقل جثث القتلى – منذ العاشرة صباحاً – وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة إلى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكرى ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة دون احتفال فى المقابر المجاورة للمستشفى :

أما الجرحى ، فقد كانوا ينقلون إلى المستشفيات فى عربات النقل وكان مما يؤلم النفس حقاً منظر تلك العربات التى تقل الواحدة منها عشرين أو ثلاثين قتيلا من الجند أو الأهالى ، وقد شدت بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات والدماء تقطر من أجسادهم » .

الأمهات يلعن من تسبب فى المجزرة :

ويختتم جون نينه رسالته إلى المستر بلنت قائلا :

وكانت بعض الأمهات يحتضن أبناءهن وهم يلفظون أنفاسهم ، بينما كانت بعض النسوة يجرين خلف العربات نادبات صائحات يلعن من كانوا سبب هذه المجزرة البشرية . .

وخيم السكون الرهيب على هذه الشوارع التى كانت من قبل عامرة بالناس زاخرة بالحياة ، حتى غدت كأنما هى شوارع مدينة أودى بأهلها الوباء » .

انتهت رسالة جون نينه إلى صديقه ولفرد بلنت يصف له فيها ما شاهده يوم ١١ يولية ١٨٨٢

التقرير الرسمى للأميرال « سيمور »

قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة :

وبعد انتهاء الضرب ، قام الأميرال (سيمور) بارسال ثلاثة تقارير عن ضرب حصون الاسكندرية وفيما يلى نص التقرير الأول منها – وهو أهمها – حيث اشتملت المعلومات الواردة فى التقريرين الثانى والثالث على وصف تفصيلى لأعمال رجال الأسطول البريطانى وطلب الترقيات . . . الخ .

نص التقرير الأول

من ظهر البارجة (انفنسيبل) فى ١٨٨٢/٧/١٤ :

إلى سكرتارية الأميرالية . .

« سيدى » : :

لى الشرف أن ألتمس أن تتفضلوا وتخبروا اللوردات مندوبى الأميرالية أننى لم أتمكن فى هذا الوقت مع الأسف من إرسال تقرير مفصل عن الهجوم على حصون الاسكندرية بسبب انشغالى بهذه المهمة الشاقة .

إنه بسبب إخفاق فى طلب بترغبية عن المسائل التى كنت قد كلفت بطلبها من حكومة مصر ، هاجمت فى ١١ الجارى البطاريات المنصوبة على واجهة الاسكندرية الشمالية والاستحكامات المقامة فى الشمال الغربى ، ونجحت فى إسكات الحصون فى منتصف الساعة السادسة مساء وهو الوقت الذى أعطيت فيه الإشارة بالكف عن الضرب .

وفى صباح يوم ١٢ أمرت (تمرير) و (انفلكسيبل) بأن تهاجما حصن (فاروس) – وبعد إطلاق مدفعين أو ثلاثة رفع علم الهدنة على حصن (رأس التين) فأرسلت عندئذ ضابط أركان حرب الأونورابل (هدروث لامبتن) وكلفته باستجلاء السبب ، ويؤخذ من تقريره أن كل ما فى الأمر خديعة تافهة عملت لاكتساب الوقت بلا مراء .

وبما أن المفاوضات قد فشلت لأن طلبى هو تسليم البطاريات الحاكمة على ممر البوغاز – أطلق مدفع على سطح ثكنات (المكس) – وعندئذ رفع علم الهدنة مرة أخرى . فأرسلت ضابط أركان حرب المذكور ومعه القومندان (موريس) إلى الميناء على ظهر السفينة (هليكن) ولما ذهب إلى يخت الخديو (المحروسة) وجد أن طاقم هذا اليخت قد رحل – وعند إيابه بعد دخول الليل أعلن أنه يعتقد أن المدينة قد أخليت من السكان .

وأمس صباحاً توغلت فى الميناء على ظهر البارجة (انفنسيبل) ومعى المدرعتان (بنلوب) و (مونارك) وأنزلت إلى البر فرقة لتضع يدها على (رأس التين) إلا أننى متأسفاً لاضطرارى أن أخبركم أن مدينة الاسكندرية قد أصيبت بأضرار بالغة من الحريق والنهب ، وفى الساعة الرابعة و ٤٥ دقيقة بعد الظهر وصل سمو الخديو إلى سراى (رأس التين) وخصصت لحمايته ولاحتلال شبه الجزيرة سبعمائة بحار ويجب على أن أعرب عن إعجابى الزائد بالسلوك الذى سلكه الضباط ورجال الأسطول عند تأدية مهامهم وأن أثنى عليهم الثناء الجم وأخص منهم بالذكر الكابتن (ولتر هنت جرب) ربان السفينة المدرعة (سلطان) وهو أقدم الضباط ، ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة إلى أن قتل عدد كبير منهم وسأرسل عما قريب – على قدر الإمكان – تقريرا مفصلا وأرفقه بصور المراسلات ، وتجدون رفق هذا بياناً بعدد القتلى والجرحى .

ولى الشرف أن أكون خادمكم المخلص .

بوشامب سيمور
أميرال ورئيس القواد

قائمة القتلى والجرحى فى هذا القتال :

القتلى (٥) : ١ من (انفنسيبل) – ١ من (الكسندرا) – ١ (من سوبرب) ٢ – من (سلطان) . والجرحى (٢٨) : ٢ من (انفنسيبل) – ٣ من (الكسندرا) – ١ من (سوبرب) – ٨ من (سلطان) – ٦ من (انفسيبل) ٨ من (بنلوب) .

بوشامب سيمور

مقتطفات من التقرير الثالث :

ولا يسع (سيمور) فى أجزاء من تقريره الثالث الذى كتبه وأرسله بتاريخ ٢٠-٧-١٨٨٢ إلى حكومته إلا أن يعترف بعنف المقاومة المصرية وبطولة رجال المدفعية المصريين حين يقول :

وقد كانت حركات بطاريات حصن « الاسبتالية » من البداية إلى النهاية تدار بطريقة موفقة جداً ، مع أن هذا الحصن سكت وقتاً ما على أثر ضربه بقذيفة من المدرعة (انفلكسيبل) فان جنوده لم يتخلوا عن مدافعهم . وكانت بطاريات « رأس التين » تستخدم المدافع الفرنسية من عيار وطراز قديمين بالإضافة إلى أن تلك المدافع الفرنسية كانت من عيار ٣٦ — وهذه المدافع مشتراة من عهد محمد على ، وكان التصويب من جانب المصريين يدعو للاعجاب ويمكن أن يقال ذلك أيضاً عن مدافع خطوط (المكس) لولا أنها استخدمت أكثر المدافع من عيار ٣٦ ومدفعاً أو إثنين من عيار ١٥ بوصة (مششخنة) قليلا عن المدافع عيار ١٠ بوصة و ٩ بوصة من مدافع الششخنة ذات المرمى البعيد عيار ١٠ بوصة ، وكان كل منهما يرمى قذائفه تلو الآخر فى اتجاه الأسطول الراسى قريباً من الشاطىء بكيفية تدعو للاعجاب .

قائد المدرعة (سلطان) : إن رجال المدفعية المصرية لا يستهان بهم :

كما يعترف القومندان (هنت جرب) قائد المدرعة (سلطان) فى تقريره الرسمى للأميرال (سيمور) ... ولما وجدت أن الحصون أقوى مما كان يظن قبلا وأن جنود المدفعية المصرية لا يستهان بهم ، وأنهم فى الواقع يحكمون الضرب ، رأيت من الصواب أن ألق المرامى لكى أحصل على المسافة اللازمة بالدقة .

شجاعة الأهالى ومساعدتهم لقواتهم المسلحة :

وإنه لما يذكر بالفخر ما أظهره سكان المدينة من البسالة والحمية وخاصة النساء والأطفال ، ويشير عرابى إلى ذلك فى مذكراته[1] — بقوله :

فى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات .

أما الإمام الشيخ محمد عبده فيقول :

« . . وتحت مطر القنابل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يتغنون بلعن الأميرال ومن أرسله[2] .

---

(١) مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢) — بقلم زعيم الثورة العرابية (أحمد عرابى) الجزء الثانى .

(٢) تاريخ الاستاذ الإمام — ص ٢٠٠

محمود باشا فهمي : بعض الأهالي كان يعمر المدافع ويضربها :

ويقول محمود باشا فهمي[1] :

«.: ورأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة (رأس التين) و «أم قبيبة» وطوابي (باب العرب) وهمّتهم في مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر والخراطيش والبارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، وأن البعض من الأهالي كان يعمر المدافع ويضربها على الأسطول» .

القائد (جودريتش) : أجاب المصريون إجابة مدهشة تستحق الإعجاب :

يقول القائد الأمريكي (جودريتش) من رجال البحرية الأمريكية والذى كان على متن السفينة الحربية الأمريكية (لانكاستر) ورأى كل ما حدث بعيني رأسه في تقريره إلى حكومته — ص ٣٦ :

«.. وجاوب المصريون — رغم التفاوت الذى كان بينهما من ناحية العدد ومن ناحية عيار المدافع على النيران المتدفقة من أفواه المدافع البريطانية إجابة مدهشة لم تكن متوقعة بتاتاً وبشجاعة تستحق الإعجاب وعندما كانت المدرعة (أنفلكسيبل) ترسل مقذوفات زنة كل منها ١٧٠٠ رطل على حصن الفنار وتصيب ساتره فتثير الأنقاض والأتربة إلى ارتفاع الفنار نفسه، ويتخيل المرء عندما يرى ذلك أنه ليس في الإمكان أن يعيش أى إنسان تحت نيران كهذه النيران ، لا يلبث بعد بضع دقائق وحالما ينقشع الغبار — أن يرى جنود المدفعية المصرية ملازمين مواقعهم يطلقون قذائفهم على خصمهم الرهيب .

التلف الذى حل بالحصون المصرية[2]

١ — حصن السلسلة :

قذفت هذا الحصن البارجة (تمرير) ببضع قذائف محكمة التصويب بينما كانت تهاجم قلعة قايتباى ولم تجاوبه البارجة المذكورة فبقى الحصن سليما بعد انتهاء القتال .

٢ — قلعة قايتباى :

أصيبت واجهتها الشمالية الغربية باصابات شديدة من مقذوفات الأسطول ، وهدمت حوائطها في عدة مواضع ، كما دخلت بعض قذائف الأسطول من فتحاتها المعدة لإطلاق المدافع وانفجرت داخلها فقلبت أربعة من مدافعها كما أتلفت ثلاثة مدافع أخرى ومدفع عيار ١٠ بوصة من مدافع بطارية الطبقة العليا بسبب انهيار أنقاض القصر

(١) البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر — ص ٢٢٠ .

(٢) رغم قيام (جلادستون) البريطانية بتدبير معركة ضرب الإسكندرية لاتخاذها ذريعة لاحتلال مصر كلها بعدئذ ، فقد قام المستر «جون برايت» أحد أعضاء الوزارة البريطانية بالاحتجاج على هذا الاعتداء فاستقال احتجاجا عليه بعد أن وصف الضرب بأنه «انتهاك فادح لقانون الاخلاق» .

الحيق الذى كان هذا المدفع مستنداً إليه ، كما قلبت قذيفة أخرى من قذائف الأسطول مدفعاً آخر عيار ٢٥ سم من الطراز القديم .

أما الواجهة الغربية فقد دمرت تماماً وفتحت فيها ثغرة واسعة كشفت المدافع وجعلتها فى العراء مما تسبب فى تدمير مدفعين تدميراً تاماً .

ولم تشترك مدافع الواجهتين الشرقية والجنوبية فى القتال وبالرغم من ذلك فقد سقط مدفعان من مدافع الواجهة الجنوبية بضربة جانبية .

٣ — حصن (الأطة) :

لم تشترك واجهته الشمالية الشرقية فى القتال وبذلك لم تصب بضرر ، وقد أصيب أحد المتاريس المشرفة على واجهته الشمالية — الغربية بنحو ٢٠ قذيفة منها ١٢ دخلت دخولا عميقاً ولكنها لم تنفجر ، بينما انفجرت الباقيات فأحدثت تلفاً هائلا ، وأصيب مدفع (أرمسترونج) عيار ١٠ بوصة بقذيفة فانقلب ، كما أصيب مدفع آخر من عيار ٢٥ سم ، بينما اقتلعت قنبلة مدفعاً من بطاريته الوسطى ودمر مدفع آخر انهارت فوقه الأنقاض ، كما أصيبت الواجهة الجنوبية من الحصن بقذيفة مرت فوقه ففتحت ثغرة واسعة — أما مخزن ذخيرته فقد أصيب إصابة مباشرة الأمر الذى أدى إلى انفجاره مما نتج عنه إخلاء هذا الحصن .

٤ — حصن الاسبتالية :

وقد أصيب إصابات كثيرة فتهدم خاصة من وجهته الشمالية — وبالرغم من ذلك ظل يطلق قذائفه ، وقد شوهد بعد المعركة على أحد مدافع هذا الحصن أكثر من ٤٩ أثرا من آثار الشرابنل[1] وكانت معظم هذه الآثار يزيد عمقها على ٩٠ سنتيمتراً .

٥ — حصن رأس التين :

وقد أصيبت بطاريته الوسطى بقذائف كثيرة كان ضمنها ٧ قذائف دخلت من فتحاتها وأصيب مدفع من طراز (أرمسترونج) عيار ١٠ بوصة بقذيفة حطمت محور عجلته وكما أصيب مدفع آخر من هذا الطراز عيار ٩ بوصة وقد أصيبت بطاريات برجه بست قذائف دخلت من فتحاته وأصاب إحداها مدفعا من طراز (أرمسترونج) ورغم ذلك ظل يواصل إطلاق النيران ، وأصيب مدفع آخر من نفس الطراز كما دمر مدفعان آخران .

٦ — حصن الفنار :

أصيبت الواجهة الغربية منه بعطب شديد من نيران الأسطول الخارجي ، فقد اصطدمت هذه الواجهة بقذيفة أحدثت فيها ثغرة عرضها (٤,٥ متر) وعمقها (١,٥ متر) وحفرت ٤ قذائف حفرا قطرها نحو ثلاثة أمتار ، كما صدمت أربع قذائف أخرى (المزاغل) — أى فتحات إطلاق النيران — كما أصابت قذيفة منخفضة قمة الساتر

---

(١) الشرابنل : طراز من دانات المدفعية فى الجو قبل اصابته بالهدف فيصيب الأفراد بالشظايا .

الترابى فأطارته بينما أحدثت ١٤ قذيفة أضراراً مختلفة ، وأصيبت خمسة مدافع باصابات مختلفة جعلتها غير صالحة للاستعمال .

٧ — حصن صالح أغا :

ولقد هاجمت هذا الحصن الواقع فى الداخل البارجتان (مونارك) و (بنلوب) فترة قصيرة فى آخر اليوم فأصيبت ستائره بأضرار طفيفة ، كما تفكك مدفع قديم من مدافعه .

٨ — حصن أم قبيبة :

وقد قامت بمهاجمته البارجة (أنفلكسيبل) على بعد ٣٥٠٠ متر وأصابته بثلاث عشرة قذيفة ألحقت به أضرارا جسيمة ، كما أن الأحجار والأتربة التى نتجت عن انفجار القذائف غطت المدافع ، كما شطرت إحدى القنابل مدفعاً عيار ١٦ سم نصفين ، وبعد المعركة وجد فى فناء هذا الحصن عدد كبير من المقذوفات التى لم تنفجر .

٩ — حصن المكس :

دمر به أربعة مدافع تدميراً كاملا ، كما لحق التلف بمبانيه القائمة فى الخلف أكثر من غيرها ، وبعد جلاء جنوده عنه نزل بعض الجنود الإنجليز إلى البر ومعهم أدوات النسف ، ونسفوا مدفعيه الضخمين ، كما أتلفوا مدافعه الأخرى .

١٠ — قلعة المكس :

أطلقت عليها مقذوفات كثيرة العدد فدمر مدفع من طراز (أرمسترونج) كما أصيب عدد كبير من أطقم المدافع .

١١ — حصن الدخيلة :

لم يصبه ضرر ما ، غير أن مدفعين من مدافعه انقلبا أثناء القتال كما نسف مخزن الذخيرة خلفه فدمر عن آخره .

١٢ — حصن المرابط :

وكانت مهمة ركنه الشمالى الشرقى تنحصر فى مقاومة البارجة (كندور) والبوارج المهاجمة ، وقد أصيب بعدد ضخم من القنابل ، كما وجد بفنائه عقب المعركة عدد كبير من القذائف لم ينفجر .

١٣ — حصن العجمى :

لم يشترك فى القتال .

خسائر المصريين فى الأفراد

يقول الإنجليز أن قوة الدفاع المصرية التى قادها (طلبة باشا عصمت) لم تكن تقل عن ٢٠٠٠ جندى مدفعجى : وكان الإنجليز على علم تام بأوضاع الدفاعات المصرية ، وعلى بينة بأماكنها التفصيلية وقوتها . وقد كانوا يعرفون مثلا أن طابية المكس يقودها صاغ وتحت قيادته يوزباشى وثلاثة ملازمون و ١٥٠ جنديا ، وقد أصيب من تلك الحامية الصغيرة ضابط بجراح خطيرة كما قتل خمسون وجرح ثمانية وأربعون .

وتعرضت طابية أم قبيبة لنيران (أنفنسيبل) طيلة الصباح ، وكانت مكونة من ٧٥ مدفعجيا يعاونهم كثير من المتطوعين المدنيين وقد جرح ١٨ من هذه الحامية . وبلغ مجموع خسائر المصريين فى القسم الجنوبى الداخل من طابية (صالح أغا) إلى (المرابط) ٦٥ قتيلا ونحوا من ١٥٠ – ٢٠٠ جريح وفى الخط الشمالى للدفاعات فى رأس التين وفى قلعة (الأطة) قتل ما لا يقل عن ٥٠ وجرح أكثر من ١٥٠ ، وقتلت القنابل من الأهالى نحو ٢٠٠ مصرى .

وقد قدر (جون نينيه) عدد القتلى المصريين بنحو ٨٦٠ – كما قدر الجنرال (ستون) الذى كان يعمل كرئيس لأركان حرب الخديو الخسائر المصرية بنحو ٧٠٠ قتيل .

ضرب البريطانيين كان انتقاماً وحشياً :

ولقد أسرفت البوارج البريطانية فى إطلاق قذائفها على الحصون المصرية وعلى المدينة ذاتها بشكل منقطع النظير أو بشكل فريد فى التاريخ ، حيث تبينت أن الفريسة سهلة بعد القضاء على كافة وسائل الدفاع المصرية ، بواسطة أسطول حديث جبار كالأسطول البريطانى المدرع مما يوحى بأن هذا الضرب الغاشم كان انتقاماً وحشياً لهزيمة سابقة لحقت الجنود الإنجليز فى مصر أثر حملتهم الفاشلة عام ١٨٠٧ – والجدول التالى يوضح مبلغ الإسراف الهائل فى إطلاق القذائف البريطانية على المدينة يوم ١١ يولية ١٨٨٢ .

جدول يبين إسراف الأسطول البريطاني في إطلاق القذائف على الحصون المصرية يوم ١١ يولية ١٨٨٢

	عادية	بالوس	شرابنل	سيجمن	قنابل فارغة	إصابة		المجموع		لورد فلدت	جاتلنج	صواريخ
إلكسندرا	٣٧٩	٢٣	١	–	–	٤	–	٤٠١	–	٤٠٠٠	٤٣٠	–
سوبرب	٢٥٧	٨٣	٢٥	٣٤	–	١٢	–	٤١١	–	١١٦١	٨٨٠	–
سلطان	٢٤٧	٢٤	٣	٤٤	١٠	١٠	–	٣٣٨	–	١٨٠٠	٢٠٠٠	–
بنيلوب	٢٤١	–	٤٥	٣٢	–	٦٢	–	٣٨٠	٥٠٠٠	١٦٧٢	–	–
مونارك	٢٢٧	٥	١٢٩	–	–	٦	–	٣٦٧	١٨٠٠	٣٤٤٠	٢٦٨٠	١
تمرير	١٣٩	٧٠	١٣	٦	–	–	–	٢٢٨	–	١٩٠	–	–
انفسيبل	٢٢١	–	٢٥	–	٢	٢	–	٢٥٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠	١٠٠٠	–
أنفلكسيبل	١٣٨	٢١	١١	٣٧	–	–	–	٢٠٨	–	٢٠٠٠	–	–
بيكون	٢١	–	–	١	٦١	١٨	–	١٠١	٣٢٠	–	–	٣
كوندور	١٦٢	–	٨	–	٣١	–	–	٢٠١	١٠٠٠	–	٢٠٠	١٣
بيتون	٦٦	٧	١	–	–	١٢	٣	٨٩	–	–	–	–
سيجنت	٧٣	–	–	–	٧١	–	–	١٠٤٣	–	–	–	–
ديكوى	٦٩	–	–	–	–	–	–	٦٩	٤٠	–	–	–
هيلكون	٦	–	–	–	–	–	–	٦	–	–	–	–
المجموع	٢٢٤٦	٢٣٣	٢٦١	١٥٤	١٧٥	١٢٦	٣	٤٠٩٢	١٠١٦٠	١٩٢٣٣	٧١٩٠	١٧

خسائر الأسطول البريطانى

١ – المدرعة (سلطان) :

أصيبت بثلاث وعشرين قذيفة وكانت إصابات مدخنتها وساريتها شديدة ، كما أصابت بعض القذائف دروعها فى موضعين . . كما أحدثت واحدة منها فى أسفل قنطرة بطاريتها شرخاً يبلغ قطره (٤٥ سم) بينما اخترقت قذيفتان أو ثلاث جدرانها غير المدرعة – بلغ عدد قتلاها إثنان والجرحى ثلاثة .

٢ – المدرعة (سوبرب) :

فاقت خسائرها خسائر باقى المدرعات ... فقد أصيبت جدرانها بعشر إصابات بينما اخترقت قذيفتان دروعها .. وفى أحد مواضع إصابتها انتزعت القذيفة عند انفجارها جزءاً من درعها . . كما أصيبت مدخنتها كذلك .

٣ – المدرعة (انفنسيبل) :

أصيبت بثلاث عشرة قذيفة فى جدرانها وآلاتها كما اخترقت ست منهم الجزء غير المدرع منها .

٤ – المدرعة (الكسندرا) :

أصيبت بثلاثين إصابة فى جدرانها وآلاتها وبأربع وعشرين إصابة اخترقت جدرانها فى أجزائها غير المدرعة فحدثت بها أضرار بالغة فى القنطرة الداخلية وفى طرفها وأصابتها أيضاً قذائف وقنابل كثيرة فى الجزء المدرع منها ، ولكنها – على كثرتها – لم تحدث فيه ضرراً يذكر كما تلف مدفعان من مدافعها دون أن يصابا من جراء كثرة استعمالها فى الضرب . أحدهما من عيار ١٠ بوصة (وزن ١٢ طنا) – والآخر عيار ١١ بوصة وكانت خسائرها فى الأفراد قتيل وجريحان .

٥ – المدرعة (بنلوب) :

سقط أحد مدافعها كما جرح من جنودها اثنان .

٦ – المدرعة (انفلكسيبل) :

أصيبت بقذيفة فى جزئها الغاطس (تحت خط الماء) من مدفع (أرمسترونج) – عيار ١٠ بوصة (وهو أكبر عيار كان متوافرا بالمدفعية المصرية الساحلية) – وقد توجهت بعد المعركة إلى جزيرة (مالطة) لإصلاحها[1] – وقد بلغت خسائرها قتيل واحد وجريحين[2] .

---

(١) لم تذكر إصابتها هذه التقارير الرسمية التى قدمت إلى الحكومة البريطانية – – ولكن الأميرال (سيمور) قدم عنها تقرير سرى للأميرالية ولم يذع رسمياً . .

(٢) لعل من أقوى الأدلة التى تثبت كذب (سيمور) فى دعواه بأن العرابيين والأهالى هم الذين أضرموا النيران فى الاسكندرية وهى الشهادة التى جاءت فى مذكرات الجنرال السير (باتلر) – أحد قادة الجيش البريطانى الذين شاهدوا الحرب البريطانية – المصرية عام ١٨٨٢ حيث يقول : =

شهادة القس لويس صـــابونجى للتاريخ :

تهنئـــا النجـــاح لعـــرابى !!

نورد هنا شهادة القس « لويس صابونجى » — مساعد المستر الفريد سكاون بلنت الأيرلندى الذى قدم كتابه الوثائقى الهام (التاريخ السرى لاحتلال بريطانيا لمصر) ، وسجل فيه الحقائق فى موضوعية وصدق ، حيث اعتمد فى تاريخه على مشاهداته الشخصية واتصالاته الواسعة مع الساسة الإنجليز فى لندن ، كذا صلاته الوثيقة بالزعيم « أحمد عرابى » ومعظم زعماء الثورة على الرغم من أن المرجع الذى أشير إليه هنا يعد من المراجع التاريخية القليلة التى أعطتنا خلفية موضوعية لكافة أحداث الثورة العرابية منذ حادث مذبحة الاسكندرية وحتى ما بعد الهزيمة التى حاقت بعرابى ورفاقه وبمصر كلها بعد الانكسار العسكرى فى واقعة (التل الكبير) ، فقد آثرت أن أقتصر هنا على التعرض للجانب العسكرى فحسب ، تاركاً الجوانب السياسية للمختصين فى شئون السياسة علهم يجدون ما يرفع هامة ذلك الزعيم المصرى الذى قام يطالب بالحرية لبلاده ، فقامت عليه قيامة الاستعمار البريطانى وأذنابه من حكام مصر الأجانب ، وأعنى بهم أحفاد محمد على وعلى رأسهم الخديو الخائن محمد توفيق الذى لابد أن التاريخ المصرى سوف يضعه فى مكانه المناسب الجدير به من الازدراء والتحقير .

واقتطف هنا ما سجله القس لويس صابونجى فى رسالته إلى مستر « الفريد بلنت » بتاريخ ٥ يوليه ١٨٨٢ ، لنتعرف على أعمال الزعيم أحمد عرابى قبيل ضرب الاسكندرية ، تلك الأعمال التى يتبين منها أن الرجل كان يتصرف لا كما يرجف المرجفون بل كرجل دولة على أرقى مستويات ذلك العهد .

يقول القس لويس صابونجى فى رسالته إلى بلنت :

كنت ليلة أمس مع عرابى باشا حتى منتصف الليل ، ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدتها مزدحمة بالباشوات وغيرهم من الضباط وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهنئوه بالوسام المجيدى الأميرى (الذى حاول الخديو إسكاته ورشوته به) . وعند الساعة الحادية عشرة انصرفوا وبقينا نحن أربعة وجدنا بالغرفة وأخذنا نتكلم فى حرية فى مختلف المسائل :

وعندما جاء ذكر إسم درويش باشا[1] ، هز عرابى رأسه وكأنه يقول : نحن نعرف هذا ثم قال لى :

أما عن ذهابى إلى الآستانة ، فليقل الناس ما يشاءون ، فإنى ولدت فى أرض النيل وستظل الأهرام قبرى ولن يحاول الباب العالى أن يخرب إحدى الممتلكات العثمانية . ومن الأمثال العربية لا يجدع أحد أنفه بيده ، وسيفكر السلطان ملياً قبل أن ينوى دعوتى إلى الآستانة أو إرسال جيوش تركية إلى مصر .

= « إن المدافع البريطانية هى التى أحرقت مدينة الاسكندرية بعد أن هدمت القلاع وقد ظنت الوزارة البريطانية أنها بهدمها القلاع ستقمع الثورة ولكنها أخطأت فى ذلك،إذ ما كدنا ننتهى من تخريب الاسكندرية حتى كان عرابى بجيشه فى مختلف المواقع بالبلاد مستعداً لملاقاتنا وتحمس الوطنيون حين سمعوا بضرب الاسكندرية وانضموا إلى العرابيين متفانين فى الدفاع عن بلادهم بعد هذا العدوان ، فظهر لحكومة البريطانية من ذلك أنها إذا أرادت أن تبطش بالوطنيين فلا يلزمها أقل من جيش كامل لمحاربتهم فى وسط البلاد ، وعند ذلك عرفت أن الاسكندرية لا يمكن أن تكون قاعدة حربية لنا » .

(١) كان « درويش باشا » — مندوب السلطان العثمانى إلى مصر — قد عرض قبيل ضرب الإسكندرية على « أحمد عرابى باشا » أن يذهب إلى الآستانة بمرتب شهرى قدره ٢٥٠ جنيها ، فأجابه عرابى بأنه حتى لو رضى هو نفسه بالذهاب لحال الشعب المصرى بينه وبين الوصول إلى السفينة لمنعه من السفر .

ويكتب « صابونجي » في مذكراته يوم ٨ يوليه ١٨٨٢ :

توجهت صباح اليوم لأرى « عرابي باشا » فأخبرني أنه استقبل سيدة أمريكية من فلادلفيا رجته أن يوقع لها باسمه في دفتر التذكارات (الأوتوجراف) — وقال أنه كتب لها باللغة العربية ، ورجاني أن أترجم ما كتبه إلى اللغة الإنجليزية ، وأخبرني أيضاً أنه كان منذ يومين آتياً من القاهرة إلى الاسكندرية فوجد في المحطة خمسمائة إيطالي يستعدون لمغادرة مصر ، فشرع في محادثتهم وتشجيعهم على البقاء بالبلاد وفي ديارهم لأنه لا خطر عليهم مطلقاً وأنه يضمن لهم أرواحهم وممتلكاتهم ، وسلامة كل إنسان على أرض مصر ، وقد شجعت كلماته أولئك الأشخاص الذين كان الرعب قد تملكهم ، فاندفعوا إليه رجالا ونساء ليقبلوا يده ويشكرونه .

وكان بينهم رجل مسن في طول « عرابي » نفسه ، شق لنفسه طريقاً بين هذا الجمع ، ولما وصل إليه وضع كلتا يديه على كتفيه وقال له بالإيطالية ما معناه : « الله يباركك وينصرك يا عرابي » وكانت نتيجة هذه المقابلة أن عاد ثلث الجمع الإيطالي إلى بيوتهم في القاهرة .

وبينما كنت مع « عرابي » ، تسلم خطاباً من رجل إيطالي يرجوه فيه أن يقبله بصفة متطوع في الجيش المصري ، وقال له أنه كان فيما مضى جندياً في الجيش الإيطالي تحت قيادة « غاريبالدي » وأنه الآن يود لو أتيحت له الفرصة للقتال من أجل حرية مصر .

يصلون من أجل « عرابي » في مكة :

يقول القس لويس صابونجي :

ومنذ يومين كنت مع « عرابي » ، فأتاه رجل عربي بخطاب ففتحه وتلاه علي وعلى الضباط الآخرين ، وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة . وكان الخطاب مكتوباً بأسلوب راق وفيه مدح كثير ، يقول فيه كاتبه أن جميع الناس في مكة يدعون الله أن ينصر « عرابي » . وأن الصلوات تقام من أجله ومن أجل نجاحه في الكعبة وعند قبر إسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس في الأراضي المقدسة ، ولم يتردد الكاتب في منح أحمد عرابي لقب (حامي حمى الإسلام) .

كما جاء في الرسالة أن الحجاز كله مع « عرابي » ، وأن شريف مكة لم يشأ أن يكدر علاقاته بسلطان تركيا ، لذلك فقد كلف أحد رجال حاشيته بكتابته وهو « عباس أغا زمزم » .

لماذا لعن الإسرائيليون الحكومة البريطانية ؟ :

ويكتب صابونجي « في مذكراته » ليوم ١٠ يوليو :

وكان الناس — أعني القليلين الذين كانوا قد بقوا حتى اللحظات الأخيرة — يهرولون في سرعة كبيرة نحو البواخر المختلفة التي كانت راسية في الميناء تستقبل المهاجرين . ولست أظن أن هجرة الإسرائيليين من مصر تداني ما رأيت بعيني رأسي ، فان الرجال والنساء والأطفال الرضع الباكين بين أذرع الأمهات والشيوخ الذين لا يقدرون على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم من الإسرائيليين ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون صوب البحر في رعب يذكر الإنسان بيوم القيامة ، وكان هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يفرج عنهم همهم في ذعرهم ويأسهم سوى لعن القناصل والحكومة البريطانية التي جاءت لمصر بهذه النكبة .

كان الوقت يمضى أثناء ذلك ، وقد قرب انتهاء الساعات الأربع والعشرين (المحددة فى إنذار الأميرال سيمور إلى قائد الاسكندرية الحربى) . وجال بخاطرى أن أتوجه إلى إحدى البواخر ولكنى سمعت أنها مزدحمة ، وكان أحد بحارة القوارب مشغولا بحمل حقائبى إلى قاربه ، فعرض على أن يأخذنى إلى القارب البريطانى « تانجور » ، ولكنى رفضت لأن جميع الرعايا البريطانيين والقناصل ومراسلى الصحف — وأكثرهم يعرفوننى — كانوا فى البواخر ، لذلك لم أجد من الحكمة أن أزج بنفسى بينهم وعزمت على البقاء على الشاطىء وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية ولكن الساعات الأخيرة كانت قد دنت وكانت القوارب الأخيرة تروح وتجىء .

فى هذه اللحظة .. قابلت فرنسيا كان على وشك الإبحار مع زوجته ، فدعانى لأن أذهب معه إلى الباخرة « سعيد » فتوجهت إليها ، وهأنذا أكتب فيها هذا الخطاب ، بعد أن تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية ونقلت أدواتها إلى بارجة الأميرال البريطانى .

ولما رأيت « الجماعة » (يقصد عرابى وزملاؤه) منذ ساعتين ، وجدتهم ثابتين ومتأهبين للقتال والمقاومة إلى آخر نقطة من دمائهم مهما كلفهم ذلك .

١١ يوليو — ساعة « عرابى » الخطيرة ! :

فى صباح اليوم — الثلاثاء — عند الساعة السابعة تماماً أطلق الأسطول البريطانى أول طلقة إشارة إلى ضرب الحصون ، وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة قصيرة من الأسطول وقد حانت ساعة « عرابى » الخطيرة ، وأما « درويش » فغادر الاسكندرية عقب ابتداء الضرب وأبحر إلى حيث لا يدرى أحد .

ومن بين ١١٧٠ شخصاً كانوا معى هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة ، كنت الوحيد الذى يتمنى حسن الحظ والنجاح لعرابى ورفاقه .

ولما أطلقت أول طلقة لوح فى الهواء بالقبعات والمناديل والأيدى مع الهتاف والنداءات الدالة على الرضا ، وكان الرجال والنساء والقساوسة والأساقفة والرهبان والراهبات فى سرور وجذل يتنبأون باستسلام الحصون المصرية بعد ساعتين . . ولكن استياءهم بدأ بالفعل . والساعة الآن الواحدة والنصف ولم ينقطع إطلاق النيران من الجانبين . وقد كانت المقاومة المصرية حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يتخطى الأسطول والبعض الآخر لا يصل إليه لبعد المسافة . ولكن لا أحد يستطيع حتى الآن التنبؤ بالنتيجة . وأجلس الآن فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ما أستطيع رؤيته . ولكن ماذا يمكن للانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان المعتم سوى ابراق المدافع ورعودها ؟ .

لقد مزقت الطلقة الأولى التى انطلقت من البارجة البريطانية القائدة جميع المعاهدات قطعة قطعة ، وأرسلت ملايين « روتشيلد » إلى الجحيم ، وأبعدت الرجل الذى اتفقت إنجلترا وفرنسا على توطيد سلطته (يقصد الخديو توفيق) وستمتلىء قناة السويس فى بضعة أيام بمائة ألف رجل من الفلاحين والبدو الذين دربوا على كيفية أداء مهمتهم من قبل ، هذا إذا لم تكن قد دمرت الآن بالفعل .

الفصل الرابع

معارك الجبهة الغربية
(كفر الدوار)

خطط الجانبين بعد احتلال الإسكندرية (*)

الخطة المصرية :

كان زعماء الثورة العرابية يعتقدون أن الإنجليز لن يتخذوا قناة السويس ميدانا للزحف أو الحركات الحربية وذلك احتراماً لحيدة القناة من وجهة النظر الدولية ، وعلى هذا الأساس ، اتجهت أنظارهم إلى القطاع الغربى ونعنى به منطقة كفر الدوار والطرق الموصلة من الاسكندرية إلى القاهرة .

وهكذا عين « عرابى » المهندس محمود باشا فهمى رئيساً لأركان الجيش المصرى ، فوضع خطط الدفاع عن البلاد وتتلخص فى اتخاذ خمسة مواقع دفاعية رئيسية : ثلاثة منها فى القطاع الغربى « كفر الدوار » واثنين فى القطاع الشرقى (الممتد من الإسماعيلية إلى التل الكبير) وذلك على النحو التالى :

١ — الموقع الأول : فى منطقة كفر الدوار غربى مدينة الاسكندرية .
٢ — الموقع الثانى : فى رشيد .
٣ — الموقع الثالث : بين « رشيد » وبحيرة البرلس .
٤ — الموقع الرابع : فى دمياط .
٥ — الموقع الخامس : فى « الصالحية » و « التل الكبير » .

محمود باشا فهمى : منع الميـاه العذبة عن الشرق :

وقد أشار المهندس « محمود باشا فهمى » فى بداية الحرب بسد ترعة الإسماعيلية لمنع وصول المياه العذبة إلى مدن القناة ، كما أشار فى الوقت ذاته بسد قناة السويس ذاتها لمنع الإنجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية .

ولكن « عرابى » لم يستمع إلى تلك النصيحة وخشى عواقبها ، حيث ظن أن الانجليز سوف يحترمون حيدة القناة فلا يتخذونها قاعدة للزحف ، وقد ساعده على ذلك الاعتقاد المسيو « فرديناند دى ليسبس » الذى أكد له

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العرابية » — دار التعاون — القاهرة ١٩٨٤ .

استحالة دخول الانجليز للقناة ، فكان لهذا الخداع أثر كبير فى إخفاق خطة الدفاع المصرى ، حيث اكتفى « عرابى » بناء على ما تقدم — بإقامة معسكر فى « التل الكبير » ليضع معظم قواته فى « كفر الدوار » وعلى سواحل البحر المتوسط .

وفى الحقيقة . . فإنه يمكننا أن نعتقد فى سداد رأى محمود باشا فهمى الخاص بسد القناة ومنع المياه الحلوة من الوصول إلى الميدان الشرق ، حيث أن العمل العسكرى من أجل الدفاع عن الوطن ضد الغزو الأجنبى يجيز فى رأينا اتخاذ مثل هذا الاجراء أو غيره ، وبالفعل قام الانجليز فى ٣٠ يوليه ١٨٨٢ بإرسال أسطول حربى مكون من ٤ سفن حربية إلى السويس ، وفى ذات الوقت رمى الأميرال « هوسكس » بثلاث سفن حربية فى منطقة بور سعيد ، وبذلك تم للبريطانيين السيطرة على قناة السويس ومدنها من الشمال للجنوب باسم الخديو الخائن « محمد توفيق » ، وهو الأمر الذى كان له أبعد الأثر فى نجاح الخطط الحربية البريطانية الرامية إلى احتلال مصر فيما بعد .

الاجراءات الدفاعية المصرية فى الميدان الغربى :

بادر الزعيم « أحمد عرابى » — بعد احتلال الإسكندرية — إلى تعزيز مواقعه فى المنطقة الشرقية كما تقدم ، فأنشأ عدداً من المواقع الدفاعية القوية فى منطقة « كفر الدوار » وعدد آخر من المواقع بينها وبين منطقة الرمل وخاصة فى المنطقة المستطيلة الواقعة بين بحيرة « أبو قير » وبحيرة « مريوط » ، وقد امتازت مواقع هذه الدفاعات ببعدها عن مرمى مدفعية الأسطول البريطانى وتعذر الاقتراب نحوها إلا بحذاء جسر الخط الحديدى ، هذا بالإضافة إلى وقوع منطقة الدلتا بمواردها الغنية ومواصلاتها الجيدة مع القاهرة خلف هذه المواقع الدفاعية .

وقد تمكن الجيش المصرى من الاحتفاظ بهذه المواقع الدفاعية قرابة خمسة أسابيع دافعا بكل هجوم بريطانى على أعقابه ، إلى جانب ذلك فلم يكن بقاؤه سلبيا بل دأب على ازعاج القوات البريطانية بالقيام بعدة هجمات محلية مضادة بين الحين والحين .

كان « محمود باشا فهمى » — بذكاء ملحوظ — قد وضع بمعاونة الأميرالاى « محمد بك شكرى » تصميما لثلاثة خطوط دفاعية متتالية يفصل كل منها عن الآخر (٤ — ٥) كيلومترات ، يسترها خندق بعمق ١٥ قدما ، كما أقيمت الأوكار الدفاعية على جميع المرتفعات والآكام ، وجهزت بنحو ٥٠ مدفعا ، وبذلك امتدت سلسلة الدفاعات فى منطقة « كفر الدوار » ابتداء من « عزبة خورشيد » حتى « كفر الدوار »نفسها وأنشىء الخط الدفاعى الخلفى فى « كفر الدوار » فى المنطقة الممتدة من ترعة المحمودية إلى الملاحة ، فى حين عززت المنطقة الرملية بين ترعة المحمودية وسد « أبى قير » .

إقامة سد ترعة المحمودية :

ولقد أقام العرابيون سداً على ترعة المحمودية عند « كنج عثمان » ، وأحدثوا بشاطئها وعلى قرب من السد تجاه مواقعهم قطعين كبيرين مما أدى إلى إحداث نتيجتين كبيرتين : أولاهما قطع المياه العذبة عن الإسكندرية ، وثانيهما إحداث فيضان صناعى نحو جبهة الموقع الدفاعى كله تقريبا ، كما أدى حلول الصيف إلى جفاف بحيرة « مريوط » تدريجيا وتغيير طبيعة المواقع الدفاعية بالإسكندرية .

وبذلك ارتكزت المواقع المصرية على بحيرتى « أبو قير » و « مريوط » وأدى ذلك إلى مناعتها وقوتها ، وقد ساهم أكثر من ٥٠٠٠ رجل فى تشييد وإقامة هذه الدفاعات التى صمدت فى وجه القوات البريطانية المهاجمة حتى نهاية الحرب .

« توفيق » يصرح باحتلال الإســـكندرية :

وكأنما كانت الأقدار تهيء لشعب مصر مصيبة جديدة . . تمثلت فى هذا الخديو الخائن الذى لا يشعر بأى تعاطف مع الشعب الذى كان يعتبره من « عبيد احساناته » ، فى صباح يوم ١٣ يوليه ١٨٨٢ ، أوفد هذا الحاكم المحسوب على شعب مصر ظلما وبهتانا مندوبه « زهران بك » إلى الاميرال « سيمور » معلنا له باسم الخديو استعداد الأخير لمؤازرته ، وبذلك دق هذا الخديو الخائن الأسفين العميق الذى تسبب فى تقسيم البلاد إلى معسكرين : معسكر « عرابى » من (العصاة) كما أطلق عليهم آنذاك ، ومعسكر الخديو الذى يسبح بحمد الانجليز والغزاة خمس مرات فى كل يوم مع كل صلاة .

بعد ذلك انتقل الخديو إلى سراى « رأس التين » ليستقبل الغازى الانجليزى الذى تقع على رأسه ورأس حكومته دماء الشهداء المصريين الذين ووروا التراب توا وقتلوا فقط لأنهم أحبوا الحرية لوطنهم ودافعوا كالرجال عن ترابه ، لقد أعطى الخديو « توفيق » فى ذلك اليوم والأيام التالية الدرس الأول فى النفاق والتفكك وشراء الذمم لشعب مصر الذى وقف بغالبيته العظمى الشريفة مع الرجل الذى أضحى منذ هذه اللحظة القائد والزعيم : البطل « أحمد عرابى » ، الذى وقف فى ذلك اليوم ليطلق صيحته الخالدة : « فلتعش الحرية فى مصر خالدة مؤبدة » .

وفى نفس اليوم ، وصلت الأميرال « سيمور » برقية من الخديو تخول له نزول بحارته ومشاة البحرية إلى المدينة « لإعادة النظام بها » . وبعد الظهيرة وفى المساء نزلت إلى البر مشاة البحرية من المدرعات « سوبرب — أنفلكسيبل — تمرير — أشيل — سلطان » ، وتولى الكابتن « فيشر » من المدرعة أنفلكسيبل قيادة القوة كلها فى المدينة ، فى حين تحركت المدرعات « أنفلكسيبل — تمرير — أشيل » إلى مكان من البحر يواجه الرمل بغية السيطرة على طرق الاقتراب البرية المؤدية إلى الإسكندرية من الجنوب والغرب .

توزيع القوات البريطانية بالإســـكندرية :

وقد تم توزيع القوات البريطانية فى مدينة الإسكندرية على النحو التـــالى :

مشاة بحارة المدرعة « مونارك » فى محطة الرمل ، ومشاة بحارة المدرعة « تمرير » عند بوابة رشيد ، ومشاة بحارة المدرعة « الكسندرا » عند بوابة محرم بك ، ومشاة بحارة المدرعة « سلطان » عند بوابة حصن « كوم الدكة » . وبحارة المدرعة « سوبرب » عند بوابة « عمود بومبى » ، وبحارة من « أشيل » عند بوابة القبارى ، وبحارة الكسندرا عند محطة سكة حديد القبارى ، أما عند الضبطية و « الترسانة » ، فقد تم توزيع بحارة المدرعة « أنفنسيبل » .

وفى ١٥ يوليه وصلت المدرعة « مينوتور » بقيادة الأميرال « دويل » — قائد أسطول المانش — ونزل منها لواء من مشاة البحرية إلى المدينة ، كما احتل بعض جنود مدفعية الأسطول حصن نابليون واحتل مشاة البحرية قلعة « كوم الدكة » ، وقامت جماعة من المدرعة « الكسندرا » بنسف طابية « السلسلة » ، فى الوقت الذى بدأت فيه

عملية واسعة لنسف جميع المدافع المصرية المنصوبة على الساحل ، كما نزلت قوات من السفن الألمـانية والأمريكية التى كانت موجودة بمياه الإسكندرية إلى المدينة للمعاونة فى إعادة النظام ، وعين اللورد « تشارلس بيرسفورد » مديرا للبوليس بها . وفى اليوم التالى أصدر الأميرال « بوشامب سيمور » أوامره إلى البحارة الأمريكيين والألمـان واليونانيين إلى سفنهم بحجة عدم الحاجة إليهم .

لماذا حاول الخديو استدراج « عرابى » ؟!

فى يوم ١٥ يولية أرسل الأميرال « سيمور » بناء على اقتراح من الخديو « توفيق » — سفينتين إلى « أبى قير » للسيطرة على المنطقة هناك إذا ما حاول « أحمد عرابى » سدها أو غمرها بالمياه .

وفى ذات الفترة ، حاول الخديو — بإيعاز من السلطة البريطانية — إيقاع « عرابى » فى الشرك ، فأرسل اليه — فى ١٧ يوليه — برقية يلقى فيها بمسئولية العدوان البريطانى على استمرار الأعمال الجارية فى الطوابى وتركيب المدافع ، ويعلن فيه أن الأميرال « سيمور » لا يضمر العداء لمصر ، وأن الحكومة البريطانية ليس بينها وبين الحكومة المصرية خصومة أو حرب ، وأن « سيمور » مستعد لتسليم مدينة الإسكندرية إلى جيش منظم ومأمور ، ولذلك إذا احضرت عساكر « شاهانية » (من طرف السلطان العثمانى) فالحكومة الإنجليزية تحترمهم وتسلم إليهم المدينة . فليست بينها وبين مصر حالة حرب ، كما يأمر الخديو فى نفس البرقية بالحضور على الفور إلى سراى « رأس التين » لإعطائه « التنبيهات الشفهية المقتضبة » على حسب أمر الخديو ، وأن ذلك هو ما استقر عليه رأى مجلس النظار .

« عرابى » . لازالت الحرب قائمة .

ومن نافلة القول أن الخديو كان يهدف إلى القبض على « أحمد عرابى » وتسليمه للبريطانيين ، وهو الأمر الذى تنبه إليه الزعيم أحمد عرابى ، فأرسل إلى الخديو إجابة أعلن له فيها أن الأسباب التى توجب استمرار الدفاع لا زالت قائمة ، وأن قرار المجلس أجمع على رفض مطالب « سيمور » ولو أدى ذلك إلى الحرب وزيادة ٢٥ ألفا من الجنود صدرت بها الأوامر إلى المديريات بطلبهم ، وأن هذه القرارات إنما اتخذت لتمسك الخديو و« درويش باشا » بها ، وأن حالة الحرب تعد قائمة تستوجب استمرار الاستعداد وأنه — أى عرابى — لا يمكنه العودة إلى الإسكندرية والقوات البريطانية تحتلها ، وأنه يستحسن حضور الوزراء أو رئيس الوزراء إلى مركز الجيش للمداولة حتى يمكن على ضوء الحقيقة نفسها صرف الجنود والكف عن الاستعدادات الحربية والحضور إلى الإسكندرية .

ولم يلبث « عرابى » بعد هاتين البرقيتين المتبادلتين بينه وبين الخديو أن فطن إلى ما يضمره من الخيانة لمصر ولشعبها ، فقام بإعلان خيانته وأرسل تحذيرا إلى جميع المديريات والمحافظات من الوقوع فى حبائله ، كما طلب من « يعقوب باشا » — وكيل وزارة الحربية — عقد جمعية عمومية من القوات والأعيان والعلماء لإصدار ما تراه فى هذا الشأن الجلل .

الخـــديو يعزل « عرابى » ! :

أجاب الخديو « توفيق » على رد « عرابى » بالمبادرة إلى إصدار فرمان — فى ٢٠ يوليه ١٨٨٢ — يقضى بعزل « أحمد عرابى » من وزارة الحربية وتعيين « عمر باشا لطفى » — محافظ الإسكندرية بدلا منه . فى ذات الوقت الذى قام فيه بإرسال منشور ناشد فيه الشعب الانضمام تحت لوائه ومناصرة الجيش البريطانى والامتناع عن معاونة العرابيين .

سلطان تركيا يعلن عصيان «عرابى» :

ويتبين لنا موقف سلطان تركيا من «عرابى» مما سجله سليم خليل النقاش[1] يقول :

«.. كان «عرابى» أثناء قتاله ضد الإنجليز يعتمد على موقفه الوطنى وعلى تعضيد السلطان ومساعدته له فى مشروعه .. ولكن خاب أمل «عرابى» فى الحصول على تلك المساعدة اثر صدور المنشورات الخديوية واتصال الخبر به أن القوم فى دار السعادة عدوه عاصياً نابذاً لطاعة الخليفة ونائبه فى مصر – يعنى الخديو توفيق – ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى تحقق ذلك بالمنشور الذى أصدره الباب العالى . وفيما يلى نصه :

أولا : ان الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا .

ثانياً : ان أعمال «عرابى» كانت مخالفة لإرادة الدولة العلية ثم التمس من جناب الخديو العفو عنه وناله ونال أيضاً العفو من الحضرة السلطانية ؛

ثالثاً : ان الشرف الذى ناله أخيراً من الحضرة السلطانية[2] إنما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم ؛

رابعاً : قد تحقق الآن رسمياً أن «عرابى باشا» رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر المصرية بدون وجه حق . فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لاسيما أنه «يهدد» أساطيل حليفة للدولة العلية السلطانية .

خامساً : تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر إلى «عرابى باشا» ورفاقه وأعوانه يكون بصفة أنهم (عصاة)'.

سادساً : يتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة ، وكل من يخالف هذه الأوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة .

سابعاً : ان معاملة «عرابى» باشا وحركاته وأطواره مع حضرات السادات والأشراف هى مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية .

خطط الجانب البريطانى

فى ٧/٢١ أرسل (أرشيبالد إليسون) آلايين من المشاة وكتيبة من الفرسان خارج منطقة الرمل فى اتجاه المواقع الدفاعية المصرية ، وتقدمت تلك القوة حتى تل (وابور المياه) وهو موقع مشرف على المنطقة ويمكن منه رؤية الخطوط المصرية فى (كفر الدوار) .

أما طريق الاقتراب المتجه من منطقة (أبو قير) فقد سيطرت عليه نيران الأسطول سيطرة تامة وسدت دفاعات (القبارى) – طريق التقدم من ناحية (المكس) .

---

(١) فى كتابه «مصر المصريين» – الجزء الخامس – طبعة ١٨٨٤ م – ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٢) فور حضور «درويش باشا» – مندوبا عن السلطان – إلى مصر فى يونيه ١٨٨٢ ، قام بتوزيع النياشين والأنواط على العرابيين ، فمنح «عرابى» الوشاح الأكبر والنيشان المجيدى وذلك فى محاولة لاحتوائه والسيطرة على الثورة .

وبذلك يكون احتلال الإنجليز لتل الرمل قد أتم سلسلة الدفاعات عن الاسكندرية وبدأت قواتهم تحكم قبضتها على المنطقة وعلى ذلك بدأت فى تعزيز مواقعها ، متخذين من نقطة (وابور المياه) والقنطاس القائم خلفه على التل المرتفع مركزاً للدفاع عن الاسكندرية ووضعوا فى الوابور قسماً قوياً من قواتهم وأنشأوا رئاستهم فى الموقع الثانى كما حفروا الخنادق ووضعوا فيها عدداً من المدافع (منها ٥ عيار ٤٠ رطلا – ٢ عيار ١٢ رطلا– ٢ عيار ٩ أرطال) كما وضعت قوة بريطانية قوية فى قصر (أنطونيادس) على ترعة المحمودية للسيطرة على طريق الاقتراب من ناحية جسر السكة الحديد .. وفى ذات الوقت أنشئت كبارى مؤقتة على ترعة المحمودية .

أراد الإنجليز فى بداية الأمر أن يقوا جانبهم الأيمن باستخدام العوامات أو القوارب المسطحة غير أن قلة المياه وهبوط مستوى بحيرة (مريوط) أدى إلى استحالة استخدامها ، ولحل هذه المشكلة أنشأ الكابتن (فيشر) قطاراً مصفحاً كان له أثره وقيمته فى المعركة حيث تكون هذا القطار فى بادئ الأمر من عربتين مصفحتين بألواح حديدية وأكياس معبأة بالرمل مسلحتين بمدفع (نيوردفلت) ومدفعين (جاتلنج) ، كما جهزت إحدى العربتين بمدفع ٩ أرطال مجهز بونش يمكن به خفضه فى الحال بينما احتل باقى العربات ٢٠٠ جندى مسلحين بالبنادق خلف أكياس الرمل والألواح الحديدية المانعة لنفوذ الرصاص .

إصلاح الخط الحديدى :

وفى منطقة مواصلة (الملاحة) – تم فى ٧/٢٩ إصلاح الخط الحديدى الذى دمرته النقط الأمامية للجيش المصرى العرابى وقد تمت هذه العملية بتشكيل قوة صغيرة من المشاة الراكبة وسريتين من مشاة البحرية وسرية مشاة يعاونهم القطار المدرع المشار إليه الذى تقدم يوم ٧/١٨ إلى أقرب نقطة من النقط الخارجية المصرية لإغراء كل القوة المرابطة بها على فتح النيران .

المصريون يضربون القطار المصفح بالصواريخ :

وقد كانت القوة المصرية مكونة فى بادئ الأمر من كتيبة مشاة وكتيبتين من الفرسان ، سرعان ما عززت بكتيبتين إضافيتين وبعض الفرسان وجاء المصريون بمدفع صاروخى وصوبوا بعض الطلقات على القطار مما أحدث به ضرراً بليغاً ، إلا أن البريطانيين تمكنوا من إصلاحه يوم ٧/٢٩ وبذلك أمكن تسيير عدد كاف من القطارات دائرياً على الخط الرئيسى بين (محرم بك) على خط القاهرة – الاسكندرية الحديدى والموقع الأمامى بالرمل .

وتبين البريطانيون فائدة القطار المدرع فزادوا من تحصينه بإضافة عربتين فى مقدمته علاوة على تجهيزه بمدفع من عيار ٤٠ رطلا مع القاطرة فى منتصف القطار ووقايتها بحائط سميك من أكياس الرمل والقضبان الحديدية .

مناوشات الأعراب ضـــد الانجليز :

وفى ليلة ٣١-٧ قام بعض الأعراب بمهاجمة المواقع الأمامية البريطانية بالرمل ، وعاودوا هجومهم فى الليلة التالية على أحد مواقع المشاة الأمامية على ترعة المحمودية وأجبروا تلك النقطة على الانسحاب نحو محطة (الطلمبات) – على مسافة ميل الخلف – إلا أن البريطانيين تمكنوا من استعادته بعد القيام بهجوم مضاد قوى .

معارك الميـــدان الغربي

(منطقة كفر الدوار)

فى ٢٠ أغسطس تقدم السير (أرشيبالد مورى) بقوة كبيرة نحو المواقع المصرية بمنطقة كفر الدوار ويقول التاريخ الرسمى البريطانى تغطية لما منيت به من فشل من هذه العملية بأن السير (أرشيبالد مورى) لم يقم بهذا الهجوم إلا ليتحقق بنفسه من صحة التقارير التى وصلته عن عزم «عرابى» على الانسحاب من منطقة (كفر الدوار) ، وليلقى فى روع المصريين أن الهجوم البريطانى الحقيقى سيوجه إليهم من الاسكندرية .

الخطة البريطانية (عن المصادر البريطانية) :

وقد أصدر السير (أرشيبالد) أوامره بتأهب القوات المعدة للهجوم مواقعها اعتباراً من الساعة ٤٫٣٠ مساء لتتقدم فى طابورين :

١ ــ الطابور الأيسر : بقيادة اللفتنانت كولونيل (تاكويل) وكان مكوناً من : الكتيبة الأولى (ساوث ستافورد شير) (نصف كتيبة) الكتيبة الثانية (دوق أوف كورنول) مشاة خفيفة (نصف كتيبة) .

الكتيبة الثالثة (كنجز رويال ريفلز) + المشاة الراكبة + مدفع بحرى ٩ أرطال ، وتبلغ مجموع تلك القوة ١٠٠٠ مقاتل :

وكان واجب هذا الطابور السير بمحاذاة خط الترعة إلى أن يصل إلى منزل قائم وسط الأشجار فى المنطقة التى يكون فيها خط السكة الحديد فى أقرب مواقعه من ترعة المحمودية .

٢ ــ الطابور الأيمن : تحت القيادة المباشرة للسير (أرشيبالد إليسون) وكان مكوناً من :

مدفعية مشاة البحرية الملكية .

المشاة الخفيفة لمشاة البحرية .

٢ مدفع بحرى ٩ أرطال .

وكانت هذه مجموعها أيضاً ١٠٠٠ مقاتل .

وكان واجب هذا الطابور التقدم بالقطار إلى مواصلة الملاحة يسبقه القطار المصفح الذى كان عليه أن يقف فى مواصلة الملاحة لينزل منه مشاة البحرية ويتقدمون بمحاذاة السكة الحديد يعززهم المدفعان ٩ أرطال ويغطى تقدمهم مدفع ٤ أرطال المجهز به القطار المصفح المشار إليه .

بداية القتـــال :

فى الساعة ٤٫٤٥ مساء تقدم الطابور الأيسر بمحاذاة جانبى ترعة المحمودية بينما تقدم الطابور الأيمن بمحاذاة الطريق الحديدى ، وقد سعى كل طابور أثناء تقدمه إلى تهديد أجناب النقط الأمامية المصرية ، ورغم الدور الكبير الذى قام به القطار المصفح أثناء القتال فلم يؤثر ذلك فى شئ على مقاومة المصريين الباسلة .

وحالما بدأ الطابور الأيسر التقدم فى الموعد المحدد ، قام المصريون — الذين اتخذوا مواقعهم فى أحراش النخيل على الضفة الشرقية للترعة — بالضرب عليه — وبعد قتال عنيف استطاعت القوات الاستيلاء على تلك النقط الأمامية المصرية بعد أن قتل ضابط بريطانى كبير .

أما الطابور الأيمن — كما تقول المصادر البريطانية أيضاً فقد رافقه السير (أرشيبالد) وتقدم حسب الخطة مستتراً بجسر السكة الحديد ليقطع خط الرجعة على القوات المصرية المشتبكة مع الطابور الأيسر .

المصريون يصبون نيراناً حامية :

ولكن سرعان ما اكتشف المصريون تقدم هذا الطابور وصبوا عليه نيراناً حامية من المدفعية وهرع (أرشيبالد) إلى النقطة التى يقترب فيها الطريق الحديدى من الترعة وفتح البريطانيون نيرانهم من جسر السكة الحديد على القوات المصرية المستحكمة على جسرى الترعة واشتبك المدفعان ٩ أرطال مع المدفعية المصرية ، كما سلط المدفع ٤٠ رطلا (بالقطار نيرانه على المواقع المصرية ، وبعد أن ثبت السير (أرشيبالد) جانبه الأيمن على كلا جانبى الجسر دفع بسريتين لاقتحام منزل قائم على مقربة من الترعة وأعقب ذلك بدفع ٤ سرايا على اليسار على كلا جانبى الترعة .

ويقول الإنجليز : انه يبدو أن الطابور الأيسر وقد صدرت إليه الأوامر باحتلال منزل أبيض معين على الترعة التبس عليه الأمر وأخطأ قائده الكولونيل (ثاكويل) فى تنفيذ الأمر ظناً منه أن المنزل الذى وصلته قواته فى بادئ القتال هو المنزل المقصود مما أدى إلى كشف الجانب الأيسر لمشاة البحرية وفشل العملية .

المصريون يقاتلون الإنجليز بالسلاح الأبيض :

وأرسل القائد البريطانى إشارات كثيرة إلى الجناح الأيسر لمواصلة التقدم ، غير أن غبار ودخان المعركة حالا دون فهم المقصود منها ، وحاول القائد البريطانى مستميتاً التشبث بالمكان الذى وصلت إليه قواته لمدة ثلاثة أرباع الساعة حتى هبط الليل .. وقد التحم المصريون بالإنجليز بالسلاح الأبيض وكبدوهم خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد .

وهكذا تراجع البريطانيون :

وهكذا تراجع الإنجليز بعد قتال عنيف دام ثلاث ساعات ونصف أمام المقاومة المصرية ، وقد انطلقت قوات من الفرسان المصرية بقيادة (خورشيد باشا طاهر) من منطقة (أبو قير) الدفاعية لتهديد الجناح الأيسر للهجوم البريطانى ، وهنا بادر الطابور الأيمن فى سرعة وعجلة إلى ركوب القطار عند مواصلة (الملاحة) مولياً الأدبار إلى الإسكندرية ، فى ذات الوقت الذى تقهقر فيه الطابور الأيسر على جانبى ترعة المحمودية صوب منطقة الرمل .

ويقول الإنجليز : ان الظلام ساعدهم على الانسحاب من المعركة دون أن يؤثر ذلك تأثيراً شديداً على معنوياتهم حيث كانت هذه هى أول معركة تدور بين المصريين والإنجليز وجهاً لوجه .

القادة الانجليز ليسوا فوق مستوى الشبهات :

ونقرأ فى التعليق البريطانى الرسمى عن تلك المعركة :

« ... لقد مست تعليقات الصحف الأوروبية عن المعركة عاطفة الشعب البريطانى .. تلك الصحف التى كانت فى جهل تام بالخطة البريطانية المقررة لحملة وطبيعة الأرض التى أدت إلى اختيار طريق الإسماعيلية فإن هذه الصحف كانت تتوهم دائماً أن هناك ترتيبات تتخذ للقيام بزحف مباشر من الاسكندرية على القاهرة .. وأن هذه المناوشات التى لا هدف لها قد أظهرت فحسب أن القادة .. الإنجليز لم يكونوا على معرفة بما يدور حولهم ، ولم تكن لهم خطة محددة » .

الهجوم البريطانى الثانى على منطقة (كفر الدوار) :

وتزخر المصادر المصرية بتفاصيل عن موقعة ثانية دارت فى منطقة (عزبة خورشيد) فى اليوم التالى إلا أن هذه الواقعة أغفلت ذكرها تماماً المصادر البريطانية لحملة على مصر .. وتقول المصادر المصرية عن هذه الواقعة :

« .. إن الإنجليز عاودوا هجومهم على مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار فى ثلاثة طوابير تقدم الأيسر منها فى الرمل على جسر ترعة المحمودية ، وتقدم الأيمن منها بطريق السكة الحديد من (القبارى) بينما تقدم القسم الأوسط من طريق كوبرى المحمودية – وارتطموا بالمواقع المصرية التى صمدت لهجومهم ، وانبرى فى تلك المعركة البكباشى محروس يقود كتيبة من المشاة ، وهاجم ميسرة الإنجليز ووقف فى وجه الوسط والجناح الأيمن البكباشى محمد فودة على رأس كتيبة ثانية من المشاة وحين اشتد القتال فى تلك المنطقة جاءت الإمدادات بقيادة القائمقام أحمد عفت قائد المقدمة ثم وصلت إمدادات أخرى مؤلفة من كتيبة يقودها البكباشى سليمان تعليب والبكباشى رزق الله حجازى .

وتولى (طلبة باشا عصمت) قيادة الجيش واستمر القتال ٤ ساعات انتهت بتراجع القوات البريطانية واقتفى المصريون أثرهم حتى حجبهم الظلام .. واستشهد فى تلك المعركة من المصريين ٩ جنود وضابط صف وجرح منهم ١٢ جندياً وضابطان . أما الخسائر البريطانية فقد فاقت الخسائر المصرية عدداً .

أحمد عرابى يصف معارك كفر الدوار :

يقول الزعيم عرابى[1] فى وصف معارك الجيش المصرى ضد القوات البريطانية فى معارك كفر الدوار (الميدان الغربى) – وذلك عقب تدمير الاسطول البريطانى لمدينة الاسكندرية واحتلالها غداة ضربها يوم ١١-٧-١٨٨٢ :

عنـــدما رأى العدو ثبات جنودنا ولى منهزماً :

« ... وفى يوم الأحد ٢٠-٨-١٨٨٢ – رؤى العدو يرتب عساكره من الساعة السادسة صباحاً ، فرتب طلبة باشا – قومندان الفرقة بكفر الدوار – عساكرنا بهيئة مؤلفة من ٤ أورط من الجهة الشرقية تحت حكمدارية الأميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم والقائمقام سليمان بك سامى ، وأما السوارى (الخيالة) والعربان فتحت قومندانية (قيادة) أحمد بك عبد الغفار :

وفى الساعة التاسعة العربية ظهر العدو مرتباً لقولاته (طوابيره) فى ستة قولات من الجهة الشرقية وقولين من الجهة الغربية وقطارين من السكة الحديد ثم ابتدأ الضرب بالمدافع من الطرفين واستمر ساعتين . وكانت عساكرنا

---

(١) مذكرات عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .

تتقدم تحت نيران الطوبجية — وعندما صار العدو تحت مقذوفات البيادة (المشاة) ابتدأ إطلاق النار من الساعة الأولى من الليل — فلما رأى العدو ثبات عساكرنا وإقدامهم بشجاعة وسرعة حركاتهم ولى منهزما ، فتبعته السوارى والعربان وأوقعت به قتلا وفتكاً حتى أدخلته فى نخيل الرمل .

لله در طوبجيتنا ! :

لله در طوبجيتنا الذين أبلوا بلاء حسنا وأظهروا من المهارة ما جعل العدو يترك كثيراً من رجاله أشلاء فى ميدان القتال .

وفى اليوم التالى :

وفى اليوم التالى — ٨/٢١ — حضر العدو بقولاته من جهة الرمل وابتدأ بإطلاق المدافع فجاوبتها عساكرنا بالمثل ، وكانت مشاتنا تسير تحت نيران مدفعيتنا ، وقبل أن يصلوا إلى مواقع المقذوفات تقهقر العدو واستمر إطلاق النيران والمدافع إلى الغرب — وعندما رأى العدو أن نيران مدافعنا لا تبقى ولا تذر انهزم وفر هارباً وعاد عساكرنا ولم يصب واحداً منهم بسوء .

أصيب الكثير من رجال العدو :

وقد أصيب فى هذه المعركة كثير من رجال العدو كما تحقق ذلك من استكشافات هذا اليوم فقد ترك كثيراً من رجاله صرعى فى الميدان .

قائد المعركة يصف القتال :

ويستطرد (عرابى)[1] : وفى ٢٢ أغسطس ورد لنا تلغراف من طلبة باشا قومندان كفر الدوار يقول فيه :

« بعد أن ظهر العدو رتب عساكره من خطوط ثم طوابير ثم قولات — تقدم حتى صار تحت النيران لمقذوفاتنا فابتدأت الحرب فى منتصف الحادية عشرة ، واشتغلت طوبجيتنا بمهارة عظيمة حتى بددته وشتته تحت النخيل ، ثم ما زالت نيراننا تقفو أثره حتى انهزم شر هزيمة ، وقد رأيت قنابلنا تفرقع وسط طوابير العدو وقولاته فتهلك الكثير من رجاله وكانت أصوات عساكرنا مرتفعة بالتكبير والتحميد ومشاتنا تتقدم تحت نيران مدافعنا ، ولكن العدو لم يتمكن من الدخول فى منطقة نيران البنادق لتأثير نيران مدافعنا فيه .

رأيت من مهارة طوبجيتنا ما أبهجنى :

ولقد رأيت من مهارة طوبجيتنا وإصابة مقذوفاتها ما أبهجنى وملأنى سروراً بهم عندما رأيت ذخيرة العدو وقد التهبت وأصابت الكثير من رؤسائهم ثم شاهدت فى طابية الرمل كثيراً من الذوات وكبار الافرنج يشاهدون القتال ومعهم المنظارات .

---

(١) مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢) — بقلم زعيم الثورة العرابية أحمد عرابى : الجزء الثانى .

الإنجليز يستنجدون :

ولقد استنجد الإنجليز فجاءتهم نجدة على قطار مخصوص ، ولكنها لم تصل إلا بعد الهزيمة فعادت كما جاءت — وكان الوقت فى الساعة الواحدة ليلا .

فبشروا العموم بتأييد الله ونصره للعساكر المصرية وما يظهرونه من الثبات وتبديد العدو الباغى » .

قل الخديو والشعب اننا نرى إلى مد خط حديدى فى (قبرص) على الطرق الحالية من (ليماسول) إلى المستشفى فى الجبل ، واشحن باسم هذا الغرض ٤ قطارات و ٨٠ عربة خفيفة على سفينة يمكنها التوجه إلى (الإسماعيلية) ومهما كانت الأمور فاشحن ٦ عربات خفيفة لنستخدمها على الخط الحديدى بالخيول فى البداية — اتخذ الترتيبات مع الأميرال لنقل ٥ كتائب وآلاى فرسان وبطارية من (بورسعيد) إلى داخل القناة .

القوات الهندية تتحرك إلى منطقة القناة :

وفى ٨/٩ أبحرت ناقلات بالقوة الهندية من (بومباى) — ولاطمئنان (عرابى) إلى أن أى تحرك تقوم به القوة الهندية فى منطقة القناة لن يزيد على مجرد عمليات فرعية ، فلم ترد الاستعدادات التى اتخذها على طول ذلك الخط عن مجرد تحضيرات رمى بها إلى احتجاز أية قوات قد تقوم بتقدم ما واستغل الإنجليز هذا التوهم الخاطئ وعملوا على إبقائه متسلطاً على (عرابى) .

توزيع القيادات المصرية :

وعلى الجانب المصرى عين (راشد باشا حسنى) قائداً للمنطقة الشرقية ، و (خورشيد باشا طاهر) قائداً لمنطقة أبو قير ، و « على باشا الروبى » قائداً لمنطقة مريوط و « عبد العال باشا حلمى » قائداً لمنطقة دمياط ، و « محمود سامى باشا البارودى » قائداً لمنطقة الصالحية ، و « طلبة باشا عصمت » قائداً لمنطقة كفر الدوار ، وجميع تلك القيادات المحلية تحت القيادة العامة لأحمد عرابى باشا مباشرة .

الخطـــة البريطانية لاحتلال مصر :

قامت القيادة البريطانية بعد ذلك بوضع خطتها التفصيلية لاحتلال القناة — والسيطرة على مصر بالتالى — وذلك وفقاً للترتيب الآتى :

— الاستيلاء على قناة السويس تأميناً لسلامة مرور سفن الحملة :

— تحرك قوة الحملة إلى (الاسماعيلية) فى نظام مسلسل مرتب بقدر ما تسمح به الظروف .

— اتباع كل ما يمكن من وسائل الخداع لإيهام المصريين بأن الهجوم البريطانى سيوجه نحوهم من نقط أخرى غير الاسماعيلية إلى أن تحتشد بها أعداد كافية لتأمين سلامة امتلاكها .

— الاستيلاء على الخط الحديدى وترعة الاسماعيلية وتأمينها حتى مسافة قريبة من الموقع الذى عرف أن المصريين يتخذون عندهم لوضع قوتهم الرئيسية به دفاعاً عن شرق الدلتا — أى حتى مسافة قريبة من التل الكبير .

ـ البدء بمجرد الاستيلاء على خطوط المواصلات السابقة فى إصلاح الأجزاء التى دمرها المصريون وأعاقوا عملها فى الخط الحديدى أو القناة وسير كل ما يمكن من القطارات والقوارب لتموين الجيش فى الميدان .

ـ العمل على تكديس المخازن والذخيرة فى موقع متقدم وتحت حراسة كافية وبكميات وافرة لاستغلال الجيش فى تموينه بعد زحفه :

ـ الاشتباك مع الجيش المصرى فى معركة عامة ، بعد (وليس قبل) أن يسمح موقف تكديس الأدوات أو نقلها اليومى المنتظم على طول الخط بحشد الجيش لتوجيه ضربة فعالة ونهائية إن أمكن .

الانطلاق عقب هذه العملية ـ بأقصى سرعة إتماماً للآتى :

١ ـ تأمين الاستيلاء على القاهرة لأسباب سياسية وحربية .

٢ ـ الاستيلاء على نقط الحشد التى يمكن فيها فقط ـ عقب هزيمة المصريين فى (التل الكبير) التمام قواتهم المتعددة المرابطة فى (كفر الدوار) و (فى القاهرة) ودمياط ورشيد والصالحية وانشاء قوة كبيرة لها أثرها الحربى الفعـــال .

الخديو (توفيق) يفوض الإنجليز لاحتلال القناة :

فى الأول من شهر أغسطس ١٨٨٢ ، كان فى حوزة الاميرال (هوسكنس) البريطانى ـ تفويضا مكتوبا من الخديو (توفيق) الخائن ، يخوله فيه الاستيلاء على جميع النقط الضرورية التى على طول القناة واحتلالها باسم الخديو . . فيما يلى نصه :

الإسكندرية فى أول أغسطس سنة ١٨٨٢

« لكم السلطة التى تخولكم احتلال ما تجدونه مفيداً من نقط فى منطقة القناة لتأمين حرية الملاحة فيها وحماية المدن والاهلين على طول مجرى القناة وطرد كل قوة لا تعترف بسلطتى ولكم أيضا يا سيدى الكونتر اميرال سلطة اتخاذ الاجراءات اللازمة لإنتزاع الخط الحديدى بين السويس والإسماعيلية من يد الثوار » .

امضـــاء

خطاب الخديعـــة البريطانيـــة :

وقد عمدت القيادة البريطانية إلى خداع العرابيين عن وجهة الهجوم الحقيقية (منطقة القناة) وذلك بتحريك الاسطول البريطانى إلى منطقة (أبى قير) مع اطلاق الشائعات وترويجها عن عزمها غزو تلك المنطقة[1] .

---

(١) وبذلك تمكن الإنجليز من احتلال (الإسماعيلية) و (الشلوفة) و (بور سعيد) و (نفيشة) يوم ١٨٨٢/٨/٢٠ مما مهد الطريق لمرور الحملة البريطانية فى القناة وتأمين المواصلات مع القوة الهندية عند وصولها إلى (السويس) ـ وذلك بعد أن نفذوا خطة لخداع العرابيين تتركز فى إيهامهم بأن الهجوم البحرى موجه أساساً إلى مواقع (أبى قير) بينما انطلقت السفن صوب (بور سعيد) ليــلا .

وهكذا غادر الاسطول البريطانى ميناء الإسكندرية متوجها إلى (أبى قير) كما أذيع وليترك السير (جارنت ولسلى) البرقية السرية التالية إلى أركان حربه (السير هاملى) :

الإسكندرية فى ١٨/٨/١٨٨٢ .

عزيزى هاملى :

لست أزمع النزول فى (أبى قير) فالإسماعيلية هى وجهتى الحقيقية ، وإنى آمل أن أصلها فى نحو الساعة الرابعة مساء يوم الأحد القادم ، ومع ذلك فستقوم بمظاهرتنا فى (أبى قير) غداً أرجو أن يكون لها الأثر المطلوب فى عرابى وصديقه (ديلسبس) وهناك سفينة جنحت بالقرب من بحيرة التمساح وإذا كان هذا عن عمد فقد يؤخر بعض الشىء مرورى داخل القناة :

عندما تقرأ هذا ، احتفظ بما جاء فيه لنفسك ، ولا تخطر به أحدا . اقتصر على إظهار أكبر عدد من جنودك أمام جبهة (عرابى) وفتح أقصى نيران ممكنة عليه من مدافع أى موقع يمكن منه وصول القنابل إلى مواقعه ، لن أبرق إلى انجلترا بأنباء تحركاتى الزمنية حتى أصل بنفسى إلى (بور سعيد) التى أرجو أن أصلها قبل بزوغ فجر الأحد .

سأستدعيك بأسرع ما أستطيع لأنى سأكون فى حاجة إلى كل جندى فى قتالى قرب (التل الكبير) إذا ترفق (عرابى) وبقى لمقابلتى بها .

إلى اللقـــــاء : :

امضاء

المخلص

جارنت ولســـلى

الفصل الخامس

معـارك الميـدان الشرقى (*)

بريطانيا تدعم قواتهـا فى مصر :

فى أعقاب احتلال الإسكندرية ، بدأت انجلترا فى تدعيم قواتها فى مصر ، فأرسلت الدوق (أوف كنوت) ـ نجل الملكة (فكتوريا) ـ وكان قائد اللواء الأول ، والجنرال (ويليس) قائد الفرقة على رأس قوة أبحرت بها الباخرة (أورينت) من حوض ميناء (رويال البرت) شمال (وولوتش) يوم الأحد ٣٠ يوليه ١٨٨٢ ـ وهكذا ظلت الأفواج المتعاقبة من القوات البريطانية تتدفق منذ ذلك التاريخ ـ وحتى ١١ أغسطس ـ على مصر بصفة يومية تقريبا .

قائد القوات البريطانية يرسل برقية من باخرته لخداع العرابيين :

ومن على ظهر الباخرة (كالابريا) يرسل السير (جارنت ولسلى) برقية تحوى نواياه المستقبلة ـ إلى قائد الإسكندرية يقول فيهـا :

من السير جارنت ولسلى للسير جون[1] ـ الإسكندرية :

آمل الوصول إلى الإسكندرية فى ١٥ الجارى ـ لا تنقل القوات إلى القناة حتى وصولى ، ولكن جهز كل شىء للتحرك ـ إجذب التفات (عرابى) الى الإسكندرية باستطلاع يومى يوجه نحو جنب موقعه ، هل يمكنك الاقتراب منه بقوات بحارية ؟ ـ إذا لم تكن (أبو قير) قد قصفت بعد فامتنع عن قصفها فى الوقت الحاضر .

احتـلال (نفيشـة)[2] :

فى ٢٣ أغسطس التحم المصريون والانجليز لأول مرة فى الميدان الشرقى قرب « نفيشة » وبعد قتال شديد ارتدت القوة المصرية عنها فاحتلها الإنجليز .

معركة (المحســر) :

وتقدمت القوات البريطانية للاستيلاء على منطقة (المحسر) للاستيلاء على السد المقام على ترعة الإسماعيلية ومنع

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العرابية » ـ دار التعاون ـ القاهرة ، ١٩٨٤ .

(١) السير « جون ايدى » : تولى قيادة قوات الإسكندرية منذ ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) تعتبر (نفيشة) أول محطة غربى (الاسماعيلية) حيث تبعد عنها نحو ٣ كم ـ كما تتفرع منها ترعة الإسماعيلية إلى فرعين : يتجه احدهما إلى السويس ويمر الآخر فى خط الأنابيب إلى بور سعيد وكانت بتلك البلدة أول معسكر مصرى تحتله قوة من المشاة تقدر بنحو ٢٠٠٠ جندى ولذلك بدأت السفن البريطانية بقصفها بمدفعيتها منذ وصولها إلى الاسماعيلية .

القوات المصرية من إقامة سدود جديدة عليها[1] . . وقد تألفت القوة البريطانية من كتيبتى مشاة وآلاى من الفرسان مدعمة ببعض قطع المدفعية (١٣ رطلا خيالة) بالإضافة إلى بعض العناصر المشاة الراكبة وكتيبة من مشاة الاسطول .

القوات البريطانية تصطدم بطلائع القوات المصرية :

وقد تقدمت القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال (جراهام) للاستيلاء على السد المقام على ترعة الإسماعيلية بين (المحفر) و (تل المسخوطة) وذلك فى فجر يوم ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ متخذة من السكة الحديد محورا لتقدمها حيث اصطدمت بطلائع القوات المصرية على بعد سبعة أميال من (نفيشة) . . ولكنها تمكنت — بعد قتال ضار — من التغلب عليها ودفعها للوراء والاستيلاء على السد الذى يعترض مجرى الترعة .

الدفاعات المصرية توقف تقدم الانجليز :

ثم اندفعت الفرسان البريطانية بعد ذلك لمطاردة القوات المصرية بهدف القضاء عليها ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن التقدم إزاء النيران الشديدة التى قابلتها بها القوات المصرية المتركزة فى دفاعات (تل المسخوطة) — الأمر الذى لم يمكن الإنجليز من إحراز تقدم يذكر مما اضطرهم إلى تعزيز مواقعهم المكتسبة فى انتظار وصول إمدادات جديدة من الاسماعيلية .

القوات البريطانية تصاب بخسائر جسيمة :

ولقد أدى هذا الوضع إلى بقاء القوات البريطانية وقتاً طويلا فى مواجهة القوات المصرية الأمر الذى عرضها لنيران مدفعيتها والهجمات المضادة المتعددة بواسطة قوات الفرسان المصرية مما سبب للقوات البريطانية الكثير من الخسائر .

معركة (تل المسخوطة) :

بدأت الفرقة الأولى البريطانية تقدمها غرباً من الاسماعيلية يوم ٢٤ أغسطس ، فوصلت أرض المعركة يوم ٢٥ حيث أخذت فى تعزيز المواقع البريطانية الأمر الذى قلب ميزان القوى لصالح البريطانيين . . وهنا قرر الجنرال (ولسلى) سرعة القيام بمهاجمة المواقع المصرية فى (تل المسخوطة) للاستيلاء عليها وعلى السدود الجديدة التى أخذ المصريون يحاولون إقامتها لسد ترعة الاسماعيلية .

القائد البريطانى يقرر القيام بالالتفاف :

ولمـا كانت المواقع المصرية الدفاعية فى هذه الجهة منيعة : فقد قرر الجنرال (ولسلى) الامتناع عن مهاجمتها بالمواجهة حتى يتجنب الخسائر التى قد يتعرض لهـا ، كذلك كانت تلك المواقع تستند على ترعة الإسماعيلية من جانبها الأيمن لذلك أصبح الجانب الايسر أكثر ملاءمة لعملية التطويق المطلوبة .

---

(١) علم الجنرال (ولسلى) — بعد أن استولى على الإسماعيلية ونفيشة بأن مصدر المياه الذى يمد المدينة بالمياه العذبة والذى تعتمد عليه القوات البريطانية جارى قطعه بواسطة القوات المصرية بين بلدتى (المحفر وتل المسخوطة) وأن القوات المصرية قد اقامت سداً هناك لتحول دون وصول المياه إلى الاسماعيلية .

الخطــة البريطانيــة :

وتبعاً لذلك فقد وضعت الخطة البريطانية على أساس قيام اللواء الثانى بتثبيت القوات المصرية فيما بين السكة الحديد وترعة الإسماعيلية فى الوقت الذى يقوم فيه لواء الحرس بحركة التفاف على الجانب الايسر بغرض طى الموقع تجاه السكة الحديد والترعة لإجبار القوات المصرية على الانسحاب مع دفع لواء الفرسان — بعد نجاح المشاة — للقيام بحركة التفاف واسعة النطاق نحو مؤخرة القوات المصرية لقطع خط انسحابها والاستيلاء على قطارات السكة الحديد بالنقطة :

المعـــــركة :

بدأت القوات البريطانية تقدمها فى مساء يوم ٢٥ أغسطس للاحداق بالمواقع المصرية حسب الخطة الموضوعة فقوبلت بمقاومة شديدة إلا أنها تمكنت من الاستمرار فى التقدم تحت ستر نيران المدفعية وبذلك تم لهـا طى الموقع قبل غروب يوم ٢٥ ه : حيث انسحبت القوات المصرية للخلف بينما قام لواء الفرسان بقيادة (دورورى لو) بالتفاف واسع نحو (المحسمة) .

أسر رئيس أركان الجيش المصرى :

وقد كان الجيش المصرى خلال تلك المعركة تحت قيادة الفريق (راشد باشا حسنى) بينما كان التفوق العددى واضحا فى الجانب البريطانى . : وخلال القتال وقع المهندس (محمود باشا فهمى) رئيس أركان حرب الجيش المصرى واكفأ ضباطه — فى الأسر وذلك نتيجة لعدم اتخاذ احتياطات الحراسة اللازمة بالنسبة له . . وقد كان أسره أكبر ضربة أصابت الجيش العرابى المصرى آنذاك .

استيلاء الانجليز على (المحسمة والقصاصين) :

تمكن لواء الفرسان البريطانى من احتلال (المحسمة) مساء يوم ٢٥ أغسطس حيث غنم فيها ٧ مدافع (كروب) وكمية من البنادق وقطارا محملا بالذخيرة ه

ولقد أثر استيلاء القوات البريطانية على (المحسمة) تأثيرا مباشرا على الموقف بعد ذلك — باعتبارها كانت تمثل مفتاح الوصول إلى معسكر العرابيين فى (التل الكبير) ه

كما قام الجنرال (ولسلى) بدفع لواء الفرسان تجاه بلدة (القصاصين) فتمكن من احتلالها يوم ٢٦ أغسطس : . وبذلك أصبحت القوات البريطانية على مسافة ١٥ كيلومتراً من (التل الكبير) .

معركة القصـــاصين الأولى :

موقف القـــوات المصرية :

عندما علم (عرابى) باحتلال (القصاصين) بادر بالانتقال إلى الميدان الشرقى حيث سافر من (كفر الدوار) وأخذ يتشاور مع قادته فى الموقف وقرروا اتخاذ خطة للهجوم فى الحال : . وأخذت الإمدادات المصرية تتوالى

على الجبهة الشرقية ، فوصل الآلاى الأول المشاة من القاهرة ، كما وصل آلاى مشاة ووحدات فرسان من (كفر الدوار) بينما وصلت من (دمياط) كتيبتان من السودانيين وبذلك بلغ مجموع قوة الميدان الشرقى ١٣ الفا من الجنود النظاميين (بالإضافة إلى عدد كبير من المتطوعين والعمال) الذين اتخذوا أوضاعهم الدفاعية فى (التل الكبير) .

موقف البريطـانيين :

كان موقف القوات البريطانية بعد استيلائها على (القصاصين) حرجا تماماً مما جعلها عاجزة عن مواصلة التقدم غرباً لسوء موقفها الإدارى فقد اندفعت القوات غربا لمسافات بعيدة دون اعتبار الناحية الإدارية الأمر الذى جعل أمر اعاشتها (بعد الوصول إلى القصاصين) أمراً صعبا نظرا لعدم توفر وسائل النقل الكافية لاعاشة مثل هذه القوة الكبيرة التى أصبحت على مسافة تزيد عن الثلاثين كيلومتراً من قاعدتها الأصلية فى (الإسماعيلية) .

وكان من نتيجة ذلك أن اضطر القائد إلى اعاشة قواته بواسطة تعيينات (أطعمة) الطوارىء لمدة ثلاثة أيام لتوفير العربات لنقل الذخيرة إلى المواقع الأمامية فى (القصاصين) و (المحسمة) وبذلك أصبحت القوات البريطانية عاجزة عن التقدم غربا أو التجمع فى (القصاصين) لمواجهة أى هجوم تقوم به القوات المصرية التى إنسحبت إلى مواقع (التل الكبير) وبذلك قطعت اتصالها بالقوات البريطانية .

وهنا رأى القائد البريطانى احتلال مواقع دفاعية فى الأمام لصد أى هجوم ينتظر أن تشنه القوات المصرية ، وعلى ذلك احتل اللواء الثانى موقعا دفاعيا فى (القصاصين) مواجها الغرب والشمال ، ويستند جانبه الايسر على ترعة الاسماعيلية ، بينما يمتد جانبه الايمن حتى سلسلة الكثبان الرملية التى تقع شمال (القصاصين) مباشرة وأخذت القوات البريطانية فى تقوية دفاعاتها بإقامة الاستحكامات المتعددة للتحكم فى طرق الوصول للموقع .

« عرابى » يقرر القيام بهجوم عاجل :

عقب توقف القوات البريطانية عن مواصلة التقدم ، انتقلت المبادأة إلى المصريين فقرر « عرابى » بناء عليه – القيام بهجوم عاجل على المواقع البريطانية فى (القصاصين) لطردهم منها قبل أن تصل إليهم إمدادات جديدة ويستعيد الجنرال (ولسلى) قدرته على التقدم إلى (التل الكبير) .

خطة الهجـــوم المصرية :

وقد كانت خطة الهجوم المصرية تتلخص فى تشكيل القوات فى هيئة نصف دائرة تحيط بالعدو من كل جهة – فوضعت فى أقصى الجناح الأيمن كتيبة مشاة وأورطة فرسان ومدفعين – يلى ذلك إلى اليسار الآلاى الأول المشاة ومدفعين . . وفى الوسط ثلاث كتائب من المشاة وستة مدافع .

وفى الجناح الايسر وضعت ست أورط من الفرسان وأورطتان من المشاة ومدفعان .

وكانت الخطة تقضى بأن تقوم قوات المتطوعين المعسكرة فى الصالحية بالانضمام إلى الجنب الايسر للهجوم ويقوم الجميع بتطويق ميمنة العدو ليطوى الجناح الأيمن المصرى ميسرة العدو عبر ترعة الاسماعيلية (الترعة الحلوة) وتقوم قوات الغرب بقطع خط الرجعة بعد اقتحام الترعة من الخلف بينما يضغط الوسط لأسر أو إبادة العدو .

القتـــال :

كانت الخطة محكمة وفى الوقت ذاته نفذت بدقة ، فبدأت القوات المصرية تقدمها صباحا يوم ٢٨ أغسطس من (التل الكبير) شمال وجنوب السكة الحديد . . وتمكنت بعض عناصر الفرسان الانجليزية التى تعمل أمام الموقع البريطانى فى القصاصين من اكتشاف التقدم ، الأمر الذى جعل الجنرال (جراهام) يطلب المساعدة من لواء الفرسان بالمحسمة .

تحت ستر نيران المدفعية :

تابعت القوات المصرية تقدمها شرقاً إلى أن صارت على مقربة من (القصاصين) فتوقفت عن التقدم وبدأ حرس المقدمة المصرى حوالى الساعة الحادية عشرة فى مهاجمة الموقع البريطانى بين ترعة الاسماعيلية والسكة الحديد تحت ستر نيران المدفعية المصرية لإجبار الإنجليز على الانسحاب . . ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل . . وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر بدأت طلائع الفرسان بقيادة (دوروري لو) فى الوصول إلى أرض المعركة لمعاونة حامية القصاصين فأضطر حرس المقدمة للانسحاب غرباً . . وعاد لواء الفرسان إلى (المحسمة) .

القـــوات المصرية تستأنف القتال :

استأنفت القوات المصرية العمليات الهجومية ثانية فى الساعة الرابعة والنصف مساء : . فقامت القوة الرئيسية بهجوم قوى على الموقع البريطانى تحت ستار من نيران المدفعية بالتشكيل السابق إيضاحه لطى الموقع تجاه ترعة الاسماعيلية . . فثبتت القوات البريطانية أمام الهجوم المصرى فى بادىء الأمر ، ولمـــا أخذ الضغط يشتد عليها ، اضطر (جراهام) لطلب المساعدة السريعة من لواء الفرسان الذى كان فى طريقه إلى (المحسمة) . . غير أن إمدادات مصرية وصلت أرض المعركة ، الأمر الذى غير الموقف فجأة لصالح المصريين الذين بدأت فرسانهم فى طى مواقع الانجليز مما اضطر القائد البريطانى إلى فتح قواته الاحتياطية لمواجهة عملية الالتفاف الجديد .

نفاذ الذخيرة لدى الجانب البريطـــانى :

وقد أخذ موقف القوات البريطانية يسوء قرب المساء نظرا لتوقف المدافع البريطانية عن الضرب لنفاذ الذخيرة وفشل المحاولات المتعددة لإمدادها بها . . لعدم صلاحية الأرض جنوب ترعة الاسماعيلية فى تلك المنطقة لسير وسائل النقل .

لـواء الفرسان يغير الموقف لصالح الانجليز :

حاولت القوات المصرية ، بعد أن توقفت حركة الالتفاف أن تنفذ بين القوات البريطانية وبين السكة الحديدية وترعة الاسماعيلية لدفع الانجليز الخلف . . وفى الوقت نفسه . . حاول الفرسان البريطانيون القيام بهجمات مضادة عاجلة غير أن وصول لواء الفرسان الذى حضر من (المحسمة) أدى إلى تغيير واضح فى دفة المعركة بعد أن فقد بعض وحداته فى تعزيز المواقع البريطانية لإيقاف تقدم القوات المصرية وبذلك نجحت القوات البريطانية بعد خسائر كبيرة — فى إيقاف الهجوم المصرى الذى بدأت حدته تقل تدريجيا .

وفى الساعة السادسة مساء رأى الجنرال (جراهام) أن الوقت قد حان للقيام بهجوم مضاد قوى فكلف لواء الفرسان بالاستعداد للتقدم على جنب القوات المصرية الأيسر والضغط عليها لاجبارها على الانسحاب .

بدأ لواء الفرسان تقدمه قبل آخر ضوء مباشرة وتمكن من الضغط على القوات المصرية التى أخذت تتراجع للخلف إلا أن عناصرها التى سبق لها أن أحرزت نجاحاً كبيراً بجوار ترعة الاسماعيلية استمرت فى هجومها إلى أن قامت بعض وحدات اللواء الثانى البريطانى بالهجوم المضاد عليها ، وطردتها من مواقعها .

خسائر القوات البريطانية والمصرية :

وهكذا أنتهت معركة القصاصين الأولى ، وانسحبت القوات المصرية إلى (التل الكبير) بعد أن كبدت القوات البريطانية خسائر جسيمة وكادت تجبرها على الانسحاب ،لولا تدخل لواء الفرسان البريطانى فى المعركة الأمر الذى غير من ميزان القوى ورجح كفة القوات البريطانية ولقد خسرت القوات البريطانية فى هذه المعركة ٨ قتلى منهم ضابط وجرح ٦١ منهم ١٠ ضباط أما المصريون فاستشهد منهم ٦٠ وجرح ٨٥ بين جندى وضابط .

معركة القصـــاصين الثـــانية

الموقف العـــام :

اتضح للجنرال (ولسلى) – بعد معركة القصاصين الأولى – ضعف قواته أمام أى هجوم تقوم به القوات المصرية فى المستقبل ، لذلك عمل على دفع بعض القوات للامام ، فتقدم اللواء الثالث إلى القصاصين وبذلك اكتمل شمل الفرقة الأولى البريطانية بأجمعها هناك وبات الموقع على استعداد لصد أى هجوم .

وفى ذات الوقت أخذ القائد البريطانى فى معالجة الموقف الإدارى والتغلب على المشكلات التى تحول دون وصول الاحتياجات الإدارية إلى قواته المتقدمة أو مساعدتها على متابعة التقدم تجاه المواقع المصرية بالتل الكبير . . وكانت المشكلة القائمة والتى تحتاج إلى علاج سريع تتمثل فى عدم توفر وسائل النقل إلا أنه وصلت بعض القوارب النهرية وأمكن استخدامها فى ترعة الاسماعيلية لنقل الاحتياجات الإدارية للاعداء بكميات كبيرة أدت إلى تغطية مطالب القوات البريطانية .

وفى يوم ٣ سبتمبر وصلت جميع عناصر القوة الهندية إلى الاسماعيلية وأصبحت فى موقف يسمح لها باستئناف التقدم نحو (القصاصين) بهدف الاشتراك فى المعركة الأساسية التى أخذ الجنرال (ولسلى) يعد لها العدة .

الخديو توفيق يبذر بذور الخيانة فى صفوف الجيش :

هنا بدأت الخيانة تلعب دوراً كبيراً لتمهيد الأرض أمام القوات البريطانية لاحتلال مصر . . فكان أول ما قامت به بريطانيا هو حمل تركيا على إعلان عصيان (أحمد عرابى) وخروجه عن الطاعة مقابل إرسال قوة تركية رمزية قدرها ٣٠٠٠ جندى إلى (بورسعيد) .وقد ابتهج الخديو الخائن (محمد توفيق) بهذا الاعلان وأوعز إلى بطانته من الخونة بنشره فى ربوع البلاد وحث الشعب على مناصرة البريطانيين ،كما أذاع ذلك على الضباط المصريين

وخاصة على أولئك الذين كانوا ينتمون إلى أصول شركسية أو تركية بغيةإيقاد نار الفتنة بين صفوف القوات المصرية ومنذ ذلك الوقت بدأ بعض قادة الجيش المصرى يتظاهرون لعرابى بالطاعة بينما هم يضمرون له كل حقد وضغينة ويتربصون به للقضاء عليه حالما تسنح لهم الفرصة .

« عرابى » يدعو مجلس الحـرب :

يكتب الزعيم « أحمد عرابى » فى مذكراته[1] .

فى ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ هـ الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ، عقد مجلس تحت رئاستنا حضره راشد باشا حسنى قومندان الخط الشرقى وعلى باشا فهمى وجميع أمراء الآلايات الموجودين بمركز التل الكبير ، ومحمود باشا سامى قومندان مركز الصالحية وتقرر فيه الهجوم على الاعداء بمركز القصاصين حيث اتخذ معسكرا للانجليز حشدوا إليه جميع قواهم الحربية ، فكانوا يزيدون عن ٣٠ الفا ، وفيهم الدوق « أوف كنوت » ثالث أنجال الملكة فيكتوريا .

وقد تقرر أيضا أن يكون خط الجيش المصرى على شكل (مقعر) — أى على هيئة نصف دائرة تحيط بالعدو ويكون محمد أفندى الرملاوى بأورطته فى الجانب الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة سوارى (فرسان) ومدفعان وعدد من العربان ، وفى الجانب الأيسر للترعة المذكورة برنجى آلاى بيادة (مشاة) حكمدارية (بقيادة) أحمد بك فرج وخلفه ٦ مدافع . وفى القلب آلاى عيد بك محمد يتقدمه بطاريتان « كروب » ١٢ مدفعا وخلفه بطارية ٦ مدافع تحت قومندانية (قيادة) على باشا فهمى والطوبجية (المدفعية) تحت حكمدارية حسن بك رأفت .

وفى الجناح الأيسر على بك يوسف بالايه وخضر ومعه أورطتان من السودان وبطارية من ٦ مدافع وستة أورط (كتائب) من السوارى (الفرسان) تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وقومندان (قائد) الجيش راشد باشا حسنى . وأن يقوم قومندان مركز الصالحية محمود باشا سامى بجيشه المركب من الأسلحة الثلاثة وقدره ١٢ ألفا ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال (خط التشكيل) عند مطلع الفجر ، ويقف والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعرب يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة .

وعمل بهذا الترتيب رسم (خريطة) بطرف أركان حرب الجيش وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل على موجبها .

ثم يصف الزعيم « أحمد عرابى » سير القتال فيكتب :

وفى الثلث الأخير من الليل من مساء يوم الجمعة الموافق ٢٥ شوال و ٦ سبتمبر ، قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار ولكن العدو كان عالمـا بما قـر الرأى عليه ، فبادر جيشنا بإطلاق النار واشتبك القتال بين الجيشين ، وأما جيش مركز الصالحية فإنه تأخر عن الميعاد المذكور والمحدد له ، ولمـا قرب من الجيش كان العدو مهيئا لقتاله فوجه إليه بطارية مدافع وأطلق عليه مقذوفاتها قبل أن يصل إلى محله فتشتت الجيش المذكور وولى الأدبار ، فمنهم من عاد إلى الصالحية ومنهم من حضر إلى مركز رأس الوادى ، وأما

---

[1] (١) مذكرات عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .

« راشد باشا حسنى » و « على باشا فهمى » ومن معهما ، فقد ثبتوا ثبات الأبطال إلى آخر النهار وقد جرح « راشد باشا حسنى » فى قدمه برصاصة و « على باشا فهمى » برصاصة أيضا فى ساقه وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التى كانت مقذوفاتها كالمطر تنصب فى الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشبت بيننا وبين الانجليز إذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهم نادر المثال .

ولما وصل الجيش أرسلنا الجرحى فى قطار مخصوص إلى العباسية بمصر لمعالجتهم ومعهم القائدان العظيمان راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ، ثم طلبنا على باشا الروبى قومندان مريوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى ، فحضر فى عصر يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر وتوجه توا إلى المقدمة فأمر بانتقال آلاى على بك يوسف وعبد القادر بك عبد الصمد من الجناح الأيسر الذى كان مستحكما مائلا إلى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى المعسكر من هجمات العدو ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من الترعة الحلوة إلى الجهة الشرقية وأمرهما بإتخاذ دروة خفيفة من التراب فى أثناء الليل ، فعمل عبد القادر بك عبد الصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان فى نهاية الجناح الأيسر ، وأما على بك يوسف فإنه جمع عساكر آلايه فى هيئة القول (الطابور) ولم يجر عمل شىء يقيهم من مقذوفات العدو إذا هجم على الجيش .

وقد تقدم أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بعساكر السوارى إلى الأمام على بعد ألفى متر ليمنعوا تقدم العدو إذا أراد الهجوم على معسكرنا ، ولكن خاب الأمل فيهما فوامصيبتاه ! ! .

(خنفس) الخائن يسلم الخطة للعدو :

وقد قامت رئاسة القوات المصرية بعمل رسم لطريقة الهجوم وسلمت نسخة منه لكل قائد . . وفى الثلث الأخير من ليلة ٨-٦ سبتمبر ١٨٨٢ قام الجيش بالترتيب المذكور — بعد أن تقرر أن تلحق به قوات (الصالحية) عند مطلع الفجر للاحداق بميمنة العدو . وهنا كانت المأساة . . فقد كان العدو على علم تام بالخطة التى أطلعهم عليها الاميرالاى (على يوسف خنفس) . . فما كادت المدفعية المصرية تطلق قذيفتها الأولى حتى اشتبك الجيشان فى القتال . . وكانت قوات (الصالحية) قد تأخرت عن موعدها المحدد . . فلما اقتربت من مواقعها أطلقت عليها المدافع قبل أن تأخذ أماكنها فتشتتت صفوفها . . أما القوة الرئيسية فقد بقيت ثابتة حتى آخر النهار وقد جرح أثناء القتال الفريق راشد باشا حسنى واللواء (على باشا فهمى) كما منى كل من الجيشين بخسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد[1] .

---

(١) كانت هزيمة الجيش المصرى فى معركة (القصاصين الثانية ضربة أليمة كشفت الموقف الحربى ودلت على تصدع الجبهة المصرية ويرى المؤرخون العسكريون أن أسباب الهزيمة الرئيسية كانت تتركز فى أهمال تنفيذ خطة الهجوم حيث لم تصل قوات الصالحية فى موعدها المحدد علاوة على تدهور الروح المعنوية للقوات المصرية بصفة عامة على أثر إعلان عصيان (عرابى) — كما يضيفون إلى تلك الأسباب سببا رئيسيا جديرا بالذكر وهو الخيانة ، حيث تمكن البريطانيون — عن طريق الرشوة — من معرفة خطة المعركة قبيل بدئها من الأميرالاى « على بك يوسف خنفس » وهو الأمر الذى جعلهم يعدون العدة لملاقاة القوات المصرية ، وبذلك تمكن الجانب البريطانى من إحراز عنصر المفاجأة التامة على القوات العرابية التى فوجئت مفاجأة مشينة قلبت موازين المعركة لغير صالحها تماماً ونتج عنها انهيار الموقف العسكرى المصرى بأجمعه .

اليــأس يستولى على (عرابى) :

كان من نتيجة المعركة أن ظهر الاضطراب على زعماء العرابيين وبدأ اليأس يتسرب إلى قلوبهم وأدرك (عرابى) — بعد فوات الآوان — إنه لو كان قد سد قناة السويس عند بدء القتال لما تمكن الإنجليز من التقدم فى داخل البلاد واحتلالها بهذه الطريقة .

وقد أخذ (عرابى) عقب المعركة يعالج الموقف فى كثير من التردد واليأس فاستدعى اللواء (على باشا الروبى) من القطاع الغربى (قطاع كفر الدوار)ليتولى قيادة قوات الميدان الشرقى فحضر يوم ١٢ سبتمبر وبدأ فى تفقد مواقع (التل الكبير) الذى بات واضحا تماماً أنه — عقب معركة القصاصين — قد أصبح الهدف المنتظر للهجوم البريطانى .

معركة التـــل الكبير

شـــكل الدفـاعات المصرية :

كانت خطوط الدفاع المصرية فى (التل الكبير) تمتد من السكة الحديد بطول ٦ كيلومترات وتتجه من الجنوب إلى الشمال حيث يلاصق جانبها الأيسر الأرض الصحراوية الممتدة ما بين (الصالحية) و (التل الكبير) ، وقد انشئت تلك الخطوط بعمق فكان وراء الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد إلى معسكر « التل الكبير » الواقع تجاه السكة الحديد .

على أن الاستحكامات لم تكن قوية أو كافية وذلك بالنظر لإقامتها على عجل ، فعندما اتضح لعرابى أهمية الميدان الشرقى ، قام بتعزيز قوات التل الكبير حتى قاربت ٢٠ ألفا من الرجال قبل المعركة مباشرة ، إلا أن غالبية هؤلاء الجنود كانوا من المتطوعين الذين لم ينالوا أى قسط ذى قيمة من التدريب على القتال ، يدعمهم نحو ٧٠ مدفع ميدان من مختلف الأعيرة ومن الطرز القديمة وخلف الخطوط الدفاعية المصرية ، كانت تقع هضبة يبلغ ارتفاعها نحو ٣٠ مترا تقع شرقى محطة « التل الكبير » على الضفة اليسرى لترعة الاسماعيلية وتنحدر انحدارا بطيئا نحو الشرق والشمال .

وقد اتخذ « أحمد عرابى » مقر رئاسته على مسافة ٤ كيلومترات من الخطوط الأمامية ، بينما عهد بالقيادة الميدانية إلى اللواء « على باشا الروبى » الذى وصل إلى ميدان القتال قبيل بدء المعركة بيوم واحد ، وهو بذاته الأمر الذى حرمه من الفرصة الكافية للتعرف على أرض المعركة والقوات وتعديل الخطط الصالحة للدفاع .

الخطــة البريطانيـــة :

على الجانب الآخر ، أخذ الجنرال « ولسلى » يعد لتوجيه ضربته الأساسية ضد الدفاعات المصرية فى منطقة « التل الكبير » منذ أن ظهر له بوضوح تصدع الجبهة المصرية فى أعقاب معركة « القصاصين » الثانية ، وهكذا بدأ « ولسلى » منذ ذلك الوقت فى العمل على حشد قواته فى « القصاصين » استعدادا لتوجيه ضربته الرئيسية ، وما أن وصلت إليه القوات الهندية السابق الإشارة إليها حتى تحركت القوات البريطانية المحتشدة ما بين « القصاصين » و « الاسماعيلية » ، والتى بلغ مجموعها نحو ١٥ ألف جندى ، بعد أن تمكن القائد البريطانى من تذليل كافة مشكلاته الإدارية بصفة نهائية وأصبح الآن فى موقف يسمح له بتوجيه ضربته الحاسمة صوب المواقع المصرية فى « التل الكبير » .

وقد قرر القائد البريطانى « ولسلى » أن يتقدم بقواته ليلا لمهاجمة الدفاعات المصرية قبيل فجر يوم ١٣ سبتمبر على أساس تشتيت القوات المصرية فى جانبها الأيمن ، فى ذات الوقت الذى يقوم فيه بالالتفاف على جانبها الأيسر ، مع القيام بدفع هذا الجانب للخلف فى اتجاه السكة الحديد بينما تقوم الفرسان البريطانية بحركة التفاف واسعة النطاق نحو مؤخرة القوات المصرية لقطع خط انسحابها وإجبارها على التسليم .

بداية التقــدم البريطـــانى :

أراح الجنرال « ولسلى » قواته يوم ١٢ سبتمبر لتبدأ تقدمها من « القصاصين » بعد غروب ذلك اليوم على النحو التـــالى :

- الموجة الأولى : اللواء الثانى فى اليمين بقيادة الجنرال « جراهام » .
- الموجة الثانية : لواء فى اليمين بقيادة دون أوف كنوت .
- اللواء الرابع فى اليسار بقيادة الجنرال « شيبرنهام » الذى تولى قيادته مؤخرا .
- المدفعية (٤٢) قطعة من مختلف الأعيرة فى الوسط بين لواء الحرس واللواء الرابع .
- لواء الفرسان بقيادة « دورورى لو » فى الوسط خلف المدفعية مباشرة .
- القوة الهندية بقيادة « مكفرسون » بين ترعة الاسماعيلية والسكة الحديد .

شبح الخيـــانة :

وصلت القوات البريطانية إلى مناطق تجمعها الأمامية على بعد ٤ أميال من « التل الكبير » حوالى الساعة العاشرة من مساء يوم ١٢ سبتمبر وأخذت فى الاستعداد للاقتراب من الدفاعات المصرية لمهاجمتها وكان الظلام حالكا « وقد اطفئت أنوار القوات المتقدمة ، بينما كان فى مقدمة القوات ضباط الأسطول من ذوى الخبرة بالملاحة الكلية ليلا ، ولو أن الخيانة بدأت تطل برأسها حين تعاون بعض ضباط الخديو وعربان من قبيلة (المنادى) ممن اشتريت ذممهم — مع القوات البريطانية . فأرشدوهم إلى مسالك الصحراء ودروبها التى تؤدى إلى مواقع قوات « أحمد عرابى » .

المصريون يفاجأون بالهجـــــوم :

تحركت القوات البريطانية فى الساعة الثانية صباحا بالترتيب الذى اتينا على ذكره ، وعند الفجر كانت مقدمة الكتائب البريطانية على مسافة ١٥٠ ياردة من خطوط القوات المصرية التى فوجئت تماماً بالهجوم البريطانى ، الذى بدأ على شكل نصف دائرة أحاطت بمعسكر العرابيين ، وقامت القوات المهاجمة بإقتحام الاستحكامات الأمامية بينما قام رماتهم باطلاق القنابل والبنادق ، كما هجموا على خط الاستحكامات الثانى علاوة على قيام قوة أخرى منهم بتفتيش الخنادق والحفر والفتك بمن فيها من الحراس والجنود .

أما الفرسان ، فقد هاجموا ميسرة العرابيين فى اتجاه محطة « التل الكبير » واحدقوا بها : ففوجىء المصريون فى اليمين وفى اليسار واختل نظامهم وتفرق شملهم بينما ظل آلايان من مشاة الجيش المصرى والايان من السودانيين يكافحون ويقاتلون قتال الابطال حتى استشهد معظمهم .

الخســـــائر :

بلغت خسائر القوات المصرية خلال معركة « التل الكبير » نحو ٢٠٠٠ قتيل و ٤٠٠٠ جريح ، فى حين بلغت خسائر الانجليز ٥٧ قتيلا و ٤٠٢ جريح .

ولعل من أهم أسباب هزيمة جيش عرابى فى معركة « التل الكبير » ، ذلك الانقسام الذى حدث فى صفوف الجيش ذاته بعد أن قام الخديو « توفيق » بإصدار منشور « عصيان » عرابى ومن يقاتلون معه الأمر الذى جعل الجنود والقادة لا يشعرون فى واقع الأمر أنهم يضحون فى سبيل هدف وطنى مشروع ، أضف إلى ذلك ما بذره ذلك المنشور من بذور الخيانة والنفاق بين صفوف الضباط والجنود والقادة على السواء ، كذلك خيانة الأمير الاى على بك خنفس واطلاعه الإنجليز على الخطوط الدفاعية المصرية ومواقع الأسلحة قبيل المعركة ، كذلك لا يمكننا اغفال عامل عسكرى هام يتمثل فى ضعف القوة العددية والنوعية للقوات المصرية إذا قورنت بالقوات البريطانية المتفوقة عدداً وعدة وقد بلغ مجموعها خمسة عشر ألف جندى ، فى حين لم يقاتل من المصريين – نتيجة لعوامل المفاجأة وغيرها – سوى الآلايات الأربعة سالفة الذكر (الألايين السودانين والآلايين المصريين التى لم يزد مجموع قوتهم على أكثر من ٣٠٠٠ جندى) .

خسائر القوات البريطانية فى معركة التل الكبير – ١٨٨٢/٩/١٣

السلاح	قتيل		جريح		مفقود	
	ضباط	جنود	ضباط	جنود	ضباط	جنود
الرئاسة			٢			
الهوزار			١			
المدفعية			٢	١٧		
الجرينادير جاردز		١	١	٩		
جولد ستريم جاردز			١	٧		
سكوتش جاردز				٤		
رويال هايلاندرز	٢	٧	٦	٣٩		٢
جوردون هايلاندرز		١٣	٣	٤٥		
هايلاندرز لايت انفانترى	٣	١٤	٥	١٧		
سكند رويال ايريش	١	١	٢	١٢		
يورك ولانكستر				٢٤		٣
فيرست رويال ايريش فوزيلزر		٢		٥٣		٢١
مشاة البحرية الخفيفة	٢	٣	١	٥		
مشاة الدوق أوف كورنول			١	٢٠		
كنجز رويال رايفلز كوبر				٩		
القوة الهندية		١		٣		
سيفور هايلاندرز		١				
قساوسة			١			
المجموع	٨	٤٨	٢٧	٣٥٥	–	٢٦

أحمـــد عرابى : هـــذا هزمنا !! :

وانه لمن المناسب الآن أن نستمع إلى وصف الزعيم « أحمد عرابى » لأسباب ما أسماه « الخذلان » فى تلك المعركة الفاصلة التى حسمت الموقف بأسره لصالح القوات البريطانية ، يكتب[1] :

فى يوم الأربعاء الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ ، ١٨٨٢ ، كنت فى صلاة الفجر إذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة :: فخرجت وإذ بى أجد ضرب النار على طول خط الاستحكام ورأيت بطارية طوبجية سوارى على مرتفع من الأرض تبعد عن الخيمة التى كنت فيها بنحو ٦٠٠ متر وهى تصب مقذوفاتها على مركزنا العمومى . . وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك الا الأهالى المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد وجابر بك من بندر ببـــا بمديرية بنى سويف وكانوا نحو ألفى نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ودهشوا . . فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، فلم يجد كل ذلك نفعاً لأن الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ ، فتفرقوا فراراً فجاء ضابط من طرف على باشا الروبى القومندان الجديد يخبرنى بإتخاذ مركز آخر ، نظرت فوجدت الميدان مزدحما بالخيل والجمال والعساكر مشتتين مولين ظهورهم للعدو ، فذهبت إلى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو واذكرهم بالشرف الإسلامى والعرض والوطن ولم أترك كلمة من شأنها تنشيط الأجسام الميتة وبث الشجاعة فى قلب كل رعديد جبان ، فما كان من سميع ولا بصير ، بل ألقوا بأنفسهم فى الترعة وسبحوا إلى البر الغربى .

فذهبت إلى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول إلى القاهرة ، وكان معى أخى السيد صالح عرابى وخادمى محمد ابراهيم وجاويش بروجى يدعى عطية محمد فقط ، وكانت مقذوفات الطوبجية السوارى (مدفعية الخيالة البريطانية) تتساقط علينا من كل صوب حتى تركنا حدود التل الكبير .

فلما وصلت إلى بلبيس، وجدت « على باشا الروبى » سبقنى إليها ، فسألته عما دهاهم ، فلم يزد على قوله (انه الخذلان) . وكانت على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا فأرخينا للخيل اعنتها حتى وصلنا محطة انشاص فوجدنا هناك قطارا فركبناه وأسرعنا إلى القاهرة ، لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم إليها .

دســـائس الخـــديو « توفيق » :

ويرجع الزعيم « أحمد عرابى » أسباب الهزيمة إلىخيانة الخديو « توفيق » ويركز عليها باعتبار أنها كانت العامل الرئيسى فى الهزيمة والخذلان ، ونحن نوافقه تماماً فيما يذهب إليه وإن كانت هناك أيضا بعض الأسباب الفرعية — ومعظمها من الناحية العسكرية مما سنأتى عليه فى حينه .

يكتب الزعيم « أحمد عرابى » فى مذكراته :

وأسباب هذا الخذلان أنه فى خلال تلك الأيام كانت الرسائل تترى من قبل الخديو إلى كبار الضباط بالوعد والوعيد ، معلنة لهم أن الجيش الانجليزى لم يحضر إلى مصر إلا بأمر السلطان خدمة للخديو وتأييداً لسلطته . وكانت

---

(١) نفس المصدر السابق .

تلك الرسائل توزع بواسطة محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه من الذين كانوا مع الانجليز فى الاسماعيلية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد بك عبد الغفار والسيد الفقى العضوين فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية ، فأثروا على قلوب مثل على بك يوسف وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه وعبد الرحمن بك حسن وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية واستمر ذلك إلى أن كانت ليلة الأربعاء ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ فأشاع على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الانجليز لا يخرجون فى هذه الليلة من مراكزهم ولذلك لم يفعل ما أمره على باشا الروبى من عمل خط الاستحكام من الحجارة ، وجمع عساكره فى نقطة واحدة .

وكانت العساكر الإنجليزية قد سارت من أول الليل ، وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا إلى الخديو مع الانجليز ، وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق ، واستمروا سائرين إلى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل . وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن حسن ، فبدل أن تنازل العدو القتال وتوقف سيره ، رجعت أمامه كأنها تقوده إلى أن بلغوا محل آلاى على بك يوسف الذى كان خاليا من عساكر بلا مانع يمنعهم وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والأمام وأوقعوا بالجند على حين غفلة منهم إذ كانوا راقدين ، فدهشت العساكر وتولاها الذهول حيث ضرب النار من خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لأنفسهم إلا برنجى آلاى بيادة (اللواء الأول المشاة) حكمدارية أحمد بك فرج ، وآلاى محمد بك عبيد ، وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد فإنهم ثبتوا فى مراكزهم وقاتلوا أعداءهم حتى النهاية ، فاستشهد وجرح من جرح وصار الميدان ظلاما من دخان البارود واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة فى تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة الحديدية التى بها الذخيرة الحربية وما جاورها عن عربات المؤونة من جراء مقذوفات الطوبجية السوارى التى عمدت إلى ضرب المركز العمومى (مركز القيادة) .

وهكذا تم استيلاء الانجليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره وبه كانت نهاية الحرب والخسارة العظيمة بسعى الخديو ومن معه من المصريين الذين انحازوا إليه ، وقد نشأوا عبيد الاستبداد واستمرأوا عيش الاستعباد ، وبمساعدة المنافقين من عمد وأعيان المنوفية وعرب الهنادى بالشرقية الذين كافأهم الخديو جميعا والشيخ أحمد أبو سلطان وأخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية خصوصا فإن الخديو أقطعهم ٥ آلاف فدان فى رأس الوادى مكافأة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فى خيراته .

ولما علم الخديو توفيق نبأ استيلاء الإنجليز على التل الكبير : وفد من كان فى الاسكندرية من الذوات والأجانب على الخديو يهنئونه بالفوز والنصر ، وصدحت الموسيقى الخديوية بأنغام التبشير بالظفر ، وعزفت بالسلام الخديوى أمام سراى الحقانية ، فرفعت العساكر الإنجليزية السلاح تعظيماً وإجلالا ، وهتف الأوروبيون بقولهم : « فليحى توفيق الأول » ، ثم ختم ذلك بالدعاء للخديو ، وملكة الإنجليز ، والجنرال « ولسلى » الايرلندى ، والدولة الإنجليزية وتفرق القوم بعد ذلك .

نحنى رؤوسنا إجلالا لهؤلاء الرجال العظام :

ولا يسعنا ونحن نسجل للتاريخ الآن إلا أن نحنى رؤوسنا إجلالا وتقديراً للأميرالاى « محمد بك عبيد » قائد القوة السودانية الصامدة والذى صمد مع جنوده وظل يقاتل على رأسهم حتى استشهد واستشهد معه معظم جنوده ضارباً أعظم المثل فى الفداء والبسالة ، كما نحيى كذلك اليوزباشى (الفريق فيما بعد) حسن رضوان — قائد المدفعية

خلال المعركة — وقد ظل مسيطرا على نيران مدافعه حتى اقتربت القوات البريطانية المهاجمة من مواقعه ، فأصلاها نيرانا حامية وكبدهم خسائر فادحة حتى أصيب هو نفسه بجراح بالغة ، لقد أعجب الجنرال « ولسلى » ببسالة هذا الرجل فترك له سيفه احتراماً وتقديراً له كمقاتل كما استبسل كذلك فى الدفاع الأميرالاى أحمد بك فرج « على رأس آلاياته ، كذا آلاى الأميرالاى « عبد القادر بك » عظيم ، كما استبسل فى الدفاع الأميرالاى « أحمد بك عبد الصمد » .

الجنرال بتلر : نظلم مصر وجيشها :

وعلى العكس مما أشاعه الاستعمار ردحاً طويلا من الزمن كى يشوه صورة « عرابى » وثورته ، بل صورة كل المصريين الذين دافعوا عن وطنهم ، فإننى أستشهد فى هذا المقام بأحد الجنرالات البريطانيين ممن حضروا واقعة « التل الكبير » وشهدوها بأنفسهم ، بعد أن قرر أن يقول كلمة حق ، على الرغم من الهزيمة التى نزلت بجيش أحمد عرابى ، وعلى الرغم من المفاجأة التى أصابته أيضاً نتيجة لعوامل الخيانة وسوء التقدير الذى لا نستطيع إنكاره ، فإننا هنا نشير إلى أن تلك المعركة وقعت بين جيش بريطانى مدرب جيداً على فنون القتال والكر والفر وله تاريخ مشهود فى الحروب والنزال فى طول أوروبا وعرضها وبين جيش مصرى غير معترف به من السلطة الحاكمة المتمثلة آنذاك فى خديو مصر الخائن « محمد توفيق » الموالى للانجليز ، وبصرف النظر عن بقية العوامل ، فينبغى ألا ننسى أن هذا الجيش المصرى لم يكن مدرباً بأية حال على القتال ضد جيش أوروبى حديث جيد التدريب والتسليح ، حيث ظل هذا الجيش المصرى طوال قرون طويلة تحت قيادة أجنبية سواء كانت عثمانية أو غيرها منذ الفتح العثمانى لمصر فى عام ١٥١٧ ، ولم يقدر له قط — حتى قام « أحمد عرابى » بحركته الوطنية الخالدة — أن يقاد قيادة وطنية مخلصة تعمل على تحسين مستوياته العلمية والعسكرية والقتالية أو حتى التنظيمية ، ونحن نظلم مصر وجيشها ظلماً كبيراً حينما نقارن — مجرد مقارنة — بين الجنرال « ولسلى » — القائد البريطانى العام — الذى تمرس على القتال ودرس فنون الحرب فى أرقى المعاهد العسكرية ، وبين « على الروبى » القائد العام للقوات المصرية فى التل الكبير والذى لم ينل حظاً من التعليم العسكرى أو الفنون الحربية والذى دفع به إلى قيادة المعركة يوم ١٢ سبتمبر فلم تتح له الفرصة قط ليدافع عن وطنه .

إن الجنرال السير « بتلر » — أحد قادة الجيش البريطانى عام ١٨٨٢ — يكتب عن واقعة التل الكبير ، فيقول :

كان الأجدى لنا أن نترك الجيش المصرى ونذهب رأساً إلى القاهرة عن طريق قناة السويس فلما رجعت الحكومة البريطانية عن رأيها ، ونزل الجيش إلى الأراضى المصرية من قناة السويس ، التقى الجيشان فى التل الكبير ، ولم يكن الجيش المصرى مستعداً أو متوقعاً القتال فى هذه الليلة لأن جواسيس « عرابى » كان قد اشتراهم الإنجليز ، وانفرد « محمد سلطان باشا » ولابسوا الطرابيش الذين معه وانحدروا من جهة القناة بعيداً عن ساحة المعركة ، فلما فاجأناهم تنبهوا ولكن لم يهرب منهم أحد بل قبض كل منهم على سلاحه وكلما اجتمع منهم عشرة ، كونوا جماعة وتقدموا إلى ناحية القوات البريطانية يطلقون عليها النار ، وكان رميهم صادقاً وسديداً فكانت القنبلة تقع بين الضابط وبين فرقته فتفرقهم .

يقول الجنرال « بتلر » :

ولى هنا كلمة ينبغى أن أقولها عن واقعة « التل الكبير » ، فإننا قنا بمفاجأة الجيش المصرى خلف متاريسه ، ولكنه تنبه بسرعة وحارب الجنود بنية صادقة وعزم ثابت ولم تعقه كل العوائق الكبرى التى وضعناها حوله ، فإننا لم نعطهم دقيقة واحدة لينظموا أنفسهم ، فكان هجومنا عليهم كالصاعقة وقد كان قادة هذا الجيش من الفلاحين الذين لم يمارسوا الحرب فى حياتهم ، وقد خانهم الذين ائتمنوهم ، ومع ذلك كان لا يجتمع منهم ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ إلا ويثبتون خلف المتاريس أو المنحدرات والتلول وفوق سطح الرمال .

« عرابى » : لا ينبس إنسان بينت شفة ضدهم :

أما البطل « أحمد عرابى » ، فيكتب فى مذكراته الخطية معلقاً على قول الجنرال « بتلر » بشأن القتال فى « التل الكبير » :

ولا أبلغ من شهادة القتلى والجرحى الذين كانوا ملقين أمامهم وهم ثابتون فى شجاعة فعلى العشرة آلاف جندى الذين قتلوا خلال هذه المعركة السلام ، ولا ينبغى لمصرى أن ينبس ببنت شفة ضدهم . فيكفيهم ما فعله وما قاله عنهم المستعمرون والماليون والمراقبون وعبيد الاستعباد ، لقد ماتوا أشرف ميتة وستبكيهم مصر ولن تنساهم » .

ثمار الهزيمة :

لم تكد معركة « التل الكبير » تنته على هذا النحو المأساوى حتى أمر الجنرال « ولسلى » فرقة الفرسان بالزحف على القاهرة ، فتحركت من « بلبيس » يوم ١٤ سبتمبر لتصل العباسية دون مقاومة عصر اليوم ذاته ، حيث أصدر قائد الفرقة أمرا إلى قائد حامية العباسية يأمره فيه بتجريد الجنود المصريين من أسلحتهم .

وفى ذات اليوم ، توجه « أحمد عرابى » و « طلبة باشا عصمت » إلى ثكنات العباسية وسلما أنفسهما إلى الجنرال البريطانى ، بينما سارت كتيبة من الفرسان ليلا إلى القلعة فاحتلتها بعد أن تولى الخائن « يوسف خنفس » تسليمها بنفسه . كما احتلت القوات البريطانية أيضاً معسكرات قصر النيل وقشلاقات عابدين وكان ذلك إيذاناً باحتلال العاصمة .

وفى صباح يوم الجمعة ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، دخل الجنرال « ولسلى » القاهرة بصحبة « محمد سلطان » — نائباً عن الخديو — حيث نزل فى سراى « عابدين » التى أمر الخديو باعدادها له فى حين أخذت كتائب الإنجليز تتوافد على العاصمة .

وفى نفس ذلك اليوم الحزين ، أرسل الجنرال البريطانى « ولسلى » برقية مقتضبة إلى وزارة الحرب البريطانية فى لندن قال فيها :

« انتهت الحرب . . لا ترسلوا إمدادات جديدة إلى مصر » !

جون نينيه السويسرى يقدم شهادته التى أقسم عليها :

وإنه من الأمور المثيرة للدهشة حقاً . . أنه فى الوقت الذى وجدنا فيه العديد من الكتاب المصريين يشوهون صورة الزعيم أحمد عرابى ، ويقذفونه بالأوحال ، ما بين قائل أنه « أحمق قصير النظر » وما بين منهم له بالنزق والطيش وما إلى ذلك من الصفات التى لا يقبلها العقل . .

فى ذات الوقت نجد كلمات مضيئة تعطى لهذا الزعيم المصرى بعض حقه من الإنصاف والموضوعية . . ويثير الدهشة أكثر أننا نجدها قد سجلت بأيدى وأقلام كتاب وساسة ، شاهدوا وقائع الثورة وعاشوا أحداثها الأمر الذى يستحيل معه أن نغفل شهاداتهم وأقوالهم باعتبارهم شهود عيان محايدين إلى أقصى درجات الحياد والتجرد .

من بين هؤلاء الأجانب الذين عاشوا أحداث الثورة العرابية فى مصر وحضروا وقائعها وكان لهم دور يسمح لهم بالإطلاع على مجريات الأمور مسيو « جون نينيه » — سويسرى الجنسية وعاصر أحداث الثورة — والذى يبدأ شهادته للتاريخ بعد أن أقسم عليها[1] ويقول فيها :

لى من العمر خمس وستون سنة : . وأنا سويسرى الأصل عشت فى مصر ردحاً طويلا وقفت فيه على أحوال الأمة وعاداتها وصار لى كثير من الأصدقاء الخصوصيين فيها ومنهم عرابى بك الذى صار فيها بعد « عرابى باشا » .

كنت مقيما بالاسكندرية قبل أن يقصفها الأسطول البريطانى وفى اليوم الذى ضربها فيه ، وفى صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القذائف تمر فوق بيتى وسقط بعضها على المنزل المجاور لمنزلى ، وثالت تلك القنابل التى مرت فوق بيتى قتلت أحد عشر شخصاً وجوادين بالقرب من باب « محرم بك » وقد أحرقت قذائف الأسطول بيوتاً ومبانى ودمرتها من جميع الجهات ، وفى صباح اليوم التالى استأنفت البوارج البريطانية الضرب ، فأجابها حصن أو حصنان .. ورفع علم أبيض فوق الترسانة . وأرسل « طلبة باشا » إلى الأميرال البريطانى ليسأله لماذا يعاود القصف على الرغم من أن الحصون المدافعة قد سكتت .

وكان جواب الأميرال « سيمور » لطلبة باشا — كما قرره هذا لآخرين فى حضورى — بأنه لوحظ بأن بعض الحصون أصلحت فى أثناء الليل وأنه بسبب إطالة الدفاع فى اليوم السابق (١١ يولية) قرر الأميرال إطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن « كوم الدكة » وحصن « كوم الناضورة » إلا إذا سلمت له جميع الحصون والمعسكرات .

فأوضح له « طلبة باشا » أنه لم يخول إليه تسليم أى حصن أو معسكر دون موافقة وزارة الخديو . وانه من القسوة أن يقصف حصنا « كوم الناضورة » بعد أن قرر « عرابى » عدم استعمالهما وعدم الدفاع عنهما لوقوعهما داخل المدينة ولأن الدفاع عنهما بهذه الصورة من شأنه تدمير المدينة وقتل المدنيين .

وكان الجواب البريطانى أن البريطانيين لا يمكنهم أن يراعوا ذلك وأنه إذا لم تسلم جميع الحصون والمعسكرات لغاية الساعة الثالثة ، فسيعاودون القصف ويعملون على تدميرها .

وهنا أوضح « طلبة باشا » انه لا يمكنه أن يتخابر مع الخديو ومجلسه بالرمل ويأتيه الجواب فى الوقت المناسب . وذهب « طلبة باشا » ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون إذا لم يسلم الحصون والمعسكرات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها . فكانت إجابة « سيمور » : « سنضربها جميعاً وندمرها إلا إذا سلمت لغاية الساعة الثالثة .

---

(١) ونشرها المستر (الفريد بلنت) الاسكتلندى الجنسية فى كتابه : « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر » — الجزء الخامس — سلسلة اخترنا لك العدد ٧٦ — ص ٨٢٨

وهكذا ذهب « طلبة باشا » إلى الرمل وبقى العلم الأبيض يخفق فوق الترسانة لحين عودته ولم يكن يرى أى علم أبيض آخر .

وحدثت مهاجرة عامة من جانب الأهالى والجيش . وفى الساعة الثامنة كنت فى ميدان القناصل وكان مكتظاً بالجنود وبكثير من الضباط المتازين وكانوا يسيرون فى اتجاه باب رشيد ، وكان « سليمان بك سامى » — وهو ضابط أعرفه — يقود الجنود إلى باب رشيد بقصد إخلاء مدينة الاسكندرية لأنه أمر بتدمير جميع الحصون وضرب المعسكرات بالقنابل فى الساعة الثالثة .

وكان آلاف الأهالى اليائسين يغادرون المدينة حاملين أمتعتهم التى أمكنهم نقلها بينما كانت جثث القتلى تنقل بعيداً .

وفى الساعة الثالثة تقريباً رأيت « عرابى باشا » وكان يغادر المدينة مع الأورطتين ١ ، ٢ متجها إلى القناة وأرشدنى للانضمام إلى الصليب الأحمر ، سمعت دوى المدافع من البوارج البريطانية ليستمر القصف ساعة تقريباً ثم سرعان ما توقف لأن الحصون المصرية لم تجب على هذا القصف .

كان « عرابى باشا » قد أمر قبل تحركه باغلاق باب المدينة لمنع البدو من دخولها أو مغادرتها بأسلابهم ، كما أمر فرقتين من (الرديف) — الاحتياط — بالبقاء فى المدينة لحراسة الشوارع الرئيسية وحفظ الأمن والنظام .

قذائف الأسطول هى التى أحرقت المدينة :

نتابع شهادة مسيو « جون نينيه » التى اقسم عليها ، والتى ينفى فيها تماماً ما اشاعه الاستعمار من قيام عرابى وجيشه باشعال النار فى الاسكندرية بعد ضربها ، يقول :

وكان « طلبة باشا » يتباحث بعد الظهر فى الرمل مع الخديو . بينما كنت طوال هذا الوقت فى قاعة الطعام الرئيسية الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد ، وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم « محمود سامى البارودى » و « محمود فهمى » ، وغادرت المدينة معهم ومع عدد من الأطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكى نلحق بالجيش . ونمت الليلة فى بعض القصور بالضواحى . وبعد أن تركت المدينة قذفت الريح فى اثناء الليل بدخان أزرق من المدينة واتضح من ذلك ان النيران قد شبت فى اماكن كثيرة فيها .

ولم يكن فى المدينة حرائق حين غادرناها كما لم يشعل الجنود النار فيها ، بل إنى أقرر أنهم بذلوا أكبر الجهود لمنع امتداد الحرائق التى سببها قصف الأسطول البريطانى ولمنع البدو وغيرهم من عمال السلب والنهب . ويمكننى أن أقول مؤكداً أن « عرابى باشا » أو أى ضابط من الضباط الآخرين ما كان ليفكر بأن مدينة الاسكندرية قد تشعل فيها النيران بأيدى الأعراب و غيرهم . . وأنا عرف أن « عرابى باشا » وجميع الضباط الآخرين قد حزنوا ودهشوا إذ رأوا المدينة تحترق بعد أن تركوها وأبدوا جميعاً أملهم فى أن « ذو الفقار باشا » — محافظ الاسكندرية وصديق الخديو الحميم ، سيبذل كل جهد مستطاع مع رجال المطافىء لإخماد تلك النيران وحفظ الأمن .

وفى فجر اليوم التالى مشينا مدة ثلاث ساعات على شاطىء قناة المحمودية ثم ركبنا لنشاً بخارياً مع « عرابى باشا » متجهين إلى كفر الدوار ، ووقف بنا عند مكان يسمى «عزبة خورشيد» حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك

مر قطار به عربات حديدية فى طريقه إلى الاسكندرية وقال « عرابى باشا » إن هذا القطار طلب وأمر بإرساله ليقل الخديو وأسرته إلى القاهرة .

وبعد أن ارتقبنا عودة القطار مدة ساعتين جاءت برقية تفيد بأن الخديو أبدل رأيه وأنه لن يغادر الاسكندرية .

وبينما كنا هناك : . أتت الأنباء بوقوع مذابح فى دمنهور وطنطا فأرسل « عرابى باشا » فى الحال ثلاث فرق من من الجنود مع أوامر صارمة لمديرى هاتين المحافظتين بأن يرسلوا جميع الأوروبيين دون أجر إلى الإسماعيلية ، وبور سعيد وبأن يعملوا بكل الجهد لحمايتهم وأن من يخالف ذلك سيحكم عليه بالإعدام .

وفى تلك الأنباء جاء نبأ يقول بأن « أحمد بك المنشاوى » أحد سراة طنطا خاطر بحياته وأنقذ خمسمائة من الأوروبيين والمسيحيين واليهود ، فأرسل « عرابى » خطاباً خاصاً إليه يشكره فيه لحماية أرواح الأجانب . وأصدر بعدئذ أمراً ضمن الأوامر اليومية بوجوب معاملة الأجانب على جميع أجناسهم بالإنسانية فى كل مكان وعلى السلطات المدنية والعسكرية واجب حمايتهم وأن من يقصر فى تنفيذ تلك الأوامر سيحكم عليه بالإعدام .

وكنت مع « عرابى باشا » حين تسلم خطاب الخديو الذى طلب منه فيه بأن يتوجه إليه فى الاسكندرية ، وهو الخطاب الذى رد فيه « عرابى » على الخديو بأنه - أى عرابى - موجود فى كفر الدوار لينفذ إرادة مجلس النظار (الوزراء) الذى انعقد بالاسكندرية والذى حضره الخديو و « درويش باشا » ، وأنه - أى عرابى - عازم على العمل وفق هذا الأمر وعلى تنفيذه بأمانة .

وكنت أيضاً مع « عرابى » حين وصله خطاب الخديو الثانى والذى يفصله فيه من منصب وزير الحربية اعتباراً من يوم ٥ رمضان ويعلن فيه عصيانه .

لقد اجتمع مجلس النظار عقب ذلك فى القاهرة ولم يحضره « عرابى » ولكن حضره أكثر من ستمائة فرد من الأعيان أتوا خصيصا لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر المجلس أن « عرابى » لا يمكن اعتباره عاصياً إلا بأمر السلطان (فى الآستانة) وأن خديو مصر ليست له مثل هذه السلطة . كما قرر المجلس أيضاً مواصلة الدفاع الوطنى وفقاً لقرار مجلس النظار الذى اجتمع بالاسكندرية بحضور الخديو درويش باشا ، الذى عهد إلى عرابى باشا بالدفاع عن البلاد .

وبعد عشرة أيام - ٢٠ رمضان - ٥ أغسطس - عقد مجلس آخر حين تقرر قطع القناة فى أربعة مواضع هى (رأس العش - القنيطرة - سنبل - الشلوفة) ولكن عرابى ومحمود فهمى عارضا هذا القرار وحثا على عدم قطع القناة إلا إذا أتى الجيش البريطانى عملا عدائياً على هذه الجبهة . وبعد أن تم إعداد كل شىء من الرجال والأجهزة بأمر المجلس استعداداً لقطع القناة ، وإذا ببرقية من دى ليسبس فى مساء ٢٢ أغسطس - وعلى ذلك سحب الديناميت بناء على أوامر عرابى وصار على العالم أن يحمد لعرابى باشا إنقاذه لقناة السويس .

وكان عرابى فى تلك الأثناء يعمل بكل الجهد لحماية الأوروبيين ومنحهم كل مساعدة وأمن ، وقد صرح قنصل فرنسا واليونان وغيرهم علناً بأنهم لا يغادرون البلاد التى عاشوا فيها طويلا ماداموا لا يخشون شيئاً بفضل رجل متنور كعرابى باشا .

وإنني لا أتذكر جيداً أنه قبل أن برقيات كاذبة قد أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية إلى أوروبا وأحدثت ضرراً بالغاً بمركز الثورة المصرية ، وكان قد أرسل ضابط مصرى إلى مكتب هذه الشركة الأجنبية ليمنع إرسال مثل هذه البرقيات المشينة ، ولكن عرابى باشا وحده هو الذى رفض بشدة أى تدخل قائلا: ان طائفة التجار ستتهمه فى هذه الحالة بأنه يضر بمصالحها التجارية :

وكانت الخطوات التى اتخذها عرابى للدفاع عن البلاد فى الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذى عقد من قبل فى الاسكندرية تحت رئاسة الخديو نفسه وبحضور درويش باشا » وسواه من رسل السلطان وهذا الأمر لم ينقضه « عرابى » قط . فان « عرابياً » عندما اتخذ موقفه وأنشأ خط الدفاع عند كفر الدوار ، إنما كان يعمل وفق مشيئة مجلس النواب وكان الشعب المصرى يؤيده تماماً ويتعاطف معه إلى أقصى حد . وكان الأعيان والتجار ورجال السلطة المدنية والدينية يفدون من أنحاء البلاد إلى كفر الدوار يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع لتهنئة « عرابى » وشكره على وطنيته ومفوضينه فى أمر الدفاع عن الوطن ، وكانوا كلهم يأخذون بعض العصى من الأرض ويرمون بها الخنادق دلالة رمزية على اشتراكهم فى الدفاع .

وقد رأيت الأعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا « عرابى باشا » فى كفر الدوار فخرى باشا وأحمد نشأت مدير الدائرة وجميع أعضاء المحكمة الأهلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومى بالمحاكم المختلفة وعثمان فوزى باشا ورءوف باشا وعرفى باشا ومبارك والعلماء ومفتى الآستانة وكثير من المقربين والممتازين وكثير من الرؤساء والأساتذة من الأزهر وعدد من أفراد أسرة « رياض باشا » والدرملى باشا وحسن العقاد وكثير من العمد وأصحاب الأملاك وخصوصاً أحمد بك المنشاوى الذى أشرت إليه آنفا . وقد اكتتب الجميع بمبالغ كبيرة لتغطية نفقات حرب الدفاع ودفع البعض منهم مبالغ هائلة . وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف جنيه .

وكانت أموال عرابى كلها ترسل إلى القاهرة ولا يرد منها شيء إلى المعسكر ، وإنما يرد إليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة ، وكان كبار الزوار يقبلون عرابى ويعانقونه .

عرابى : نريد مصر للمصريين :

يقول « جون نينيه » الذى لازلنا نتابع شهادته :

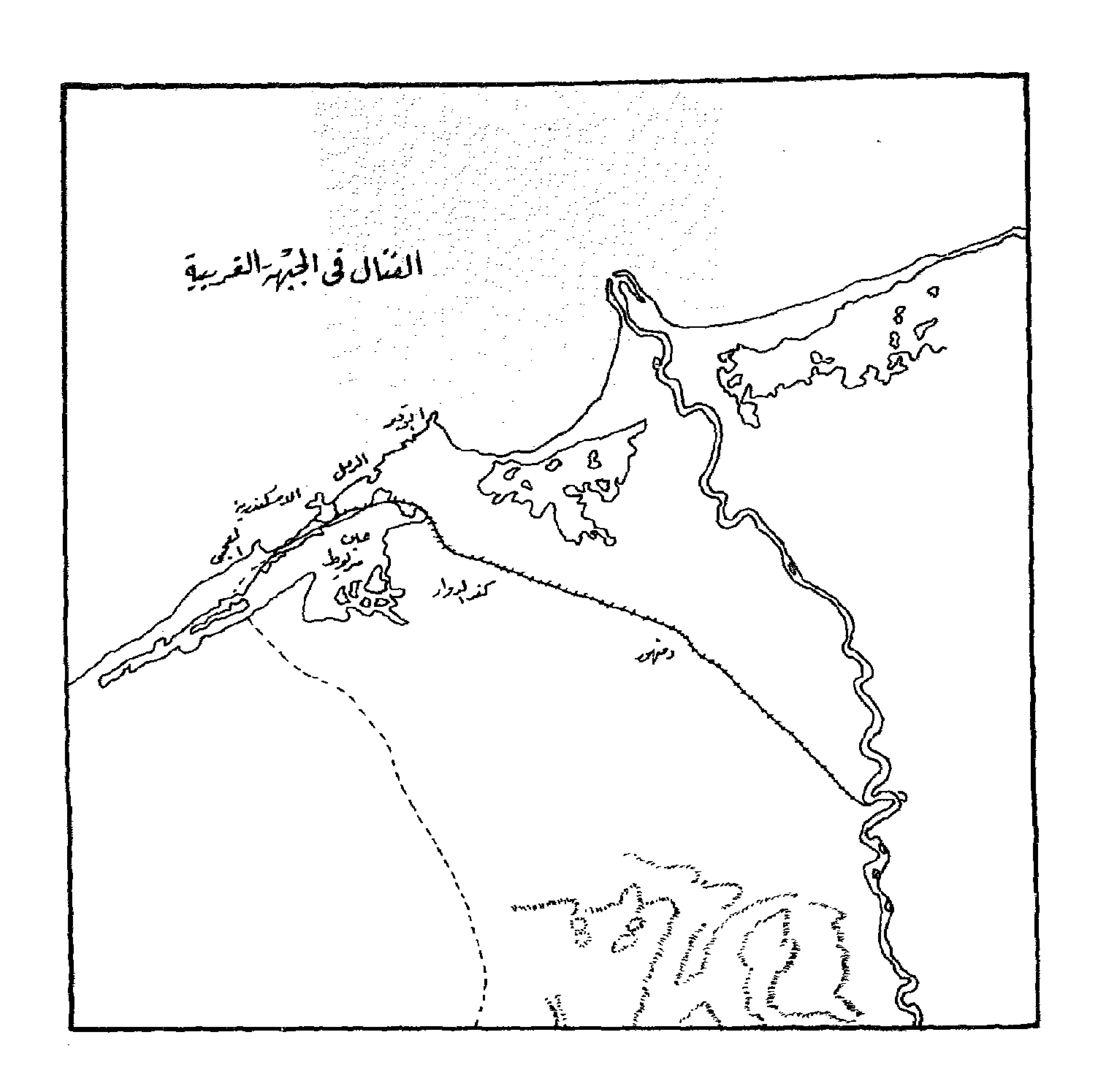
وقد قال مفتى القاهرة لأحمد عرابى :

نحن ممثلو خمسين ألفاً من الأعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الأملاك .. الخ نشكرك جميعاً لأنك توليت بيدك أمر الإسلام والأمة وإنك فى الحقيقة أكبر وطنى فى وادى النيل .

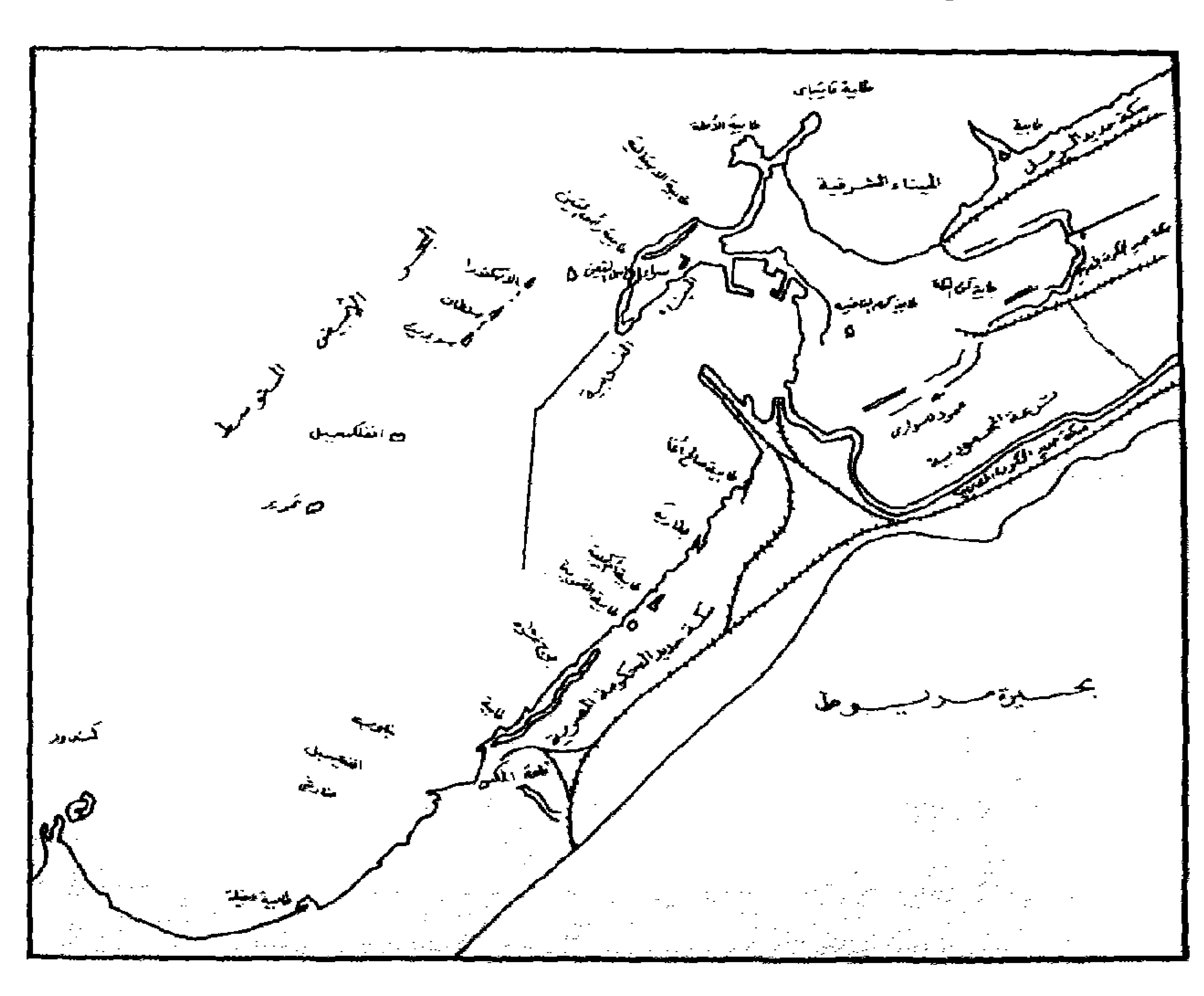
فقال له « عرابى » من ضمن رده :

إننا لا نريد شيئاً سوى إقامة العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا وأملاكنا وحقوقنا جميعاً .

نريد برلمانا مستقلا ينتخب على أساس الحرية ووزارة مسئولة وخديو يملك ولا يحكم . نريد إدارة إقتصادية مصرية دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس الوزارة ينالون مرتبات ضخمة .


القتال فى الجبهة الغربية
ابوقير
الرمل
الاسكندرية
العجمى
مريوط
كفر الدوار
دمنهور

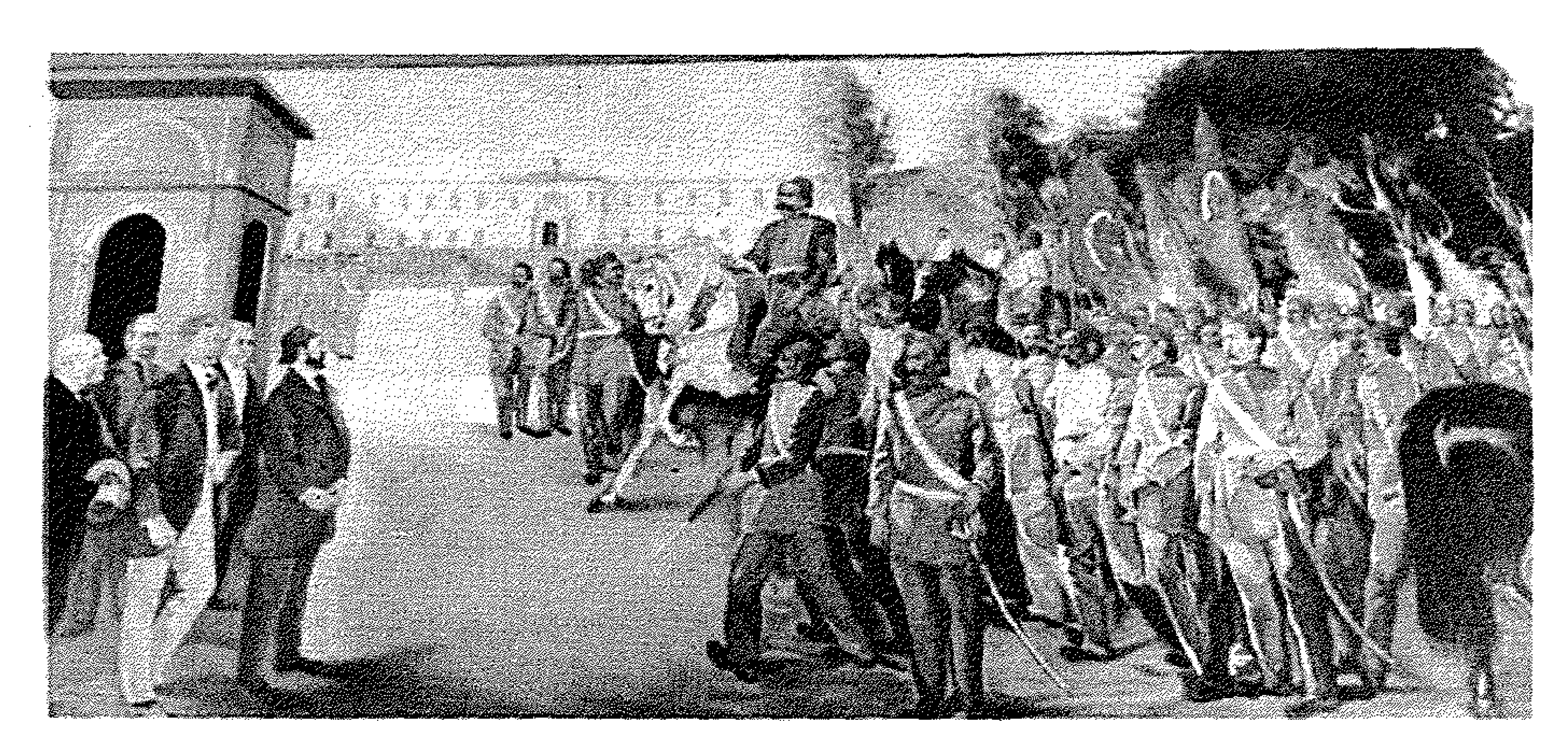
خريطة توضح مواقع الحصون المصرية والبوارج البريطانية يوم ١١ / ٧ / ١٨٨٢



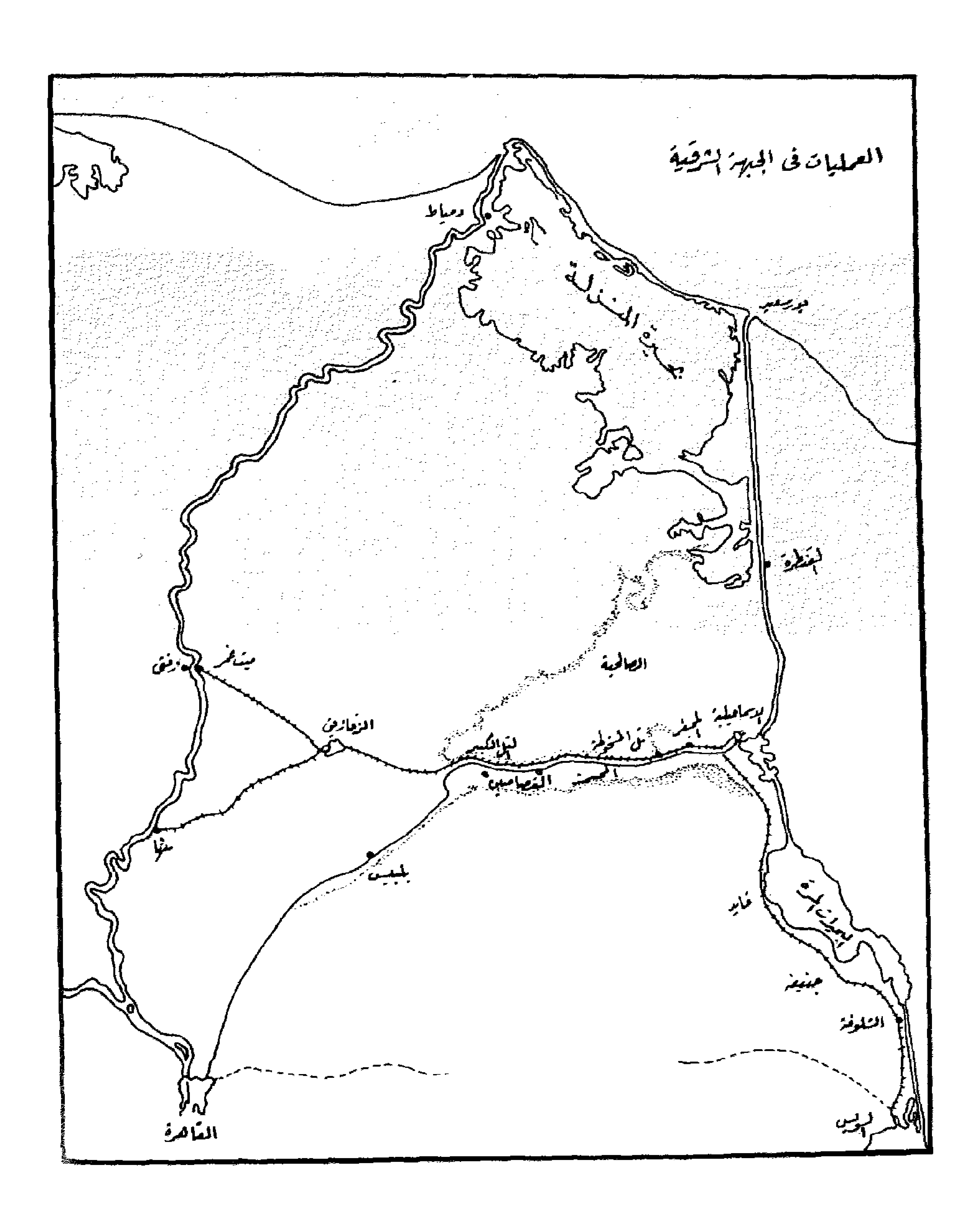


اللواء أحمد عرابى باشا زعيم الثورة العرابيـــة ووزير الحربية والبحرية وقائد الجيش المصرى ضد الحملة البريطانية على مصر عام ١٨٨٢ م .

معركة التل الكبير فى سبتمبر عام ١٨٨٢ م بين الجيش المصرى والقوات البريطانية .



أحمد عرابى يقدم مطالب الشعب فى حكم نيابى كامل الى الخديوى توفيق بميدان عابدين بالقاهرة فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ م .


العمليات فى الجبهة الشرقية
دمياط
بحيرة المنزلة
بورسعيد
القنطرة
الصالحية
الإسماعيلية
المحسمة
التل الكبير
القصاصين
ميت غمر
زفتى
الزقازيق
بنها
بلبيس
فايد
البحيرات المرة
جنيفة
الشلوفة
السويس
القاهرة

صور شارات رتب الضباط والجنود في الجيش المصري في عهد محمد علي

	الميرميران هلال وثلاثة نجوم من الذهب المرصع بالماس	الميرلواء هلال ونجمان من الذهب المرصع بالماس	
الميرالاي هلال ونجم من الذهب المرصع بالماس	القائمقام هلال من الذهب ونجم من الذهب المرصع بالماس	البكباشي هلال ونجم من الذهب	الصاغ هلال من الذهب ونجم من الفضة
اليوزباشي هلال ونجم من الفضة	الملازم الأول نصف هلال ونجم من الفضة	الملازم الثاني نجم من الفضة	الصول نصف هلال من الفضة
الباشجاويش ثلاثة أشرطة في الصدر	الجاويش شريطان في الصدر	الأومباشي شريط في الصدر	شارة جنود القسم الطبي
شارة الجنود السواري	شارة الجنود الطوبجية	شارة جنود عربات ذخيرة المدافع	شارة الجنود البلطجية

ملاحظات : شارات الضباط كانت توضع في الصدر في الجهة اليمنى .
كانت رتبة الميرميران في زمن محمد علي رتبة عسكرية توازي رتبة الفريق العسكرية الحالية
شارات الباشجاويش والجاويش والأومباشي بالإيالات الغاردية البيادة مصنوعة من نسيج
ذي لون فضي وبالإيالات البيادة من نسيج ذي لون ذهبي .
« اللوحة مهداة من الأمير عمر طوسون إلى متحف الجيش المصري بالقاهرة في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٨م »

نريد مصر للمصريين مع ضمان الحرية والسلامة لكل الأجانب على أرض مصر إذا خضعوا مثلنا للضرائب والرسوم .

أراد «عرابى» أن يجنب البلاد الدمار :

يقول مسيو جون نينيه فى ختام شهادته للتاريخ التى أوردها هنا بنصها إحقاقاً للحق . .

إننى أعلن دون أدنى تردد أن عرابى لم ينقل قط السلب والمذابح إلى أرض مصر . وان الأمة المصرية وأعيانها هم الذين عهدوا إليه بالدفاع عن شرف البلاد ومصيرها ولم يكن عرابى السبب قط فى أن ينهب أو يذبح أى مصرى أو أجنبى . بل على النقيض من ذلك تماماً عمل الرجل كل ما فى وسعه ليحمى حياة وأملاك المصريين والأجانب على السواء ، وليعاقب جميع الذين خالفوا هذه التعليمات .

لقد لحقت بعرابى باشا فى اليوم التالى للهزيمة بجيشه فى التل الكبير ، وعقد اجتماع فى بيته بالقاهرة يوم الخميس للبحث فى مسألة تسليم القاهرة دون دفاع حفاظاً على أرواح المدنيين والمنشئات وعندما جاءتنا الأنباء بوصول الجيش البريطانى إلى العباسية ، سألنى عرابى باشا وطلبة باشا عصمت رأيى ، فنصحتهما بأن يذهبا إلى القائد البريطانى وأن يسلما له نفسيهما باعتبارهما أسيرى حرب فيحميهما شرف انجلترا . وقد تركانى عرابى وركبا سوياً إلى العباسية .

إلى هنا تنتهى شهادة مسيو جون نينيه للتاريخ ، وهى تلك الشهادة التى ذيلت بالجملة التالية :

أقسم على ذلك أمامنا فى قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بانجلترا مسيو جون نينيه فى هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ م .

الباب السادس

الجولات العربية ـ الإسرائيلية المسلحة
(١٩٤٨ ـ ١٩٧٣)

الفصل الأول

خلفية الصراع العربى الإسرائيلى (*)

لمحة جغرافية عن فلسطين :

تعتبر فلسطين قلب الأمة العربية بحكم موقعها المتوسط بين دول المنطقة كما أنها تقع عند ملتقى القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا) هذا بالإضافة إلى إشرافها على البحرين المتوسط والأحمر .

ومما يزيدمن أهميتها مكانتها القدسية باعتبارها مهد الديانات السماوية ،وتبلغ مساحة فلسطين حوالى ٢٧٠٠٩ كيلو مترات مربعة (١٠٤٢٩ ميلا مربعاً)(١) .

تنقسم إلى أربعة أقسام هى :

١ – المنطقة الساحلية وأهمها منطقة يافا الغنية ببساتين الموالح .

٢ – المنطقة الجبلية التى تمتد فى وسط البلاد كالعمود الفقرى .

٣ – منطقة الغور التى تقع شرقى فلسطين ويخترقها نهر الأردن مع بحيراته ويصل انخفاض هذه المنطقة عند أقصاه إلى نحو ٣٩٢ مترا تحت مستوى سطح البحر .

٤ – منطقة بئر السبع والصحراء الفلسطينية فى الجنوب (صحراء النقب) .

لمحة تاريخية عن تاريخ فلسطين القديم :

فلسطين واليهود:

كانت فلسطين تعرف قديماً بأرض « كنعان » نسبة إلى العرب الكنعانيين . الذين عاشوا بها مع بعض القبائل الأخرى منذ سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

وفى حوالى عام ١٨٠٠ ق . م هبط إبراهيم أبو الأنبياء بأرض كنعان وكانت نشأته فى بلاد ما بين النهرين (العراق) وبعد أن استقر بها زمناً رحل إلى مصر وعاد بزوجة منها هى السيدة هاجر حيث أنجب منها إسماعيل ثم حمله وأمه إلى الحجاز وقد رزق بعد ذلك باسحاق من زوجته الأولى سارة وطلب لإبراهيم المقام ببقية أهله فى أرض كنعان .

(*) وزارة الدفاع – هيئة البحوث العسكرية : المرجع العسكرى – المستوى الأول .

(١) الموجز فى تاريخ فلسطين الحديث – د. عبد الوهاب الكيالى – ص ٩ .

أنجب إسحاق يعقوب الذى هو إسرائيل وإليه ينسب اليهود فقد رزق باثنى عشر من الأولاد هم الأسباط وقد سموا بنى إسرائيل ؛

وقد سمي إبراهيم وأهله بالعبرانيين لأنهم عبروا نهر الفرات إلى أرض كنعان وقد كان يوسف من أولاد يعقوب وحقد عليه إخوته لحب أبيه المفرط له مما دفعهم إلى إلقائه فى البئر حيث التقطته قافلة من التجار وباعوه فى مصر إلى فوطيفار فى زمن الهكسوس وقد أعجبت به زوجته وراودته عن نفسه فرفض فأدخل السجن وذاع صيته لبراعته فى تأويل الأحلام وفسر رؤيا للملك فلما تحققت عينه وزيراً للتموين .

وقد دعا يوسف إخوته وأهله جميعاً للاقامة فى مصر بعدما التقى بهم — حيث كان الناس جميعاً ينزحون إلى مصر فى سنى المجاعة ليحصلوا على القمح — وجاء بنو إسرائيل إلا أنهم ظلوا محافظين على مواطنهم فى كنعان ودفنوا فيه جدهم إبراهيم وأباهم يعقوب :

وطابت إقامة بنى إسرائيل فى مصر لمكانة أخيهم يوسف ولتعاونهم المخلص مع الهكسوس فلما تمكن المصريون من طرد الغزاة تعرض الإسرائيليون للاضطهاد من المصريين وظلوا يسومونهم سوء العذاب حتى خرج بهم موسى بعد أن كلفه الله بالرسالة وقد ورد أن ذلك كان فى القرن الخامس عشر ق . م[1] ولم يتمكن اليهود من دخول أرض كنعان حيث تصدى لهم أهلوها وظلوا متربصين بها حتى تم لهم دخولها على زمن يسوع بعد أكثر من ٤٠ عاماً من خروجهم من مصر ولما دخلوها ذبحوا أكثر أهلها ووطئوا أقدامهم بها .

وعاش اليهود فى أرض كنعان تحت حكم القضاة ما يقرب من ٤٠٠ سنة ثم حكمها الملوك طالوت وداوود وسليمان وكان مدة حكمهم ٧٨ سنة ثم انقسم اليهود بعد ذلك إلى دولتين دولة السامرة فى الشمال ، ودولة يهودا فى الجنوب ولم يمض على ملك هاتين الدولتين أكثر من ١٠٥ أعوام ثم دار القتال بينهم وضعف سلطانهم وتمكن منهم الغزاة من المصريين والآشوريين والسوريين فخضعوا للحكام من الغزاة حتى عام ٧٢١ حيث اختلف اليهود مع الآشوريين على دفع الجزية فأغاروا عليهم وشردوهم وهو ما يسمى بالتشريد البابلى .

وقد عاد اليهود إلى أرض كنعان بعد ذلك خلال فترة حكم الفرس عام ٥٣٦ ق . م وبقوا بها حتى حكمها الرومان ثم تمردوا وانقلبوا عليهم وذبحوهم فى عام ٧٠ م وهو ما يسمى بالتشريد الثانى .

ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك إلا أن عناصر محدودة زحفت خلال الحكم الإسلامى لفلسطين ثم شكلت المنظمات الصهيونية فى العصر الحديث وعادوا لتحقيق حلمهم القديم وهو أرض الميعاد فى فلسطين .

ومن هذا نرى أن اليهود لم يحكموا فلسطين حكماً حقيقياً أكثر من ٧٣ سنة ولم تزد مدة إقامتهم بها فى الأجيال المختلفة عن ١٤٠٠ سنة من عمرها الطويل الذى يصل إلى ٦٠٠٠٠ عام عاش فيها العرب حكاماً ومحكومين .

---

(١) ورد فى بعض المراجع أن خروج اليهود من مصر كان حوالى عام ١٣٠٠ ق . م .

لماذا فلسطين

يزعم الصهاينة أنهم أصحاب حق فى فلسطين باعتبارها الأرض التى وعدهم الله بها فقد جاء فى التوراة أن الله قد وعد سيدنا إبراهيم وذريته من بعده أن يعطيه فلسطين لإقامة دولة فيها (لنسلك إعط هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير : نهر الفرات) ولو سلمنا بصحة هذا الزعم – باعتبار التوراة كتاباً مقدساً من عند الله – فاننا نلاحظ الآتى[1] :

ان هذا الوعد الإلهى ليس موجهاً إلى اليهود فقط وإنما هو وعد لسيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده . . يتساوى فى ذلك إسحاق (جد اليهود) وذريته وإسماعيل (جد العرب) وذريته أيضا ومعنى هذا أن ذلك الوعد ليس مقصوراً على بنى إسرائيل وحدهم وإنما هو لسلالة إبراهيم على الإطلاق وقد ثبت أن أنبياء الديانات الثلاث : موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كلهم يرجعون إلى جدهم الأكبر إبراهيم وبالتالى فكلهم أصحاب حق فى فلسطين وليس لليهود وحدهم هذا الحق .

كما يزعم اليهود أيضاً أنهم أصحاب البلاد الأصليون وأنه كانت لهم دولة وحكم على أرض فلسطين منذ ألفى عام – وإننا لو عدنا إلى التاريخ وألقينا عليه نظرة سريعة لوجدنا أن كل نصيب اليهود من حكم فلسطين هو عهد الملك داود وابنه سليمان حكم الأول البلاد أربعين عاماً وحكم ابنه سليمان ثلاثة وثلاثين عاماً (من عام ١٠٠٠ ق . م حتى عام ٩٣٧ ق . م) وبعد وفاة سليمان انقسمت المملكة على نفسها فشكلت بعض القبائل مملكة يهودا فى – الجنوب على حين شكلت باقى القبائل اليهودية مملكة السامرة فى الشمال :

وتوالت بعد ذلك الفتوحات الأجنبية التى أزالت كلا من مملكتى يهودا الجنوبية والسامرة الشمالية إذ كانت كل منهما أضعف من أن تقاوم الغزو الأجنبى وتقف على قدميها أمام جحافل الجيوش الغازية .

والجدول التالى يبين مدد حكم الدول المختلفة لفلسطين ومنه يمكننا أن نناقش مدى أحقية اليهود المزعومة فى إقامة الوطن القومى اليهودى على أرض فلسطين .

---

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « فلسطين قلب العروبة » – دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٧ .

جدول لبيان مدد حكم الدول المختلفة لفلسطين [1]

حكام فلسطين	تاريخ الحكم من	إلى	مدة الحكم بالسنين
الكنعانيون			غير معروف
المصريون			غير معروف
الهكسوس	١٧١	١٤٨٠ ق . م	٢٣٠
المصريون	١٤٨٠	١٣٥٠	١٣٠
الحيثيون	١٣٥٠	١٣٩٠	٦٠
المصريون	١٢٩٠	١١٥٤	١٣٦
حكام محليون	١١٥٤	١٩٠٠	١٥٤
داوود وسليمان	١٠٠٠	٩٢٧	٧٣
إسرائيل الشمالية	٩٢٧	٧٢٢	١٠٥
يهودا الجنوبية	٩٢٧	٥٨٦	٣٤١
بابل	٥٨٦	٣٥٨	٤٨
فارس	٥٣٨	١٣٠	٢٠٨
اليونان	٣٣٠	٣٢٣	٧
المصريون	٣١٣	٢٠٠	١٢٣
السلوقيون	٢٠٠	١٢٤	٥٨
اليهود (جزئياً)	١٤٢	٧٠	٧٢
أرمينيا	٧٠	٦٣	٧
روما	٦٣	٦١٤	٦٧٧
فارس	٦١٤	٦٢٨	١٤
روما	٦٢٧	٦٣٨	١٠
العرب	٦٣٨	١٠٨٥	٤٤٧
الأتراك (عرب)	١٠٨٥	١٠٩٩	١٤
الصليبيون (جزئياً)	١٠٩٩	١٢٩١	١٩٣
السلاجقة والعرب	١٠٩٩	١٢٩١	١٩٢
المصريون	١٢٩١	١٥١٧	٢٢٦
الاتراك (مسلمون)	١٥١٧	١٩١٨	٤١٠
بريطانيا	١٩٢٣	١٩٤٨	٢٥
اليهود (إسرائيل)	١٩٤٨	١٩٦٨	٢٠

(١) محمد فيصل عبد المنعم « فلسطين والغزو الصهيوني » — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة ، ١٩٦٩ .

ملحوظة :

كلمة (جزئياً) تعني حكم جزء فقط من فلسطين كما يظهر من حكم الصليبيين نلاحظ أنهم حكموا فلسطين جزئياً من عام ١٠٩٩ إلى عام ١٢٩١ ب . م في حين أن السلاجقة والعرب حكموا البلاد في نفس المدة وهذا يعني أن كل فريق منهم كان يحكم جزءاً من البلاد في الوقت نفسه .

ومن هذا العرض نخلص إلى الآتي :

- مصر القديمة حكمت فلسطين لمدد تبلغ في مجموعها نحو ٦١٥ سنة (في التاريخ المعروف بخلاف المدد غير المعروفة) .

- أما اليهود فلم تدم مملكتهم سوى ٧٣ سنة فقط من عام ١٠٠٠ ق . م إلى عام ٩٢٧ ق . م وهي عمر مملكة داوود وسليمان وبعد ذلك لم تتمتع كل من الدولتين اللتين انقسمتا عن ملك سليمان (السامرة ويهودا) بالاستقلال الحقيقي إذ كانت كل منهما تدفع الجزية إلى إحدى الدول الكبرى الغازية .

- دام احتلال الرومان لفلسطين حوالي ٦٧٧ سنة من عام ٦٣ ق . م إلى عام ٦١٤ ب . م .

- أما العرب فقد حكموها لمدة ٤٧٧ سنة في المدة من سنة ٦٣٨ إلى ١٠٨٥ ب . م علاوة على حكمهم بعد الفتح الإسلامي وبذلك تبلغ مدة حكمهم ١٣٠٠ سنة .

وعلى أساس هذا البحث التاريخي نرى أن الزعم الإسرائيلي باطل من أساسه . وأن دعوى إسرائيل في هذا الصدد كدعوى موسوليني حينما قام منذ ثلاثين عاما يطالب بامبراطورية روما القديمة[1] .

خلفية الأحداث قبل بدء الصراع المسلح في فلسطين :

ـ نشأة الحركة الصهيونية :

نشأت الحركة الصهيونية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر باعتبارها حركة قومية يهودية ترمي إلى جمع شتات اليهود وحشدهم في فلسطين وما حولها من البلاد العربية ليستأنفوا حياتهم القومية والتاريخية وقد سميت الحركة باسم صهيون أحد التلال التي تقوم عليها مدينة القدس .

وقد بقيت الحركة الصهيونية مفتقرة إلى التنظيم والتخطيط إلى أن تمكن تيودور هرتزل من عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية في ٢٨ أغسطس ١٨٩٧ . وحضر المؤتمر ٢٠٤ مندوب يمثلون جمعيات صهيونية متناثرة في أرجاء مختلفة[2] وظهر هدف الصهيونية في هذا المؤتمر وهو إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام .

---

(١) في هذا الخصوص ألقى المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) محاضرة في جامعة ماكجيل بكندا – يناير ١٩٦٠ قال فيها (ان مطالبة اليهود بفلسطين أمر مشكوك في صحته فلو اعترف بالحقوق المساوية منذ عام ١٣٥ ميلادية لما استطعنا إعادة توزيع الأراضي في انحاء العالم ولكان عليكم إعادة كندا إلى الهنود الحمر) .

(٢) محمد فيصل عبد المنعم (أسرار ١٩٤٨) ص ٧٨ – ٨٢ – مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨ .

(–) تاريخ فلسطين – د. عبد الوهاب الكيالي – ص ١٩ .

وقد نتج عن هذا المؤتمر أداة تنظيمية أطلق عليها إسم المنظمة الصهيونية العالمية التي أعلنت أهدافها كما يلي[1] :

العمل على استعمار فلسطين عن طريق تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقاً لخطط مناسبة . وتنظيم اليهود وربطهم جميعاً عبر مؤسسات مناسبة على الصعيدين المحلي والعالمي كل منها حسب قوانين البلد المعني . وتقوية الحس والوعي القومي لدى اليهود وتعزيزهما واتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول حيث يكون ذلك ضرورياً لتحقيق هدف الصهيونية .

التسلل إلى فلسطين :

الهجرة الأولى إلى فلسطين :

قامت عدة جمعيات صغيرة في روسيا تدعى عشاق صهيون ، هاجر بعضها إلى فلسطين وكونوا مستعمرات زراعية يهودية خلال القرن الـ ١٩ وقد أمد أغنياء اليهود في العالم هذه الجمعيات بالمال وشجعوا على زيادة الهجرة حتى بلغ عدد المستعمرات اليهودية في فلسطين عام ١٩٠٠ حوالي ١٧ مستعمرة .

الهجرة الثانية لليهود :

بظهور الحركة الصهيونية الحديثة ودعوى إقامة وطن قومي لليهود التي تعهدها الدكتور هرتزل وسعت لتحقيقها المنظمة الصهيونية أصبح أمر الهجرة أكثر تنظيما وبذل الكثير من الجهود لتوطين اليهود في فلسطين وتمت هجرات جماعية إليها وتكونت مستعمرات جديدة سميت بالكيبوتزات وذلك في عام ١٩٠٩ حيث كون اليهود قوات دفاعية مسلحة لحماية هذه المستعمرات سميت « بقوات الدفاع الوطني » .

وعد بلفور :

تمكن هاييم وايزمان الزعيم الصهيوني خلال الحرب الأولى من كسب عطف بريطانيا واستطاع أن يحصل على وعد من وزير خارجيتها اللورد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ في خطاب مضمونه أن حكومة بريطانيا تبذل الجهد لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

تمكين اليهود من فلسطين :

ما أن وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني في ديسمبر ١٩١٧ حتى عملت بريطانيا بشتى الوسائل على تمكين اليهود من الاستيطان في فلسطين واتبعت في ذلك الكثير من الوسائل أهمها :

- تيسير الهجرة لليهود إلى فلسطين بالرغم من معارضة العرب ، وفتح التسهيلات للمنظمة الصهيونية حتى تمكنها من شراء الأراضي اللازمة لتوطين اليهود . كما عمد المندوب السامي البريطاني إلى اتخاذ الإجراءات التي كفلت لكثير من اليهود احتلال مناصب هامة بالدولة . وقد اعترفت بريطانيا باللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين

---

(١) ملف القضية الفلسطينية – منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الابحاث إعداد سامي هداوي – ص ١١ .

وأنشأت الجامعة العبرية سنة ١٩٢٥ . وقد أنشئت الوكالة اليهودية فى فلسطين لتكون نواة لحكومة إسرائيلية تباشر كل ما يتعلق باليهود .

قيام الكيان الصهيونى فى فلسطين :

وهكذا تمكن اليهود من فرض وجودهم فى فلسطين خاصة بعد أن أصبحت تحت الانتداب البريطانى الذى شجع الهجرة اليهودية حتى تضاعف أضعافاً كثيرة فى سنوات معدودة[1] وأنفقت الصهيونية العالمية من الأموال ما مكن هذه الأعداد من الاستيطان فى فلسطين وشراء الأراضى حتى أصبح اليهود يسيطرون على مناطق واسعة من فلسطين مما أدى إلى قيام كثير من الاشتباكات بين العرب واليهود فى مناطق مختلفة من البلاد كما أعلن الحزب الوطنى الفلسطينى إضراباً دام ستة شهور وطالب فيه بعدة مطالب أهمها :

١ — إيقاف الهجرة اليهودية .

٢ — منع انتقال الأراضى العربية إلى اليهود .

٣ — إنشاء حكومة وطنية وحياة برلمانية .

ولما زادت حدة التوتر بين العرب واليهود قامت بريطانيا بتشكيل لجنة (بيل) الإنجليزية التى دعت إلى تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب وذلك فى يوليو ١٩٣٧ . ولم يقبل العرب بهذا التقسيم فحاولت بريطانيا ترضية العرب فأصدرت الكتاب الأبيض فى مايو ١٩٣٩ والذى يقيد إلى حد ما هجرة اليهود إلى فلسطين .

وجاءت الحرب العالمية الثانية التى شغلت جميع الأطراف ولكن بصورة مؤقتة حيث كان اليهود يعدون العدة لفرض الوجود الصهيونى بالقوة وتمكنوا خلال فترة الحرب من حشد الكثير من الأسلحة ومارسوا بعض الأعمال الإرهابية ضد الإنجليز لتتراجع بريطانيا عن سياستها الواردة فى الكتاب الأبيض ونجح هذا الأسلوب الإرهابى فى إجبار بريطانيا على التراجع كما أفاد فى تقوية العناصر المسلحة الإسرائيلية ، ولما عجزت الحكومة البريطانية عن التوفيق بين التزاماتها تجاه أطراف النزاع . . قررت أخيراً عرض القضية على الأمم المتحدة التى أصدرت قرارها بتقسيم فلسطين بمجرد إنهاء الانتداب البريطانى قبل ١٩٤٨/٨/١ . إلى دولة يهودية ودولة عربية مع تدويل منطقة القدس.

---

(١) كان عدد اليهود فى فلسطين عام ١٩١٨ — ٥٥ ألف نسمة وبلغ فى عام ١٩٣٦ إلى ٣٦٥ ألفا .

الفصل الثانى

الجولة العربية الإسرائيلية الأولى (*)

(حــرب ١٩٤٨)

تطور الموقف فى فلسطين فى أواخر عام ١٩٤٧ وأوائل عام ١٩٤٨ تطوراً خطيراً ، فقد كان للقرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ والذى نص على تقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية وتدويل منطقة القدس وإنشاء اتحاد اقتصادى يربط بين الوحدات الثلاث ، وقع سىء على الدول العربية وبالأخص على شعب فلسطين . وكان هذا القرار بمثابة الإشارة لبدء أعمال العنف فى فلسطين . . فالعرب من ناحية يعملون بكل الطاقة لمنع تنفيذ قرار الجمعية العامة الخاص بالتقسيم ، واليهود يعملون بكل جهدهم من أجل تنفيذ هذا القرار الذى جاء فى صالحهم ، بينما بريطانيا تحاول حفظ النظام والأمن فى هذه المنطقة التى بدأت فيها أعمال القتال بين الجانبين. فى حين قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن بمحاولات متعددة لتهدئة الوضع المتفجر ودعوة الوكالة اليهودية واللجنة العربية العليا لوقف الأعمال العدوانية . . فى الوقت الذى أصدرت فيه بريطانيا قرارا من جانب واحد يقضى بانهاء الانتداب على فلسطين فى ١٤ مايو ١٩٤٨ ، وقد اتخذت بريطانيا هذا القرار وأعلنته رغم أن قرار الجمعية العامة الخاص بالتقسيم كان قد حدد الأول من أغسطس ١٩٤٨ موعداً لإنهاء الانتداب .

وفى الساعة الرابعة من عصر يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ — كان (دافيد بن جوريون) رئيس أول حكومة مؤقتة لإسرائيل يعلن عن قيام الدولة اليهودية فى أرض إسرائيل وناشد الشعب اليهودى فى المنفى أن يقف إلى جانبها فى الصراع الوشيك مع العرب من أجل تحقيق حلم الصهيونية .

ولم يكد نبأ إعلان الدولة اليهودية وإنهاء الانتداب ينتشران فى العالم حتى أسرعت أمريكا بعد دقائق باعلان اعترافها بدولة إسرائيل ثم تبعها الاتحاد السوفييتى وبقية دول العالم الشرقية والغربية .

وهكذا أسلمت بريطانيا فلسطين لقمة سائغة للصهيونية فخانت بذلك أمانة الانتداب . ولم يحل يوم ١٥ مايو حتى كانت القوات الإسرائيلية قد أتمت الاستيلاء على مدن طبرية وحيفا (عدا الميناء) وصفد ويافا والأحياء الهامة من القدس كما أحكمت حلقة الحصار حول عكا واستولت على كل الجليل الشرقى والغربى .

وتفاقم بذلك الموقف ودخلت الجيوش العربية فلسطين صباح ١٥ مايو ولكن بعد أن مكنت بريطانيا إسرائيل من كل المواقع الهامة فى فلسطين ومعظم المدن الرئيسية بها .

(*) وزارة الدفاع — هيئة البحوث العسكرية : المرجع العسكرى : المستوى الأول .

الهدف من الحرب :

كان هدف الدول العربية من دخول الحرب هو استعادة فلسطين ومنع قيام الدولة الصهيونية فى فلسطين .

أما الفكر الصهيونى فكان يستهدف قيام دولة يهودية على أرض فلسطين تكون منطلقاً لتحقيق الحلم القديم « دولة إسرائيل » من النيل إلى الفرات وتمد نفوذها إلى ما تبقى من الوطن العربى حتى مكة والمدينة . ولم يكن وعد بلفور الذى حصلت عليه أكثرية يهودية فى فلسطين خلال زمن قصير سوى مرحلة موقتة من مراحل تحقيق الحلم الكبير :

فالهدف الرئيسى للصهيونية إذن هو قيام دولة إسرائيل الكبرى التى لا تقتصر على حدود فلسطين بل تمتد إلى سوريا والأردن ولبنان ومصر والعراق وكانت حرب عام ١٩٤٨ هى بداية تحقيق أهداف إسرائيل التوسعية .

ميزان القوى :

عندما نبحث ميزان القوة فى هذه الجولة يجب أن يوضع فى الاعتبار نسبة القوات المقاتلة إلى التعداد البشرى للجانبين المتصارعين . فقد بلغ إجمالى الشعوب العربية التى دفعت بقواتها إلى مسرح القتال حوالى ٤٠ مليون نسمة وقتئذ ومع ذلك فان جملة ما دفعت به للقتال لم يتجاوز ٢١ ألف مقاتل أى بنسبة ٠٥, ٪ من إجمالى تعدادهم على حين حشد اليهود ٦٧ ألف جندى فى الوقت الذى بلغ نسبة تعدادهم فى فلسطين لا يتجاوز ٦٢٩ ألف نسمة أى بنسبة ١١ ٪ من إجمالى قوتهم البشرية . ومن هنا يمكن القول أن قدرة اليهود على التعبئة بلغت نحو ٢٠٠ ضعف بالنسبة لقدرة العرب فى ذلك .

وفيما يتعلق بالقوات العربية التى عملت فى فلسطين فقد انقسمت إلى قوات شبه نظامية وقوات نظامية (وهذا حسب تقسيم مراحل الحرب إلى معلنة وغير معلنة) . فالقوات شبه النظامية دخلت فلسطين قبل إعلان الحرب أما القوات النظامية فقد دخلت بعد إعلان حالة الحرب مع إسرائيل .

القوات شبه النظامية[1] :

١ – منظمة الشباب العربى :

لقد شكلت الهيئة العربية العليا[2] من منظمتى التجارة والفتوة منظمة الشباب العربى ووضعت على رأسها ، الضابط المصرى الرائد محمود لبيب[3] الذى اتخذ مدينة يافا مقراً له . وكان عدد أعضاء هذه المنظمة يربو على ٢٥ ألف مجاهد كان بعضهم قد حصل على السلاح بوسائله الخاصة .

---

(١) الحرب فى أرض السلام – لواء حسن البدرى – ص ٩٦ وكتاب حقائق عن قضية فلسطين محمد أمين الحسينى – مطابع دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٥٨ .

(٢) تأسست هذه الهيئة بقرار من جامعة الدول العربية فى جلستها المنعقدة فى بلودان بسوريا بين ٨ – ١٢ يونيو ١٩٤٦

(٣) الرائد محمود لبيب يقول عنه كمال الدين حسين فى مذكراته بمجلة المصور عدد ١٩ ديسمبر ١٩٧٥ صفحة ١٢٥ انه كان من صفوة ضباط مصر الوطنيين وقد خدم فى مستهل حياته العسكرية فى الجيش التركى وحارب الإيطاليين فى ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى ثم اشتد نشاطه الوطنى بعدها ضد سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر فأحالته إلى التقاعد . وظل يمارس العمل الوطنى ثم ارتبط بالإخوان المسلمين وكان حلقة الوصل بينهم وبين ضباط ثورة يوليو ١٩٥٢ .

٢ — جيش الجهاد المقدس[1] :

كان بقيادة عبد القادر الحسيني وتمركز في سبع مناطق في فلسطين وهي منطقة القدس ، بيت لحم ، رام الله ، المنطقة الوسطى الغربية ، المنطقة الجنوبية ، المنطقة الغربية ، المنطقة الشمالية .

وقد اشتمل هذا الجيش من حيث نوعية أفراده على ثلاث فئات هي[2] :

(أ) قوات شبه نظامية :

بلغ عددها حوالى عشرة آلاف مجاهد تكفلت الهيئة العربية العليا بكافة لوازمهم .

(ب) قوات مرابطة :

بلغ عددها حوالى ألف مجاهد تكفلت كذلك الهيئة العربية العليا بلوازمهم .

(ج) قوات متطوعة :

بلغ عددها حوالى ٣٠ ألف مجاهد ولم تضمهم قيادة أو تقدم لهم معونة من أى جهة وإنما عملوا بوحى من وطنيتهم.

هذا وقد حدد عبد الله التل حجم جيش الجهاد المقدس بألف ومائتى مجاهد فقط فى كتابه « كارثة فلسطين صفحة ٨٥ » . وهذا الحجم بدون شك قليل جداً بالنسبة لما حدده اللواء حسن البدرى فى كتابه الحرب فى أرض السلام .

٣ — جيش الإنقاذ والتحرير :

أنشىء فى أول ديسمبر ١٩٤٧ من متطوعين سوريين ولبنانيين وعراقيين وأردنيين ومصريين وسعوديين ويمنيين وأتراك ويوغسلاف وألمان وإنجليز[3] وقد تمركز هذا الجيش فى المنطقة الوسطى والشمالية من فلسطين حتى أوائل يونيو ١٩٤٨ عندما عاد وتجمع فى الشمال . وتولى قيادته فوزى الدين القاوقجى .

وقد بلغ حجم هذا الجيش نحو أربعة آلاف مقاتل نصفهم من المتطوعين السوريين و ٨٠٠ فلسطينى ومثلهم عراقى بالإضافة إلى جماعات قليلة من جنسيات أخرى[4] . ومن الواضح أنه نظرا لاختلاف جنسيات هذا الجيش فان تنظيمه وتركيبه كان غير متجانس من حيث الأفراد والتسليح والتدريب وأسلوب العمل .

---

(١) الحرب فى أرض السلام ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢.

(٢) كتاب الحرب فى أرض السلام ص ٩٩ ، ص ١٠٠ — وكذلك كتاب المسير إلى فلسطين لناجى علوش ، بيروت دار الطليعة ١٩٦٤ ص ١٦ — ص ٥٠ .

(٣) من كتاب الحرب الفدائية فى فلسطين — ص ٥٠ . وأيضا كتاب أسرار حرب ١٩٤٨ . محمد فيصل عبد المنعم ، القاهرة مكتبة النهضة ١٩٦٧ ص ٢٦٢ — ص ٣٦٧ .

(٤) فلسطين فى مذكرات القاوقجى إعداد خيرية قاسمية . بيروت دار القدس ١٩٧٥ ص ٥٠ وكذلك الحرب فى أرض السلام ص ١٠٧ .

٤ – القوة الخفيفة المصرية :

ودخلت هذه القوة فلسطين يوم ٦ مايو ١٩٤٨ تحت قيادة المقدم أ ح/ أحمد عبد العزيز وهو ضابط مصرى وكان حجم هذه القوة ٧٩٨ مقاتلا وتمركزت حول خان يونس .

٥ – كتيبة البعث العربى :

شكلها حزب البعث العربى ودفعها فى ١٦ يناير ١٩٤٨ إلى فلسطين بقيادة اللجنة التنفيذية للحزب[1] .

وبذلك يكون إجمالى تعداد قوات العرب شبه النظامية فى فلسطين نحو ٦٠ ألف مناضل ، إلا أن الأسلحة التى توفرت لهذه القوات لم تكن كافية وتم تجميعها بالجهود الذاتية .

أما القوات النظامية فكانت تتكون من :

١ – الجيش المصرى :

وكان بقيادة اللواء أحمد على المواوى . وبلغ عدد جنود الجيش فى بداية الحرب المعلنة نحو ٥٠٠٠ مقاتل بيانهم كالآتى : لواء مشاة من ثلاث كتائب مشاة وأورطة مدرعة وآلاى مدفعية ميدان ٢٥ رطلا لم تستكمل تدريبها إلا على مستوى الفصائل والسرايا فحسب – ٦ طائرات مقاتلة – ٥ طائرات نقل داكوتا – ١ طائرة استطلاع – ٢ كاسحة ألغام فى العريش وبور سعيد – ٥ زوارق إنزال تستطيع نقل سريتى مشاة أو ٢٥٠ طنا – قوات سودانية وسعودية .

٢ – جيش شرق الأردن (الفيلق الأردنى) :

بقيادة الفريق جون باجوت جلوب بلغ تعداده حوالى ٤٥٥٠ مقاتلا بيانهم كالآتى :

٤ كتائب ميكانيكية تشكل لوائين تعدادهما ٢٢٥٠ ، ٢٣٠٠ فرد على الترتيب .

٢ بطارية مدفعية ميدان ٢٥ رطلا كل منهما ٤ مدافع .

٣ – جيش العـــراق :

بقيادة الزعيم محمد الزبيدى ، وبلغ تعداده حوالى ٢٥٠٠ مقاتل بيانهم كالآتى :

كتيبة مدرعة (٣٦ دبابة خفيفة) فوج مشاة آلى – ٢ فوج مشاة – كتيبة مدفعية ميدان ٢٥ رطلا ناقص بطارية (١٢ مدفع ميدان) – بطارية مضادة للطائرات – سرية قاذفات قنابل (١٢ طائرة) .

٤ – جيش ســوريا :

بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم . وبلغ تعداده ألفى مقاتل بيانهم كالآتى : ٢ كتيبة مشاة تشكيلات لواء – كتيبة مدفعية ٧٥ مم فرنسية .

---

(١) نضال البعث الجزء الأول بيروت دار الطليعة ١٩٦٣ ص ٢٣٨ – ص ٢٣٩ .

٥ — جيش لبنان :

بقيادة الزعيم فؤاد شهاب . بلغ تعداده حوالى ١٠٠٠ مقاتل بيانهم كالآتى : كتيبة مشاة — بطارية مدفعية ٧٥ م فرنسية .

وبهذا يكون إجمالى حجم الجيوش النظامية الخمسة التى دخلت فلسطين فى بداية فترة الحرب المعلنة يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ نحو ١٥ ألف فرد تشكلوا فى ١٢ كتيبة مشاة أو ميكانيكية هى كل ما أمكن لسبع دول عربية أن تعبئه وتدفعه إلى مسرح الحرب فى هذه الجولة .

هذا وقد ظل حجم القوات العربية النظامية على هذا النحو فيما عدا الجيش المصرى الذى زاد حجمه نظراً لأن العدو ركز قتاله فى القطاع الجنوبى فبلغت الزيادة فى حجمه حتى الهدنة الأولى ثلاثة أمثال ما كان عليه عند بدء القتال أى بلغ ١٥ ألف مقاتل وبذلك أصبح حجم القوات العربية فى فلسطين حوالى ٢٤٠٠٠ مقاتل[١] . وكان كل جيش لا يأتمر إلا بأوامر دولته ولم يكن الملك عبد الله الذى قلدته جامعة الدول العربية قيادة هذه الجيوش يوم ١٠ مايو ١٩٤٨ يملك حق إصدار الأوامر إليها أو حتى حق تفقدها فكان بذلك قائداً إسمياً فقط[٢] .

وفيما يتعلق بالقوات الإسرائيلية[٣] :

ربما تكون أكثر المصادر دقة فى تحديد الحجم الحقيقى للقوات الإسرائيلية فى الجولة الأولى هى الوثيقة رقم ٦٨٧٧ من الكتاب الأبيض عن (الإرهاب الصهيونى) الصادرة من وزارة المستعمرات البريطانية نقلا عن أجهزة مخابرات سلطة الانتداب فى فلسطين . لقد قدرت هذه الوثيقة حجم القوات الإسرائيلية فى يوليو ١٩٤٦ بالآتى :

١ — قوات عسكرية جيدة التسليح تتألف من الهاجاناة والبالماخ وحرس المستعمرات .	٤٠,٠٠٠ مقاتل
٢ — جيش ميدان مدرب على العمليات ذو قدرة كبيرة على الحركة	١٦,٠٠٠ مقاتل
٣ — قوة ضاربة خفيفة الحركة عالية التدريب من البالماخ	٦,٠٠٠ مقاتل
٤ — قوة من الأرجون والشتيرون	٥,٠٠٠ مقاتل
المجموع الكلى	٦٧,٠٠٠ مقاتل

وليس ثمة شك فى أن هذا العدد من المقاتلين قد زاد زيادة كبيرة منذ بداية الجولة الأولى بفضل الهجرة الغزيرة التى راحت تتدفق على فلسطين بطريقة شرعية وغير شرعية .

وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ — يوم إعلان مولد دولة إسرائيل كانت قواتها المسلحة مشكلة فى عشرة ألوية ميدانية ولواء دفاع مدنى وقوة جوية وأخرى بحرية . هذا ويتكون جيش الدفاع الإسرائيلى من عنصرين هما :

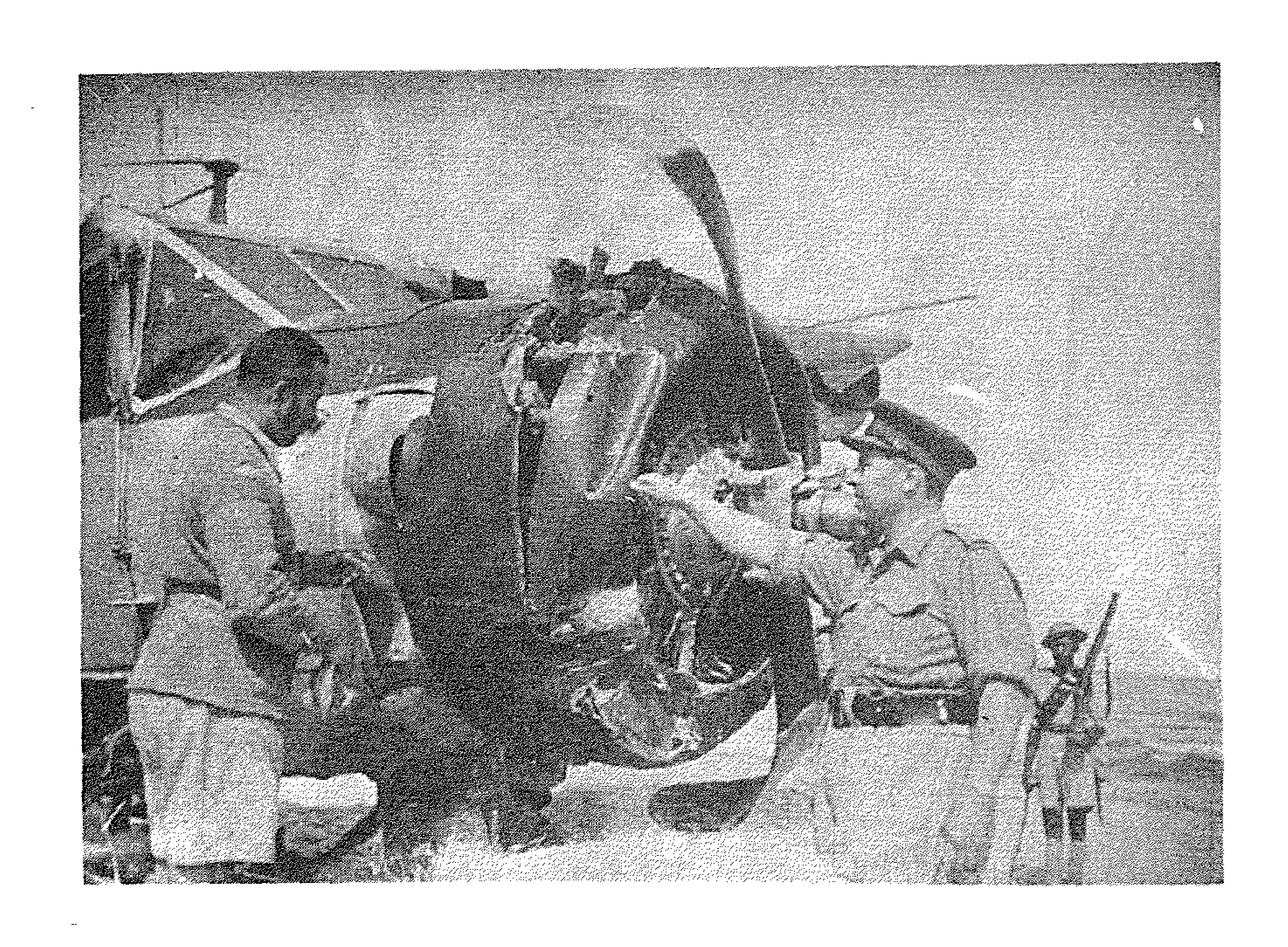
(١) الحرب فى أرض السلام — لواء حسن البدرى ص ١٢٢ .
(٢) الحرب فى أرض السلام — لواء حسن البدرى ص ١١٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، ص ١٤١ .



بعض القادة المصريين يشاهدون احدى المستعمرات اليهودية التى سقطت فى أيدى القوات المصرية — ١٩٤٨



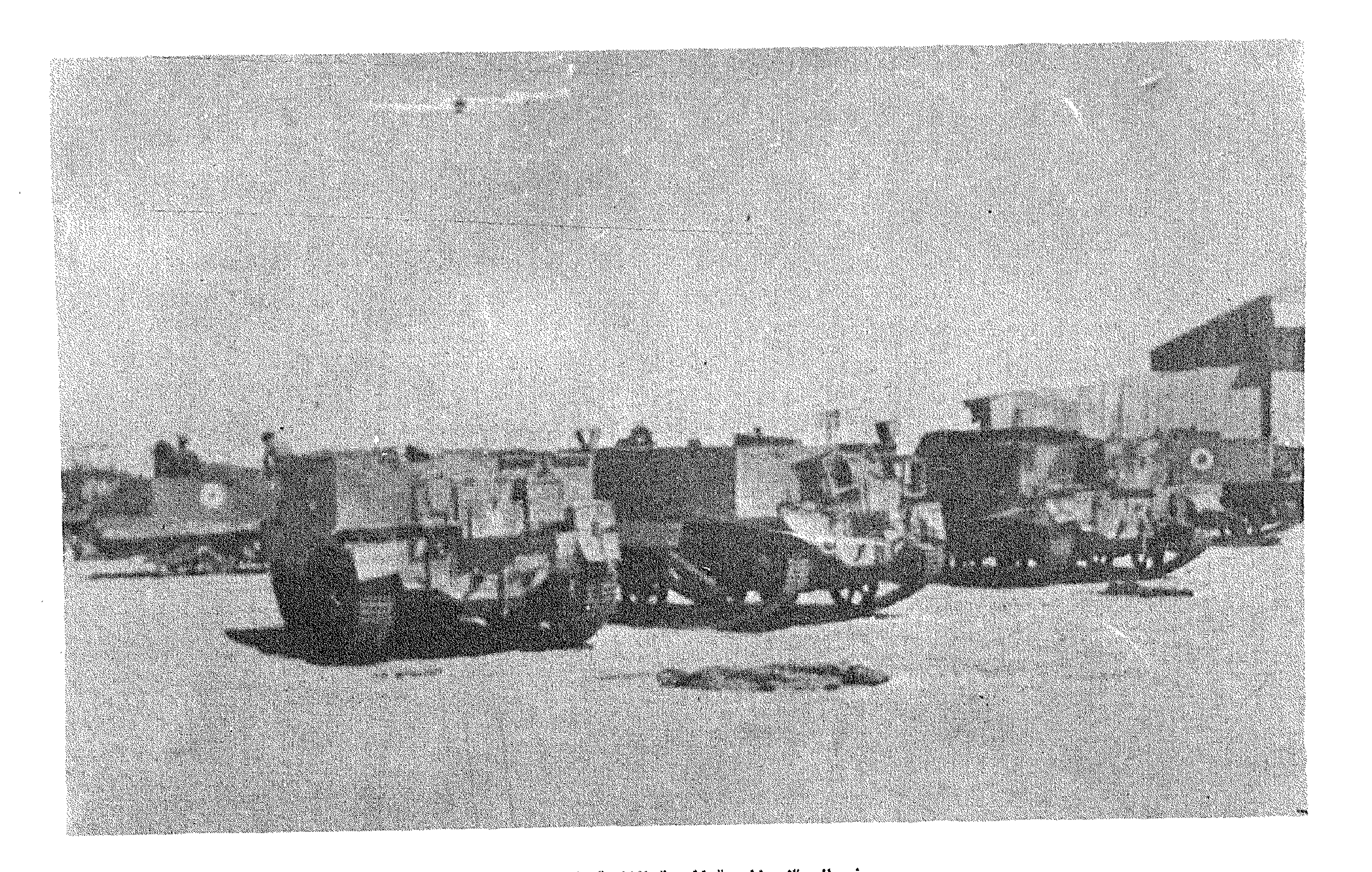
الفريق فؤاد صادق
قائد القوات المصرية بفلسطين
١٩٤٨



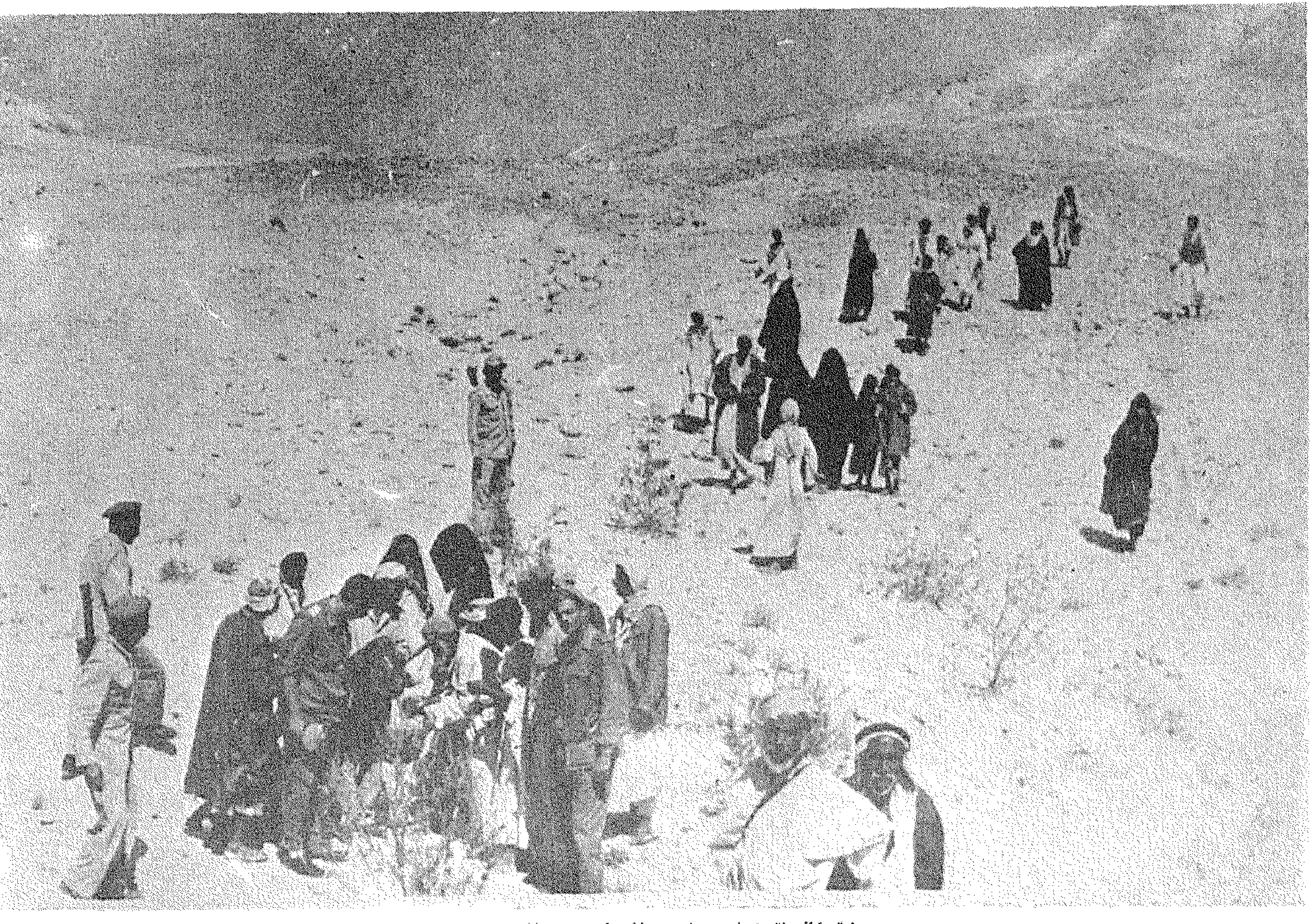
احدى المقاتلات المصرية بعد عودتها من غارة على تل أبيب
وقد أصيبت اصابة فى مقدمها ـ ١٩٤٨



مطار اللد أثناء حرب فلسطين
١٩٤٨

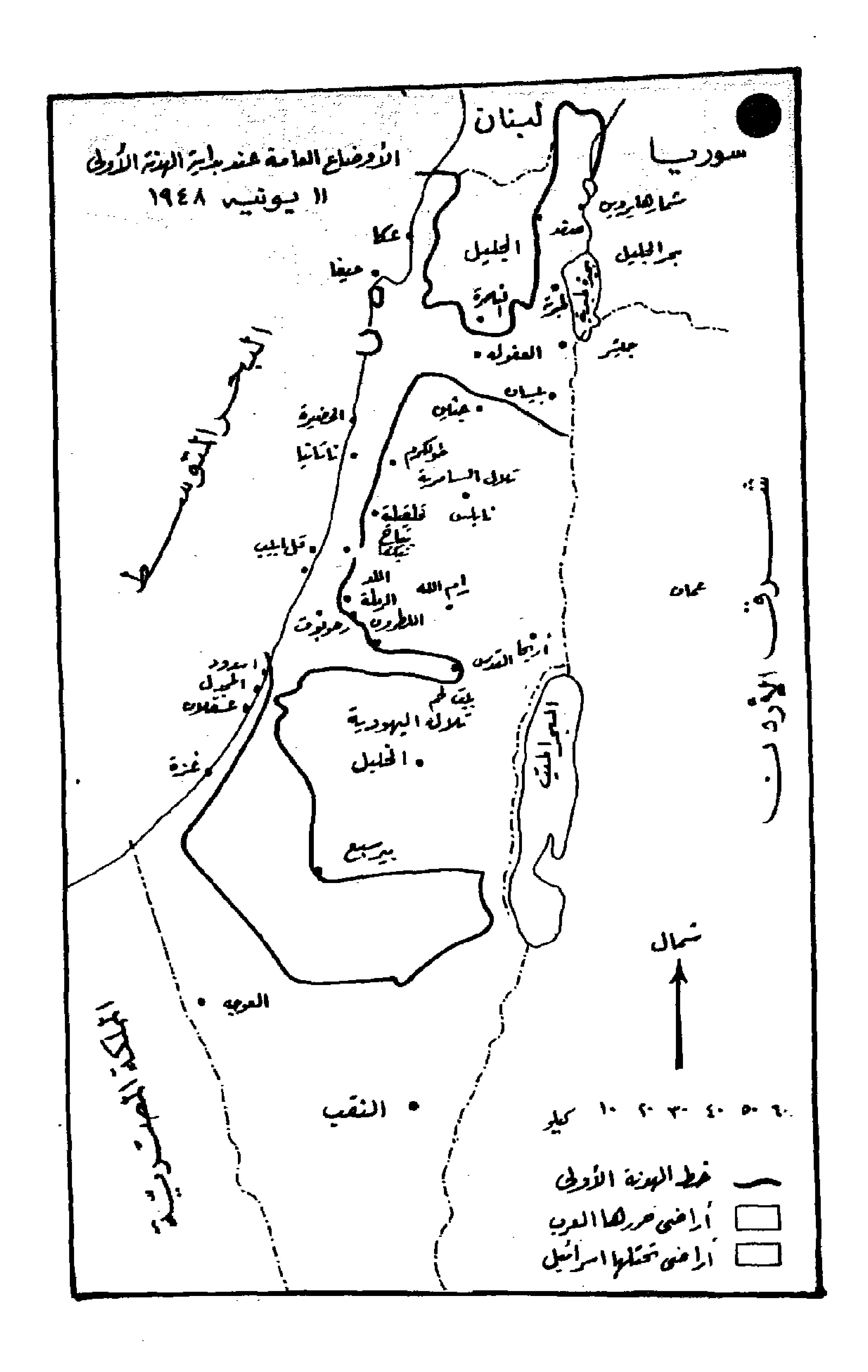


بعض الحمالات المدرعة المصرية الخاصة بقوات الفالوجا

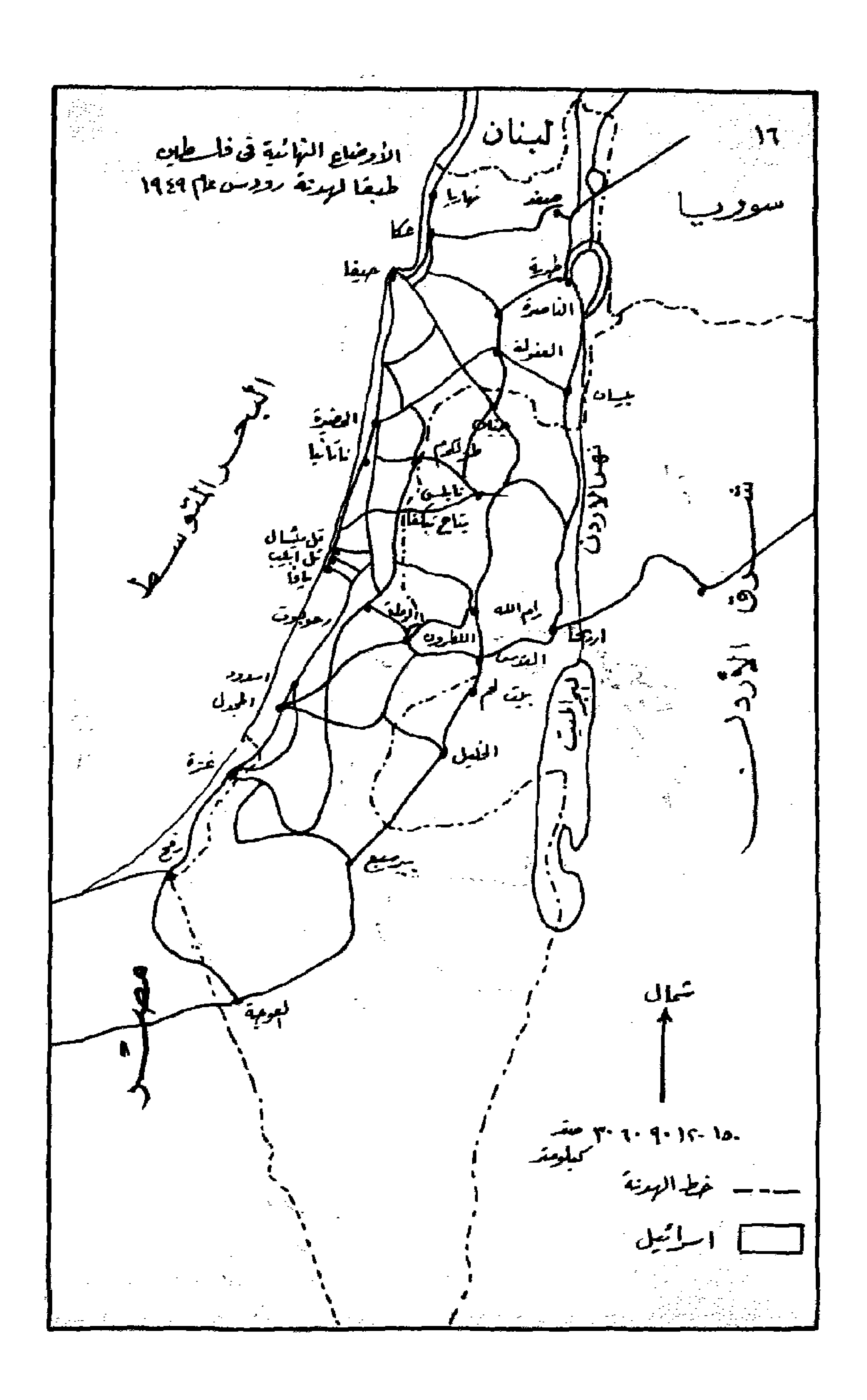


بداية المأساة : نزوح شعب فلسطين عن بلادهم — ١٩٤٨

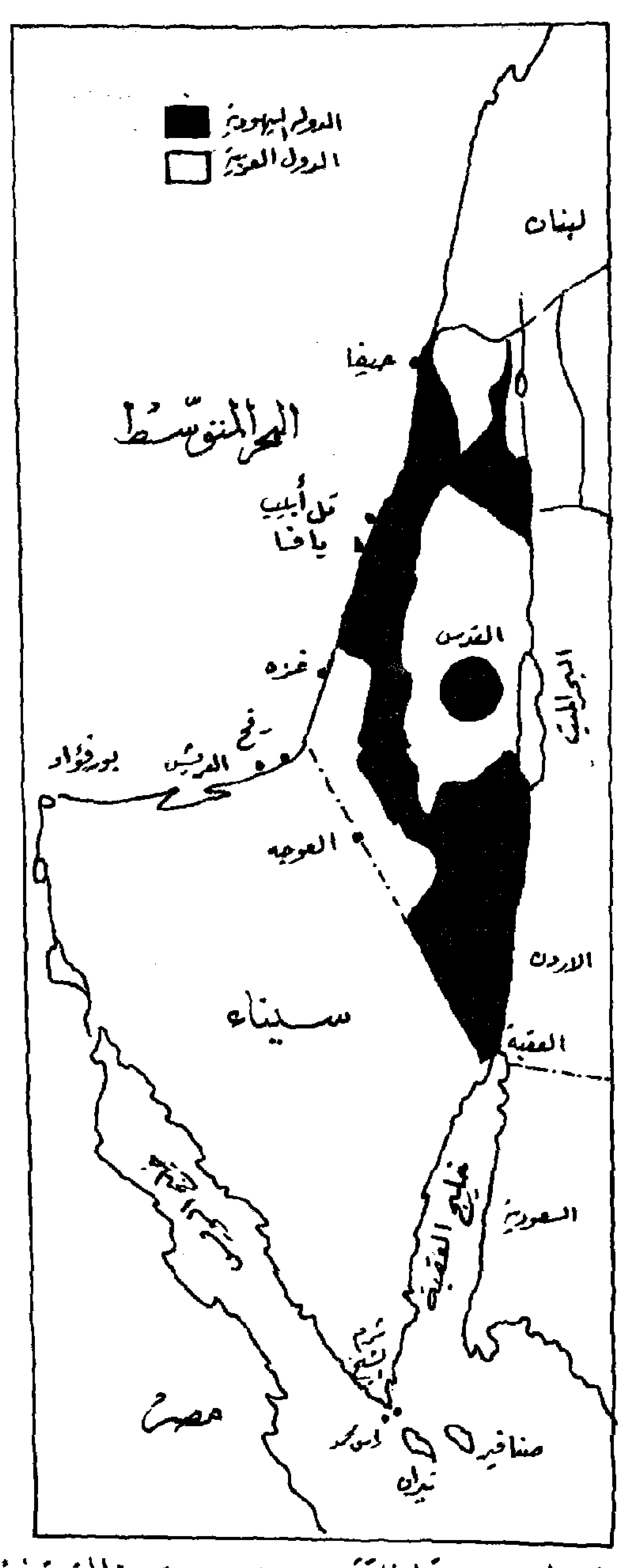
مخيمات اللاجئين فى رفح — ١٩٤٩



الأوضاع العامة عند بداية الهدنة الأولى
١١ يونيه ١٩٤٨
لبنان
سوريا
عكا
حيفا
الجليل
صفد
بحر الجليل
العفولة
جنين
بيسان
الخضيرة
ناتانيا
طولكرم
نابلس
قلقيلية
تل ابيب
الله
الرملة
اللطرون
القدس
أريحا
بيت لحم
البحر الميت
الخليل
غزة
بير سبع
العوجه
النقب
البحر المتوسط
الأردن
عمان
المملكة المصرية
شمال
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ كيلو
خط الهدنة الأولى
أراضي حررها العرب
أراضي تحتلها اسرائيل



١٦
الأوضاع النهائية فى فلسطين
طبقا لهدنة رودس عام ١٩٤٩
لبنان
سوريا
نهاريا
صفد
عكا
حيفا
طبرية
الناصرة
العفولة
بيسان
الخضيرة
ناتانيا
طولكرم
نابلس
تل أبيب
يافا
رحوبوت
الرملة
اللطرون
رام الله
اريحا
القدس
بيت لحم
اسدود
المجدل
الخليل
غزة
رفح
بيرسبع
العوجة
البحر المتوسط
نهر الأردن
البحر الميت
الأردن
مصر
شمال
١٥٠-١٢٠ ٩٠ ٦٠ ٣٠ صفر
كيلومتر
خط الهدنة
اسرائيل



خريطة فلسطين بموجب قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧

١ — البالماخ :

وهى وحدات الاستطلاع والعمل خلف الخطوط وتحتوى على أربعة ألوية مقاتلة . ومعنى كلمة « بالماخ » هى السرايا الضاربة وهى كلمة عبرية .

٢ — الهاجاناة :

وهى الوحدات المقاتلة فى الجيش الإسرائيلى ، وتحتوى على ستة ألوية ومعنى كلمة « هاجاناة » هى الدفاع وهى كلمة عبرية .

وكان العمود الفقرى لهذه القوات مشكلا من متطوعى اليهود فى الحرب العالمية الثانية والذين عادوا من ميادين القتال المختلفة وهم مشحونون بالخبرة والمهارة القتالية :

ونخلص من كل هذا إلى الحجم الحقيقى للقوات الإسرائيلية الذى ارتفع من ٦٧ ألف مقاتل عام ١٩٤٦ طبقاً لتقدير مخابرات حكومة الانتداب بلغ ١٠٦ آلاف مقاتل عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ منهم ٨٠ ألف فى الهاجاناة ، ٦ آلاف فى البالماخ ، ١٥ ألفا فى الأرجون ، ٥ آلاف فى الشتيرن[١] .

الخطط الحربية فى حرب ١٩٤٨ :

الجانب العربى :

لقد احتدم الجدل وتضاربت الأقوال وما زال أمر خطط الهجوم العربى فى الجولة الأولى موضع نقاش بين مفكر ومتشكك ومؤكد بوجود خطة حربية عربية مشتركة فى فلسطين .

فقد أنكر وجودها الفريق صالح صائب الجبورى رئيس الأركان العراقى الذى ألمح بأن العرب كانوا فى حاجة ماسة إلى خطة حقيقية[٢] . كما أنكر وجودها أيضاً الجنرال جلوب الذى أصر على أنه لم يكن هناك وجود لمثل هذه الخطة فى أى وقت من[٣] الأوقات .

وممن تشكك فى وجودها عبد الله التل الذى قال : « إننى لا أدرى أكانت هناك خطة أم لا ولكنه كان واضحاً لجميع الرجال العسكريين أن فلسطين قد قسمت إلى مناطق عمل أوكلت مسؤولية كل قسم منها إلى أحد الجيوش العربية[٤] .

---

(١) الحرب فى أرض السلام — ص ١٥٠ ، ص ١٥٠ . ويقول اللواء البدرى عن هذا الحجم وهو يزيد عما قدرته سلطة الانتداب البريطانى عام ١٩٤٦ بحوالى ٣٩ ألف مقاتل يمكن أن يكونوا حصيلة الهجرة الكثيفة إلى فلسطين خلال هذه المدة بالإضافة إلى المتطوعين الذين تدفقوا عليها من الخارج للاسهام فى إقامة الدولة علاوة على سكان المستعمرات الدفاعية الذين كان لهم نصيب فى المجهود الحربى .

(٢) « محنة فلسطين » : الفريق أول صالح صائب الجبورى ص ٣١ .

(٣) الحرب فى أرض السلام اللواء حسن البدرى ص ١٣٠ .

(٤) كارثة فلسطين لعبد الله التل ص ٢٥١ .

أما من أكد وجود خطة عمل مشتركة لجيوش العرب النظامية[1] فقد زعم أنها كانت تقضي بأن تطبق جيوش سوريا ولبنان والأردن والعراق على العفولة ثم تواصل الزحف مجتمعة في مرحلة تالية تمزق تجمعات القوات الإسرائيلية وتصل إلى ساحل البحر المتوسط في نفس الوقت الذي يزحف فيه جيش مصر نحو عسقلان والمجدل ثم يتقدم في مرحلة تالية للالتقاء بباقي الجيوش العربية الزاحفة من الشمال والشرق حتى يكون قادراً على أن يهاجم ويحقق مهامه .

ومهما يكن الأمر فيمكن القول أن كل جيش من الجيوش العربية كان له على الأقل هدف هجوم خاص به يتناسب مع القطاع الذي يعمل فيه وكانت هذه الأهداف محددة على النحو التالي :

القـوات المصرية :

تهاجم غزة بينما تقوم القوات شبه النظامية بمحاصرة القدس وتكون القوات جاهزة للتقدم بعد ذلك في اتجاه تل أبيب .

القـوات الأردنية :

تتقدم في اتجاه نابلس ورام الله ، وتعزل بذلك القدس وتكون مستعدة للتقدم في اتجاه تل أبيب .

القوات العراقية والسورية :

تهاجم في اتجاه عفولة وتطهر المنطقة من القوات الإسرائيلية .

القوات اللبنانيـة :

تتقدم إلى نهاريا ومنها إلى عكا وحيفا .

ويقول اللواء البدري[2] : « نستخلص من ذلك أن جيوش العرب النظامية دخلت فلسطين بلا خطة مشتركة للعمل المنسق بينها بل ان بعضها لم يكن يبطن للبعض الآخر ما يرجوه الصديق لصديقه من توفيق » .

الجانب الإسرائيـلي :

لقد رسمت القيادة الإسرائيلية مع صدور قرار التقسيم سياسة عامة لمجابهة متطلبات المرحلة المترتبة على هذا القرار تتلخص في الاحتفاظ بالمستعمرات اليهودية في فلسطين وتأمين المواصلات ضماناً لإمكان تحريك القوات واستخدام المستعمرات الدفاعية كقواعد لشن أعمال العصابات خلف الخطوط .

هذا وقد تكفلت قوات الهاجاناة والبالماخ وحرس المستعمرات بتنفيذ هذه السياسة أما العصابات الصهيونية أمثال الأرجون والشتيرون ونيلي فقد تكفلت بشن الحرب الإرهابية التي تعتمد على البطش والتنكيل لإجبار عرب فلسطين على مغادرة أرضهم تحقيقاً للبقاء العنصري للدولة اليهودية أما الأهداف والمهام فقد وضعتها القيادة الإسرائيلية العليا وعملت على إخراجها إلى حيز الوجود من خلال عدة خطط حربية هي أ ، ب ، ج ، يوشع د .

---

(١) تاريخ حرب الجيش العراقي في فلسطين ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ص ٦١ للواء الركن خليل سعيد .

(٢) الحرب في أرض السـلام .

وكان أهم ما جاء فى الخطة د هو :

١ — مهمة تأمين الاستيلاء على مساحات كبيرة من الأراضى بأسلوب الضرب مع الحركة .

٢ — الاستيلاء على القدس وتأمين باب الطريق بينها وبين تل أبيب . هذا ولم تغفل الخطة « د » الركائز الأساسية .

٣ — التمكين من مواصلة القتال فى حالة تدخل الجيوش العربية النظامية فى الحرب .

وعموما كانت الخطط الإسرائيلية تهدف إلى « السيطرة » على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من أرض فلسطين مما استلزم إعداد جيش كبير وتزويده بأسلحة هجومية واتجهت الجهود بعد ذلك من أجل تطوير هذه الأسلحة الهجومية :

سير القتال :

فترة الحرب غير المعلنة : (ديسمبر ١٩٤٧ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨) :

كانت نية الحرب متوفرة لدى الأطراف المتنازعة خاصة بالنسبة لليهود الذين جاءوا إلى فلسطين بغرض إقامة دولتهم بكل الوسائل والأساليب ولم يكن من الممكن أن يعلن اليهود الحرب على العرب — وفلسطين لازالت تحت الانتداب البريطانى .

ويمكن تقسيم الأعمال القتالية التى تمت خلال فترة الحرب غير المعلنة إلى مرحلتين :

١ — **المرحلة الأولى :** من ١ ديسمبر ١٩٤٧ إلى ٣١ مارس ١٩٤٨ .

وفى هذه المرحلة نشط الجانب العربى فى مواجهة اليهود والقوى المؤيدة لهم للحفاظ على عروبة فلسطين .

وقامت الجماعات الصهيونية المسلحة باغارات محدودة بغرض تأمين الاتصال البرى بين المناطق التى يتجمع فيها اليهود ، والتأهب لاحتلال المراكز التى تتحكم فيها القوات البريطانية . وبالرغم من ذلك تمكنت عناصر جيش الإنقاذ والجهاد المقدس من السيطرة على أغلب طرق المواصلات وتم عزل الحى اليهودى فى القدس القديمة والجديدة وذلك حتى نهاية مارس ١٩٤٨ .

٢ — **المرحلة الثانية :** من ابريل إلى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ .

قامت العصابات الصهيونية المسلحة بنشاط مكثف خلال تلك الفترة (٤٤ يوماً) واشترك فيها الهاجاناة ، والأرجون ومنظمة نيلى ، وشيترن الإرهابيون وقد استعان الجانب اليهودى فى ذلك بآلاف من المتطوعين الذين تدفقوا على فلسطين فى هذه الفترة للمعاونة والاشتراك فى قيام الدولة اليهودية .

ويمكن حصر المعارك التى دارت خلال هذه المرحلة فى ١٤ معركة وهذه المعارك كانت تستهدف :

— تأمين الممر الذى يربط تل أبيب بالقدس .

— والاستيلاء على موانى فلسطين الرئيسية لتأمين استقبال المهاجرين والأسلحة والذخائر .

— وكذلك تأمين منطقة الجليل فى مواجهة القوات السورية والعراقية .

— وأيضاً تهديد أمن العرب المقيمين ودفعهم إلى الفرار خارج فلسطين بأسلوب المذابح الجماعية .

أساليب القتال فى هذه الفترة :

اتبعت القوات العربية وكذلك الإسرائيلية أسلوب الإنجازات بأعداد محدودة على أهداف صغيرة الحجم يكون الغاية منها تدمير بناية أو قفل طريق أو نصب كمين ، وكان ذلك فى المرحلة الأولى من هذه الفترة والتى استطاع فيها العرب السيطرة على أغلب خطوط المواصلات ونجحوا فى عزل الحى اليهودى فى القدس القديمة والجديدة .

قامت إسرائيل خلال المرحلة الأولى من هذه الفترة بحماية المستعمرات النائية وتأمين طرق المواصلات .

ثم تطورت الأعمال القتالية قبل نهاية المرحلة الأولى وخلال المرحلة الثانية فاتخذت طابع العمليات القتالية فى صورة معارك مثل معارك باب الوادى ومعارك الاستيلاء على موانىء فلسطين الرئيسية التى قامت بها القوات الإسرائيلية.

واستخدم الجانب الإسرائيلى أسلوب الإرهاب لحمل العرب على ترك الأراضى التى ترغب إسرائيل فى إخضاعها لسيطرتها فشنت الغارات الإرهابية حيث نفذت عدة مذابح دموية حققت الغرض منها وأجبرت كثيرا من الأهالى على ترك قراهم والهجرة منها مثل مذبحة دير ياسين ، ومذبحة ناصر الدين ومذبحة عيلوط .

هذا وقد تمكنت إسرائيل فى نهاية فترة الحرب غير المعلنة من السيطرة على أراضى جديدة انتزعتها من أيدى العرب مما أدى إلى تدخل الدول العربية تدخلا إيجابياً وأرسلت تلك الدول جيوشها لوقف المد الصهيونى فى فلسطين .

تحليل نتيجة حرب ١٩٤٨ :

تعتبر حرب ١٩٤٨ أطول جولات الصراع العربى الإسرائيلى من حيث مدتها الزمنية وقد مرت هذه الحرب بفترتين : : فترة الحرب غير المعلنة ، وفترة الحرب المعلنة .

فترة الحرب غير المعلنة :

تمتع العرب فيها بمزايا مبادئ الحرب كلها وبالأخص المبادأة وهى من أهم تلك المبادئ وقد استمرت هذه الفترة نحو ١٢٢ يوماً .

ثم أخذ أسلوب القتال شكل حجم الاشتباكات الصغيرة ثم اتسع حتى استعمل فى مداه وغاياته خلال المراحل الأخيرة من الحرب وتراوح الاشتباك بين (الإغارة) المحدودة الهدف القليلة الأثر الصغيرة الحجم التى كان غاية مداها تدمير بناية أو قفل طريق أو نصب كمين إلى (المعركة) التى جنى منها هذا الطرف أو ذاك ثمرة تكتيكية فى الميدان فأحرز نصرا لنفسه أو أوقع هزيمة لها وزنها وقيمتها فى صفوف خصمه (إلى العملية الحربية) التى ترتبة عليها ميزة تعبوية أو استراتيجية لمن فاز بها .

فترة الحرب المعلنة :

تمتع العرب فيها بالمبادأة لمدة ٢٧ يوماً تمكنوا خلالها من شن ١٩ معركة ما بين هجوم أو إحباط أو هجوم مضاد وإن تمت جميعها بلا تنسيق أو تعاون استراتيجي بين جبهات الجيوش العربية المختلفة أو حتى تعبوياً فى الجبهة الواحدة .

ولإجهاض الهجمات العربية خلال تلك الفترة تدخلت الدول الاستعمارية لفرض هدنة بين الأطراف وبالفعل حدثت الهدنة الأولى وعلى الفور تحولت المبادأة عن العرب وانتقلت إلى الخصم واستمرت معه حتى نهاية الجولة وبالتالى استغلها الخصم فى شن ٢٤ معركة وعملية حربية على امتداد ٥١ يوماً من القتال النشط فصلت بينهما أربع هدنات فرضها مجلس الأمن بالتعاون مع الاستعمار والقوى المساندة للصهاينة وبلغت مددها ٢٢٤ يوما كانت كل هدنة منها طويلة بالقدر الذى يرقى بها إلى مصاف الوقفات الاستراتيجية . . ونتيجة لطول مدد هذه الهدنات وما حدث خلال كل منها من تغير جذرى فى موقف العدو وبالمسرح من ناحية التسليح والعدد والحشد صارت «وقفات استراتيجية» بكل ما حملته هذه الكلمة من معنى :

أما عن مدد القتال النشط خلال فترة الحرب المعلنة فقد اختلفت كثافة الأعمال الحربية مما جعل طولها أو قصرها ليس هو المؤثر الصحيح لمقدار حدتها فقد شن العرب بجيوشهم النظامية ١٩ معركة على امتداد ٢٧ يوماً هى كل مرحلة القتال الأولى وشنت إسرائيل ٢٤ معركة وعملية حربية على امتداد ٥١ يوماً هى كل مدة القتال النشط فى المراحل التالية :

وفيما يتعلق بحجم الإنجاز نجد أن العرب قد حرروا ألف كيلو متر مربع من أرض فلسطين سقطت خلال المرحلة الأولى على حين اغتصبت إسرائيل عشرة آلاف كيلو متر مربع فى المرحلة الرابعة فكان حجم إنجازها يزيد عن العرب خمس مرات[1] .

وقد أثبتت المعارك التى دارت بين العرب واليهود فى هذه الجولة «اتباع إسرائيل لنظرية قتال وأسلوب عمل مستمد من خبرة طويلة لمعظم جنودها فى مسارح الحرب العالمية الثانية» .

فترة الهدنة الأولى (١١ يونيو – ٧ يوليو) :

فرضت هذه الهدنة لصالح إسرائيل يمكنها أن تعيد تنظيم قواتها وتلتقط أنفاسها ، وصرحت لجنة الهدنة لها بتحريك قولات الإمداد إلى المستعمرات الجنوبية – وتمكنت خلال تلك الفترة من الحصول على قدر كبير من الأسلحة والعتاد حيث إنهالت عليها المساعدات من دول أوروبا ومن أمريكا ، وقامت بتقوية دفاعاتها فى مواجهة الجيوش العربية وتحسين أوضاعها حيث خرقت الهدنة أكثر من مرة لاسترداد بعض المواقع الحيوية .

بينما كانت القوات العربية فى كافة الاتجاهات جامدة فى أماكنها تحترم قرار وقف إطلاق النار وتطبيقه بمنتهى الدقة والأمانة . لدرجة أن كافة الدول العربية لم تعزز قواتها المشتركة فى القتال – فيما عدا مصر التى أرسلت بعض الوحدات الخفيفة دعما لدفاعاتها .

---

(١) الحرب فى أرض السلام ص ٨١ .

المرحلة الثانية من العمليات ٨ يوليو إلى ١٨ يوليو :

تمكنت القوات الإسرائيلية من اختطاف المبادأة من العرب بعد أن أفادت من الهدنة أفضل فائدة فما أن انتهت أيام الهدنة حتى بادرت بالقتال فى أكثر من اتجاه فتمكنت من استرداد اللد والرملة وانسحبت القوات الأردنية من المناطق التى احتلتها فسمحت بذلك للاسرائيليين من الوصول إلى المستعمرات اليهودية وكشف جناح القوات المصرية من الشرق وتمكنت من الضغط عليها من اتجاه الشمال فى نفس الوقت حتى أصبح موقف القوات المصرية حرجاً إلى حد كبير .

قرار الهدنة الثانية ١٨ يوليو :

صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وفرض الهدنة الثانية يوم ١٨ يوليو ١٩٤٨ إلا أن اليهود لم يعبأوا بهذا القرار واستمرت القوات الإسرائيلية فى استغلال النجاح واستطاعت أن تركز هجماتها فى القطاع الجنوبى الذى تسيطر عليه القوات المصرية — ولم يكن هناك أى تهديد يواجه إسرائيل من الاتجاهات الأخرى — وقام الإسرائيليون بمهاجمة الخط الدفاعى المصرى عدة مرات ولم ينجحوا فى اختراقه إلا أنهم استطاعوا قطع طريق الفالوجا — الجدل وطريق غزة — رفح واستعادة العسلوج وبير سبع وبذلك أصبحت القوات المصرية محصورة فى تلك المنطقة عندما صدر قرار آخر من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٤٨ .

المرحلة الأخيرة من العمليات ٢٢ اكتوبر — ٨ يناير ١٩٤٩ :

كانت إسرائيل فى موقف القوة ولم يكن أمامها سوى القوات المصرية واستمر القتال بين الجانبين وتمكنت مصر خلال تلك الفترة من سحب قواتها على الخط الساحلى فيما عدا قوات الفالوجا التى بقيت تحت الحصار ولم تستسلم حتى تم إعادتها بعد ذلك بالجهود السياسية وصدر قرار من مجلس الأمن بهدنة رابعة اعتبارا من ٨ يناير ١٩٤٩ .

فترة الحرب المعلنة :

١ — المرحلة الأولى من العمليات (١٥ مايو إلى ١٠ يونيو) :

بدأت العمليات القتالية بين القوات العربية وإسرائيل بعد أن رفعت بريطانيا يدها عن فلسطين فى ١٤ مايو ١٩٤٨ فقامت الجيوش العربية اعتبارا من ١٥ مايو بالتقدم داخل فلسطين كل فى اتجاه هدف هجومه .

وحققت هذه القوات تفوقاً واضحاً فقد تمكنت القوات المصرية من دخول غزة واحتلال دير سنيد ، والجدل ، وأسدود بينما تمكنت القوة الخفيفة المصرية (المتطوعون) من الوصول إلى بيت لحم وحققت الاتصال بالقوات الأردنية عند الخليل يوم ٢٩ مايو .

كما تمكنت القوات الأردنية خلال الأسبوع الأول من الاستيلاء على اللد والرملة ووصلت إلى مسافة ٦ أميال من تل أبيب قبل نهاية مايو وأصبحت بذلك المستعمرات اليهودية فى النقب معزولة عن باقى الأراضى التى تسيطر عليها إسرائيل .

أما القوات العراقية فقد وصلت إلى طولكرم بينما وصلت القوات السورية إلى الناصرة .

ويمكن القول أن القوات الإسرائيلية أصبحت محصورة فى الشريط الساحلى الممتد من عكا شمالا حتى أسدود جنوباً مما دفع الدول الاستعمارية إلى التدخل بغرض عقد هدنة بين الجانبين اعتباراً من ١١ يونيو ١٩٤٨ .

أما العرب فلم تكن لهم نظرية قتال متفق عليها ولا أسلوب عمل موحد يلائم خصائص القتال فى المسرح أو الأحوال السائدة فيه كما لم يكن لهم هدف واضح[1] .

وقد ترتب على ذلك أن اتصفت الأنشطة الحربية الإسرائيلية فى هذه الجولة بالعمل التعرضى المتراكم الذى يخدم أوله آخره والمناورة الواسعة بالالتفاف والتطويق البعيدى المدى والتسلل إلى مؤخرة وأجناب العدو وقد ساعد إسرائيل على ذلك اتقانها العمل من خطوط داخلية إزاء صمود العرب أغلب الوقت . . وضعف التنسيق والتعاون الصادق بين جبهاتهم حتى جاز على حلفهم أن يقال فى شأنه كلمة الماريشال فوشى : « لقد قل إعجابى بانتصارات نابليون عندما علمت أن أعداءه كانوا يحاربون فى حلف »[2] :

اتصفت جولة ١٩٤٨ وظهرت بصورة فريدة فى نوعها من حيث جهل العرب بامكانات قدرات خطط وأهداف عدوهم ومن حيث ضعف وقلة ما أعدوه من قوات وأسلحة وذخائر لهذا الصراع المصيرى ومن حيث إهمال تهيئة المناخ الدولى وإقناع الرأى العام العالمى بعدالة قضيتهم . ثم زاد الأمر سوءاً انجاح إسرائيل فى حشد القوى والوسائل وفى حجب الحقائق وفى إدارة الصراع بالشكل الذى يستثمر مكاسب قوتها ويحيد إن لم يشل مكاسب قوة العرب .

ولم تتمكن الدول العربية عن طريق دفع جيوشها لفلسطين من استعادتها ومنع قيام الدولة الصهيونية فى فلسطين والتى قامت بالفعل وأعلنت فى مايو ١٩٤٨ واعترف بها كثير من دول العالم وعلى رأسهم أمريكا والاتحاد السوفيتى وانجلترا وفرنسا .

واستطاعت إسرائيل أن تضع نواة دولتها الكبرى فى هذه الحرب وأن تقف على أول الطريق لتحقيق « دولة إسرائيل » من النيل إلى الفرات .

الدروس المستفادة من حرب ١٩٤٨ :

أهمية الاستعداد للقتال :

لم تكن الجيوش العربية على درجة من الاستعداد القتالى بحيث يمكنها أن تخوض الحرب مع إسرائيل لا من جهة التسليح والتدريب أو من جهة الاستكمال الإدارى هذا بالرغم من التفوق الملموس الذى أمكن تحقيقه فى المرحلة الأولى من القتال والذى يعزى إلى أسباب أخرى إلا أنه ثبت باستمرار القتال الأثر السيء لهذا العامل على القوات العربية بحيث جعلها تنسحب من المعركة الواحدة تلو الأخرى .

أهمية العمل الهجومى :

وقد اتضح كيف تمكنت إسرائيل فى الاستعداد لخوض الحرب يؤكد ذلك أنها جلبت الأفراد والعتاد والسلاح من كافة بلاد العالم فى ظروف صعبة خلال فترة الانتداب من تعبئة معظم مواردها بينما كان الأمر أكثر سهولة

---

(١) نفس المصـــدر السابق ص ٨٤ .

(٢) صفحات مطوية عن فلسطين .

ويسراً بالنسبة للعرب بالإضافة إلى ضخامة إمكانياتهم العددية والاقتصادية ومع ذلك لم يحسن العرب استغلال هذه الظروف ودفعوا من رجالهم إلى الحرب ما لا يزيد عن ٠٫٥ ٪ من تعدادهم ولم تحظ العمليات الحربية فى فلسطين باهتمام الدول العربية بالقدر الذى يحقق لها النجاح .

أهمية التعاون وتوحيد القيادة :

ما من شك فى أن القوات العربية التى اشتركت فى الحرب لم تكن على قلب رجل واحد كما لم يكن هناك أى درجة من التنسيق يكفل لها النجاح بينما نجد على الجانب الآخر جيشاً موحداً بقيادة واحدة وليس أدل على ذلك من أن القوات الأردنية اتخذت موقف الدفاع اعتباراً من ٧/١٤ وكشفت جناح القوات المصرية من الشرق وتركت إسرائيل تعمل فى حرية تامة فى مواجهة المصريين .

أهمية وضوح الهدف والاقتناع به :

لقد كان للفرقة التى تميزت بها الحكومات العربية فى ذلك الوقت أثر كبير على نتيجة القتال فلم تتمكن الدول العربية من تحديد الهدف الحقيقى للقتال فى فلسطين أو تسليم جيوشها لقيادة موحدة ولم يكن الدفاع لإرسال هذا الجيش سوى تنفيذ التزام أصبح لا يمكن الهروب منه ولذلك خرجت هذه الجيوش دون شعور وطنى بمسئولية القتال فكانت أشبه بعمل شكلى لا يدعمه سوى روح المقاتلين ومشاعرهم الفردية ، ومع ذلك فان قتال هذه القوات فى أرض خارج حدود أوطانهم — بالرغم من أنها أرض عربية — إلا أنه يختلف بالضرورة عن مشاعر اليهود الذين اتخذوا هذه الأرض وطناً لهم وعملت الدعاية الصهيونية طوال أعوام مضت على إقناعهم بأنها أرض الميعاد المقدسة التى وهبها لهم الرب .

أهمية المحافظة على الغرض :

لقد جعل التدخل السياسى المستمر هذه الحملة تسير دون غرض استراتيجى محدد فالحكومة المصرية لم تبين لرئاسة هيئة أركان حرب الجيش فى أى وقت من الأوقات الغرض بوضوح هذه الحملة .

مبدأ الحشد فى حرب فلسطين :

لقد بدأ الحشد بعد أن دخل الجيش حدود فلسطين واشتبك مع العدو وهذا يعكس ما هو مفروض .

مبدأ خفة الحركة :

نتج عن قصر المدة التى جرى فيها التجهيز أن دخلت القوات المعركة دون أن تكون لديها وسائل الحملة الميكانيكية أو وحدات الاستطلاع والوحدات المدرعة الأخرى وقد ظل هذا النقص ملموساً من أول العمليات حتى انتهائها ونتج عن ذلك أن عجزت القوات عن تطبيق مبدأ خفة الحركة خصوصاً فى المراحل الأخيرة من العمليات وبالتالى فقدت ميزة المبادأة التى أمسك العدو بزمامها .

مبدأ الأمن :

فرضت السياسة على قائد القوات بفلسطين التقدم السريع فى أول الحملة إلى غزة ثم إلى المجدل وأسدود وإلى الخليل وبيت لحم ثم احتلال خط من المجدل إلى الخليل فاضطر تنفيذاً لذلك إلى ترك عدد كبير من مستعمرات العدو ومواقعه القوية خلف خطوط المواصلات مما شكل تهديداً دائماً لهذه الخطوط .

مبدأ الاقتصاد فى القوة :

اضطرت سياسة قائد القوات إلى احتلال مناطق واسعة بقوات صغيرة ذات دفاعات رقيقة متباعدة غير متماسكة ولم يتمكن فى أى وقت من تجميع أى قوة لازمة لأى عملية لاستخدامها كاحتياطى لإيقاف هجمات العدو وتهديده لخطوط مواصلاتها .

مبدأ العمل الهجومى التعرضى :

تمكنت قواتنا من تطبيق هذا المبدأ فى الأيام الأولى من العمليات فقط ، ولكن تغير الحال بمجرد أن أرغمت المطالب السياسية قواتنا على احتلال أراضى واسعة والدفاع عنها فارتبطت القوات بالأرض واضطرت للدفاع عن مناطق كبيرة متباعدة وانتقلت ميزة المبادأة بالعمليات إلى العدو .

مبدأ المفاجأة :

جاء قرار الحكومة بالتدخل عسكرياً فى فلسطين فى آخر لحظة قبل بدء التدخل فعلا وبذلك كانت المفاجأة لرئاسة الجيش وليست للعدو . والعمل الوحيد الذى طبق فيه هـــذا المبدأ وكان مفاجأة تامة للعدو هو زحف القوة الحقيقية نحو بير سبع وإلى الخليل وبيت لحم فى المراحل الأولى من العمليات أما ما عدا ذلك فقد كانت معلومات العدو عن قواتنا تكاد تكون تامة فى حين أننا كنا نجهل نواياه تماماً فى معظم الأحوال .

مبدأ التعاون :

تمكنت قواتنا إلى حد ما من تطبيق هذا المبدأ بين أسلحتنا البرية والجوية والبحرية فى أغلب العمليات التى اشتركت فيها وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أنه المبدأ الوحيد الذى لا يتأثر فى داخلية الجيش بالعوامل السياسية .

الشئون الإدارية :

وعندما بدأت حملة فلسطين فى ١٥ مايو من عام ١٩٤٨ لم يكن الجيش مستكملا للشئون الإدارية .

الروح المعنوية :

لقد دخلت القوات المصرية فلسطين وكانت الظروف تتمشى مع وجود روح معنوية قوية الأمر الذى كان يعوض إلى حد ما النقص فى النواحى الأخرى .

التدريب :

لقد دخل جيش مصر العمليات الحربية بفلسطين عام ١٩٤٨ بدون التدريب الذى يجب أن يكون عليه .

الأسلحة :

لوحظ النقص الشديد فى الأسلحة المضادة للدبابات وكذلك أثبتت العمليات الاحتياج الشديد لمدفعية الميدان وكذلك لوحظ أنه يجب أن نهتم بالأسلحة الصغيرة والهاونات والألغام .

الفصل الثالث

الجولة العربية الإسرائيلية الثانية (*)

خريف (١٩٥٦)

لم يكن العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ حدثاً مفاجئاً وإنما جاء نتيجة لظروف وملابسات أدت مجتمعة إلى إثارة دول العدوان ضد مصر ، بدأت تلك الأحداث بثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وتطورت حتى وصلت إلى تأميم قناة السويس واتجاه مصر بكل ثقلها نحو الكتلة الشرقية ، وهذه الأحداث الهامة تتطلب منا شيئاً من التفصيل :

ثـورة يوليـو ١٩٥٢ :

قام الضباط الأحرار بالثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بهدف تحرير الإرادة المصرية من سيطرة الاستعمار وأدواته فى مصر وهما الإقطاع ورأس المال . ووضعت برنامجا لإصلاح الدولة باقامة عدالة إجتماعية وحياة ديمقراطية سليمة وإعداد جيش وطنى قوى .

فتم تغيير نظام الحكم الملكى إلى جمهورى ، وتم توقيع معاهدة الجلاء مع إنجلترا فى يونيو ١٩٥٤ وبذلك رحلت القوات البريطانية عن مصر بعد احتلال دام سبعين سنة ، كما قامت حكومة الثورة بالقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم وخطت خطوات واسعة فى سبيل تحقيق باقى أهداف الثورة وإصلاح المسار الاقتصادى للبلاد ، وانتهجت مصر سياسة معادية للدول الاستعمارية ووقفت إلى جانب الدول النامية فى سبيل التخلص من الاستعمار والحصول على الاستقلال ، الأمر الذى عرضها لمواجهة مع الدول الكبرى والدخول فى صراعات عنيفة معها . من هذه المواقف تأييد مصر لثورة الجزائر وتقديم المساعدات لها الأمر الذى أزعج فرنسا وأثارها ضد مصر .

توتر الموقف بين مصر وإسرائيـل :

لم تكف مصر — بعد إعلان الهدنة فى يناير ١٩٤٩ بين إسرائيل والدول العربية — عن المطالبة بالحق العربى فى فلسطين ، وقد تطور الموقف بعد الثورة حيث أغلقت مصر طريق الملاحة فى وجه إسرائيل فى قناة السويس وخليج العقبة ، كما عملت على تشجيع الهجمات الفدائية عليها عبر الحدود مما ساعد على زيادة حدة التوتر بينها وبين إسرائيل .

اتجـاه مصر إلى الكتلة الشرقيـة :

عملت حكومة الثورة على تقوية الجيش ، وتزويده بالأسلحة الحديثة إلا أن هذا الأمر تعارض مع مصالح الدول الغربية فى تحديد قدرات مصر العسكرية فى مواجهة إسرائيل، مما دفع حكومة الثورة إلى الاتجاه للكتلة الشرقية

(*) وزارة الدفاع — هيئة البحوث العسكرية — المرجع العسكرى — المستوى الأول .

الحصول على الأسلحة فعقدت صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ . . كما اعترفت مصر بالصين الشعبية فى مايو سنة ١٩٥٥ وزادت بذلك الفجوة بينها وبين العالم الغربى .

تأميم قنـــاة الســـويس :

قامت مصر بالعمل على إعداد مشروع السد العالى بغرض الحصول على الطاقة واستصلاح مساحات شاسعة من الأراضى الصحراوية والاستفادة بمياه النيل التى تضيع هباء فى البحر المتوسط فى موسم الفيضان — ولما لجأت مصر إلى البنك الدولى لتمويل المشروع وافق فى بداية الأمر ثم تعرض لضغوط مختلفة من الدول الاستعمارية خاصة أمريكا فامتنع عن تقديم المساعدات المالية لتنفيذ المشروع مما دفع إلى اتخاذ قرار بتأميم شركة قناة السويس .

ويعتبر قرار تأميم قناة السويس هو الضربة الفاصلة التى طاش لها صواب الدول الاستعمارية (خاصة إنجلترا وفرنسا) مما دفع هاتين الدولتين إلى الاتفاق على مواجهة مصر عسكرياً .

الهـــدف من العـــدوان الثـــلاثى على مصر :

اجتمعت كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على تحطيم الإرادة المصرية : فبريطانيا تهدف من ذلك إلى استعادة هيبتها فى الوطن العربى ، وفرنسا تسعى إلى الانتقام من مصر لمساندتها ثورة الجزائر ولكرامتها التى أهدرت بقرار تأميم قناة السويس ، وإسرائيل ترى فى ذلك فرصة تحقق لها نصراً رخيصاً لا تتحمل فيه أى عبء ، وفرصة تمكنها من الانتقام لهجمات الفدائيين ، وإجبار مصر على الاعتراف بها فيتحقق لها الأمن مع كافة الدول العربية ، وتتمتع بحرية الملاحة فى البحر الأحمر .

ويمكن إجمال هدف العدوان فى نقاط ثلاث :

١ — تدمير القوات المسلحة المصرية بعد استدراجها داخل سيناء .

٢ — احتلال مصر وهى بدون جيش ، أو تغيير نظام الحكم فيها وإجبارها على التمشى مع السياسة الاستعمارية والكف عن مساعدة الدول النامية ؛

٣ — إرغام مصر على التصالح مع إسرائيل وعدم التعرض لمصالحها الملاحية فى خليج العقبة .

أرض المعـــركة :

فى ســـــيناء :

تقع الحدود بين مصر وإسرائيل فى الطرف الشرقى لسيناء بين خليج العقبة وساحل البحر المتوسط وتمتد بمواجهة ١٧٠ كيلو متراً وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) السهل الســـــاحلى :

يمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط وهو لا يصلح فى معظم أجزائه لعمليات الإنزال نظراً لوجود سبخات كثيرة ولا توجد عليه موانى ؛ وتعتبر المنطقة بصفة عامة كثباناً رملية لا تصلح للتحركات إلا على الطريق الساحلى الذى يمتد بين القنطرة — وغزة .

(ب) المنطقة الوسطى :

تلى الكثبان الرملية . وهى هضبة جيرية تحتوى على كثير من الهيئات المرتفعة التى تعوق التحركات وتتصل من الجنوب بسلسلة المرتفعات الجنوبية ويخترق هذه المنطقة طريق الإسماعيلية – العوجة .

(ج) المنطقة الجنوبية :

وهى منطقة جبلية وعرة تبلغ أقصى ارتفاعها فى الجنوب (جبل كاترين) وتتدرج فى الانخفاض نحو الشمال وتتصل السلسلة الجبلية من جانبها الغربى بمرتفعات المنطقة الوسطى وتسمى بالحائط الغربى لسيناء . ولا يمكن اختراق هذا الحائط إلا من خلال ممرات محدودة أهمها ممرا : الجدى ومتلاء ، والأرض شرق الممرات صالحة لتحرك جميع أنواع الحملات .

منطقة قناة السويس :

تقع بور سعيد عند رأس القناة على شاطئ البحر المتوسط وتمتد القناة إلى الإسماعيلية حيث بحيرة التمساح ثم تصل إلى البحيرات المرة وتلتقى بخليج السويس عند السويس والمنطقة الشمالية للقناة تتميز بأنها شريط ضعيف من الأرض ينحصر بين القناة وبين بحيرة المنزلة غرباً ثم الأراضى الزراعية الحافلة بالترع والمصارف حتى شمال الإسماعيلية .

أما شرق القناة فان الطريق يكاد ينعدم فى القطاع الشمالى من الضفة الشرقية نظراً لوجود سهل الطينة الملاصق للقناة فى هذه المنطقة .

حجم وأوضاع الجانبين :

ليس هناك وجه للمقارنة بين حجم الجانبين المتصارعين فى هذه الجولة ، فمصر كانت تواجه ثلاث دول ، وبالرغم من أن النزاع ظهر فى بدايته أنه بين مصر وإسرائيل – الأمر الذى اتفق عليه أثناء التخطيط للعملية – إلا أن ظروف القتال سرعان ما أبرزت جانب كل دولة من الدول المعتدية .

وعلى الرغم من ذلك تمكنت إسرائيل وحدها فى هذه المعركة من حشد قوات تفوق الجانب المصرى عدداً ونوعاً – هذا بالإضافة إلى أن انجلترا وفرنسا تكفلتا بحماية سواحلها وسمائها حتى قبل التدخل الفعلى فى القتال ، ومع ذلك ترددت إسرائيل كثيراً فى قبول هذا الدور وصممت على عدم دفع قواتها الرئيسية إلا بعد أن تطمئن لتدخل إنجلترا وفرنسا فى المعركة[1] ويوضح الجدول التالى مقارنة بين القوات المصرية وقوات الغزو الثلاثية :

---

(١) يتضح ذلك من أقوال موشى ديان نفسه فى كتاب يوميات معركة سيناء ص (١١٣ ، ١١٤) .

	القوات المصرية	القوات الإسرائيلية	القوات البريطانية	القوات الفرنسية
القوات البرية	١٢ لواء + ٣٠٠دبابة + ٧٧٦ مدفع وهاون	٢١ لواء + ٢٥٠دبابة + ٩٩٠ مدفع وهاون	١٢ لواء + ٤٠٠ دبابة + ٣٠٠ مدفع وهاون	٥ لواء + ١٠٠دبابة + ٢٢٠ مدفع وهاون
القوات الجوية	١٤ سرب	٢٧٥ طائرة من مختلف الأنواع	٢٩ سرب	٢١ سرب
القوات البحرية	٧٣ قطعة بحرية	٥٥ قطعة بحرية	٦٥ قطعة بحرية	٢٦ قطعة بحرية بالإضافة لعدد كبير من قوارب الإنزال

خطط الجانبين :

أسلوب الدفاع عن مصر :

بالرغم من أن إنجلترا وفرنسا قد أخفيتا أمر اشتراكهما فى أعمال قتالية ضد مصر إلا أن القيادة السياسية كانت تضع ذلك فى اعتبارها خاصة بعد أن قامت بتأمين قناة السويس – ولذلك تم توزيع القوات المصرية لتدافع فى اتجاهين .

الاتجـــاه الأول :

ضد احتمالات تدخل دول الغرب ، والذى كان متوقعاً له ساحل البحر المتوسط وقناة السويس .

الاتجـــاه الثـــانى :

شبه جزيرة سيناء حيث منطقة الحدود مع إسرائيل ولهذا تم سحب معظم القوات المدرعة من سيناء لتكون مستعدة لمواجهة الاحتمالات المختلفة حسب خطة الدفاع عن الاتجاه الأول .

خطة العدوان الثـــلاثى :

الفكرة العـــامة للعمليـــات :

بدأ التفكير فى ضرب مصر منذ بداية عام ١٩٥٦ وقد وضعت الخطط لذلك دون إشراك إسرائيل فيها ، وتم تطوير هذه الخطط تباعاً حتى نشأت فكرة إشراك إسرائيل بتنفيذ عدوان محـــدود فى منطقة قريبة من قناة السويس بحيث يمكن اعتباره تهديداً للملاحة فى قناة السويس مما يستلزم تدخل إنجلترا وفرنسا بحجة حماية القناة باعتبارها ممراً مائياً دولياً وإذا لم تقبل مصر ذلك سلمياً فإنه يتم التدخل عسكرياً بإنزال القوات المشتركة فى بور سعيد واحتلال قناة السويس .

مراحل تنفيذ العـــدوان :

١ — تقوم إسرائيل بتنفيذ عدوان محدود قرب قناة السويس باسقاط عناصر من المظلات ويتم عقب ذلك تقديم الإنذار الأنجلو فرنسى إلى مصر .

٢ — تندفع القوات الإسرائيلية إلى سيناء وتستدرج القوات المصرية الرئيسية إلى مناطق قتال يمكن فيها تدميرها بمعاونة القوات الجوية الإنجليزية والفرنسية وذلك خلال الأيام الثلاثة التالية .

٣ — تقوم القوات الجوية الأنجلو فرنسية بتنفيذ ضربة جوية شاملة يتم خلالها تحرك قوات الغزو وإنزالها فى فى بور سعيد واحتلال المدينة .

٤ — تنطلق القوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة جنوباً وتسيطر على قناة السويس حيث يمكن بعد ذلك إخضاع حكومة مصر وإجبارها على إتباع السياسة الملائمة لمصالح الدول الغربية .

سير الأعمال القتالية :

المرحـــلة الأولى :

بدء القتـــال فى ســـيناء :

بدأت إسرائيل تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة قبل آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ باسقاط كتيبة مظلات فى منطقة سدر الحيطان شرق ممر متلا ، وقبل فجر يوم ١٠/٣٠ بدأت طلائع القوات الإسرائيلية فى التقدم عبر الحدود فى القطاع الأوسط والجنوبى من سيناء .

وقد أبلغت عناصر الاستطلاع فى سيناء عن هذه الأعمال العدوانية ولذلك تحركت الاحتياطات المصرية — التى كانت تتمركز فى منطقة القنال — بعد أول ضوء يوم ١٠/٣٠ لتعبر قناة السويس حتى يمكن دعم الدفاعات المصرية فى سيناء ، وحتى لا تتعطل الملاحة فى القناة تأخر عبور هذه القوات إلى الليل وظلت عناصر الاستطلاع فى سيناء تناوش القوات الإسرائيلية طوال هذا اليوم ، حتى أن لواء المظلات الإسرائيلى لم يتمكن من الوصول إلى الكتيبة التى تم إسقاطها إلا فى آخر ضوء يوم ١٠/٣٠ — كما فشل هجوم اللواء المدرع فى منطقة أبو عجيلة وتمكنت القوات المصرية فى هذا القطاع من تكبيده خسائر فادحة .

والملاحظ أن إسرائيل كانت تحاول تنفيذ الخطة المتفق عليها دون أن تتورط فى القتال حتى تطمئن إلى تدخل إنجلترا وفرنسا بصورة فعالة .

التصدى للعـــدوان الإسرائيلى :

وجهت إنجلترا وفرنسا إنذارا إلى مصر مساء يوم ١٠/٣٠ بالتدخل سلماً أو حرباً خلال ١٢ ساعة لحماية قناة السويس من خطر العدوان الإسرائيلى وكان من الطبيعى أن ترفض مصر الإنذار فى نفس الوقت الذى تقوم فيه بمقاومة عدوان إسرائيل ، وهكذا اطمأنت إسرائيل إلى جدية التدخل الأنجلو فرنسى مما دفعها إلى تحريك قواتها الرئيسية فى القطاع الشمالى من سيناء وبدأت تدعم هجماتها فى باقى القطاعات .

وعلى الجانب الآخر كانت مصر ترى أن إنجلترا وفرنسا يمكنهما درء الخطر عن القناة بمنع إسرائيل من الاستمرار في العدوان وليس باحتلال قناة السويس ومهاجمة الجانب المعتدى عليه ولم يكن معروفاً بالطبع أن هناك تواطؤا بين الأطراف الثلاثة .

وتمكنت القوات المصرية خلال ليلة ١٠/٣٠ وطوال نهار ١٠/٣١ من التصدى للهجمات الإسرائيلية فى كافة الاتجاهات وكبدتها خسائر فادحة وأمكن تثبيت القوات المهاجمة أمام دفاعات أم قطف وفى ممر متلا .

المرحــلة الثــانيــة :

بدأ تنفيذ الضربة الجوية الشاملة بعد آخر ضوء يوم ١٠/٣١ ضد المطارات المصرية واتضحت النوايا السيئة بما لا يدع مجالا للشك . وأصبح مؤكدا أن هناك اتفاقاً بين الدول الثلاث على الإيقاع بمصر ، وليس الأمر مجرد حماية الملاحة فى قناة السويس، وكان أول ما تبادر إلى ذهن القيادة المصرية هو تدارك الموقف وإنقاذ الجيش الذى تم استدراجه إلى سيناء قبل أن تطبق عليه القوات المعتدية من الشرق والغرب :

وصدرت أوامر القائد العام بسحب القوات المصرية إلى غرب القناة لدعم الدفاع فى هذا القطاع بعد أن أصبح تدخل الإنجليز والفرنسيين أمرا واقعاً .

وكانت قوات الغزو قد تم إبحارها حسب الخطة المرسومة من مالطة، إلا أن إنجلترا وفرنسا رأتا ضرورة الإسراع بتنفيذ الغزو قبل أن يمنعهما من ذلك تدخل إحدى الدولتين المعظميين .

سحب القــوات المصرية وإخلاء سيناء :

تمكنت القوات المصرية الرئيسية من التخلص من القتال فى سيناء خلال يومى ١ ، ٢ نوفمبر وتركت عناصر محدودة الحجم تقاتل فى مواجهة القوات الإسرائيلية المهاجمة . وقد أصبحت مهمتها أكثر يسراً ، وبالرغم من ذلك فان إسرائيل لم تستأنف القتال إلا بعد أن تأكدت تماماً من خلو هذه المواقع من القوات المصرية ، وتمكنت بنهاية يوم ٣ نوفمبر من احتلال شرم الشيخ ورأس نصرانى ، واختراق ممر متلا والوصول إلى شمال العريش بينما كانت سيناء خالية تماماً قبل نهاية يوم ٢ نوفمبر .

تعديل خطة الغزو واحتلال بور سعيد :

قررت انجلترا وفرنسا البدء فى التدخل عسكرياً فى بور سعيد على وجه السرعة فقامت بتركيز القصف الجوى على المدينة خلال يومى ٢ ، ٣ نوفمبر بصورة عنيفة ثم قامت باسقاط عناصر المظلات فى منطقتى الجميل ، والرسوة — غرب وجنوب بور سعيد ودارت معارك رهيبة بين عناصر المقاومة الشعبية وجنود القوات المسلحة وبين القوات المعادية خلال يوم ٥ نوفمبر وأبيدت موجات كاملة من المظليين .

ووصلت سفن الإنزال إلى ساحل بور سعيد صباح يوم ٦ نوفمبر وقصفت مدافعها شاطئ بور سعيد وبور فؤاد بعنف بالغ ثم قامت بانزال القوات المشتركة حيث تمكنت من احتلال بور سعيد بمهاجمتها من عدة اتجاهات، وبالرغم

من ذلك لم تكف أعمال المقاومة الشعبية عن مهاجمة القوات المعتدية وأمكن الإيقاع بكثير من ضباط وجنود الاحتلال .

المرحـــلة الثـــالثة :

أصدر مجلس الأمن قرارا بوقف إطلاق النار بين الأطراف المتحاربة وذلك فى جلسته يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وقد استجابت إسرائيل للقرار يوم ١٤ نوفمبر بعد أن حققت أهدافها وتمكنت من السيطرة على مضايق تيران ووصلت قواتها إلى غرب المضايق ، بينما استمرت إنجلترا وفرنسا فى تنفيذ خططها والإسراع باحتلال بور سعيد وفى مساء يوم ٥ نوفمبر وجه الاتحاد السوفيتى إنذاراً إلى الأطراف الثلاثة المشتركة فى العدوان ، ومع ذلك لم تكف إنجلترا وفرنسا عن تنفيذ عملية الغزو واستجابتا لقرار وقف إطلاق النار فى نهاية يوم ٦ نوفمبر بعد أن وصلت قواتها المشتركة إلى رأس العش .

لم تحقق إسرائيل أهدافها :

وإذا أخذنا فى اعتبارنا أهداف العدوان الثلاثى نجد أن القوات المعتدية لم تتمكن من تحقيق أهدافها ، فهى — وإن كانت قد حققت نصراً عسكرياً محدودا — لم تتمكن من تدمير القوات المسلحة المصرية فى سيناء كما لم يتم لها احتلال مصر أو تغيير النظام الحاكم فيها .

كما كان لارتداد القوات المصرية إلى غرب القناة وإنقاذ الجزء الأكبر منها يعتبر عملا عسكرياً ناجحاً أثر على سير العملية وعلى نتيجة المعركة فقد أدى ذلك إلى تردد إنجلترا فى الاشتراك إيجابياً فى القتال[1] وكان سبباً من الأسباب التى دعت إلى تغيير خطة الغزو والتعجيل بمهاجمة بور سعيد والاكتفاء بذلك دون تطوير للهجوم واحتلال قناة السويس .

وأيضاً نجـــد النجاح العسكرى المحدود الذى حصلت عليه قوات ثلاث دول متفوقة تفوقاً ساحقاً من خصم محدود الإمكانيات لا يعتبر نصراً عسكرياً خاصة وأنه لم يتجاوز الاستيلاء على قطعة من الأرض لفترة محدودة من الزمن تم بعدها الجلاء عنها بالجهود السياسية .

أهمية الصمود والتشبث بالدفـــاع :

ضربت قوة أبو عجيلة فى هذه الجولة مثلا يحتذى به فى التصدى للهجمات الإسرائيلية وتمكنت من الدفاع عن المحور الأوسط بتشبثها بموقعها حتى بعد صدور أمر الانسحاب وكان من الممكن صد العدوان الإسرائيلى كله نتيجة لهذا الموقف لولا ما استدعته الظروف من سحب للقوات إلى غرب القناة .

---

(١) ورد فى كتاب يوميات سيناء أن انجلترا تراجعت من تنفيذ مهامها فى خطة الغزو مرتين يوم ١٠/٣١ ، يوم ١١/٢ .



استهلت اسرائيل أعمال القتال فى عام ١٩٥٦ باسقاط كتيبة مظلية
فى (صدر الحيطان) على مشارف ممر (ممتلا)



آثار القصف الجوى لدول العدوان الثلاثى
بور سعيد — ١٩٥٦



قوات الطوارىء الدولية ــ بور سعيد ١٩٥٧

الهجمات والتحركات الإسرائيلية تميزت بالحذر والحرص الشديد :

يتبين من تصرفات إسرائيل بصفة عامة وفى كافة الهجمات عدم اندفاع اسرائيل إلا بعد التأكد من خلو المنطقة تماماً من عناصر المقاومة وقد اتضح هذا جليا فى الساعات الأولى عند اندفاع اللواء المظلى ، وفى معارك أبو عجيلة ومتلا والختمية مما يؤكد أن صمود الدفاعات يكون له أثر فعال إزاء تقدم القوات الإسرائيلية :

أهمية التدريب على القتال الليــلى :

يعتبر الليل ستارا لمن لا ستار له وأن الحصول على التفوق الجوى أمر يخضع لكثير من الظروف ، ولذلك كان من الضرورى العمل على الاهتمام بالتدريب على القتال ليــلا ، والتحركات تحت ستار الظلام حتى يمكن تحقيق التفوق على الخصم بوساطة الطيران .

إعطاء الأولوية المطلقة لمهــام العمليات :

مهما كان الموقف السياسى فإن عبور القوات لمواجهة العدوان يجب أن تكون له الأسبقية . ولقد ضاعت ساعات ثمينة عندما تأخر عبور الاحتياطى للقناة ليلة ٢٩ - ٣٠ أكتوبر كما أن ذلك كان سببا فى تعرضها للقصف الجوى فى نهار يوم ٣٠ / ١٠ وكبدها خسائر كبيرة .

مواجهة الحــرب النفسية :

استطاعت القوات المصرية بمعنوياتها المرتفعة أن تتغلب على أسلوب الحرب النفسية الذى اتبعته انجلترا وفرنسا قبل المعركة بأيام وخلال القتال مما أدى إلى تميز عمليات المقاومة بالجدية والفاعلية ، وتمكنت من صد كثير من الهجمات فى بورسعيد بقوات محددة وأسلحة بسيطة .

هذه الاحتمالات غير المتوقعة :

مهما كانت طبيعة الأرض صعبة فى أحد الاتجاهات فلا يجب أن يكون ذلك سببا لإغفال أهميتها . فكثيراً ما يلجأ المهاجمون للهجوم من هذه الاتجاهات ، مهما كبدتهم من مشقة ليحققوا المفاجأة التى تكون ذات تأثير فعال على القوات المدافعة . وقد لجأت اسرائيل مراراً لهذا الأسلوب لأنه يتسم بالمكر ويحقق سلامة قواتها حيث تنفذ منه فى العادة إلى مناطق خالية من القوات أو يتم الدفاع عنها بحجم محدود الدفاعات .

الفصل الرابع

الجولة العربية الإسرائيلية الثـالثة (*)

يونيـــه ١٩٦٧

الظـــروف السائدة قبل الحـــرب :

بدأت اسرائيل فى اعقاب حرب ١٩٥٦ ترسم لنفسها سياسة جديدة تقوم على الاعتماد على القوة الذاتية لهـا ، خاصة بعدما تبين لهـا مدى الحاجة إلى القدرات العسكرية الأجنبية مثلما حدث فى حرب العدوان الثلاثى ، فبدأت تعيد بناء قواتها المسلحة على أسس جديدة تركزت على الاهتمام بالقوات الجوية والمدرعات والقوات الخاصة .

ويمكن القول أن حرب ١٩٦٧ بدأ الإعداد لهـا منذ عام ١٩٦١ حيث وقعت حرب اليمن التى أرادها الاستعمار استنزافاً لمصر وللاسلحة الجديدة التى جلبتها من الاتحاد السوفيتى عوضا عما فقدته فى حرب العدوان الثلاثى كما أن إسرائيل بدأت فى نفس الوقت تهيىء الرأى العام العالمى لتقبل قيامها بشن حرب ضد العرب فقد استغلت الشعارات العدائية التى نادى بها العرب ومؤتمرات القمة التى اجتمع فيها ملوك ورؤساء الدول العربية ، والهجمات الفدائية التى بدأت تتزايد خاصة بعد تشكيل المنظمات الفلسطينية . وأبرزت نفسها بأنها الدولة المغلوبة على أمرها وأن العرب قد تكاثروا عليها حتى أنهم ليكادون يلقون بها فى البحـــر .

وفى عام ١٩٦٦ كانت القوات المسلحة الإسرائيلية قد أصبحت على درجة من الاستعداد تكفل لهـا تحقيق أمانيها ، فبدأت اسرائيل تختلق المنازعات وتثير القلاقل وتشن الهجمات الانتقامية ضد الدول العربية المجاورة لهـا فأثارت مشكلة فى العالم العربى بعزمها على تحويل مجرى نهر الأردن كما أعتدت على سوريا فى نوفمبر ١٩٦٦ وقامت بعدوان آخر فى ٧ ابريل سنة ١٩٦٧ ثم هددت بأنها ستقوم بضرب الفدائيين المتجمعين فى سوريا .

وهكذا ظلت الأحداث تتوالى وشبح الحرب يخيم على المنطقة وأصبح الجو مهيئا لنشوب الحرب فما أن علمت مصر بأن اسرائيل قد بدأت تحشد قواتها على حدود سوريا حتى أعلنت التعبئة العامة بحكم الإتفاقية التى وقعها عبد الناصر مع سوريا وبدأت القوات المصرية المسلحة فى عبور قناة السويس استعداداً للقيام بعمليات قتالية ضد اسرائيل ، ومما زاد من تفاقم الموقف إعلان مصر طلب سحب قوات الطوارىء الدولية وإغلاق مضايق تيران الأمر الذى اعتبرته اسرائيل قرارا بالحرب فبدأت تعلن التعبئة الشاملة لمواجهة المعركة التى أصبحت مؤكدة الوقوع .

(*) وزارة الدفاع – هيئة البحوث العسكرية – المرجع العسكرى : المستوى الأول .

الهـدف من الحـرب :

كان الهدف الرئيسى لإسرائيل هو تثبيت دعائم الدولة والتوسع الإقليمى بالحصول على قطعة جديدة من الأرض تساعد على تحقيق حلم « دولة اسرائيل الكبرى » إلا أن حرب ١٩٦٧ كانت فرصة ترقبها اسرائيل لتحقيق أهداف أخرى إلى جانب الهدف الرئيسى وتمثلت هذه الأهداف فى :

١ — توجيه ضربة عنيفة إلى الدول التى تنادى بالقومية العربية لتغيير نظام الحكم فيها .

٢ — إلحـاق هزيمة عسكرية بالدول المجاورة لها التى تأوى الفدائيين لكى يتوفر لها جو من الهدوء والاستقرار .

٣ — إهمال القضية الفلسطينية وخلق مشاكل أخرى تشغل العرب عن هذه القضية وتهيىء لإسرائيل الفرصة لإيجاد الحل الذى تراه من وجهة نظرها للاجئين الفلسطينيين .

٤ — تحقيق مكاسب اقليمية بما يوفـر :

- مساحة أكبر من الأرض لاستيعاب عدد أكثر من المهاجرين الجدد .
- حدوداً أكثر أمنا بإعتبارها موانع طبيعية بعيدة عن عمق اسرائيل .
- تأمين الملاحة فى خليج العقبة ، وقناة السويس .

٥ — اكتساب ثقة الجبهة الداخلية فى اسرائيل بتحقيق جزء من الأمانى القومية والحصول على مزيد من الموارد الاقتصـادية .

اسـتعداد الجـانبين للقتـال :

القـوات المصرية :

بدأت مصر التعبئة العامة فى ٦٧/٥/١٤ كرد على الحشود الاسرائيلية على حدود سوريا والتى علمت بها مصر من الاتحاد السوفيتى وقد بدأت هذه التحركات بهدف اتخاذ أوضاع الدفاع فى سيناء وبعد تمركزها أعيد توزيعها مرة أخرى عند التفكير فى القيام بعمليات هجومية على اسرائيل كما استلزم الأمر تعبئة مزيد من القوات الاحتياطية .

وعندما بدأت اسرائيل فى حشد قواتها تغير التفكير فى الهجوم وأعادت القوات المصرية تنظيم أوضاعها فى سيناء تبعاً للتحركات الاسرائيلية الأمر الذى استلزم اجراء تحركات كثيرة جداً لكل الوحدات المصرية خلال تلك الفترة فأدى هذا إلى اضعاف قدراتها القتالية وتقليل درجة استعدادها لمواجهة العدو .

وكنتيجة لسرعة تعبئة القوات الاحتياطية المصرية لم تكن هذه الوحدات على درجة من الكفاءة كفاءة فى الاستعداد والتسلح حتى تتمكن من القتال بالكفاءة المطلوبة .

القـوات الإسرائيليـة :

من المعروف أن اسرائيل تحتفظ بقوات عاملة محدودة الحجم بينما تعتبر القوات الاحتياطية هى قوام جيش اسرائيل ، لذلك وضعت نظاما محكما لتعبئة هذه القوات كما تميز الشعب الاسرائيلى بالاستجابة والجدية فى التدريب

دوريا طبقا لنظام تدريب قوات الاحتياط علاوة على سرعة تلبية نداء التعبئة بمجرد صدور الإشارة بذلك ومن هنا تمكنت اسرائيل من تعبئة قواتها المسلحة فى مرحلتين :

المرحلة الأولى : من ١٤ مايو حتى ٢٣ مايو

تم فيها التعبئة الجزئية بحيث تضاعف عدد اللواءات المشاة من ٧ إلى ١٤ كما تمكنت من تعبئة ٤ لواءات مدرعة .

المرحلة الثـانية : من ٢٤ مايو إلى ٣١ مايو

عندما احست اسرائيل بحتمية الحرب قامت باستكمال حشد قواتها الاحتياطية فبلغت فى نهاية هذه المرحلة ٢٤ لواء مشاة ومظلى ، و ٧ لواءات مدرعة .

والجدول التالى يوضح الفرق بين كلا الجانبين ويجب أن نضع فى اعتبارنا أن القوات الاسرائيلية كانت متفوقة بدرجة كبيرة فى التدريب والتسليح .

	القوات المصرية	القوات الإسرائيلية
المشـــاة	٧ فرق + ١٢ لواءا مستقلا	٢٢ لواء
المدرعـــات	فرقة + ٦ لواءات مستقلة	٧ لواءات — ١٠ كتائب دبابات
القوات الجوية[1]	٢٦٤ طائرة مقاتلة وقاذفة ٦٦ طائرة نقل ومواصلات ٢٢ طائرة هليكوبتر ——— ٣٥٢	٣٩٨ طائرة مقاتلة وقاذفة ٧٧ طائرة نقل ومواصلات ٥٦ طائرة هليكوبتر ——— ٥٣١
القوات البحرية[2]	١٠١ قطعة بحرية	٦٣ قطعة بحرية

(١) كان عدد الطائرات الصالحة من المقاتلات والقاذفات فى القوات المصرية ١٦٤ ، وفى اسرائيل ٣٩٠ وبالنسبة للطائرات الصالحة فى النقل والمواصلات كان فى مصر ٦١ طائرة وفى اسرائيل ٧٠ طائرة .

(٢) كان عدد القطع العاطلة فى القوات البحرية المصرية كبيراً

خطط وأوضاع الجانبين :

القوات المصرية :

الخطة الدفاعية المصرية :

وضعت القيادة المصرية خطة دفاعية عن سيناء أطلق عليها اسم « الخطة قاهر » وبنيت فكرة هذه الخطة على ما يلي :

١ — تركيز المجهود للقول الرئيسى للقوات المصرية للدفاع عن سيناء بغرض التشبث بالدفاعات وإنزال أشد الخسائر بالعدو المهاجم مع تحمل بعض الخسائر فى القوات المدافعة .

٢ — قبول تلقى الضربة الأولى والتسليم للعدو بالمبادأة مع التركيز على ضرورة تخفيف آثار هذه الضربة وتقليل الخسائر المترتبة عليها ثم العمل على استعادة المبادأة والتحول للهجوم العام ؛

٣ — وجود عدد من الخطوط الدفاعية تحتلها بعض القوات المخصصة بكامل اسلحتها والبعض الآخر بدفع وحدات فرعية تتمركز فى المناطق الدفاعية . بحيث يمكن احتلال باقى القوة بمجرد رفع درجات الاستعداد .

٤ — تم اجراء تجارب على سرعة إتخاذ أوضاع القتال وتم تدريب القوات على واجب العمليات بناء على هذه الأوضاع الدفاعية .

إلا أنه بعد رفع درجات الاستعداد وعبور القوات المصرية قناة السويس وبدء التفكير فى تغيير خطط العمليات . . أعيد توزيع القوات أكثر من مرة مما ترتب عليه الكثير من التحركات ودخول وحدات إلى مناطق جديدة بالنسبة لها مع ضرورة البدء فى اجراء أعمال الحفر من جديد وقد بدأ القتال ومعظم الوحدات فى أماكن غير التى كانت مخصصة لها فى الخطة « قاهر » ، ولم تكن قد استعدت بعد للحرب ، كما أن بعض هذه الوحدات كانت قائمة بالتحرك فعلا إلى مناطق أخرى جديدة .

صورة القوات المصرية عند بدء القتال :

كانت القوات المصرية يوم ٥ يونيو تتخذ أوضاعا دفاعية داخل سيناء فى خطين رئيسيين :

الخط الأول :

يمتد على طول الحدود الشرقية بين مصر وإسرائيل من الكونتيلا إلى القسيمة ، وأبو عجيلة وحتى رفح والشيخ زويد .

الخط الثانى :

يمتد إلى الغرب من الخط الأول وتحتل الوحدات المصرية مناطق دفاعية فى نخل ، ومظلة خرم ، والحسنة ، وجبل لبنى . . كما كانت هناك قوات رمزية على الجانب الشرقى للمضايق عند متلا ، والجدى ، والجفجافة ، ومصفق ؛

القوات الاسرائيلية :

خطة اسرائيل للهجـــوم : (ضربة هجومية صهيون) :

هـــدف الخطـــة :

استهدفت الخطة الإسرائيلية احتلال سيناء وتدمير الجيش المصرى فيها والسيطرة على مدخل خليج العقبة لتأمين الملاحة الإسرائيلية فى البحر الأحمر .

فـــكرة الخطـــة :

تم إعداد الخطة على أساس أن تنفذ على ثلاث مراحل متتالية هى :

• المرحلة الأولى :

يتم فيها توجيه ضربة شاملة على المطارات والقواعد المصرية ثم القيام باختراق سريع للدفاعات المصرية على الخط العـــام .

العريش ، بير لحفن — جبل لبنى — شرق الحسنة .

• المرحلة الثـــانية :

تطوير الهجوم نحو الغرب والاستيلاء على خط المضايق لمنع القوات المصرية من الانسحاب غربا أو وصول تعزيزات إليها من منطقة القناة :

• المرحلة الثـــالثة :

يتم فيها القضاء على القوات المصرية المحصورة فى قلب سيناء بواسطة القوات البرية والجوية الاسرائيلية .

أوضاع القوات الاسرائيلية قبل بدء القتال :

قامت اسرائيل بحشد قواتها الرئيسية فى القطاع الشمالى والأوسط فأعدت ثلاث مجموعات عمليات بحيث يتم هجوم المجموعة الأولى على المحور الساحلى والمجموعة الثالثة على المحور الأوسط وتكون المجموعة الثانية بين المجموعتين الأولى والثـــالثة ؛

كما وضعت اسرائيل بعض الوحدات من المشاة والمدرعات فى مواجهة قطاع غزة وفى القطاع الجنوبى لتهديد القوات المصرية فى هذا القطاع والاستعداد للقيام بالهجوم على محور خليج العقبة جنوبا .

وكذلك قامت اسرائيل ببعض التحركات والأعمال الخداعية بحيث اقنعت القيادة المصرية أن هجومها الرئيسى سيكون على المحور الجنوبى وقد حققت هذه الأعمال هدفها بحيث ركزت مصر دفاعاتها تبعاً لذلك على المحور الجنوبى.

سـير العمليـات القتـالية :

• بدء القتـال :

بينما كان قادة الوحدات فى سيناء مجتمعين فى مطار المليز ليكونوا فى استقبال نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية . . بدأت اسرائيل ضربتها الجوية المركزة على المطارات المصرية بما فيها مطار المليز وتمكنت خلال هذه الضربة من تدمير معظم الطائرات المصرية وهى رابضة على الأرض ، وبذلك كفلت لقواتها البرية العمل فى حرية وأمان خلال الأيام التالية بينما كان على القوات البرية المصرية أن تقاتل فى أشد الظروف صعوبة وفى ظل السيطرة الجوية الكاملة لاسرائيل على أرض سـيناء .

• القتـال على خـط الدفاع الأول :

تقدمت اسرائيل على ثلاث مجموعات فى القطاع الشمالى والأوسط من سيناء وتمكنت المجموعة الأولى خلال يوم ٥ يونيو من اختراق الدفاعات المصرية على المحور الساحلى والوصول إلى العريش بينما وصلت المجموعة الثانية إلى جنوب العريش فى نفس اليوم أما المجموعة الثالثة فقد توقفت أمام دفاعات أبو عجيلة حتى صباح اليوم التالى .

وقد دفعت القيادة المصرية مجموعة هجوم مضاد لاسترداد العريش ولكنها لم تتمكن من الوصول إليها حيث تورطت فى القتال مع قوات المجموعة الوسطى الاسرائيلية عند بير لحفن جنوب العريش ليلة ٥-٦ يونيو .

ونجحت قوات المجموعة الثالثة الإسرائيلية فى اختراق دفاعات أبو عجيلة صباح يوم ٦ بينما قامت القيادة المصرية بدفع اللواء ٤ مدرع فى هجوم مضاد لاسترداد أبو عجيلة إلا أنه توقف نتيجة للقصف الجوى المركز خلال يوم ٦ يونيـو .

ولم تتمكن باقى القوات الاسرائيلية التى كانت فى مواجهة الدفاعات المصرية فى الجنوب عند الكونتيلا من تحقيق أى نجاح حيث كانت هذه الدفاعات متماسكة ونتيجة لاختراق الدفاعات المصرية فى المحورين الشمالى والأوسط ، ولعدم نجاح الهجمات المضادة بسبب سيطرة الطائرات الاسرائيلية على سماء سيناء أصدرت القيادة المصرية أمراً للقوات المتبقية على خط الدفاع الأول بالانتقال إلى خط الدفاع الثانى فى نهاية يوم ٦ يونيو .

• القتـال على خـط الدفاع الثـانى :

وقد تمكنت القوات الاسرائيلية التى نجحت فى اختراق الدفاعات المصرية فى المحور الشمالى والأوسط من سيناء — من التقدم بعد ظهر يوم ٦ يونيو إلى منطقة جبل لبنى حيث تعرضت لهـا القوات المصرية على الخط الدفاعى الثانى وتمكن اللواء ١٤ مدرع من التصدى لهذه المجموعات واشتبك فى معارك عنيفة مع الدبابات الاسرائيلية وتمكن من تدمير ٤٠ دبابة معادية ونجح فى إيقاف تقدم القوات الاسرائيلية على هذا المحور حتى صباح اليوم التالى . ولم تتمكن القيادة المصرية من دفع الاحتياطى العام (الفرقة الرابعة المدرعة) لاستعادة الموقف خوفاً من القصف الجوى ، وكانت طلائع القوات الاسرائيلية تحاول التقدم بسرعة لتصل إلى المضايق حتى يمكنها احكام الحصار على القوات المصرية فى سيناء فأصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قراراً بالإرتداد العام إلى غرب قناة السويس وذلك (سعت ١٧٠٠) يوم ٦ يونيو بينما كانت الوحدات يجرى انتقالها إلى الخط الدفاعى الثانى ، بل ان بعضها لم يكن قد بدأ التحرك بعد ، والبعض الآخر كان يقاتل فى مواجهة القوات المهاجمة .

• الارتداد العــام إلى غرب القنــاة :

أصدرت القيادة المصرية أوامرها بتنفيذ الارتداد إلى غرب القناة خلال ليلة ٦-٧ يونيو ولم تكن هذه الأوامر قد وصلت إلى القوات المتمركزة جنوب جبل خرم (قوات الستارة) فتقرر أن تقوم هذه القوات بستر ارتداد بقية الوحدات – كما كلفت الفرقة الرابعة المدرعة باحتلال خط المضايق لتمكن تأمين عملية الارتداد . فعادت وحدات الفرقة الرابعة مرة أخرى لإتخاذ أوضاعها شرق المضايق بعد أن كان بعض وحداتها الفرعية قد وصلت إلى غرب القنــاة .

وقد انتهزت القوات الاسرائيلية هذه الفرصة الثمينة وضاعفت من جهودها للوصول إلى خط المضايق حتى تمنع القوات المصرية من الارتداد واختلطت الارتال على الطرق المختلفة وكانت خسائر مصر من عملية الارتداد أضعاف خسائرها فى القتــال :

وتمكنت معظم الوحدات المصرية من تدمير معداتها الثقيلة وذخائرها التى لم تتمكن من اصطحابها (بسبب تعليمات القيادة المصرية) والوصول إلى قناة السويس فى نهاية يوم ٧ يونيو ، بينما دارت عدة اشتباكات تعطيلية على المحاور المختلفة خلال يومى ٨ ، ٩ إلا أنها لم تكن مؤثرة بالقدر الكافى .

• السيطرة على القــوات غرب القناة :

قامت القيادة الشرقية بالسيطرة على القوات المرتدة وتم تشكيل معسكرات لتجميع العائدين كما تم نسف المعابر بعد عبور القوات المصرية وقسمت الضفة الغربية إلى قطاعات دفاعية من بور سعيد شمالا حتى الشط والسويس جنوبا وتم احتلالها ببعض العناصر المتماسكة ثم دعمت بعد ذلك بوحدات أخرى وأمكن تقوية الدفاعات على الضفة الغربية فى مواجهة القوات الاسرائيلية التى تمكنت من الوصول إلى الضفة الشرقية فى نهاية يوم ٩ يونيو .

• مدى نجــاح اسرائيل فى معركة يونيو ١٩٦٧ :

تعتبر هذه الجولة بالنسبة لاسرائيل هى قمة النجاح فقد حققت جميع أهدافها فى مختلف النواحى العسكرية والسياسية والاقتصادية ويمكن حصر هذه النتائج فى :

(أ) إيقاع الهزيمة بالدول المجاورة بحيث يصعب على هذه الدول استعادة نشاطها مرة أخرى قبل وقت طويل .

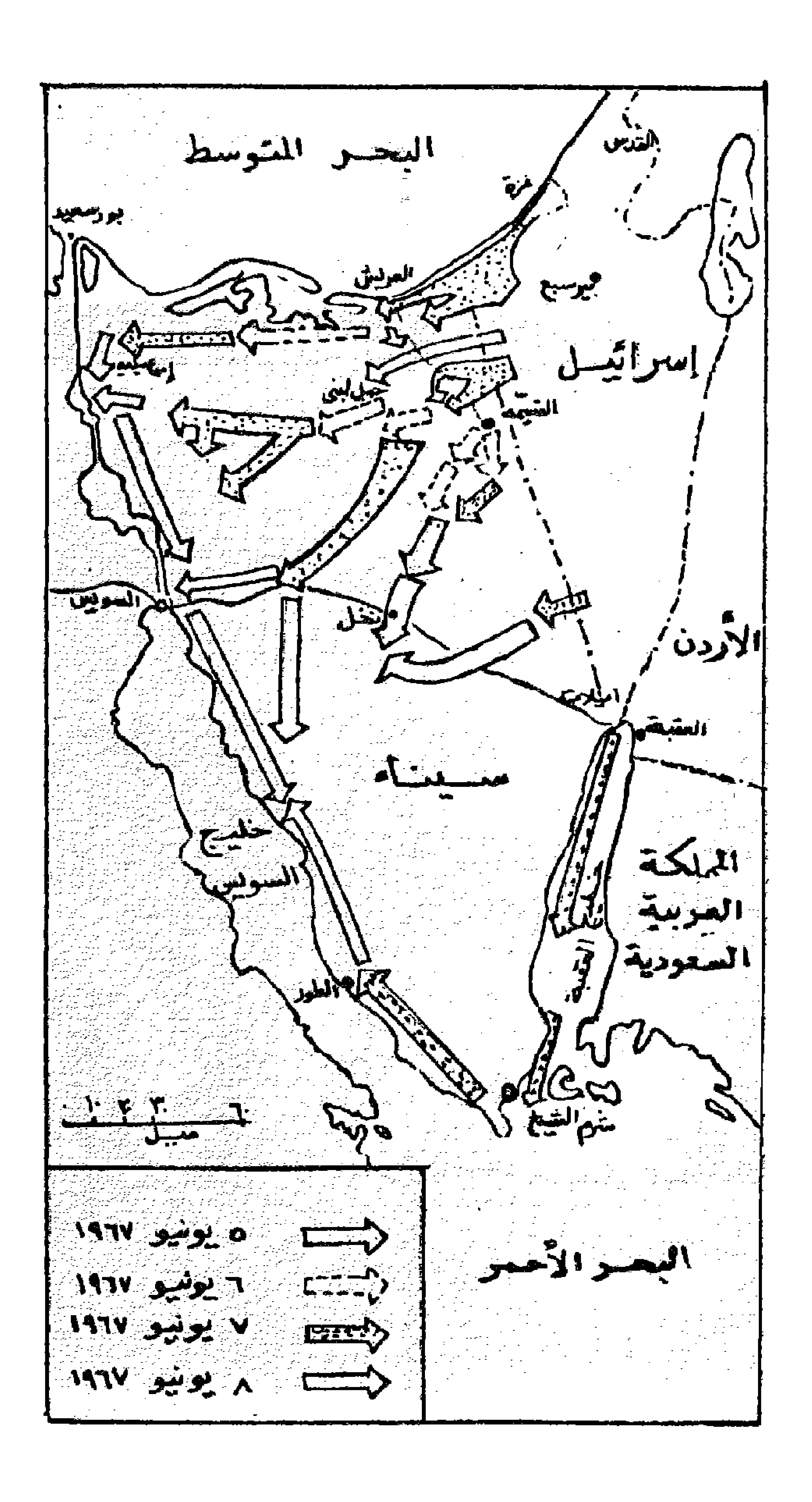
(ب) الوصول إلى مواقع طبيعية (قناة السويس ، ومرتفعات الجولان) يمكن اعتبارها حدوداً أكثر أمنا لإسرائيل .

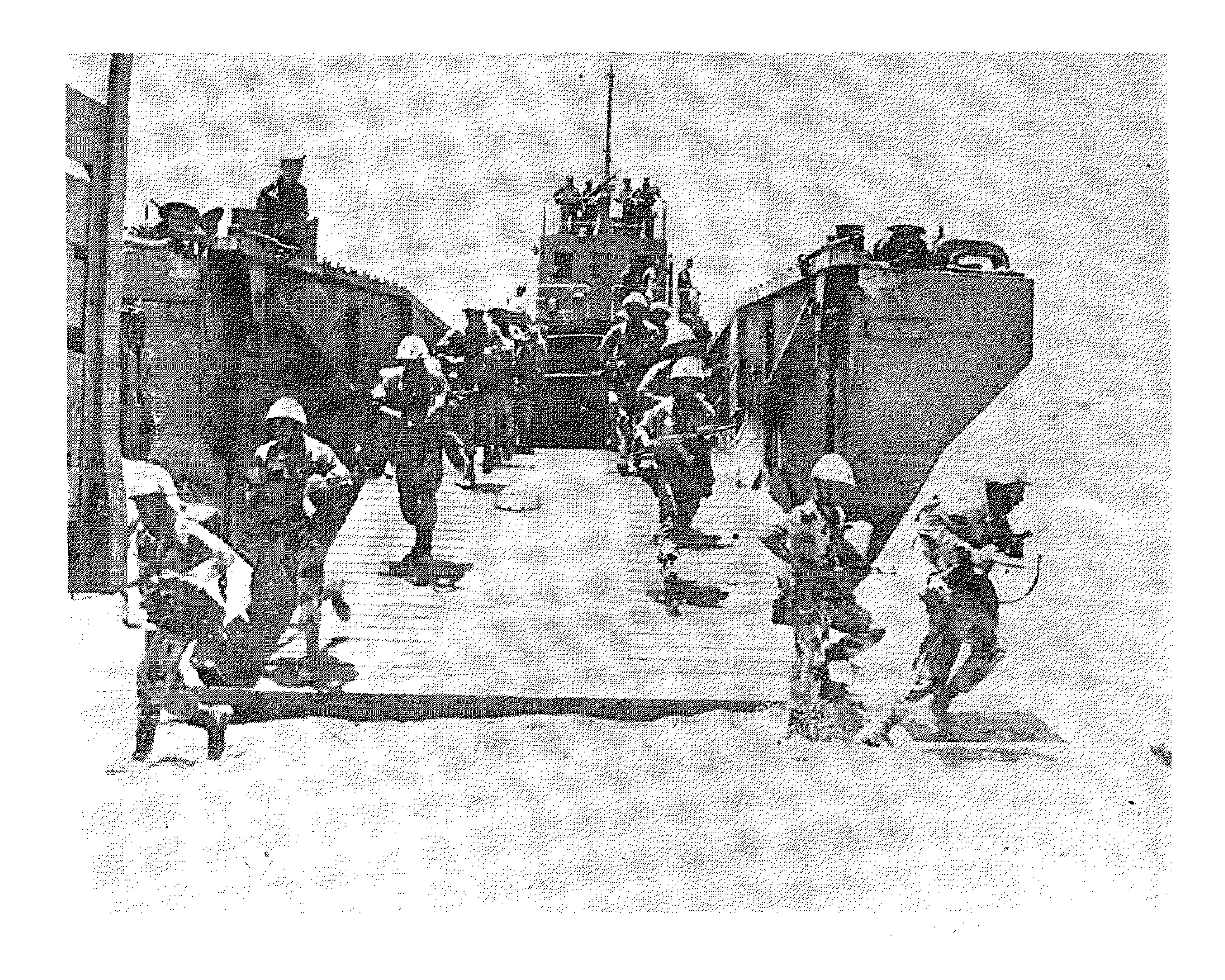
(ج) اكتساب مساحات كبيرة من الأراضى يمكن إقامة مستعمرات جديدة عليها لإستيعاب عدد أكبر من المهاجرين :

(د) تحقيق الهدوء والاستقرار بالتخلص من متاعب الأعمال الفدائية – التى كانت تعانى منها اسرائيل بما يضمن ازدياد معدلات هجرة اليهود إليهــا .

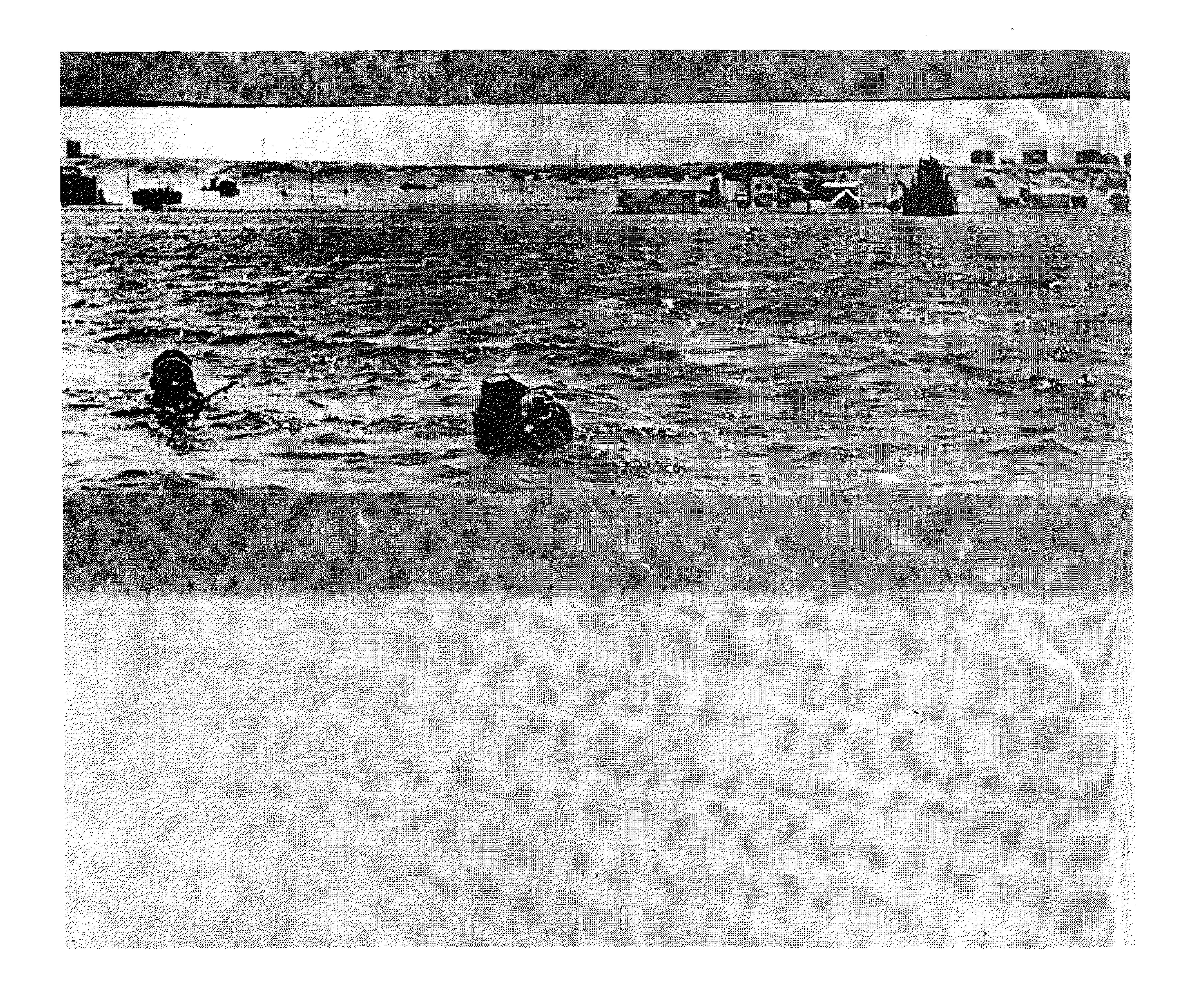
(هـ) السيطرة على خليج العقبة وتأمين الملاحة الإسرائيلية فى البحر الأحمر .

(و) الحصول على كمية كبيرة من الاسلحة والغنائم ، وتحقيق مكاسب اقتصادية باستغلال الثروات السكانية فى الأراضى المختلفة من بترول وذهب ومعادن .


البحر المتوسط
القدس
غزة
بورسعيد
العريش
بيرسبع
إسرائيل
جبل لبنى
القسيمة
السويس
نخل
الأردن
العقبة
سيناء
خليج السويس
المملكة العربية السعودية
خليج العقبة
الطور
شرم الشيخ
ميل
٥ يونيو ١٩٦٧
٦ يونيو ١٩٦٧
٧ يونيو ١٩٦٧
٨ يونيو ١٩٦٧
البحر الأحمر



انزال جنود المشاة المصريين فى شرم الشيخ بعد انسحاب قوات الطوارىء الدولية ـــ مايو ١٩٦٧



قوات الضفادع البشرية المصرية فى ميـــاه شرم الشــيخ
بعد انسحاب قوات الطوارىء الدولية (مايو ١٩٦٧)



فى ١٤ يونيه ١٩٦٧ قام السلاح الجوى المصرى بمهاجمة القوات الاسرائيلية شرقى القنـــاة

• عوامل النجـــــاح وأسباب الفشــل :

لا شك أن اسرائيل تميزت فى هذه الجولة بكثير من المميزات التى ساعدتها على كسب المعركة إلا أن أهم العوامل التى مكنتها من تحقيق النصر هى نفسها أسباب الفشل فى الجانب العربى وهى التى هيأت افضل الفرص لاسرائيل كى تحصل على نصر لم تكن تحلم به .

وأهم هــــذه العوامل هى :

(أ) تعاطف الصهيونية العالمية وتفكك العرب .

(ب) تميزت اسرائيل بالجدية فى كافة قراراتها وتصرفاتها بينما كانت مصر تنادى بالحرب وهى غير جاهزة فعلا للقتال .

(ج) كفاءة نظام التعبئة فى اسرائيل على حين لم يكن فى مصر أسلوب منظم لتدريب الاحتياط دورياً أو لاستدعائهم وتوزيعهم على التشكيلات المقاتلة بما يتناسب مع تخصصاتهم .

(د) صدور قرار الانسحاب من سيناء بدون تنظيم أو سيطرة أدى إلى زيادة نسبة الخسائر بين القوات المصرية وسهل إلى حد كبير مهمة القوات الاسرائيلية .

(هـ) ضعف مستوى القيادة المصرية وترددها فى كافة قراراتها .

الدروس المستفادة من جولة ١٩٦٧ :

بالرغم من أن هناك أسبابا كثيرة كانت السبب فى خسارة هذه الجولة وكلها ترجع إلى سوء القيادة إلا أنه يمكن استنباط بعض الدروس التى نشأت من اخطاء وتصرفات لمستويات أخرى دون مستوى القيادة ومنها .

• ضعف مستوى الضبط والربط :

تبين هذا جليا خلال القتال وكان له أثر بالغ على صمود القوات المصرية فى يومى ٥ و ٦ قبل إصدار قرار الارتداد ، ويرجع السبب فى انهيار الضبط والربط إلى ظروف حرب اليمن التى كانت القوات المصرية لا تزال متورطة فيها .

• ضعف مستوى التجهيز الهندسى :

نظراً لتمكن اسرائيل من السيطرة الجوية فقد برزت أهمية أعمال الحفر والتجهيز الهندسى ، فلم تتحقق للقوات المصرية أية درجة من درجات الوقاية تجاه القصف الجوى ، ولو أن بعض القوات لم تتوفر لديها الفرصة لإتمام التجهيز الهندسى إلا أن كثيراً من الوحدات كان فى نفس المناطق التى تخصصت فى الخطة « قاهر » ومع ذلك لم تكن أعمال الحفر كما ينبغى مما ضاعف من تأثير الهجمات الجوية ونيران المدفعية الاسرائيلية .

• ضعف معلومات الاســـتطلاع :

نتيجة للاختلاط بين الوحدات المقاتلة خلال العمليات أخطأ كثير من الضباط والجنود فى تمييز الاسلحة الإسرائيلية عن المصرية مما أدى إلى إصابة بعض قواتنا أحيانا بنيران اسلحتنا ، كما تعرض كثير من الوحدات لمفاجأة العدو له نتيجة لعدم القدرة على تمييز أسلحة العدو وضعف معلومات الاستطلاع .

الفصل الخامس

الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة (*)

اكتوبر ١٩٧٣-

بوادر الرفض

عندما انقشع غبار حرب الأيام الستة ، أعلن قادة إسرائيل أن تلك الحرب قد أنهت جميع الحروب بين العرب وإسرائيل ، ذلك أن الجيش الإسرائيلي – الذى لا يقهر – قد حسم الموقف تماماً ولعشرات السنين بينما أعلن موشى ديان فارس هذه الحرب عن رقم تليفونه بتل أبيب لمن يريد من الزعماء العرب طلب الاستسلام . فى الوقت الذى عم فيه الفرح والنشوة الشارع الإسرائيلى ، الذى فوجئ بحجم الانتصار الساحق لجيش الدفاع على الجبهات العربية الثلاث .

على الجانب الآخر كانت الصدمة قاسية ومريرة ، لقد صبغ الحزن كل الوجوه .. وأصيبت القلوب بطعنات نافذة .. ووسط هذ الكم المخيف من اليأس انطلقت الإرادة المصرية لتعلن رفضها للهزيمة وتصميمها على إزالة آثار العدوان مهما كانت التضحيات .. كان إيمان الجميع أنها كبوة لفرسان ظلموا فى حرب لم يتح لهم فيها النزال المتكافئ ، فى حلبة الصراع ، فكانوا أحد ضحايا النكسة خلال تلك الحرب ولم يكونوا أبداً أحد أسبابها .

تلك شهادة التاريخ التى سجلها إنصافاً للرجال . .

وبعد أيام معدودة لم تتعد العشرين يوماً كانت البداية .. وكانت الخطوات الأولى على الطريق .. طريق التحرير قبل أن تندلع الشرارة بأكثر من ست سنوات .

- **الزمان :** الأول من يوليو ١٩٦٧
- **المكان :** موقع صغير على رمال سيناء فى منطقة رأس العش يضم ثلاثين مقاتلا من رجال الصاعقة المصرية .
- **الأحداث :** قوة مدرعة إسرائيلية تتقدم صوب موقع الرجال فى محاولة لإكمال السيطرة على الضفة الشرقية للقناة .. يتصدى الرجال للقوة المعادية فى معركة شرسة كانت نتائجها بمثابة صدمة كهربائية للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية .. فى نفس الوقت الذى كانت فيه نقطة تحول هامة وعلامة بارزة لإرادة الصمود المصرى .. وفى اليوم التالى حاولت القوات الإسرائيلية التقدم مرة ثانية ، وكانت النتيجة مزيداً من الخسائر فى المعدات والأرواح . . وباءت كل محاولاتها بالفشل الذريع .

(*) العقيد / محمد صبرى الشربينى .

وفى يوم ٨ يوليو — أى بعد اسبوع من معارك رأس العش — حاولت قوة إسرائيلية التقدم من جنوب بورفؤاد وفشلت المحاولة بعد مقاومة عنيفة وشجاعة فريدة للمقاتلين المصريين — وكانت ضراوة هذه المعارك وشراسة القتال خلالها وحجم الخسائر التى تكبدتها القوات الإسرائيلية كافية بعدم تكرار محاولاتها تلك لمدة ست سنوات تالية حتى اندلعت الشرارة ظهر ذلك اليوم المجيد — .. السادس من اكتوبر ١٩٧٣ .

وكانت معارك رأس العش بداية مرحلة الصمود التى امتدت حتى سبتمبر ١٩٦٨ خلال هذه الفترة — يونيو ٦٧ .. سبتمبر ٦٨ — شهدت جبهة القتال أحداثا لها دلالاتها .. فى الرابع عشر من يوليو ١٩٦٧ ، انطلق نسورنا إلى سماء سيناء الأسيرة ببضع طائرات كانت هى البقية الباقية من طائرات قواتنا الجوية التى دمرت على الأرض يوم الخامس من يونيو ، يقصفون بعنف قوات العدو المدرعة والميكانيكية ومدفعياته فى عمق سيناء .. وحينما تصدت لهم طائرات العدو دارت معارك جوية ضارية أثبت فيها نسورنا شجاعة وكفاءة أذهلت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية . يومها سجلت وكالات الأنباء العالمية التى كانت منتشرة فى سيناء ترصد انتصارات إسرائيل فى حرب الأيام الستة .. الذعر والهلع اللذين أصابا الجنود والقادة الإسرائيليين الذين تركوا مواقعهم وأسلحتهم وفروا مذعورين من شراسة القصف الجوى المصرى .

وتتوالى الأيام ، وتزداد التراشقات بالأسلحة الصغيرة والمدفعية بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية ، وتزداد حدة هذه التراشقات خلال شهر سبتمبر ١٩٦٧ ، وترتفع معدلات خسائر إسرائيل فى الأفراد والمعدات مما حدا بها إلى توجيه ضرباتها إلى مدن القناة بواسطة مدفعياتها الثقيلة حيث استشهد عدد كبير من مواطنى هذه المدن ..

ويجئ يوم الحادى والعشرون من اكتوبر ١٩٦٧ ، وتسجل البحرية المصرية حدثاً فريداً فى تاريخ الحروب البحرية على المستوى العالمى .. عندما تقدمت المدمرة الإسرائيلية « إيلات » فى غرور وصلف إلى مياهنا الإقليمية أمام مدينة بورسعيد .. وانطلقت لنشاتنا الصاروخية تسبقها إرادة الرجال لتطلق صواريخها بحر ـ بحر لأول مرة فى الحروب البحرية لتسكن المدمرة « إيلات » التى تمثل نصف القوة البحرية الإسرائيلية ، تسكنها قاع البحر ، ومعها غرقت آمال المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وغطرستها ودعايتها عن جيش إسرائيل الذى لا يقهر بعد أن بلغت خسائرها فى الأفراد فقط ٣٠٠ جندى وضابط .

وفى صباح الثالث والعشرين من اكتوبر ١٩٦٧ ، ردت إسرائيل على إغراق مدمرتها « إيلات » بقصف معامل تكرير البترول فى السويس وعلى الأهالى المدنيين فى مدن القناة .

وصدر قرار مصرى كان له أكثر من معنى ودلالة ..

القرار « إخلاء منطقة القناة من سكانها المدنيين » .

قرار خطير اتخذته القيادة السياسية .. وكان يعنى بوضوح اننا ماضون على الطريق لتحرير الأرض بقوة السلاح . رافضين أن تكون أهالينا فى مدن القناة رهينة تحت رحمة القوات الإسرائيلية أو عقبة أمام حرية قواتنا فى الاشتباك مع العدو .

الأيام تتوالى .. والتراشقات بالنيران مع العدو مستمرة . . لكن القيادة المصرية تتبع أسلوب ضبط النفس حتى تتاح لها فرصة لإعادة بناء القوات المسلحة تنظيماً وتسليحاً وتدريباً .. ومع اقتراب عام ١٩٦٨ ، كانت القوات المصرية قد أصبحت قادرة على الانتقال من مرحلة الصمود فى مواجهة العدوان الإسرائيلى إلى مرحلة .. الردع ..

فى الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٦٨ استهلت قواتنا مرحلة الردع التى استمرت حتى مارس ١٩٦٩ ، استهلتها بأعمال تعرضية لمنع قوات العدو من تقوية دفاعاتها على الضفة الشرقية للقناة .

وكانت معركة المدافع الشهيرة يوم ٨ سبتمبر ١٩٦٨ بداية تلك المرحلة ، حيث بدأت قواتنا بقصف قوات العدو على الضفة الشرقية للقناة وعلى طول المواجهة فى وقت واحد ، مكبدة العدو خسائر فادحة فى الأفراد والمعدات .

وسجلت يوم ٢٦ اكتوبر ٦٨ حدثاً ذات دلالة هامة ، حيث عبرت دورية مصرية إلى الضفة الغربية للقناة تحت ساتر من القصف المدفعى العنيف لقواتنا ، وعادت بأسيرين من جنود العدو تحت ستر الظلام .

وردت إسرائيل بإغارة على نجع حمادى ليلة ٣١ اكتوبر-١ نوفمبر حيث تمكنت قوة من أفراد الكوماندوز الإسرائيليين تحملهم طائرات الهليكوبتر بوضع عبوات ناسفة فى محطة محولات نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا ..

وبدأت المواجهة على جبهة القتال تتصاعد يوماً بعد يوم . وتدخل الطيران الإسرائيلى بصورة فعالة بعد أن زادت المدفعية المصرية من قصفاتها المستمرة ضد المواقع الإسرائيلية ، وقبل نهاية عام ١٩٦٨ كانت طائراتنا قد بدأت تحد من نشاط إسرائيل الجوى على امتداد جبهة القتال .

ويجئ يوم الثامن من مارس ١٩٦٩ ليعلن بداية مرحلة الاستنزاف ضد القوات الإسرائيلية شرق القناة .. حيث تطورت الاشتباكات وتصاعدت حدتها ، كما زادت دوريات العبور إلى الضفة الشرقية للقناة ، وفرضت قواتنا حرباً طويلة الأمد على القوات الإسرائيلية لاستنزاف مواردها وقوتها البشرية بعد ارتفاع معدلات خسائرها فى الأفراد والمعدات . .

فى يوم ٨ مارس ١٩٦٩ قصفت المدفعية المصرية قوات العدو على طول المواجهة وبتركيز شديد لمدة خمس ساعات كاملة .. واستمر القصف يوم التاسع من مارس دون انقطاع حتى تحطم أكثر من ٨٠٪ من تحصينات وقلاع خط بارليف ، ومنى العدو يومها بأضخم خسائر عرفها بين ضباطه وجنوده .. يومها استشهد الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة بين ضباطه وجنوده فى الخطوط الأمامية ضارباً أروع صور البطولة والفداء وهو يتابع عن كثب تنفيذ الخطة المصرية المحكمة لتدمير خط بارليف ..

وتابعت قواتنا خططها لاستنزاف العدو ، فكانت عمليات العبور والإغارة على العدو شرق القناة ليلا ونهاراً . تدمر معداته ، وتقتل وتأسر أفراده ، وأصبحت عمليات العبور ليلا أملا يراود كل ضابط وجندى ، بل أصبحت هذه المهام وساماً يعلق له شارة على صدور الرجال .

وبدأت جماعات العبور تأخذ أحجاماً أكبر حتى وصلت إلى سرية بل استطاعت كتيبة كاملة أن تعبر القناة إلى الضفة الشرقية وتتمسك بمواقعها وترفع عليها اعلام مصر ..

وكان أهم حصاد عمليات العبور كالآتى :

- الإغارة على النقط القوية جنوب البحيرات ليلة ٢١-٢٢ ابريل ١٩٦٩ وتم فيها قتل ٦ أفراد للعدو والعودة بأسير .
- الإغارة على النقطة القوية ١٤٦ على الضفة الشرقية للقناة ليلة ٢٣-٢٤ يونيو ١٩٦٩ حيث تم تدمير عدد من عربات العدو وقتل حوالى ٥ أفراد له .
- الإغارة على قوات العدو بمعسكر القرش شرق القناة يوم ١٠ يوليو ٦٩ وتم تدمير جميع دشم الأسلحة بالمواقع .
- الإغارة على النقطة القوية المعادية فى لسان بور توفيق يوم ١٠ يوليو ٦٩ ، حيث أمكن تدمير عدد من الملاجئ والدبابات وقتل للعدو ما يقرب من ٤٠ فرداً والعودة بأسير .
- يوم ٥ نوفمبر ٦٩ نصبت قواتنا كميناً لقوات العدو بالشط فى سيناء ودمرت عربتين للعدو وقتل ٨ من جنوده وأسر أحد الجنود .
- كمين آخر تم ليلة ٥/٦ نوفمبر بمنطقة الشط حيث تم فيه قطع طريق الجباسات وأمكن تدمير دبابة إسرائيلية .
- وشهدت منطقة جسر الحرش على الضفة الشرقية للقناة كميناً جريئاً تم فيه التعرض لدورية إسرائيلية حيث دمرت دبابتان للعدو وقتل له ١٨ فرداً .
- وبدأت قواتنا البحرية تدخل حلبة الصراع ، حيث قامت وحداتنا البحرية يوم ٩ نوفمبر ٦٩ بقصف مواقع العدو فى مناطق رمانة وبالوظة على الساحل الشمالى بسيناء ومنى العدو بخسائر ضخمة من جراء ذلك كما قامت الضفادع البشرية بهجوم جرئ على ميناء « إيلات » الإسرائيلى يوم ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ وتمكنت من إغراق ٣ قطع بحرية للعدو .
- وخلال يوم ٢٩ نوفمبر ٦٩ قامت قواتنا بإغارة على النقطة القوية المعادية ١٤٦ للمرة الثانية ، حيث تم تدمير عدد من الملاجئ والدبابات والعربات للعدو وبلغت خسائره فى الأفراد ٤٠ فرداً بين قتيل وجريح .
- وفى ١٤ ديسمبر ٦٩ شهدت منطقة سرابيوم شرق القناة كميناً تم فيه تدمير عربة معادية وقتل فردين وأسر ضابط .
- كما قامت قواتنا البحرية فى السابع والعشرين من يناير ١٩٧٠ بقصف مستعمرة ناحال ديكلا فى الشيخ زويد شرق العريش حيث دمر العديد من المبانى وقتل حوالى ٢٢ فرداً للعدو . وكان لهذا القصف أثره البالغ فى إشاعة الفوضى والرعب لقوات العدو بالمنطقة .
- وفى ٥ فبراير ١٩٧٠ قامت قواتنا بعمل كمين لقوات العدو على طريق القنطرة – التينة على الضفة الشرقية للقناة حيث تم تدمير ثلاث دبابات وثلاث عربات للعدو .
- وشهد ميناء « إيلات » الإسرائيلى للمرة الثانية هجوماً جريئاً لمجموعة من ضفادعنا البشرية يوم السادس من فبراير ١٩٧٠ ، دمر للعدو سفينتان وأصيبت سفينة ثالثة .

• كما شهدت النقطة شمالى موقع الشط كميناً يوم ١١ فبراير ١٩٦٠ تم فيه تدمير عربة لورى محملة بالجنود الإسرائيليين ودبابة وعربتين مدرعتين :

• وفى ٢٦ مارس ١٩٧٠ ، اقامت مجموعة من رجالنا كميناً على طريق القنطرة الشط ، وتمكنوا من قطع الطريق وتدمير لورى وعربة مجنزرة وقتل للعدو حوالى ١٥ فرداً .

• وفى منطقة رأس العش تم عمل كمين للعدو يوم ٣٠ مايو ١٩٧٠ ، حيث هوجمت دورية إسرائيلية ودمرت ثلاث دبابات معادية وعربتان مجنزرتان وقتل ٣٠ جنديا إسرائيليا .

— وفى نفس اليوم وفى منطقة التينة على الضفة الشرقية للقناة قامت مجموعة أخرى من رجالنا بعمل كمين للعدو دمر خلاله دبابة وعربة مدرعة وقتل ٦ أفراد إسرائيليين وأسر جندى آخر ..

وفى الوقت الذى كانت قواتنا تنفذ فيه مخططاً دقيقاً لاستنزاف العدو على طول المواجهة ، حاولت القوات الإسرائيلية أن تقوم بعمليات خاطفة على بعض مواقعنا المنعزلة فى الجزيرة الخضراء وساحل خليج السويس وجزيرة شدوان .. وتحطمت كل هذه المحاولات على صخرة الإرادة الصلبة للمقاتل المصرى .. ودفع خلالها العدو ثمناً باهظاً لمحاولاته من الرجال والمعدات والأسلحة .

أيضاً بدأت قواتنا الجوية مهامها المخطط لها بكل دقة .. ودخل نسورنا فى معارك جوية شرسة مع الطيران الإسرائيلى .. وأصبح هبوط الطيارين الإسرائيليين بالمظلة بعد إصابة طائراتهم مناظر مألوفة لرجالنا على امتداد الجبهة . .

ويوماً بعد يوم .. بدأت شبكة الصواريخ المصرية تشكل حائطاً صلباً فى مواجهة الطائرات الإسرائيلية ، بعد أن فشلت فى محاولاتها المحمومة لعرقلة بنائها .. ومعها بدأت معارك استنزاف الطائرات الإسرائيلية .. وشهد شهر يوليو ١٩٧٠ تحطيم ٢١ طائرة إسرائيلية ..

وبدأت القيادة الاسرائيلية تعترف .. لقد خلقت حرب الاستنزاف موقفاً جديداً تماماً ..

وأدركت أمريكا حجم الكارثة التى باتت تنتظر إسرائيل .. فكانت مبادرة روجرز ووقف إطلاق النار الذى بدأ فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ .

وصمتت المدافع .. واشتعلت جبهة القتال بنوع جديد .. الإعداد والاستعداد لمعركة التحرير الكبرى .

فى انتظار ساعة الصفر :

عندما صمتت المدافع بعد مرحلة الاستنزاف .. كان هناك تساؤل ملح أمام القيادة المصرية : ما هى الخطوة التالية ؟

كانت كل الشواهد تؤكد أن العدو الإسرائيلى ما زال غير قادر على استيعاب الحقائق التى أكدتها الأحداث خلال المراحل المتوالية :

- مرحلة الصمود من يونيو ٦٧ وحتى أغسطس ٦٨
- مرحلة الردع أو الدفاع النشط من سبتمبر ٦٨ وحتى فبراير ٦٩
- مرحلة الاستنزاف من مارس ٦٩ وحتى اغسطس ٧٠

ومن وجهة النظر المصرية كانت هذه المراحل قد حققت أهدافها تماماً وفى مقدمتها استنزاف قوة العدو مادياً وبشرياً ومعنوياً ، وعدم إعطائه الفرصة للعيش هانئا على الأرض التى احتلها غداة حرب الأيام الستة .. كما كانت هذه المراحل تدريباً واقعياً راقياً على القتال فى مسارح العصابات المختلفة وأخيراً وهو الأهم إقناع العالم وإسرائيل على وجه الخصوص أن مصر لن تسكت على احتلال ترابها ، وأنها عاقدة العزم على تحرير أرضها بقوة السلاح إذا لم تذعن إسرائيل بجهود الحل السلمى التى تستهدف جلاء القوات الإسرائيلية عن سيناء .

وتأكدت القيادة المصرية أن الخطوة القادمة يجب أن تكون أكبر وأشمل من مراحل الصراع السابقة .. وبدأت الخطوات تتوالى استعداداً للأمل الكبير .. تحرير سيناء الأسيرة .

كان الكم والكيف للعراقيل والصعاب يجعل الأمل سراباً ، وفى بعض الأحيان الاستحالة التامة لتحقيقه ..

- كانت أول هذه العراقيل هذا المانع المائى الكبير المتمثل فى قناة السويس ، حيث ينحدر الشاطئ بشدة ، ويغطى بستائر أسمنتية وحديدية تعرقل نزول وصعود المركبات البرمائية .. أيضاً كانت ظاهرة المد والجزر بالقناة وما يتبعها من انخفاض وارتفاع فى منسوب المياه بها إلى ٦٠ سنتيمتراً تقريباً ، بل ويصل قرب مدينة السويس إلى مترين كاملين بالإضافة إلى سرعة التيار وتغيير اتجاهاته ، والذى يصل إلى ٩٠ متراً فى الدقيقة فى القطاع الجنوبى وينخفض إلى ١٨ متراً فى القطاع الشمالى ، بينما يتراوح عرض القناة بين ١٨٠ متراً ، ٢٢٠ متراً وبعمق من ١٦ — ١٨ متراً ، فى الوقت الذى ينخفض فيه سطح الماء عن حافة الشاطئ بحوالى مترين . بالإضافة إلى وجود كميات كبيرة من الأتربة الناتجة عن حفر القناة على الضفة الشرقية للقناة مما يصعب عملية فتح ممرات فيها ، خاصة بعد أن قامت القوات الإسرائيلية بتعلية هذه الأتربة حتى جعلت منها ساتراً بلغ فى بعض المناطق عشرين متراً ، ولم تكتف برفع الساتر فقط بل وإزاحته حتى لامس حافة القناة تماماً بزاوية ميل تزيد على ٤٥ درجة .

- وكانت ثانية العراقيل هذا الخط الدفاعى المنيع الذى أقامه العدو داخل الساتر الرملى وفوق قمته والمسمى « بخط بارليف » .. وهو الخط الثانى الذى أقامه بعد أن دمرت قواتنا الخط الأول فى مرحلة الردع يومى ٨ ، ٩ مارس ١٩٦٩ ، وقد تكلف هذا الخط ٢٣٨ مليون دولار .

وقد أقام العدو منطقة دفاعية تمتد من هذا الخط على طول المواجهة وبعمق يصل إلى ٣٥ كيلو متراً فى سيناء . وتحتوى هذه المنطقة الدفاعية التى تبلغ مساحتها أكثر من خمسة آلاف كيلو متر مربع على نظام متكامل من التحصينات الهندسية والسواتر الصناعية والمواقع القوية وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد .

وتتمركز قوات العدو المدرعة ومشاته الميكانيكية ومدفعيته وقوات دفاعه الجوى فى تلك المنطقة الدفاعية الحصينة .

ويتكون خط بارليف من ٢٢ موقعاً حصيناً يضم ٣١ نقطة قوية ، تبلغ مساحة كل منها حوالى ٤ آلاف متر مربع ، وهى عبارة عن منشأة هندسية معقدة تتكون من عدة طوابق تحت الأرض .. ويتكون الطابق الواحد من عدة دشم من الأسمنت المسلح المقوى بقضبان السكك الحديدية وألواح الصلب ، وقد جهزت كل دشمة بعدة فتحات تمكنها من الاشتباك فى جميع الاتجاهات ، بالإضافة إلى الدشم المجهزة للدبابات والمدفعيات .. وتحيط بالنقط القوية نطاقات كثيفة من الأسلاك الشائكة وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد .

كما جهز العدو بعض النقط الحصينة بخزانات لمواد حارقة تخرج منها مواسير إلى القناة عند فتحها تغطى سطح مياه القناة بلهب حارق تصل درجة حرارته إلى ٧٠٠ درجة مئوية :

وإلى الخلف من خط بارليف أنشأ العدو خطاً دفاعياً ثانياً يبعد عن خط بارليف بحوالى ٣٠٠ — ٥٠٠ متر ويتركز فى الاتجاهات الأكثر صلاحية للعبور .. ومجهزاً لاحتلاله بالقوات المدرعة الموجودة على الأجناب والخلف وهذا الخط روعى فى بنائه أن يكون شبيهاً بالخط الأول .

وعلى مسافة من ٣ — ٥ كيلو مترات يقع خط الدفاع الثالث والذى يتركز فى بعض الاتجاهات الهامة وعلى أجناب الطرق الرئيسية المؤدية إلى العمق .

وكان الخط الدفاعى الإسرائيلى الحصين بما أنتجه من مشاكل وعقبات موضع دراسة مستفيضة من القيادة المصرية وبرزت الحلول التالية :

لكى تؤمن مجموعات الاقتحام الأولى من نيران العدو والمصوبة برشاشاته ومدفعيته ودباباته والتى ضبطت مراميها لتغطى سطح القناة بستارة من نيران متشابكة .. وصنعت خطة محكمة للمدفعية المصرية وأسلحة الرمى الأخرى لتنفيذ أقوى تمهيد نيرانى لتدمير مصادر نيران العدو قبل البدء فى العبور ، وعمل ستارة نيران قوية تعبر تحتها طلائع العبور الأولى لفتح ممرات فى الساتر الترابى على الضفة الشرقية للقناة ، أجريت أكثر من ٣٠٠ تجربة لاختيار أنسب الوسائل . وكانت مدافع المياه هى الوسيلة التى ابتكرتها العقول المصرية ، وتعتمد على تجريف المياه بوساطة مضخات مياه قوية لإمكان فتح ٨٥ ممراً فى الساتر الترابى ، يبلغ حجم الأتربة المزاحة من كل ممر ١٥٠٠ متر مكعب :

ولارتقاء الساتر الترابى بانحداره الرهيب بوساطة مجموعات الاقتحام بأسلحتهم وذخائرهم فقد أعدت سلالم من الحبال تحمل بوساطة أحد الأفراد يتسلق بها الساتر ثم يفردها ليتسلق عليها زملاؤه .

ولتفادى إشعال العدو لسطح القناة جهزت مجموعات من الصاعقة للعبور إلى الضفة الشرقية قبل بدء الهجوم وقفل مواسير النيران بالأسمنت . .

وأخيراً وهو الأهم كانت مشكلة قتال رجال المجموعات الأولى للعبور ضد دبابات العدو وعرباته المدرعة فى منطقة دفاعه الحصينة منذ الدقائق الأولى للعبور وحتى تلحق بهم القوات الرئيسية بعد إقامة الكبارى على سطح القناة . ووضعت الخطط التالية :

تم تجهيز مجموعات كبيرة من الهيئات الحاكمة فى الضفة الشرقية للقناة ، تحتلها الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات ، لتشتبك بالضرب المباشر من الضفة الغربية مع دبابات العدو وعرباته المدرعة فى الضفة الشرقية .

شكلت مجموعات اقتناص للدبابات تدفع إلى الضفة الشرقية للقناة تحت ستر نيران المدفعية وقبل عبور الموجات الأولى ، وتنتشر فى مواقع العدو وخلف خط بارليف ، تقيم الكمائن لدبابات العدو التى ستحاول مهاجمة طلائع العبور الأولى .

تسليح رجال مجموعات العبور الأولى بمزيد من الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات ، خاصة الصواريخ الخفيفة المضادة للدبابات .

ظهرت عربات يد صغيرة تجر بالأيدى تحمل عليها الذخائر والأسلحة تعبر مع مجموعات الاقتحام الأولى .

جهز ٢٥٠٠ قارب لتعبر عليها الموجات الأولى من الاقتحام حتى تقام الكبارى ..

ثم كان تجهيز مسرح العمليات هو الآخر يضم كماً كبيراً من المشاكل والصعوبات ..

فقد كان لزاماً أن يقام على الضفة الشرقية للقناة ساتر ترابى لتوفير الوقاية لقواتنا أثناء إعدادها وتدريباتها ، خاصة فى المراحل الأخيرة مثل الاستعداد للهجوم .

ولإعطاء القوات على طول الجبهة القدرة على المناورة ، تم تجهيز شبكة من الطرق والمدقات يبلغ طولها أكثر من ألفى كيلو متر ..

وكان تجهيز ساحات الإسقاط لوحدات الكبارى على الضفة الغربية للقناة ، والمنازل اللازمة لاستخدام المعدات بطرق ووسائل لا يكتشف منها العدو خططنا ، وفى نفس الوقت لا تمكنه من التدخل فى اللحظات الحاسمة .

أيضاً كانت المواقع الحاكمة التى تحتلها الدبابات والأسلحة الثقيلة المعاونة بنيرانها المباشرة لمجموعات الاقتحام الأولى .

ولمواجهة أعمال العدو المنتظرة ضد مطاراتنا وخاصة الممرات .. فقد أعدت خطة مناسبة من الأسفلت والأسمنت سريع التصلب لرصف أى مساحات ينجح العدو فى تدميرها .. كما شكلت وحدات هندسية للتعامل مع القنابل الزمنية الخاصة بالممرات .. فى نفس الوقت كان العمل مستمراً فى إقامة التحصينات الخاصة بالطائرات (دشم الطائرات) كما أقيمت شبكة ممرات تبادلية بكل مطار وقاعدة جوية تمكنه من العمل تحت كل الظروف ..

أيضاً كانت ملحمة بناء قواعد الصواريخ المصرية ، والتى شكلت قمة التحدى بيننا وبين العدو حيث بدأ العمل المكثف بها فى يناير ١٩٧٠ ، واستمر ليلا ونهاراً تحت قصف العدو المكثف ، وتلك ملحمة فريدة من البذل والعطاء اشترك فيها عشرات الألوف من أبناء مصر من مهندسينا العسكريين والشركات المدنية المختلفة بأفرادها من الرجال والنساء وحتى الأطفال . ولقد بلغت تكلفة إقامة شبكة الصواريخ أكثر من مائة مليون من الجنيهات ، وبحجم وصل إلى ٢٤ مليون من الأمتار المكعبة من أعمال الحفر والردم ، وخرسانة مسلحة وعادية بحجم ٢,٥ مليون متر مكعب ، وكمية من الحجارة بحجم ٢ مليون متر مكعب ..

عندما صمتت المدافع بعد رحلة مرهقة من الصراع مع العدو لمدة ٣ سنوات متصلة قضاها رجالنا فى الخنادق ، وعندما بدأت الاستعدادات لمعركة التحرير الكبرى ، كانت المشكلة الرئيسية أمام القيادة مواجهة « مرض الخنادق » الذى يصيب قوات تتعرض للظروف التى عاشتها قواتنا وبدأت المواجهة بخطط مدروسة اعتمدت على التوعية المستمرة بمشروعية القتال لتحرير الأرض .. والثقة فى السلاح .. ثم كان العنصر الأهم وهو التدريب القتالى الواقعى على مهام لها نفس طبيعة المهام القتالية المقبلة .

وكانت هناك مشكلة رئيسية وضعت فى المقدمة منذ البداية وصاحبت كل مراحل الإعداد وهى كيف نحقق المفاجأة على المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية فى مواجهة عدو يملك كل الإمكانات الحديثة للاستطلاع والمراقبة وتوفر له حليفته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية كل سبل المعلومات الدقيقة المباشرة .. بالإضافة إلى الاتصال الدائم بين قواتنا والعدو حيث لا يفصل بينهما سوى قناة السويس وأعمال وتحركات كل جانب مكشوفة للجانب الآخر تماماً ::

وتلك قصة طويلة لابد من سرد بعض وقائعها :

- على صعيد الخداع الإستراتيجى .. فقد وضعت خطة محكمة شاركت فيها جميع أجهزة الدولة خاصة وزارات الدفاع والخارجية والإعلام بهدف خداع العدو وتضليله عن نوايا شن عملية هجومية مع الاحتفاظ بالسرية الكاملة لخطط العمليات وإخفاء التوقيتات المحددة للحرب ..
- ولاشك أن إجراءات الخداع العسكرى كانت أهم مقومات الخداع الإستراتيجى حيث اعتمدت على :
  - العمل المستمر فى استكمال الأوضاع الدفاعية استعداداً لأى هجوم من العدو .
  - دفع وتجميع القوات الرئيسية القائمة بالهجوم عن طريق التحريك فى اتجاهات متعددة منها ما هو عرضى وما هو عكسى لبلبلة العدو الذى يرصد كل صغيرة وكبيرة .. ونفس الأسلوب تم مع معدات العبور . وتم ذلك أكثر من مرة تحت ستر إجراء مناورات دورية ، كان آخرها المناورة التى قامت العمليات خلالها ..
  - إجراء عدة تجارب لاستدعاء الاحتياط ، بحيث يتم أضخمها فى التوقيت المحدد لتنفيذ الهجوم . .
- كذلك اعتمدت المفاجأة على تحديد دقيق بعد دراسات علمية عن أنسب التوقيتات لتنفيذ العملية الهجومية سواء للشهر أو لليوم أو ساعة بدء الهجوم أى ساعة الصفر .
- أيضاً اعتمدت المفاجأة على السرية الكاملة لتوقيت بدء الهجوم وإبلاغه للمستويات القيادية المختلفة فى توقيتات لاتسمح بأدنى فرصة لتسرب أى معلومات عنه ..
- ثم كان أهم عنصر فى تحقيق المفاجأة الاستراتيجية وهو التنسيق الدقيق من الجبهة السورية لتبدأ عمليات الجبهتين فى وقت واحد .

وبدأ العد التنازلى فى اليوم المشهود . .

بدأت قواتنا المسلحة طبقاً لخطط علمى دقيق فى عملية فتح تعبوى استعداداً لاتخاذ أوضاع الهجوم .. وشملت عملية الفتح التعبوى القوات الجوية والبحرية وقوات الدفاع الجوى وقوات الجيشين الثانى والثالث الميدانيين .

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم الأول من أكتوبر ٧٣ رفعت درجة استعداد القوات المسلحة إلى الحالة الكاملة ، حيث تم احتلال جميع مراكز القيادة والسيطرة على مختلف المستويات تحت ستار إجراءات المناورة التى تقوم بها القوات .

وبدأت القوات المختلفة تأخذ أماكنها التى ستكون عليها مع بدء العملية الهجومية .. كما قامت قوات المهندسين العسكريين بفتح الثغرات فى مواقعنا على الضفة الغربية للقناة .. وعبرت مجموعات خاصة إلى الضفة الشرقية للقناة حيث نجحت فى تعطيل مواسير المواد الحارقة التى أعدها العدو لإشعال سطح القناة ..

وفى مركز العمليات الرئيسى للقوات المسلحة نشرت خرائط ووثائق العملية الهجومية .. وتوالت الساعات والدقائق والثوانى .

وبسط التاريخ صحائفه .. وبدأ يسجل أروع معارك العسكرية المصرية ؛

الزلزال !

فى الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر انطلقت أكثر من ٢٢٠ طائرة إلى سيناء الأسيرة فى توقيت واحد متجهة صوب أهدافها المحددة بحذق ومهارة .. كان لكل تشكيل جوى أهدافه المحددة ولكل تشكيل سرعته وارتفاعه . حيث نفذت ضربة جوية مركزة رائعة كان من نتائجها :

- أن تحولت مطارات العدو فى المليز وتمارا ورأس نصرانى إلى حطام .
- ودمرت عشرات مواقع الصواريخ الإسرائيلية أرض-جو من طراز « هوك »
- كما دمرت عشرات المواقع لمدفعيات العدو ومواقع راداراته ومراكز التوجيه والإنذار .
- بالإضافة إلى تدمير محطتى أم خشيب وأم مرجم المرصودتين لعمليات الإعاقة والشوشرة .
- فضلا عن تدمير العديد من المناطق الإدارية للعدو .

فى نفس الوقت ــ الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السادس من أكتوبر ــ أعلنت المدفعية المصرية على طول المواجهة كسر الصمت الرهيب الذى ساد الجبهة منذ أغسطس ١٩٧٠ . . وتحول الشاطئ الشرقى للقناة إلى جحيم .. وفوجئ العدو بأقوى تمهيد نيرانى تم تنفيذه فى الشرق الأوسط .

وخلال التمهيد النيرانى سقطت على مواقع العدو وقلاعه بالضفة الشرقية للقناة فى الدقيقة الأولى من بدء ضربة المدفعية عشرة آلاف وخمسمائة دانة مدفعية بمعدل ١٧٥ دانة فى كل ثانية .

وتوالت البلاغات عن مدى تأثير النيران والخسائر التى أحدثتها بالعدو ، وعن نجاح المدفعية فى فتح جميع الثغرات المخطط لها فى مواقع الأسلاك الشائكة والألغام على الميل الأمامى للساتر الترابى وحول النقط القوية والحصون والقلاع المعادية .

وتحت ستر هذه النيران الكثيفة عبرت مجموعات من الصاعقة وأطقم اقتناص الدبابات القناة لتبث الألغام فى مصاطب الدبابات المعادية وتشل حركتها بالكمائن لمنعها من التدخل فى عملية اقتحام القناة .

وفى الساعة الثانية والثلث ــ من بعد ظهر السادس من أكتوبر العاشر من رمضان ــ بدأ طوفان من الرجال تسبقهم تهليلاتهم « الله أكبر .. الله أكبر » صيحة الجهاد الخالدة .. بدأت الموجات الأولى لخمس فرق مشاة وقوات قطاع بورسعيد العسكرى فى اقتحام قناة السويس مستخدمة حوالى ألف قارب اقتحام مطاط .. وبعد عدة دقائق وضع ثمانية آلاف جندى أقدامهم على الضفة الشرقية للقناة وبدأوا فى تسلق الساتر الترابى المرتفع واقتحام دفاعات العدو الحصينة وهم يحملون أسلحتهم الشخصية ، والأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات .

وعادت أعلام مصر ترفرف من جديد على الضفة الشرقية للقناة .. بينما اندفعت الموجات التالية للعبور تقتحم القناة فى نفس الوقت الذى بدأت فيه القوات البرمائية تعبر البحيرات المرة من جنوب بحيرة التمساح عند الإسماعيلية .

ومنذ الدقائق الأولى للاقتحام قامت قواتنا بحصار النقط القوية للعدو ومراكز قياداته وقلاعه الحصينة ، وبدأت القلاع تتهاوى .. فى نفس الوقت الذى قامت فيه قواتنا بصد وتدمير هجمات العدو المضادة .

وتحت ستر هجوم قوات المشاة ونيران المدفعية تقدمت وحدات المهندسين العسكريين ، وقامت بفتح الممرات اللازمة فى الساتر الترابى باستخدام طلمبات المياه القوية « مدافع المياه » وأتمت فتح أول ممر منها فى زمن قياسى لم يتجاوز الساعة .. وفى أثناء ذلك كانت وحدات أخرى من المهندسين تقوم بإسقاط معدات « براطيم » المعديات والكبارى وتقيمها فوق مياه القناة .:

ودارت عجلة الحرب . والتاريخ يلهث بقلمه يسجل أروع إنجاز للعسكرية المصرية من خلال معارك الأسلحة المشتركة . من بحرية وجوية ودفاع جوى وقوات برية ..

والسطور التالية إيجاز لحصيلة الأعمال القتالية لقواتنا المسلحة خلال معارك التحرير الكبرى فى السادس من أكتوبر العاشر من رمضان ..

اللقاء فى سيناء !

عندما اندلعت الشرارة الأولى لحرب التحرير الكبرى ، كانت جماعات من الصاعقة تعبر بقواربها المصنوعة من المطاط مياه القناة على طول امتدادها من بورسعيد شمالا إلى السويس جنوباً ، لتشكل طلائع الزحف المقدس ، وكان لها شرف رفع أول مجموعة من أعلامنا فوق الضفة الشرقية للقناة ، لتنطلق بعدها موجات متتالية من المشاة . وعلى الحد الأمامى كان رجال الصاعقة أول من قهروا الساتر الترابى العالى ، فتسلقوه بالحبال والأظافر ، واستولوا على المصاطب التى أعدها العدو لدباباته وقاموا ببث الألغام فيها . ثم اندفعت مجموعات منهم إلى الشرق ، حيث أقاموا الكمائن لاقتناص دبابات العدو التى حاولت الاقتراب من الساتر الترابى فقاموا باقتحام مواقع العدو الحصينة ، كما اشتركوا مع رجال المشاة فى مهاجمة باقى حصون العدو وقلاعه القوية .

وقبل أن تغرب شمس السادس من أكتوبر ، كانت أعدادا كبيرة من طائرات الهليكوبتر قد أفرغت حمولتها من رجال الصاعقة فى عمق سيناء شمالا وجنوباً بين جبالها ووهادها .. وبعد ساعات قليلة من انطلاقة الشرارة الأولى كان رجال الصاعقة ينقضون على أهدافهم فى أعماق العدو .

وفى نفس الوقت كانت جماعات منهم تزحف على مياه البحرين الأحمر والمتوسط لتصل إلى أهدافها على سواحل سيناء .

وفى شمال سيناء قاتل رجال الصاعقة فى مواجهة الجيشين الثانى والثالث الميدانيين قتالا مستميتاً على الطرق والمضايق ضد مدرعات العدو التى حاولت الاقتراب لإجهاض عملية العبور وإنشاء رؤوس الكبارى فواجهوا دبابات العدو بأسلحتهم الخفيفة المضادة للدبابات وبقنابلهم اليدوية ، بل وألقوا بأنفسهم فى طريق تقدم العدو ، وعلى ظهورهم الألغام المضادة للدبابات كى تنفجر فوق أجسامهم مدرعات العدو ، وتركوا على رمال سيناء بصمات

من دمائهم تشهد بأن هذه البقعة أو تلك قد استشهد فوقها فدائى بطل من رجال الصاعقة ، قدم حياته فداء لزميل لكى ينجح العبور ويتحقق تحرير الأرض المقدسة .

وفى عمق سيناء استمرت قوات الصاعقة متمسكة بالمضايق الجبلية والممرات ، ومنعت قوات العدو من المناورة إلا بخسائر جسيمة ، واستطاعت إحدى الوحدات أن تظل متمسكة بمضيق سدر من يوم السادس من أكتوبر وحتى يوم ٢٢ منه فحرمت بذلك العدو من المرور فى هذا المضيق لمدة ١٦ يوماً كاملة ، حتى جاءها الأمر بالارتداد فعادت إلى قواعدها بأسلحتها ومعداتها .

أما فى جنوب سيناء فقد أقام رجال الصاعقة قواعدهم فى وديانها واستمروا فى إغاراتهم على أهداف العدو وفى مناطق أبورديس وبلاعيم وأبو زنيمة والطور ، فبثوا الرعب فى قلوب العدو ، وأجبروه على دفع قوات كبيرة من المدرعات والمشاة الميكانيكية لحماية أهدافه الحيوية بهذه المناطق :

ونجحت بذلك قوات الصاعقة فى استدراج قوات العدو ومحاصرة جزء كبير منها فى جنوب سيناء مما خفف الضغط على قواتنا فى الشمال أثناء إنشاء رؤوس الكبارى .

وعندما تقرر حرمان العدو من بترول سيناء ، شارك رجال الصاعقة فى نسف وتدمير منشآت ومستودعات البترول فى مناطق أبو رديس وأبو زنيمة وسدر واستمرت قوات الصاعقة منتشرة فى أعماق العدو طوال مراحل القتال تبث الذعر فى صفوفه ، وتهاجم أهدافه الحيوية فى جنوب سيناء حتى توقف إطلاق النار .

نسور الجو :

فى الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السادس من أكتوبر العاشر من رمضان كانت الضربة الجوية المركزة لأكثر من ٢٢٠ طائرة من قواتنا الجوية ما بين مقاتلة ومقاتلة قاذفة وقاذفة . كانت ضربتها الجوية إعلاناً ببدء القتال ونجاح المفاجأة لقوات العدو على طول المواجهة .

لقد أصابت قواتنا الجوية العدو فى اليوم الأول للقتال بالشلل التام بعد أن وجهت لمواقع قياداته وسيطرته ضربة قوية قاصمة أحالتها إلى جحيم من النيران . . وكان مقرراً أن تتم الضربة الجوية المركزة لقواتنا الجوية لمواقع العدو على مرتين ، ونظراً للنتائج المذهلة التى حققتها الضربة الأولى فقد تم اكتفاء القيادة المصرية بها ، فلم تكن فى حاجة إلى ضربة ثانية ، فقد أحدثت الضربة الأولى الارتباك التام للعدو فى أول أيام المعركة ، وأفقدته السيطرة والتوازن تماماً ، وشلت تفكيره عن الحركة ، بعد أن ضرب نسورنا مراكز السيطرة المعادية فى أم خشيب وأم مرجم ، ومطاراته فى سيناء .

ومنذ فجر السابع من أكتوبر وطوال أيام الحرب تصدت مقاتلاتنا لهجمات العدو الجوية ضد مطاراتنا ، واشتبكت معها فى معارك جوية دارت أعنفها خلال الأيام الأربعة الأولى من الحرب ، حيث كان العدو يدفع فى كل هجمة من ٦٠ — ٧٠ طائرة ، وأمكن لمقاتلاتنا بالتعاون الوثيق مع الدفاع الجوى أن تصيب وتسقط العديد من طائرات العدو ، وأن تمنعها من تحقيق أهدافها ، مما كان يجبرها على التخلص من قنابلها وصواريخها بعيداً عن أهدافها .

وخلال المدة من ٧ حتى ٢٠ اكتوبر ، حاولت الطائرات المعادية مهاجمة عشرة من مطاراتنا فقط هي : القطامية والمنصورة والصالحية وطنطا وشبراخيت وجناكليس وقويسنا وأبو حماد وبني سويف وبير عريضة ، وكانت أبرز محاولة يوم السابع من أكتوبر حينما حاول العدو مهاجمة سبعة مطارات ، وبعد ذلك قلل من حجم مجهوده الجوى ضد مطاراتنا ، فأصبح يهاجمها بمعدل من ١ — ٤ مرات في اليوم ، بعد أن أيقن من فشل محاولاته لإخراج قواتنا الجوية من المعركة .

وخلال حرب أكتوبر خاضت قواتنا الجوية مع قوات العدو الجوية خمسين معركة جديدة ، منها ثماني معارك كبيرة ، أسقط خلالها طيارونا للعدو : تسعين طائرة .

ومنذ صباح السابع من أكتوبر ، وقواتنا الجوية تضرب احتياطيات العدو التعبوية ، وتلحق به طوال أيام القتال التالية أفدح الخسائر في مدرعاته ومعداته وأسلحته وأفراده .

وكانت أسراب المقاتلات القاذفة من طراز سوخوى والميج ١٧ والميج ٢١ تحقق أرقاماً قياسية في معدلات إصابة وتدمير الأهداف المعادية وقد حققت أكثر من ألف طلعة أثناء المعارك . .

كما كانت المعاونة الجوية المباشرة للجيشين الثاني والثالث الميدانيين تتم بكفاءة نادرة وتنسيق فعال منذ أن بدأ القتال ، وتحقق في هذا المجال وحده ثلاثة آلاف طلعة طيران .

وفي مجال الاقتحام الجوى الرأسي ، كان لطائرات الهليكوبتر المصرية دور هام في إبرار رجال الصاعقة في عمق سيناء شمالا وجنوبا ، بما يحقق المفاجأة وأثار الذعر والارتباك في صفوف العدو وشل حركته وعرقلة إمداداته ومناوراته واستمرت طائرات الهليكوبتر طوال أيام القتال تمد وحدات الصاعقة في عمق دفاعات العدو باحتياجاتها حتى تواصل استنزافها للعدو في أشق الظروف وأحفلها بالمخاطر .

وأيضا كان لقاذفاتنا دور هام عندما انطلقت من قواعدها تصب الدمار على الأهداف المعادية ، وتلقى بمئات الاطنان من القنابل على مطارات العدو ، وتبيد وتشتت تجمعات قواته المدرعة والميكانيكية التي تسللت في منطقة الدفرسوار وتحطم معابره ومراكز قياداته ، كما قامت طائراتنا القاذفة أيضاً طوال مراحل القتال بحماية أهدافنا الحيوية في عمق البـــلاد .

وحقق الفنيون والمهندسون الجويون أعلى درجات الكفاءة والمهارة في أداء الواجب المنوط بهم ، واحتفظوا بنسبة صلاحية عالية للطائرات . . ونجحوا في إتمام أعمال إعادة ملء وتجهيز الطائرات بالوقود والذخائر والقنابل في مدة لا تتجاوز الست دقائق في المرة الواحدة .

وخلال معارك أكتوبر ، حفلت الاحداث بالعديد من البطولات ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

خلال القيام بالضربة الجوية المركزة ، وفي بعض القطاعات قامت طائرات العدو باعتراض طائراتنا التي لم تكن قد وصلت بعد إلى أهدافها ، وصمم طيارونا على إنجاز المهمة مهما كان الثمن ، واشتبك عدد منهم وطائراتهم محملة بالقنابل والصواريخ مع طائرات العدو الاعتراضية ، حتى جاءت طائرات الحماية لتتولى المهمة ، ولينطلقوا هم ليستكملوا مهامهم المحـــددة .

وخلال تنفيذ الضربة الجوية الأولى وفى أول دورة لقصف أهداف العدو تصاعدت منها النيران وسحب الدخان التى غطت سماء المنطقة كلها ، ورغم هذا لم يحاول طيارونا إعادة القصف للمرة الثانية عشوائياً ، وانتظروا حتى انقشع الدخان ، وقاموا بالقصف المباشر على الأهداف المحددة بدقة تامة .

وفى اليوم الرابع عشر من أكتوبر دارت أطول معركة جوية فى التاريخ استمرت ٥٥ دقيقة ، اشتركت فيها ثمانون طائرة للعدو فى تشكيلات جوية يضم كل منها ثمانى طائرات ، وخسر العدو خلال المعركة إثنى عشرة طائرة من طراز فانتوم . ولم يتمكن العدو من تحقيق مهمته التى جاء من أجلها ، واضطرت طائراته لإلقاء حمولتها من القنابل وسط المزارع والقـــرى .

وسجل التاريخ حدثاً فريداً . . عندما استطاع طيار مصرى بطائرته الهليكوبتر التى حملت عدداً من رجال الصاعقة إلى عمق دفاعات العدو وعلى بعد سبعين كيلومترا من القناة ، استطاع هذا الطيار أن يتفادى نيران طائرات العدو التى حاولت عرقلة مهمته ، وبعد نجاحه فى إبراز الرجال فى موقعهم المحدد . . قام بتفادى نيران طائرات العدو التى حاولت تدميره وهو فى طريق العودة ، بل واستطاع أن يدمر طائرة فانتوم من الطائرات المهاجمة له بوساطة صواريخه المضـــادة للدبابات .

وإذا كان طيارونا قد حققوا بطولات رائعة فى السماء ، فقد حقق زملاء لهم فى القواعد الجوية بطولات على الأرض لا تقل روعة عما تحقق فى السماء . فلقد استطاع المهندسون والفنيون الجويون تجهيز الطائرات للاقلاع فى زمن قياسى لم يتحقق فى الحروب السابقة على المستوى العالمى . . بل انهم استطاعوا استبدال موتور الطائرة فى ليلة واحدة وهو زمن قياسى لم يشاركهم فيه أحد .

لقد وصل الحال بالطيار الإسرائيلى خلال حرب أكتوبر أنه كان يخشى مواجهة الطيار المصرى فى الاشتباكات الجوية ، وقبل حصول الإسرائيليين على الدعم الأمريكى كان التفوق والغلبة لطيارينا فى جميع الاشتباكات الجوية .. حتى وصل الحال بطيارى العدو فى أحد الاشتباكات الجوية أن اشتبكوا بطائراتهم مع بعضهم نتيجة الارتباك الذى أصيبوا به .

اقتحام المستحيل :

وفى أقل من ست ساعات عقب انطلاق الشرارة الأولى فى الساعة الثانية وخمس دقائق ظهر السادس من أكتوبر – العاشر من رمضان – بدأت طلائع الزحف المقدس إلى سيناء الأسيرة فى أروع عملية اقتحام لمانع مائى .

وفى أقل من ست ساعات كان على الضفة الشرقية للقناة أكثر من ٨٠ ألف جندى مصرى ، اقتحموا قناة السويس بالنار والدم ، وهاجموا مواقع العدو الحصينة ونقطه القويه على مواجهة ١٧٠ كيلو مترا فى موجات متتالية بلغت اثنى عشرة موجة ..

وتمكنت قواتنا من الاستيلاء على ١٥ نقطة قوية للعدو على الضفة الشرقية للقناة ، وأكملت قواتنا حصار باقى النقط القوية ، كما تمكنت من الاستيلاء على رؤوس الكبارى بعمق حتى ٤ كيلو مترات ، كما دمرنا ٦٠ دبابة للعدو وأسقطنا له ٢٧ طائرة .

وفى أقل من ست ساعات دمرت قواتنا خط بارليف الدفاعى ،وحطمت حصونه ، وغسلت عار الهزيمة فى حرب الأيام الستة ، وأطاحت بأسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر ،وأظهرت زيف نظرية الأمن الإسرائيلى .

وقبل أن يبزغ فجر السابع من أكتوبر ، كانت قواتنا قد عززت مواقعها شرق القناة بأعداد كبيرة من المدرعات والمدفعية والأسلحة الثقيلة بعد أن نجحت فى إقامة عدد كبير من المعديات وإنشاء ١٠ كبارى ثقيلة و١٠ كبارى المشاة .

ويجئ السابع من أكتوبر — اليوم الثانى للقتال — وتنجح قواتنا فى تعميق رؤوس الكبارى حتى ٨ كيلو مترات فى المتوسط ، كما قامت قوات الجيشين الثانى والثالث بمعاونة قواتنا الجوية بصد الهجمات المضادة لاحتياطيات العدو المحلية والقريبة والتكتيكية والتعبوية التى قام بها العدو ليلة السابع من أكتوبر وطوال اليوم الثانى للقتال من اتجاهات عدة وبقوات مختلفة ، بلغ إجمالها ثلاثة ألوية مدرعة بالإضافة إلى ألوية المشاة المتمركزة شرق القناة مباشرة .

وخلال هذا اليوم فشل العدو فى ضرب معابر قواتنا على القناة فى أكثر من محاولة ، واستمر تدفق قواتنا بمعدلات عالية إلى داخل سيناء عبر الجسور ، كما تمكنت قواتنا من صد هجوم مدرع مضاد للعدو ، حشد له أكثر من ١٨٠ دبابة .. ومنى العدو بخسائر لا قبل له بها ، واستسلم العشرات من جنوده ليقعوا أسرى فى أيدى قواتنا .

كما قامت تشكيلات من قواتنا الجوية بتوجيه ضربات مركزة ضد المواقع الإسرائيلية فى القطاعين الأوسط والشمالى حيث أصابتها بخسائر جسيمة ..

ومع بزوغ فجر الثامن من أكتوبر ، أصدرت القيادة الإسرائيلية لجبهة سيناء أمراً إلى جنودها بالقلاع والحصون فى رأس مسلة وشرق الشط وجنوب البحيرات المرة وبحيرة التمساح بترك مواقعهم ومحاولة الانضمام إلى القوات الإسرائيلية عند المضايق ، وسمحت لهم فى حالة تعذر ذلك أن يستسلموا بسلاحهم للقوات المصرية .

وخلال اليوم الثالث للقتال — ٨ أكتوبر — نجحت قوات الجيشين الثانى والثالث فى صد جميع الهجمات المعادية المضادة التى قامت بها احتياطيات العدو القادمة من العمق وكبدتها خسائر كبيرة وخاصة فى المدرعات والأفراد .

وواصلت قواتنا تقدمها فى سيناء ، بعد أن استولت على جميع مواقع العدو الحصينة على الضفة الشرقية للقناة وعددها خمسة وعشرون موقعاً كما نجحت قواتنا فى تحرير مدينة القنطرة شرق بعد حصار شامل من القوات المصرية لها منذ الساعات الأولى للقتال ظهر السادس من أكتوبر .

وبنهاية يوم الثامن من أكتوبر تمكنت خمس فرق مشاة من الجيشين الثانى والثالث من إنشاء رؤوس الكبارى المخطط لها بعمق حتى ١٠ كيلو مترات .

وخلال اليوم الثالث للقتال حاولت القوات الجوية الإسرائيلية مهاجمة قواتنا فى بورسعيد ، وتصدت لها طائراتنا وحرمتها من تحقيق أهدافها .

وكانت حصيلة خسائر العدو فى يوم ٨ أكتوبر تدمير ٢٤ طائرة « فانتوم وسكاى هوك » وعدد من طائرات الهليكوبتر وأسر عدد من طياريها كما دمرت قواتنا للعدو ٣٦ دبابة وعدداً من عرباته المجنزرة ، كما أسرت قواتنا ٤٥ فرداً للعدو .

وأعلنت إسرائيل على لسان قادتها انسحاب قواتها إلى خط دفاعي جديد في مواجهة الهجوم المصرى الساحق .

وفى يوم التاسع من أكتوبر – اليوم الرابع للقتال – أتمت قواتنا تحقيق المهمة المباشرة – الأولية – بنجاح .. حيث قامت تشكيلات نسق أول الجيشين الثانى والثالث الميدانيين « الفرق المشاة الخمس » بتوسيع وتعزيز رؤوس الكبارى ، كما نجحت فى صد وتدمير هجمات العدو المضادة وأوقعت بالعدو خسائر فادحة .

وخلال هذا اليوم نجحت قواتنا فى تدمير لواء مدرع إسرائيلى ، هو اللواء ١٩٠ وأسرت قائده العقيد عساف ياجورى مع مئات من جنوده الذين نجوا من الموت .

وحاولت موجات جديدة من لواءين مدرعين للعدو التقدم صوب القناة ، فتصدت لها قواتنا ، وقبل أن تغرب شمس اليوم الرابع للقتال كانت فلول العدو تنسحب بسرعة ناحية الشرق بعد أن تكبد العدو خلال قتال هذا اليوم- خسائر فادحة بلغت فى الدبابات فقط ١٠٢ دبابة ؛

وفى البحر خسر العدو خلال معركة بحرية مع قواتنا خمسة زوارق ، كما أسقطنا للعدو ١٦ طائرة وأسرنا ٤ طيارين إسرائيليين ؛

وتميز اليوم الخامس للقتال – ١٠ أكتوبر – بعمليات مطاردة واسعة قامت بها قواتنا فى سيناء .. وحينما حاولت القوات الجوية المعادية مهاجمة بعض قواعدنا الجوية تصدت لها وسائل دفاعنا الجوى وأجبرتها على الفرار .. وقد بلغت خسائر العدو خلال هذا اليوم تدمير ست طائرات ، وثلاث دبابات وأربعة مدافع ١٠٥ م وستة مدافع ذاتية الحركة وأربعة هاونات كما استولت قواتنا على ١٢ دبابة معادية سليمة من طراز « إم – ٦٠ » وسنتوريون وثلاث عربات مدرعة وعدد من الأسرى . بالإضافة إلى أعداد كبيرة من البنادق والرشاشات .

وتشتد ضراوة المعارك فى اليوم السادس للقتال – ١١ أكتوبر – وتشهد جبهة سيناء معارك طاحنة بين الجانبين. تشترك فيها مئات الدبابات والمدرعات والمدفعية .. وحاول العدو خلال هذا اليوم أن يدفع بالمزيد من طائراته لمهاجمة مطاراتنا فتصدت له مقاتلاتنا ودفاعنا الجوى وأسقطنا له ٤ طائرات فانتوم وميراج بوساطة مقاتلاتنا ، كما استطاعت وحدات دفاعنا الجوى أن تسقط له ٥ طائرات أخرى .. وجن جنون العدو ودفع بمزيد من طائراته لمهاجمة مطار المنصورة فتصدت له مقاتلاتنا وأسقطت له ٤ طائرات ، وعندما حاول اختراق مجالنا الجوى للمرة الثالثة أسقطنا له ست طائرات ، وطائرة أخرى سابعة أسقطت فى منطقة سدر على الضفة الشرقية لخليج السويس .

وخلال اليوم الثانى عشر من أكتوبر – اليوم السابع للقتال – تركز القتال الشرس فى المحور الأوسط ، وتم تدمير ١٣ دبابة و ١٩ عربة مدرعة من طابور إسرائيلى حاول وقف تقدم قواتنا .. كما خسر العدو ١٥ طائرة خلال معارك هذا اليوم .

ويجئ اليوم الثامن للقتال .. حيث استمرت معارك الدبابات فى سيناء . . فى الوقت الذى استطاعت فيه قواتنا أن تعزز مواقعها المحررة وأن تنشئ أحد عشر معبرا على طول القناة . وعندما حاول العدو الإغارة بطائراته على قواتنا شرق القناة أسقطنا له ١٦ طائرة منها ثلاث طائرات هليكوبتر .

ويصدر تصريح من المتحدث العسكرى المصرى عن استسلام الموقع الإسرائيلى الحصين فى بورتوفيق بجميع أفراده من قادة وضباط وجنود بأسلحتهم ومعداتهم :

ويدأت قواتنا مع صباح الرابع عشر من أكتوبر – اليوم التاسع للقتال – تطوير الهجوم شرقاً حيث تقدمت قواتنا بنجاح على طول المواجهة . وتمكنت قواتنا من تحرير مساحات جديدة من الأرض ، كما نجحت قواتنا فى تدمير ١٥٠ دبابة للعدو واستطاعت قوات دفاعنا الجوى أن تسقط للعدو ٢٩ طائرة ، فى الوقت الذى دارت فيه معارك جوية واسعة فى شمال الدلتا دمر فيها للعدو ١٥ طائرة أخرى ..

وتبدأ أحداث اليوم العاشر للقتال بقتال شرس وعنيف للمدرعات فى سيناء استمر طوال اليوم وبكثافة عالية من القوات ، ودمر للعدو خلاله سبع دبابات وثلاث عربات مدرعة وعشرون عربة إدارية ، كما أسقطت قواتنا للعدو تسع طائرات .:

وتجئ أحداث اليوم الحادى عشر للقتال حيث تشهد مسارح العمليات تصاعداً خطيراً فى البر والبحر والجو .

فى مسرح العمليات البرى تصدت قواتنا لهجوم إسرائيلى مدرع على المحور الأوسط استمر ست ساعات وانتهى بتدمير الجزء الأكبر من مدرعات العدو الذى انسحب بعد تكبده خسائر عالية .

وفى مسرح العمليات البحرى دارت معارك بحرية شرسة فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط شاركت فيها قواتنا الجوية .

وفى مسرح العمليات الجوى جرت معركة جوية أسقطنا فيها للعدو ١١ طائرة .

وشهد هذا اليوم بدء المحاولة الإسرائيلية لعبور القناة إلى الضفة الغربية . حيث تعرضت المحاولة لنيران كثيفة ومركزة من قواتنا .

وخلال يوم ١٧ أكتوبر – اليوم الثانى عشر للقتال – شهد القطاع الأوسط من سيناء أعنف معارك الدبابات فى التاريخ . فمن يوم ١٥ أكتوبر وعلى مدى ثلاثة أيام دفع العدو بحوالى ١٢٠٠ دبابة ، دمر جزء كبير منها ومنى العدو بخسائر جسيمة فى معداته وأفراده ، وخلال معارك هذا اليوم فقد العدو ٢١ طائرة وعدداً كبيراً من دباباته وعرباته المدرعة .

ويشتد القتال ضراوة فى اليوم الثالث عشر للقتال – ١٨ أكتوبر – وتستمر معارك الدبابات الكبرى على أرض سيناء . وقد بلغت خسائر العدو خلال معارك هذا اليوم ٣٠ دبابة و ١٠ عربات مدرعة و ٥ بطاريات مدفعية وقاعدتين للصواريخ وعدداً من مستودعات الذخيرة ، كما أسقطت قواتنا للعدو ١٥ طائرة وتم أسر ٤ طيارين .

وعلى طول جبهة القتال – خلال يوم ١٩ أكتوبر – واصلت قواتنا الجوية قصفها لتجمعات مدرعات العدو بينما واصلت قواتنا حصارها حول القوات الإسرائيلية المتسللة غرب القناة ، وتكبد قواتنا العدو خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات وتسقط له ثلاث طائرات وتأسر أحد طياريها .

وفى اليوم الخامس عشر للقتال يزداد القتال عنفاً وضراوة خاصة فى منطقة الدفرسوار بين قواتنا وقوات العدو المتسللة .. والعدو يتكبد خسائر كبيرة منها ٧٠ دبابة ، ٤٠ عربة مدرعة ، و ٢٥ طائرة . وتقوم إسرائيل باستدعاء مزيد من قوات الاحتياطى للمرة الثالثة منذ بدء الحرب ، وكانت المرة الأولى يوم ٦ أكتوبر والثانية يوم ١٠ أكتوبر .

وخلال يوم ٢١ أكتوبر دارت معارك عنيفة شرق القناة فى منطقة الدفرسوار بين قواتنا وقوات العدو ، تكبد العدو خلالها خسائر جسيمة فى معداته وأفراده ، وتمكنت قواتنا من تحرير مزيد من الأراضى المحتلة بسيناء وأسرت عددا من أطقم الدبابات الإسرائيلية • وخلال معارك هذا اليوم دارت معارك جوية عنيفة بين طائراتنا وطائرات العدو ، دمرنا له خلالها ٩ طائرات وأسر ٣ طيارين ، كما تمكنت قواتنا من إسقاط ٧ طائرات معادية منها ٥ طائرات هليكوبتر كانت تحاول إمداد القوات الإسرائيلية فى الدفرسوار .

ويجئ اليوم السابع عشر للقتال ، وتقوم قواتنا بدك تجمعات العدو من الدبابات والمدرعات شرق القناة وفى منطقة الدفرسوار وكبدته خسائر فادحة فى المعـــدات والأفراد ، كما دارت معركة بحرية على الساحل الشمالى أمام بورسعيد ، وأسفرت المعركة عن تدمير ٣ قطع بحرية للعدو وإصابة طائرتين هليكوبتر له ، وانسحبت باقى الوحدات المعادية شرقاً .

ويصدر قرار بإيقاف إطلاق النار من مجلس الأمن الدولى .

وخلال يوم ٢٣ أكتوبر ، انفجر الموقف على الجبهة فى قتال عنيف بعد ساعات من وقف إطلاق النار بعد محاولة قوات العدو فى الدفرسوار التحرك لخطوط جديدة غرب القناة ، وتكبد العدو خلال القتال خسائر كبيرة فى الدبابات والعربات والأفراد كما دمر له سبع طائرات .

ومع الساعات الأولى من يوم القتال التاسع عشر حاول العدو أن يقطع الطرق المؤدية إلى مدينة السويس ، وحاولت قوات العدو اقتحام المدينة .. وتدور على مشارف المدينة أشرس وأعنف المعارك ويفشل العدو فى اقتحام المدينة ويتكبد المزيد من الخسائر ، حيث دمر له ١٣ دبابة و ٨ طائرات ميراج .

ويجئ يوم الخامس والعشرين — يوم القتال العشرون — ويحاول العدو من جديد اقتحام مدينة السويس ويمنى بفشل ذريع فى مواجهة المقاومة المستميتة من قواتنا بالمدينة يدعمها الأهالى . ويدمر للعدو ١١ دبابة ويحاول العدو اقتحام المدينة للمرة الثانية وتدمر له ٨ دبابات أخرى .

وقد كان لرجال المهندسين المصريين دور عظيم فى معارك التحرير الكبرى . عبروا مع موجات العبور الأولى ، حيث قاموا بتأمين مرور رجال الموجة الأولى من حقول الألغام ، كما قاموا بفتح الثغرات فى الساتر الترابى ، ثم تجهيز الأرصفة للمعديات والكبارى .

وخلال ساعتين من انطلاقة الشرارة ، كان حجم قوات المهندسين العسكريين التى عبرت القناة ، والتى اندفعت فوق سطح الساتر الترابى وفوق صفحة مياه القناة ، كان قد تجاوز خمسة عشر ألف مقاتل .

وباستخدام طلمبات المياه المصرية الصنع — مدافع المياه — قام الرجال بفتح الثغرات فى الساتر الترابى على طول المواجهة ، بينما اندفعت مئات العربات المحملة بمعدات الكبارى واللنشات إلى سطح القناة لإقامة جسور العبور ،

وبدأت الكبارى تقام أمام الثغرات التى فتحت فى الساتر الترابى . وخلال ساعات كان قد أقيم عشرة كبارى ثقيلة وعشرة أخرى خفيفة للمشاة ، وعدد كبير من المعديات . مما أتاح لدباباتنا ومعداتنا وأسلحتنا الثقيلة أن تعبر القناة وتصل رؤوس الكبارى فى وقت مناسب .

وركز العدو نيرانه على الكبارى فى محاولة مستميتة لمنع تدفق قواتنا الرئيسية وأصيبت معظم الكبارى أكثر من خمس مرات ، وكانت إرادة الرجال أكبر من أى تحد . حيث كان يتم إصلاح الكبارى أثناء القصف المعادى عليها ، ولم يتعطل كوبرى واحد طوال فترة العبور .

ولم يقتصر دور المهندسين العسكريين على إنشاء المعديات والكبارى . بل قاموا ببذل مجهود ضخم فى الاستيلاء على رؤوس الكبارى وتعزيزها ، وذلك بالتعاون مع باقى الأسلحة المشتركة فى صد هجمات العدو المدرعة برص الألغام فى مواجهة العدو ولحصر مناوراته وإيقاف تحركاته . كما عبرت إلى رؤوس الكبارى مئات القطع من المعدات الهندسية المتنوعة لتعاون القوات الرئيسية فى تجهيز مواقعها بحفر خنادق ومواقع الدبابات والمدفعية ويكفى قوات المهندسين فخراً أنها استطاعت أن تقوم بزرع مليون لغم مضاد للدبابات خلال حرب أكتوبر – رمضان .

وقد انفجر البركان بعد صمت الغليان حيث انطلقت ١٠٠,٠٠٠ قذيفة فى أكبر حشد للتمهيد النيرانى فى الشرق الأوسط وبحجم ٢ مليون كيلو جرام من المتفجرات بمعدل ١٧٥ طلقة فى الثانية وعشرة آلاف وخمسمائة طلقة فى الدقيقة . إنه البركان الذى ثار بعد صمت طويل .

لقد نفذ التمهيد النيرانى كما خطط له تماماً ، وكانت نتائجه أكثر مما كان متوقعاً . وأوقع بالعدو الإسرائيلى خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات ، ودمر جميع تحصيناته الميدانية وهدم قلاعه وحصونه القوية فى خط بارليف ، وأصبحت النقط القوية مقابر لمن فيها .

ومع بداية عبور الموجات الأولى للاقتحام انطلقت الصواريخ التكتيكية تشق عنان السماء لتصيب أهدافها فى عمق سيناء وتحيلها إلى دمار .

ومع توالى الموجات الأخرى للعبور ، استمرت المدفعية تدك تحصينات العدو فى خط بارليف ، وتضرب إحتياطياته وتسكت مدفعياته تماماً .

ونجحت المدفعية المصرية فى إسكات مدفعية العدو ، وشل جميع احتياطاته القوية حتى انه لم يتمكن احتياطى واحـــد منها أن يتحرك لمنع عبور قواتنا ، كما لم تتمكن دبابة معادية واحدة من صعود الساتر الترابى واحتلال المصاطب المجهزة به لوقت العبور ، كما لم يتمكن مدفع معاد واحد من التدخل فى عملية العبور إلا بعد ساعة من اقتحام القناة .

وتابعت المدفعية إطلاق نيرانها الكثيفة والمركزة على النقط القوية والقلاع المعادية حتى وصلت قواتنا المكلفة باقتحامها لمسافة ٢٠٠ متر فقط منها ، حيث قامت قواتنا باقتحامها وتدميرها أو حصارها .

واستمرت نيران المدفعية تزحف أمام قواتنا التى تابعت توسيع رؤوس الكبارى بفضل رجال الملاحظة الذين عبروا مع الموجات الأولى للاقتحام ، وكذا رجال ملاحظة المدفعية الذين كانوا يعملون خلف خطوط العدو . وبذلك أمكن لنيران المدفعية المصرية أن تصل إلى عمق العدو فى الوقت والمكان المناسبين .

[] كذلك استطاعت الصواريخ أرض-أرض والتى وجهت إلى مراكز القيادة والسيطرة الرئيسية للعدو على المحور الشمالى والمحور الأوسط والمحور الجنوبى وضد مركز الإعاقة والشوشرة الرئيسى الموجود فى أم خشيبة ، استطاعت هذه الصواريخ أن تدمر هذه المواقع تدميراً شاملا مما أربك العدو وأجبره على نقل مراكز القيادة والسيطرة بعيداً إلى العمق فى العريش .

وكان على المشاة التى عبرت ضمن الموجات الأولى للاقتحام أن تقاتل الدبابات المعادية بمفردها لبضع ساعات حتى تصل دباباتها وأسلحتها الثقيلة .. وهنا جاء دور رجال المدفعية المضادة للدبابات الذين عبروا مع المشاة فى اللحظات الأولى لاقتحام القناة .

وكانت الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات التى أعدتها المدفعية لتدمير مدرعات العدو إحدى المفاجآت الكبرى فى حرب التحرير الكبرى .. وكان الرجال من خلفها بمهارتهم وتدريبهم العالى وروحهم المعنوية العالية وتصميمهم وثباتهم أكثر من مفاجأة مؤثرة خلال مراحل الحرب .

وبتنسيق كامل بين هذه الصواريخ والمدفعيات الثقيلة أمكن تدمير جميع دبابات العدو التى كانت متمركزة بالقرب من القناة أو فى العمق القريب خلال الساعات الأولى للقتال ..

وكان لتخطيط وإدارة أعمال المدفعية طوال أيام القتال فضل كبير فى إسكات بطاريات مدفعيات العدو وحرمانها من الحشد أو التأثير على قواتنــا .

فى البر والبحــــر :

منذ اللحظات الأولى لحرب التحرير ، كانت غابة الصواريخ قد بدأت تهتز بعنف وكأن اعصارا قد اجتاحها .

وكما توقع الرجال امتدت الذراع الطويلة لإسرائيل فى ثقة تحاول سحق القوات القائمة بالعبور .. وبدأت أروع سيمفونية بين الأرض والسماء .. وانطلق الرجال يعزفون على صواريخ سام ٢ ، سام ٣ ، سام ٦ ، سام ٧ .

وعندما غربت شمس اليوم الأول للقتال كانت اسرائيل قد هاجمت قواتنا بعدد ٤٤٦ طلعة طائرة ، فشلت تماماً فى أن تحقق أهدافها .. وكانت بداية النهاية لبتر ذراع اسرائيل الطويلة ..

وتحول ليل الجبهة إلى نهار ، وهاجمت اسرائيل بـ ٢٦٢ طائرة أخرى ، وبدأت طائراتها تتهاوى محترقة ليزداد وهج السماء خلال تلك الليلة العظيمة .

ومع صباح السابع من أكتوبر زادت الهجمات الجوية المعادية وتصدت لها غابة الصواريخ لإحباط جميع محاولاتها لمنع تدفق القوات عبر الكبارى إلى سيناء وتمر الدقائق والساعات ، ولا تجد اسرائيل أمامها إلا زيادة كثافة الهجمات الجوية ، ويدرك الطيارون الإسرائيليون استحالة اختراق هذه الغابة الرهيبة فراحوا يتخلصون من حمولاتهم المدمرة على المسافات التى تكفل الأمن لهم والأمان لنا ..

ونجح العبور ، وبدأت قواتنا تعزز مواقعها .. والطائرات الإسرائيلية تحاول التدخل ، ولكنها تدفع الثمن غاليــا .

وتصدر القيادة الاسرائيلية فى اليوم الأول للحرب أمراً مشدداً إلى طياريها بعدم الاقتراب من قناة السويس لمسافة تقل عن خمسة عشر كيلومترا ، وكان ذلك بعد ساعتين فقط من بدء القتال .

وتراوح متوسط ما يفقدة العدو يوميا من الطائرات التى تهاجم قواتنا شرق القناة ما بين ٤-٦ طائرات ، وبدأ العدو يعيد حساباته :

وحققت قوات الدفاع الجوى غطاء جوياً صلداً ، حيث قاتلت قواتنا البرية فى حماة فحققت المعجزة .

وبدأ العدو يتجه إلى مطاراتنا ، مع مضاعفة عدد الطائرات القائمة بالهجوم ، وأصبح يهاجم المطار بعدد ما بين ١٦ — ٢٤ طائرة مع مهاجمة مواقع الرادار لفتح ثغرات فى الحقل الرادارى ، ومنى العدو بفشل ذريع ، وظلت القواعد الجوية والمطارات تعمل بكفاءة طوال أيام القتال ، ولم تصب أية طائرة وهى على الأرض .

مطار واحد فقط استطاعت الطائرات الإسرائيلية اغلاقه لمدة تزيد على ثلاث ساعات ودفعت الثمن باهظا : حيث دمرت لها خلال الهجوم اثنتا عشرة طائرة .

وكان هذا المطار هو الوحيد الذى لم يكن يدافع عنه بالصواريخ ولكن بوحدة مدفعية مضادة للطائرات .

وهكذا لم تستطع الطائرات الاسرائيلية أن تحقق شيئا فى جبهة القتال . . فقواتنا عبرت بنجاح ، والجيشان الثانى والثالث قد عززا مواقعهما فى سيناء

وخلال مراحل القتال المختلفة تزايد سقوط الطائرات الإسرائيلية بنيران الصواريخ والمدفعيات المضادة للطائرات . وذراع إسرائيل الطويلة مشلولة مغلولة أمام دفاعنا الجوى المنيع . .

وبدأ طيران العدو يتجه إلى مواقع أخرى الهدف منها هو تحقيق بعض الثقةالمفقودة فى طيرانه .

واتجه إلى بور سعيد حيث يتواجد بقطاعها أربع بطاريات للصواريخ فقط . . وبدأت المواجهة الشرسة . . الصواريخ تنطلق إلى أعلى والطائرات الإسرائيلية تهاوى إلى أسفل . . إحدى المواجهات تهاجم العدو بـ ٩٤ طائرة . . والثمن تدمير ١٢ طائرة معادية وتتكرر المحاولة فى اليوم الثانى بعد أن أيقنت إسرائيل أن الساحة أصبحت خالية لعربدتها ويرتفع الثمن إلى ٢١ طائرة إسرائيلية احترقت فى سماء بور سعيد الباسلة .

ويصرح قادة العسكرية الإسرائيلية « أن الدفاع الجوى المصرى يتمتع بكفاءة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب ، تفوق تلك التى واجهها الأمريكيون فى فيتنام » .

وخلال معارك اكتوبر — رمضان — استطاعت قوات دفاعنا الجوى أن تبتر ذراع إسرائيل الطويلة من جذورها وأن تسجل حدثاً فريداً فى تاريخ الحروب العالمية .

فى هدوء وصمت كانت تحركات وحداتنا البحرية ، وفى تنسيق رائع تأخذ مواقعها القتالية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط قبل ساعة الصفر يوم السادس من أكتوبر ، وعندما انطلقت الشرارة وطوال أيام القتال أثبتوا للعالم أنهم كانوا وما زالوا وسيبقون سادة البحار .

منذ اللحظات الأولى للقتال انطلقت قواتنا البحرية من مدمرات وغواصات ولنشات صواريخ وطوربيد ووحدات صاعقة بحرية وضفادع بشرية انطلقوا من خلال تنسيق وتخطيط دقيق يكيلون للعدو الضربات الموجعة .

وخلال الساعات الأولى للقتال قامت بطاريات المدفعية الساحلية فى بورسعيد بقصف قلعة العدو الحصينة فى بور فؤاد ، والحصن المنيع عند الكيلو ١٠ جنوب بور فؤاد ، كما قام سرب من اللنشات الصاروخية المسلحة بصواريخ غير موجهة بإنزال ضربة مركزة على تجمعات العدو فى رمانة على المحور الشمالى ، وقام تشكيل آخر بمهاجمة مرسى العدو فى رأس برون على البحر المتوسط . .

وفى البحر الأحمر قامت وحدات المدفعية الساحلية بمعاونة قوات الجيش الثالث وقصفت مواقع العدو فى مواجهتها ، وقام سرب من لنشات الصواريخ بقصف أهداف العدو فى شرم الشيخ . . فى نفس الوقت الذى وجهت فيه ضربة صاروخية ضد منطقة رأس سدر واندلعت الحرائق والانفجارات فى مواقع العدو على سواحل البحرين الأبيض والأحمر .

وفى البحر الأحمر أيضاً استطاعت المدمرات والغواصات منذ اللحظات الأولى للقتال إغلاق باب المندب ، وفرض حصار بحرى على أى سفن متجهة إلى إسرائيل :

ودارت العديد من المعارك بين لنشاتنا الصاروخية وبين اللنشات الصاروخية للعدو . . وكانت أول مواجهة بحرية فى التاريخ البحرى بالصواريخ الموجهة بحر – بحر ليلة ٨ – ٩ اكتوبر ، وبفضل طول مدى صواريخنا عن صواريخ العدو ، ودقة أجهزة الصواريخ وأجهزة الاكتشاف ، فاجأت صواريخنا العدو وهو ما زال متخذاً تشكيل الإبحار ، وأطلق التشكيل المصرى صواريخه الموجهة فأصابت أهدافها بدقة متناهية وما هى إلا لحظات معدودة حتى كانت أربع قطع من تشكيل العدو تهاوى إلى القاع . .

أيضاً كانت هناك معركة بحرية فريدة ليلة ١٥ – ١٦ أكتوبر ، حيث اشتبك سرب من لنشاتنا الصاروخية مع أربع قطع بحرية للعدو أمام أبى قير ، ودمرنا للعدو لنشين ، وأصيب الثالث ، وشحط أمام رشيد حيث قامت طائراتنا بمهاجمته مع فجر يوم ١٦ أكتوبر لتجهز عليه تماماً . .

وخلال فترة العمليات أغرقت غواصاتنا فى البحر الأبيض المتوسط سفينتين الأولى حمولة ٤٦ ألف طن والأخرى حمولة ألفى طن : :

وكانت عمليات قواتنا البحرية لقطع مواصلات العدو البحرية مؤثرة للغاية ، فمن بين ٢٠٠ سفينة كانت تدخل موانئ إسرائيل من البحر المتوسط شهرياً انخفض العدد فيما بين ٦ – ٣٠ اكتوبر ليصبح ٢٣ سفينة فقط . . أما فى البحر الأحمر فكان الحصار كاملا . . اذ لم تترك سفينة إسرائيلية واحدة تخرج أو تدخل ميناء إيلات طوال الحرب . .

وقامت الصاعقة البحرية بغارة على مرسى بلاعيم ليلة ٧ – ٨ اكتوبر حيث نسفت حفار البترول المتمركز فيها .

وفى ليلة ٩ – ١٠ أغارت فصيلة من الصاعقة البحرية على منطقة أبو درية على خليج السويس ، وقامت بتلغيم مفارق الطرق ، ونسفت مستودعات البترول – الموجودة فى المنطقة .

وفى ليلة ١٥ – ١٦ تمت عملية إغارة ناجحة بوساطة الصاعقة البحرية على منطقة الشيخ بيتان جنوب الطور .

وحاول العدو دون جدوى أن يغير بوحدات من الكوماندوز على قواعدنا البحرية ، واستطاعت قواتنا أن تدمر له فى الغردقة قارباً بطاقمه من الضفادع البشرية شرق جزيرة جيفتون بالبحر الأحمر صباح يوم ١٢ أكتوبر ، كما دمرنا للعدو لنشاً مسلحاً وعدداً من قوارب المطاط المحملة بالكوماندوز عندما حاول الإغارة على مرسى السادات والأدبية .

وفى ليلة ١٦ ــ ١٧ حاول العدو الإغارة بوساطة الضفادع البشرية على قاعدة بور سعيد ، وكان رجالنا له بالمرصاد حيث أغرقوا له أحد القوارب ودمروا مجموعة الضفادع البشرية وانتشال جثث أفرادها . .

ولو قدمنا كشف حساب لقواتنا البحرية فى حرب أكتوبر ــ رمضان ، فسنجد انها خاضت أربع معارك رئيسية بالصواريخ البحرية ، وقصفت اثنى عشر هدفا ساحليا معادياً ، وأغرقت خمس سفن ، منها ناقلتا بترول ، وصدت بنجاح تسع هجمات بحرية للعدو ضد سواحلنا ، ونفذت أربع عمليات خاصة . . وبتفصيل أكثر اغرقت بحريتنا للعدو تسعا وعشرين قطعة بحرية من أنواع مختلفة منها سبعة لنشات صواريخ ، وناقلة مجهزة لحمل طائرات الهليكوبتر وناقلة بترول متوسطة وأخرى صغيرة ، وثلاث سفن ، كما أصابت سبع قطع معادية أخرى ، وأسقطت للعدو اثنى عشرة طائرة هليكوبتر .

دروس الحــــرب الرابعــــة ! :

أسفرت حرب التحرير الكبرى عن نتائج مباشرة على الصعيدين العالمى والمحلى . من بين هذه النتائج الجديرة بالذكر :

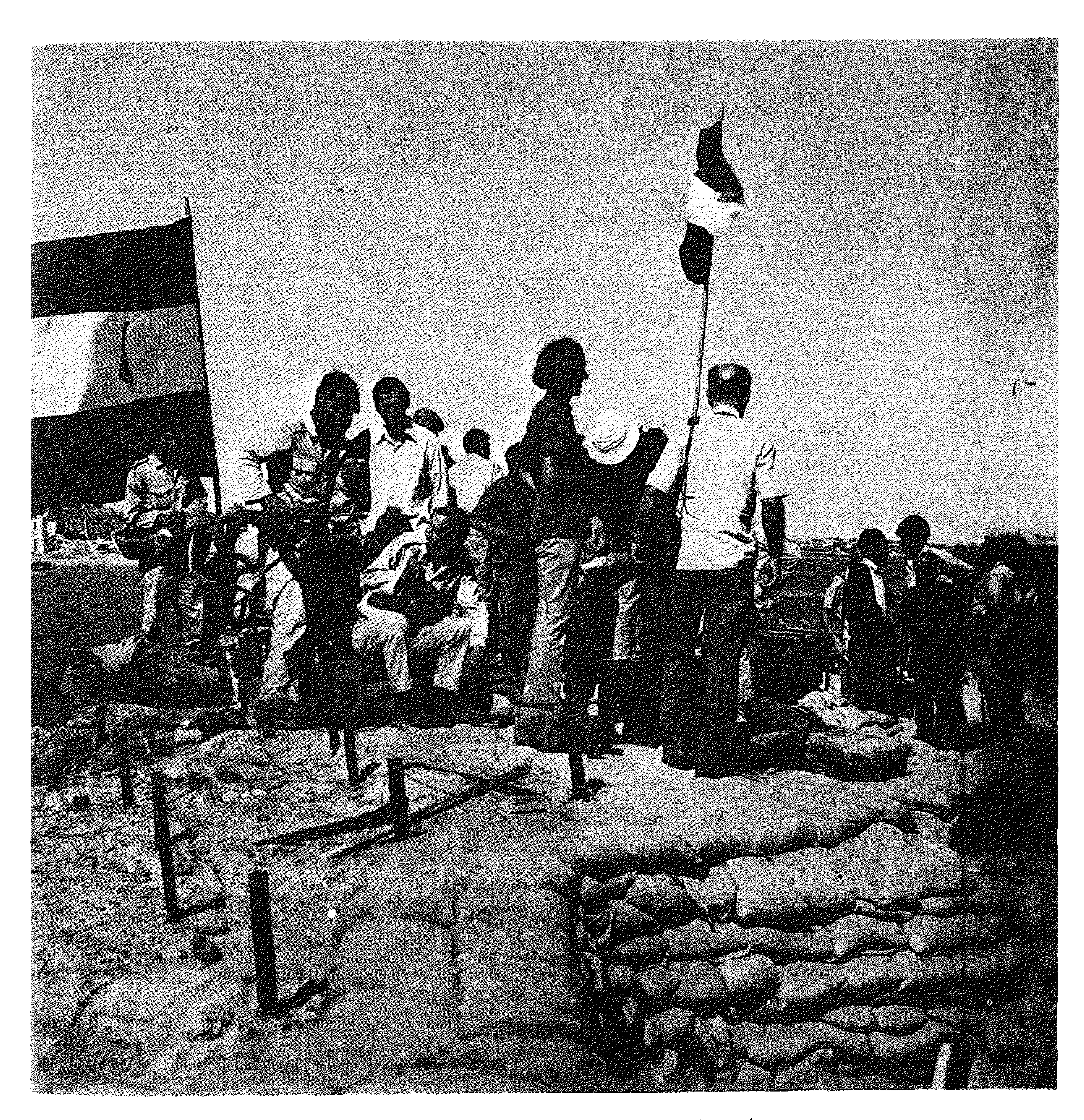
- انقلاب المعايير العسكرية فى العالم شرقـاً وغرباً .
- تغيير الاستراتيجيات العسكرية فى العالم ، والتأثير على مستقبل كثير من الاسلحة والمعدات .
- أعادت حرب اكتوبر إلى المقاتل المصرى والعربى ثقته بنفسه وبقيادته وعدالة قضيته ، كما أعادت للشعب ثقته بدرع الحماية له المتمثل فى قواته المسلحة .
- حققت الوحدة العربية الشـــاملة فى أروع صورها .
- جعلت من العرب قـــوة دولية ــ لهـا ثقلها ووزنهـا .
- صمود الإرادة المصرية والعربية وسقوط الإسطورة الإسرائيلية .



اللواء طيار محمد حسنى مبارك : افتتاحية ناجحة لسيمفونية العبور



نسور الجو المصريين .. الاستعداد للاقلاع



مشهد لاينسى : استسلام النقطة الحصينة بلسان بور توفيق ورفع علم مصر عليها



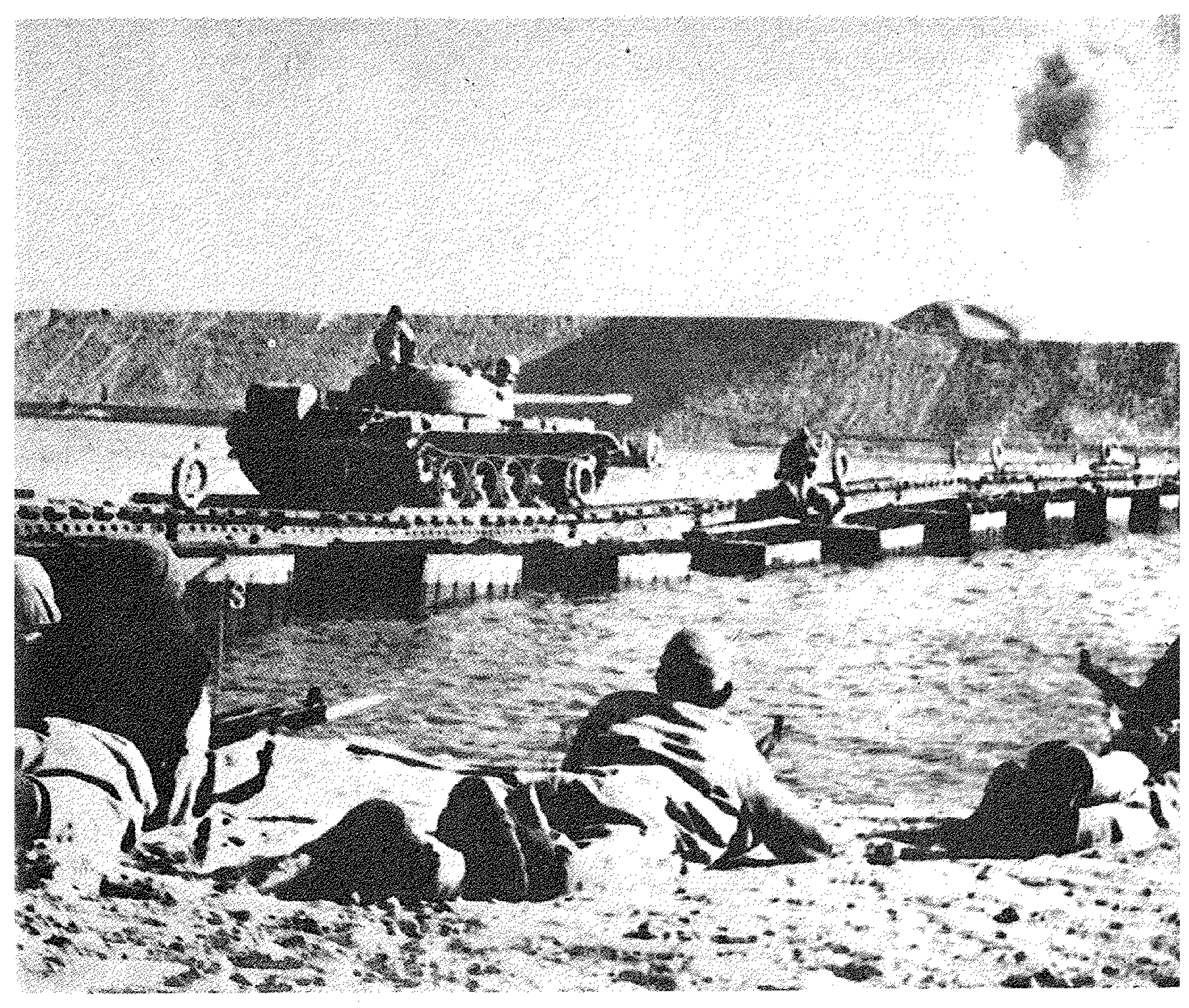
المدرعات .. سلاح الحرب فى الصحراء .. لحظة العبور الى الشرق ..



اللحظات الحاسمة .. أمام خط بارليف .



القوات المصرية الخاصة .. العمل خلف خطوط العدو !



الحرب للتحرير ... التحرك الى سيناء ..

جنود المشاة يحملون أسلحتهم ويصعدون الساتر الترابى العالى .. خط بارليف ..



جنود المشاة لحظة العبور العظيم — يسرعون بالقوارب الى خط الماء



فرحة الانتصـــار ..



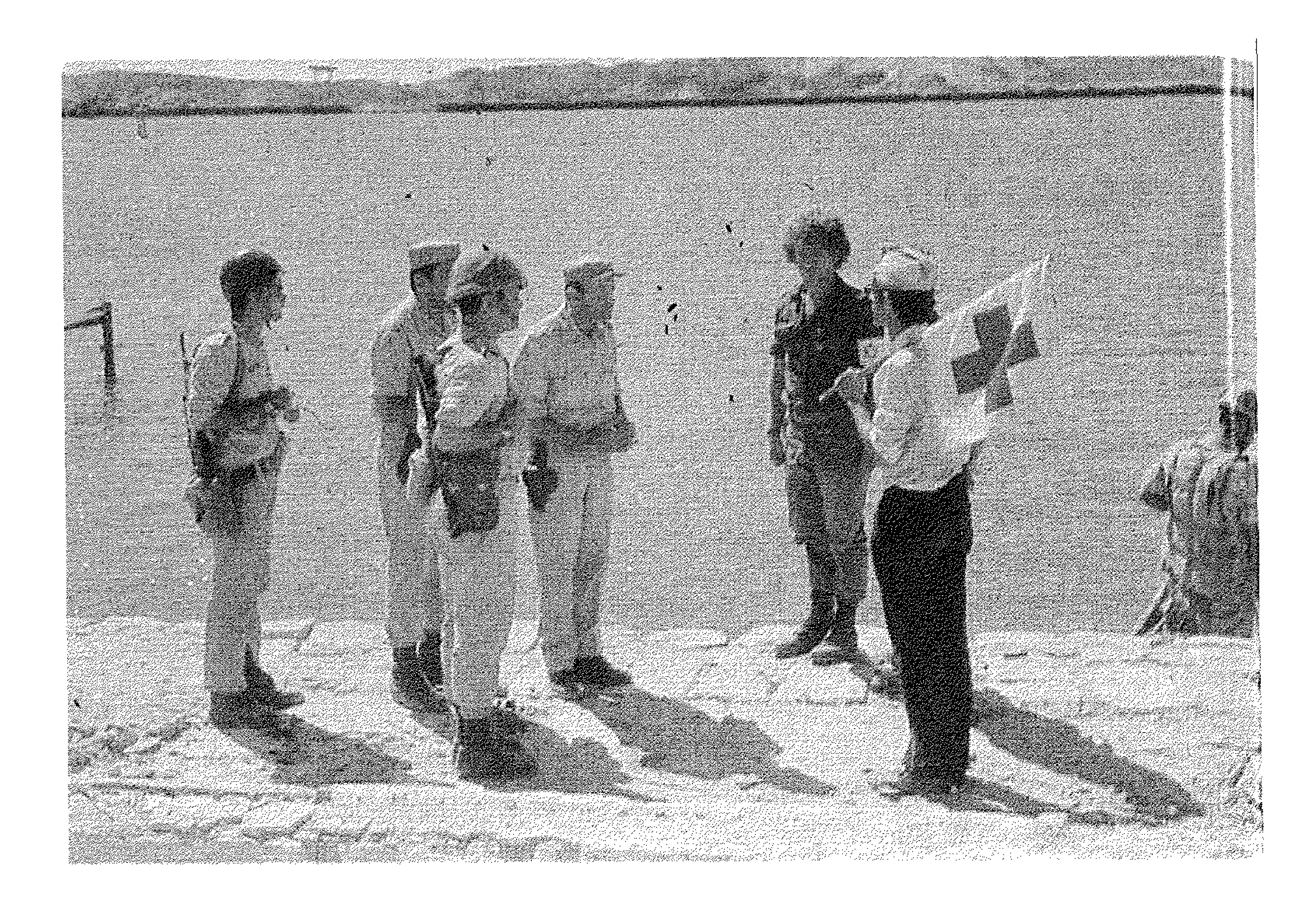
الجندى المصرى يسيطر على خط بارليف



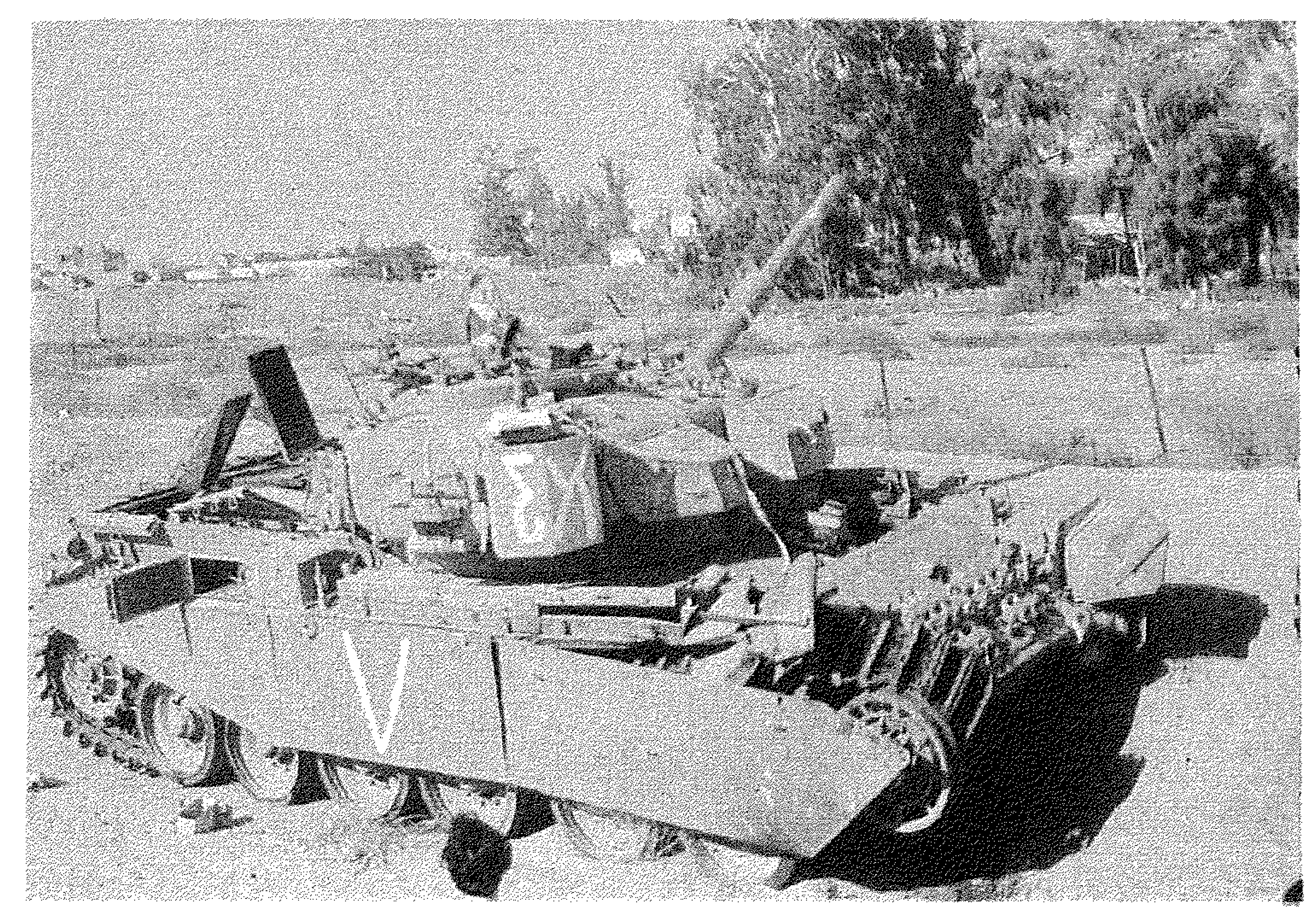
عبور قناة السويس بقوارب المطاط



المدفعية تدك خط بارليف



تســليم موقع اسرائيلى



حطام احدى دبابات اسرائيل بالقنطرة



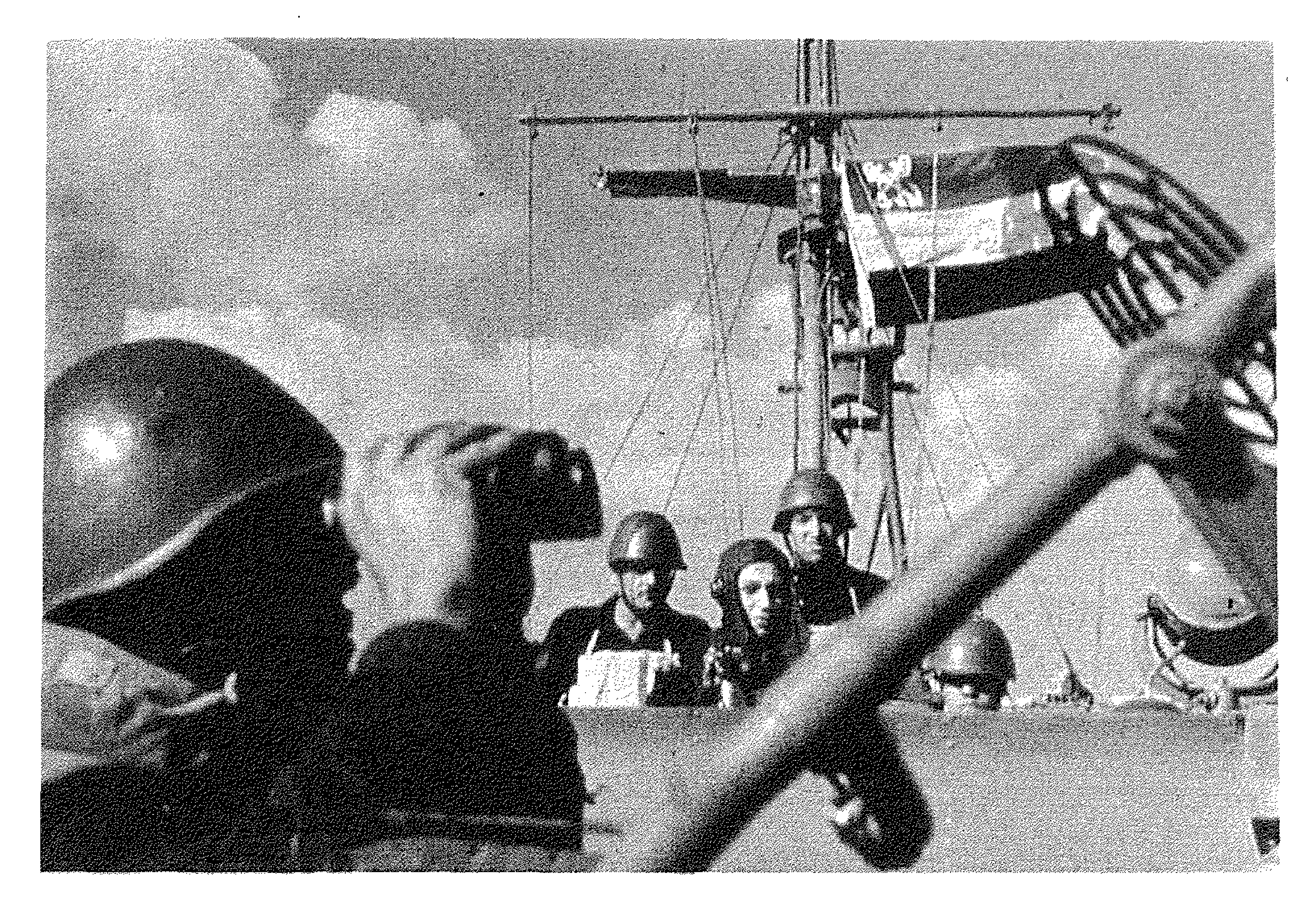
مجموعة من الأسرى الاسرائيليين



العلم المصرى على رئاسة موقع اسرائيلى

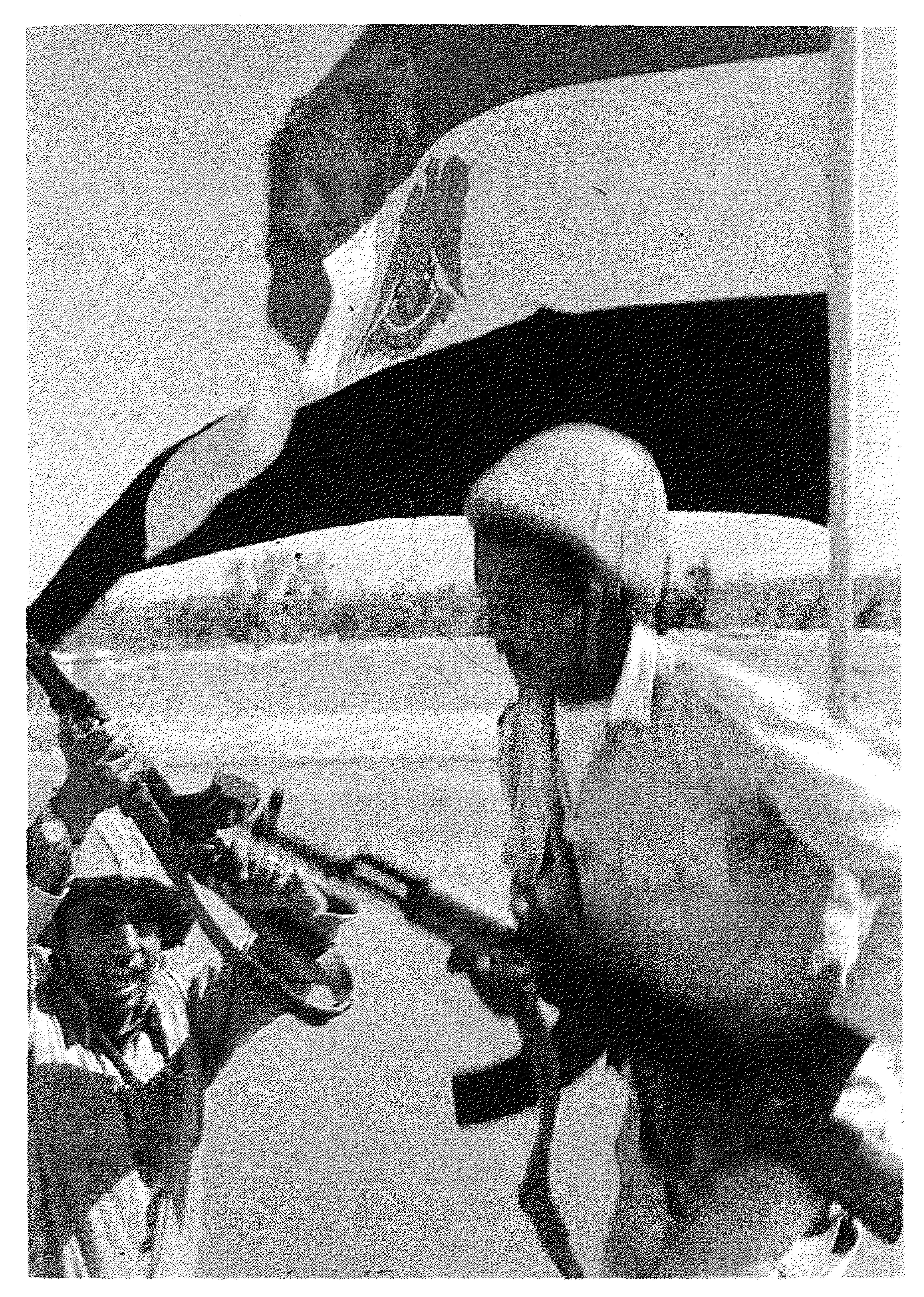


حطام احدى الطائرات الاسرائيلية



البحرية المصرية تشارك فى المعركة





وارتفع علم مصر على ارض سيناء

فهـــــرس

الصفحة

الباب الأول

الجيش المصرى الفرعونى

الباب الثانى

مصر الإسلامية

الباب الثالث

معارك الجيش المصرى فى الشام

الصفحة

البـاب الرابع

الجيش المصرى يحرز الانتصارات فى المكسيك

البـاب الخامس

معارك الثورة العرابيـــة

البـاب السادس

الجولات العربية الإسرائيلية المسلحة

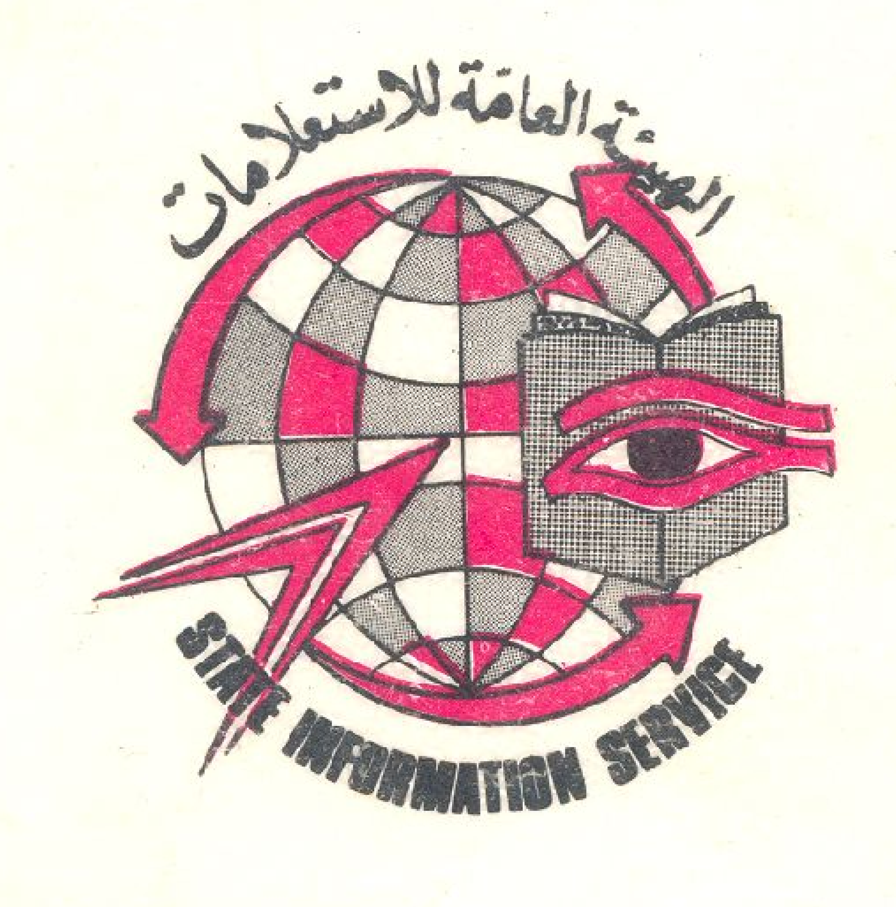
(١٩٤٨ — ١٩٧٣)



القـــاهرة ١٩٨٤

اشراف فنى : عزت الليثى
ماكيت : نبيـل صـــابر

مطابع الأهـــرام التجارية



مطابع الأهرام التجارية